يوزع مجانا ولا يباع

السيرة النبوية
من خلال الخطب المنبرية
دروس وفوائد وعبر

أول كتاب يعالج فقه السيرة النبوية من خلال المنبر

جمع وتأليف

عبد الله (ابن الطاهر) التناني السوسي

تخريج وتعليق

الفقيه محمد مستقيم البعقيلي السوسي

طبع بمناسبة الذكرى العشرين

لبناء مسجد الإمام البخاري بمدينة أكادير جنوب المغرب

وعلى نفقة محسن صدقة جارية على والديه

المطلوب ممن استفاد من الكتاب الدعاء لوالدي المؤلف والمنفق بالعفو والرحمة والمغفرة

السيرة النبوية
من خلال الخطب المنبرية
دروس وفوائد وعبر

أول كتاب يعالج فقه السيرة النبوية من خلال المنبر

جمع وتأليف
عبد الله (ابن الطاهر) التناني السوسي

تخريج وتعليق
الفقيه محمد مستقيم البعقيلي السوسي

طبع بمناسبة الذكرى العشرين
لبناء مسجد الإمام البخاري بمدينة أكادير جنوب المغرب
وعلى نفقة محسن صدقة جارية على والديه
المطلوب ممن استفاد من الكتاب الدعاء لوالدي المؤلف والمنفق
بالعفو والرحمة والمغفرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الـــكتـــاب: السيرة النبوية من خلال الخطب المنبرية
تأليــــــف : عبد الله بن الطاهر التناني السوسي
التصفـــيف: المؤلف
نـــشــــــر: المؤلف
تخريج وتعليق: محمد مستقيم البعقيلي
الطـــبــعـــة: الأولى 1433هـــ 2012م

البريد الإلكتروني: **bentahar1960@gmail.com**
المطبـــعــــــة: النجاح الجديدة – الدار البيضاء.
الإيـــــــــداع: القانوني رقم 1908 MO 2012
ردمــــــــك: 978-9954-0-2531-4

الإهــداء

- إلى روح والدي المحسن الذي تفـضل بطبـع هـذا الكتـاب صـدقة جاريـة ينتفعان بها إلى يوم القيامة.
- إلى رواد مسجد الإمام البخاري بمدينة أكادير الذين اعتـادوا الحـضور كـل جمعة للاستفادة والإفادة، للاستماع والإمتاع.
- إلى كل خطيب وواعظ ينافح ويكافح من أجل صلاح هذه الأمة.
- إلى كل ملقِّن لهذا الشرع، وكل متلقٍّ لهذه الشريعة.

أهدي هذه الباقة المتواضعة من الخطب المنبرية في الـسيرة النبويـة، انتقيتهـا مـن حوالي ألف خطبة ألقيتها من منبر مسجد الإمام البخاري بمدينة أكادير على مدى عشرين سنة.

سائلا الله عز وجل أن يتقبلها في ميزان حسناتنا جميعا، آمين آمين آمين

سندي في حديث «إنما الأعمال بالنيات»

ولا بد لأي عمل في نطاق الشريعة أن يكون له سند؛ فالسند من الدين لولاه "لقال من شاء ما شاء"[1]، وهو عملية علمية خاصة بهذه الأمة، لا بد من إحيائها والاعتناء بها والمحافظة عليها، حتى نكون تلاميذ الصدور لا تلاميذ السطور، وفي هذا الإطار أسوق هنا سندي في حديث «إنما الأعمال بالنيات» جريا على سنة العلماء في بداية كتبهم بهذا الحديث النبوي الشريف.

أقول: أنا العبد الضعيف أروي حديث «إنما الأعمال بالنيات» بالإجازة والتلقي

1. عن شيخي سيدي الفقيه العلامة مُحمد بن امَحمد بن عبد الله التفكختي التناني المعروف بالصغير(ت1419هـ 1998م) إملاء وقراءة مرارا وتكرارا بمدرسة "الـمـا" للتعليم العتيق ما بين (1399هـ 1979م) و(1404هـ 1984م).
2. عن الفقيه أحمد بن علي الكشطي بالإجازة والتلقي(ت1374هـ 1954م).
3. عن أبي عبد الله محمد بن محمَد الووكَنتي التناني إجازة (ت1373هـ1953م).
4. عن الشيخ محمد بن الحسن بن محمد أجازه في29 ربيع الأخير عام 1340هـ.
5. عن شيخه بمراكش أبي عبد الله محمد بن إبراهيم السباعي(ت 1332هـ).
6. عن حافظ المغرب مولاي عبد الصادق بن هشام العلوي (ت1279هـ).
7. عن العلامة سيدي أحمد المرنيسي المتوفى فجأة بعد صلاة العصر 1277هـ.
8. عن شيخ الجماعة أبي العباس القاضي سيدي أحمد بن التاودي.
9. عن والده محمد التاودي بن سودة المري أبي عبد الله (ت1209هـ1797م).
10. عن امَحمد –فتحا– بن قاسم جسوس أبي عبد الله (د1109ت1182هـ).
11. عن عمه سيدي عبد السلام بن أحمد بن علي جسوس (ت1121هـ 1709).
12. عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي أبي عبد الله (د1042ت1116هـ).
13. عن والده عبد القادر بن علي بن يوسف أبي السعود (د1007ت1091هـ).
14. عن عم والده سيدي عبد الرحمن بن يوسف أبي زيد الفاسي(ت1087هـ).
15. عن محمد بن قاسم أبي عبد الله القيسي المعروف بالقصار محدث المغرب الغرناطي الأصل الفاسي الدار (ت1013هـ 1604م) المدفون بمراكش بقبة القاضي عياض.

---

(1) أخرجه مسلم من كلام عبد الله بن المبارك في صحيحه: 1/ 12، المقدمة، باب في أن الإسناد من الدين.

16. عن سيدي رضوان بن عبد الله أبي النعيم الجنوي محدث فاس (ت 991هـ).
17. عن الإمام الرحالة سيدي عبد الرحمن بن علي بن أحمد أبي زيد العاصمي المعروف بـ"سُقّيْن" بضم السين وتشديد القاف المفتوحة. راوية المغرب الأقصى (ت 956هـ)(1).
18. عن الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن على الشهير بابن غازي المكناسي المولد الفاسي الدار (ولد سنة 858 وقيل: 841، وتوفي 919).
19. عن أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السراج. (كان على قيد الحياة سنة 876هـ وهي السنة التي أجاز فيها ابن غازي(2).
20. عن أبيه أبي القاسم محمد بن يحيى.
21. عن جده مسند المغرب أبي زكريا يحيى بن أحمد السراج الفاسي (ت805هـ)(3).
22. عن أبي العباس أحمد القباب الفاسي(ت 779هـ 1377م).
23. عن يحيى بن محمد بن عمر بن رُشيد المتوفى بالطاعون بفاس سنة 750هـ.
24. عن أبيه أبي عبد الله محمد بن عمر بن رُشيد السبتي(ت 721هـ) قال:
25. قرأت على أبي غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلاوي(ت690هـ) قال:
26. أخبرنا المعمر أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر(ت607هـ) سماعا عليه قال:
27. أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن الحُصَيْن الشيباني(ت525هـ) إملاء وقراءة عليه وأنا أسمع قال:
28. أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزاز(ت440) قال:
29. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدويه البزاز(ت354هـ) قال:
30. حدثنا أبو محمد عبد الله بن روح المدايني المعروف بعبدوس(ت277هـ) وأبو بكر محمد بن ربح بن سليمان البزاز(ت283هـ) قالا:
31. حدثنا يزيد بن هارون(د118 ت206هـ) قال:
32. حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري(ت143هـ).
33. عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي(ت120هـ).

---

(1) أخذ سقين في رحلته عن تلامذة ابن حجر كزكرياء الأنصاري، والسخاوي والقلقشندي والسنباطي، فاجتمع لديه إلي سنده هذا سند ابن حجر، فجمع بين سند المغاربة وسند المشارقة وأصبح عمدة الإسناد في المغرب. انظر: فهرس الفهارس للكتاني: 1/ 245، وفهارس علماء المغرب، د عبد الله التغرتي، ص: 536.
(2) نيل الابتهاج للتمبكتي، ص: 553.
(3) يروي السراج عن القباب من الأسانيد كل ما لابن رُشيد الآتي كما في فهارس الكتاني: 1/ 444.

34. أنه سمع علقمة ابن وقاص يقول:

35. سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر يقول:

36. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية وإنما لامرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

مقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فهذه باقة من الخطب المنبرية أقدمها للقراء بعد إلحاح منهم وطول انتظار، وهي خطب لها حظها من الأهمية كما سنرى.

أهمية الكتاب

وأهمية خطب هذا الكتاب تتجلى فيما يلي:

أولا : لأنها خطب تتناول سيرة النبيﷺ، وهي سيرة متميزة عن كل سيرة، فهي محفوظة ومسجلة في القلوب والأعمال، مروية ومخلدة للأزمان والأجيال، محفوظة في كتاب الله تعالى المنزل، وفي كتب الحديث المبجل، وفي كتب الشمائل والدلائل، وفي كتب السيرة التي اعتنت بها خاصة، وفي كتب التاريخ عامة، محفوظة من ألفها إلى يائها، من المولد إلى الوفاة؛ ففي السيرة كيف ولد؟ ومتى ولد؟ ومن أرضعه واحتضنه؟ وما ذا عمل في طفولته وشبابه؟ وما ذا صنع في كهولته؟ قبل البعثة وبعد البعثة، قبل الهجرة وبعد الهجرة،كل ذلك تحكيه لنا سيرة المصطفىﷺ.

لقد اتصلت حلقاتها، وصحت أسانيدها، لا يوجد هذا لأي نبي من الأنبياء، ولا لأي عظيم من العظماء، وليس في هذه السيرة العطرة خط أحمر، أو دائرة حمراء، فيقال هذا لا يروى، أو هذا خاص لا يقال للناس؛ بل حياته كلها ملك لأتباعه، ومدروسة لأمته، لقد سلط الصحابة الأضواء الكاشفة عليها، فنقلوها إلينا كلها، حتى ما كان عادة وعرفا منها. علاقته بربه، علاقته بنفسه، علاقته بزوجته، علاقته بأولاده وأحفاده، علاقته بأعدائه، سلمه إذا سالم، حربه إذا حارب، صلحه إذا صالح، كيف يأكل ويشرب؟ كيف يلبس ويركب؟ كيف ينام ويتقلب؟ كيف يستيقظ ويرغب؟ كيف يتصل بزوجته ويلعب؟ كيف يعمل ويكد ويتعب؟ كيف يعبد الله ويراقب؟

وفوق هذا كله فسيرة المصطفىﷺ تعد بمنزلة المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم؛ بل هي بمنزلة المذكرة التطبيقية للقرآن، أو قل إن شئت: هي القرآن العملي، وقد قالت عائشة -رضي الله عنها-: «كان خلقه القرآن»[1]. ورغم ذلك فقد جهلنا من

---

(1) صحيح مسلم: 1/ 512، كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

هذه السيرة العطرة الكثير، قد جهلنا من هذا القرآن العملي الكثير، والدليل على ذلك هو لو وجهنا السؤال عن غزوة ذات الرقاع مثلا، أو غزوة بني المصطلق اليوم إلى المثقفين، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، فكيف بالناس العاديين؟ رغم أن الأمة المسلمة، تملك اليوم وسائل الإعلام المتطورة، ومواقع في الأقمار الصناعية، ولكن مع الأسف الشديد، لا تنشر في غالب الأحيان إلا وسائل الهدم، ومعاول التخريب، ضد أخلاق هذه السيرة العطرة في مجتمعنا، بأفلام تجارية رخيصة، لا تناجي إلا الجنس، ولا يهمها إلا دغدغة الشهوات والنزوات.

وليس سليما أن تخلو الخطب المنبرية من مواضع تتناول هذه السيرة إلا في المناسبات.

ثانيا: لأنها خطب الجمعة؛ وخطبة الجمعة مجلة إسلامية أسسها الرسولﷺ لينشد فيها المسلم الحلول لمشاكله، تستعرض واقعه، وتعرض مجتمعه على ميزان شرع الله سبحانه، فتعالج الأحداث التي يعيشها طيلة الأسبوع، فتبين له الفضائل ليتحلى بها، والرذائل ليتخلى عنها. وهي الخطبة التي لا تصح صلاة الجمعة إلا بها، والتي تعد من خصائص الإسلام، والتي تجدد الإيمان في قلوب المؤمنين كلما ران عليها ما كانوا يكسبون، والتي تدل دلالة واضحة على أن الإسلام ليس طقوسا وعبادات؛ بل عبادات ومعاملات، إنها لم تشرع لتبين للناس كيف يعبدون وكفى؛ بل لتصلح مجتمعهم من براثين الفسق وأدران المنكر.

وعملية الإصلاح لا يمكن أن تحقق إلا بالسيرة النبوية.

ثالثا: لأنها خطب ألقيت في اللقاء بين المؤمنين يوم الجمعة، ولا شك أن أي لقاء بين المسلمين هو لقاح القلوب والنفوس بمادة الإيمان، وهذا اللقاح لا يتفاعل إلا عن طريق التوعية والإرشاد، ولهذا شرع الإسلام الخطبة في لقاءات المؤمنين الشرعية: في اللقاء الأسبوعي لأهل الحي يوم الجمعة، وفي اللقاء الدوري لأهل المدينة في عيدي الفطر والأضحى، وفي اللقاء السنوي للأمة كلها في عرفات الله.

وهذه الخطب كان لها حظها من التلاقح والتفاعل مع المجتمع، يدل على ذلك رسائل تأتني ممن أعرفه وممن لا أعرفه؛ فمنهم من يشكر ويمدح، ومنهم من ينتقد ويقدح، ومنهم من يسب ويجرح، وكل ذلك أمر مهم، ما من كتاب إلا وكان ذلك الهدف الأولَ الذي يرمي لتحقيقه، وقليل ما هم، وأنا أقول اليوم جوابا لكل تلك الرسائل: شكر الله من شكر ومدح، وجزى الله من انتقد وقدح، وعفر الله لمن سب وجرح.

وتلاقح الإيمان لا يمكن أن يتحقق إلا بالسيرة النبوية.

رابعا: لأنها باقة من الخطب منتقاة ومختارة من حوالي ألف خطبة ألقيتها في مسجد الإمام البخاري على مدى عشرين سنة، تحمل في طياتها شيئا من الإبداع، كما تحارب الكثير من البدع، فبالإبداع ومحاربة البدع تحيى هذه الأمة وتنتعش.

أما الإبداع فيكمن في كونها -أول كتاب حسب علمي- يعالج فقه السيرة النبوية من خلال المنبر، فمؤلفات الخطب المنبرية كثيرة، وموسوعاتها وفيرة، ولكن الإبداع فيها قليل، والاجترار فيها كثير، والتأليف الخالي من الإبداع هو ابتداع، والخالي من الابتكار هو منكر، فالابتكار والإبداع هو روح البقاء، فما مات من أبدع، ولا انتهى من ابتكر.

أما محاربة البدع فتتجلى في جعل السيرة النبوية أداة إصلاح لما في المجتمع من بدع الغواية والضلالة، سواء التي تتعلق منها بالعقيدة، والتي تتعلق بالسلوك، وسواء تلك البدع التي غُلِّفت بها -عن جهل- عباداتنا، أو التي أُغرقت فيها -عن قصد- معاملاتنا.

وحتى لا يتسرب إلى الذهن من كلمة "محاربة البدع" أنني من أولئك الذي يدَّعون محاربة البدع، ويتشدقون بها في المحافل والمجامع، ويقصدون بذلك مسائل اختلف فيها العلماء، وتعددت فيها وجهات أنظارهم؛ كلا، فلست منهم في شيء، وليسوا مني في شيء؛ بل إنني أعتبرهم في الحقيقة بدعة هذا العصر؛ بل بدعة كل عصر، إذ لا يكاد عصر يحل بساحة الزمان دون أن يعكر أمثالُهم صفوه، حتى عصر الصحابة، فقد روى مسلم في صحيحه أن أحدهم قال لسعد بن أبي وقاص: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1]؟ فقال سعد: «قد قاتَلْنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة»[2].

فأنا حينما أقول هنا محاربة البدع فإنما أعنى البدع المحرمة، التي لا خلاف بين العلماء في كونها محرمة، من المنكرات المنتشرة من التبرج ومظاهر الزنا، ومشاكل الربا والقمار، وتعاطي الخمور، وغيرها، تلكم هي البدع الواجب محاربتها دون خلاف.

خطتي في الكتاب

أولا: تركت الخطب كما ألقيت في مسجد الإمام البخاري، لم أغير منها إلا ما تبين لي أنه خطأ، ولذلك احتفظت على ما فيها من تكرار.

---

(1) الأنفال: 39.

(2) صحيح مسلم: 1/ 96، كتاب الإيمان/ باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

ثانيا: لم أكلف نفسي تخريج النصوص الواردة فيها؛ راجيا أن يقيض الله تعالى لها من يقوم بذلك، فيكون العمل له[1].

ثالثا: أثبت في بداية كل خطبة تاريخ إلقائها، حتى يتعرف القارئ على الأحداث التي عالجتها، أو تطرقت إليها، أو أشارت إليها.

رابعا: لا أدعي هنا أنني عالجت كل أحداث السيرة؛ بل هناك أحداث صغيرة يصعب أن تكون موضوعا لخطبة، أو لم أوفق في جعلها كذلك، ولكن يكفيني أني قدمت جلها، وما لايدرك كله لا يترك جله أو بعضه.

خامسا: قسمت الكتاب إلى مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة.

التمهيد: فيه مطلبان:

الأول: لمحات من تاريخ مسجد الإمام البخاري خلال عشرين عاما.

الثاني: خطيب مسجد الإمام البخاري في سطور.

الفصل الأول: من الولادة إلى البعثة، ويشتمل على ست خطب.

الفصل الثاني: من البعثة إلى الهجرة، ويشتمل على ست خطب.

الفصل الثالث: من الهجرة إلى غزوة الأحزاب، ويشتمل على ستة عشر خطبة.

الفصل الرابع: من غزوة الأحزاب إلى فتح مكة، ويشتمل على إحدى عشرة خطبة.

الفصل الخامس: من فتح مكة إلى وفاة الرسولﷺ، ويشتمل على سبع خطب.

الفصل السادس: أربع خطب لخصت أحداث السيرة النبوية وقدمتها مختصرة.

الخاتمة: تشتمل على بعض الاستنتاجات التي خرجت بها من خلال الجولات التي قمت بها في رياض هذه الخطب.

هذا فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فسبحان الله. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، طالبا من كل من قرأه، أو اطلع عليه، أو قدم شيئا منه من خلال من منبره ألا ينساني في دعائه بقضاء المرغوب، وطهارة القلوب، وستر العيوب، وغفران الذنوب.

عبد الله بنطاهر
خطيب مسجد الإمام
البخاري ومدير مدرسته
أكادير المغرب

---

(1) قد لبى الله هذا الرجاء قبل طبع الكتاب؛ فقد انبرى للقيام بهذه المهمة العالم الجليل والمحدث الفاضل الشيخ الفقيه محمد مستقيم فأجاد وأفاد حفظه الله.

تمهيد في تاريخ مسجد الإمام البخاري

يشتمل على مطلبين

المطلب الأول: لمحات من تاريخ المسجد في عشرين عاما

اللمحة الأولى: طور البناء

الإنسان حينما يتحدث عن نفسه، أو عن شيء له علاقة به، عادة ما يكون قليل الإنصاف وكثير الإجحاف، يتصيد الحسنات، وقد يدعيها وينتحلها وإن لم يكن صاحبها، ويغفل السيئات، وقد يتبرأ منها وإن كان مقترفها، وقد مر هذا المسجد بأحداث أنا جزء منها في مسيرته على مدى عشرين سنة، وسأحاول أن أكون منصفا قدر الإمكان. وأنا لم أعايش مرحلة البناء من بدايتها، والأحداث التي صاحبتها، ولكن أشير فقط إلى أن عملية البناء قد بدأت في هذا المسجد سنة 1985م تقريبا، على يد جمعية مكونة من الأعضاء الآتية أسماؤهم:

- السيد الحاج إبراهيم الزركضي رئيسا.
- الأستاذ الحاج محمد أترحوت نائبا أول.
- السيد الحاج محمد التازي نائبا ثانيا.
- الأستاذ محمد الصلوح كاتبا.
- السيد إبراهيم بريكول نائبا له.
- السيد الكباسي الحسن أمينا.
- السيد مبارك العسري نائبا له.
- السيد الحسين فايز عضوا.
- السيد بناصر غانم عضوا.
- السيد الحسين مزي عضوا.

وقد بني المسجد كله بمساهمة المحسنين، والذي كانت له حصة الأسد في هذه المساهمة هو المجلس البلدي بحكم أن أحد أعضاء هذه الجمعية هو عضو أيضا في المجلس البلدي، وهو الأستاذ أترحوت محمد.

اللمحة الثانية: بداية العمل

بدأ الناس يصلون فيه الصلوات الخمس في رمضان سنة 1409هـ 1988م، وكان الفقيه الجليل سيدي محمد أبناي هو الذي تولى فيه الإمامة في هذه الفترة، إلى أن تخلى عنها بعد رمضان سنة 1410هـ.

ثم عينت فيه إماما، وكان الفضل في تعييني يرجع -بعد الله تعالى- إلى كل من شيخي العلامة سيدي الحاج محمد الصغير، المتوفى 20 جمادى الأخيرة 1419هـ، 12 أكتوبر 1998م، والعلامة سيدي الحاج الحبيب الأسيكي المتوفى يوم الأحد 14 رجب 1410هـ/ 5 مارس1990م، والعلامة سيدي عبد الله شاكر الكرسيفي رئيس المجلس العلمي لإقليمي تارودانت وأكادير آنذاك المتوفى بالرباط يوم الثلاثاء 10 رمضان 1419هـ/ 29 دجنبر 1998م ، والسيد الحاج إبراهيم فايز المتوفى سنة 2003م، وأخيه السيد الحاج الحسين فايز المتوفى سنة 1994م، والسيد الحاج إبراهيم زركضي المتوفى يوم الأربعاء 12 جمادى الأخيرة 1433هـ/ 4 أبريل 2012م، رحمهم الله جميعا، وأسكنهم فسيح جنانه. وكان الفقيه سيدي الحسن أجلابي هو الذي تولى مهمة الأذان يومها.

بدأت فيه خطبة الجمعة في 22 جمادى الأولى 1410هـ 22/ 12/ 1989م، وهي خطبتي الثانية في حياتي[1]،وكان موضوعها في بناء المساجد.

واستمر المسجد يؤدي دوره تحت إشراف اللجنة المذكورة حتى انتخابات سنة 1413هـ 1992م، فكانت جمعية المسجد ضمن ما نالت منه شظايا تلك الانتخابات فتشتت شملها، وهكذا تفعل السياسة حينما تدخل بالدين تفسده وتخربه؛ ولكن الدين حينما يدخل فيها يصلحها ويهذبها. وحينما استفحل الأمر، ووصل سيل المشاكل بين أعضاء تلك اللجنة زباها تدخلت نظارة الأوقاف والشؤون الإسلامية فتسلمت المسجد، وحررته من شر الانتماءات ليكون للجميع، وذلك في نفس السنة بعد الانتخابات.

ومما له علاقة بهذا المسجد في بداية عمله دار القرآن التي احتضنتها بناياته، وقد لعبت دورا كبيرا عن طريق المحاضرات والندوات، وخصوصا في رمضان، وإن كنت أنسى فلن أنسى تلك الدروس النيرة التي يلقيها أستاذنا الجليل سيدي

(1) أما الأولى فكانت من منبر مسجد قرية تزنتوت بقبيلة إدوتنان أحواز أكادير سنة 1397هـ 1977م، وعمري حينها لم يتجاوز 17 سنة، وبين الخطبتين حاولي 12 سنة.

إبراهيم شكري، والتي يتجمع للاستفادة منها كل مساء الجمعة مآت من الشباب، فجزاه الله خيرا، وأنا يومها في بداية مشواري في الحقل الديني تابعتُ دروسه عن طريق الأشرطة؛ وأسجل هنا للتاريخ: أنه –حفظه الله– قد أطرني تأطيرا جيدا، وأثر في تأثيرا مفيدا، وتأثرت به في العطاء تأثرا حميدا؛ وإن كان كل ذلك غير مباشر؛ نتمنى من أعضاء دار القرآن اليوم أن يعيدوا لها تلك الحيوية المفقودة، حتى يؤدوا لهذا الاسم حقه في نشر تحفيظ القرآن الكريم، وهي المسؤولية الأولى التي ينبغي أن تتطلع بها أي دار للقرآن في أي مكان، ولا يفيد تغيير الاسم إن فقد الرسم.

اللمحة الثالثة: بداية الكتاب القرآني

قد كان يراودني دوما أن أسس في المسجد مدرسة علمية لسببين اثنين:

الأول: لما لوحظ من تناقص عدد حفاظ القرآن الكريم في المغرب، كما تناقص العلماء الحافظون لكتاب الله تعالى، واستفحال هذا التناقص مع مرور الزمن، حتى كان المتخرجون في الجامعات في الدراسات الإسلامية أغلبهم من غير الحفظة، الأمر الذي جعل المغاربة في العقود الأخيرة يتخلون عن التزامهم التاريخي المتمثل في حفظ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

الثاني: الأمل في المساهمة في بعث الدور التاريخي للشعب المغربي في مجال الإحسان التعليمي؛ والتاريخ أثبت أن هذا الشعب حقق في مجال التعليم الإسلامي بشقيه –تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم الشرعية– إنجازات عظيمة، ولا أدل على ذلك من حجم الأوقاف الخاصة بالتعليم بكل أنواعه، وبكل مراحله.

لهذين السببين تحرك من المحسنين من لهم الغيرة على هذا الدين، فساعدوني على تأسيس مدرسة قرآنية تابعة للمسجد، حوالي عام 1418هـ 1998م، وكان عدد التلاميذ في البداية حوالي 20، وفي العطلة الصيفية يصل عددهم 100. ومن بينهم عدد قليل لا يتجاوزن 10 للعلوم الشرعية واللغوية، فنالت في سنة 1425هـ 2004م جائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية.

اللمحة الرابعة: التحول إلى مدرسة الإمام البخاري العتيقة

ثم ما لبث أن تحول كتاب مسجد الإمام البخاري إلى مدرسة الإمام البخاري للتعليم العتيق، سنة 1422 هـ 2001م، فكانت مدرسة عتيقة ثانية في المجال الحضري بمدينة أكادير بعد مدرسة أنزا العتيقة، وبعد ذلك انضم إلى المدرسة السيد إبراهيم أوراشي الذي قام بدور كبير –ولا زال– في مجال تحفيظ القرآن

الكريم، حيث تخرج على يديه العشـرات من حملة القرآن الكريم، وكان يلازمهم ملازمة الظل لشخصه والغريم لغريمه؛ فتخرج منها ثلة من الأئمة ما زالوا يزاولون أعمال الإمامة والخطابة في بعض مساجد مدن المغرب، وخصوصا معقل المدرسة مدينة أكادير.

و في هذه الفترة كان منبر مسجد الإمام البخاري ومحرابه وكرسي دروسه مدرسة عملية تلقى فيه عدد من الطلبة التعليم التطبيقي في طريقة إلقاء الخطب، وإمامة الناس وإلقاء الدروس، يطبقون فيه ما تلقوه من مدرسته من العلوم في بداية مزاولتهم الإمامة والخطابة والوعظ، فإذا كان مختلف الشـركات تمنح فرصة التدريب العملي، أو التعليم التطبيقي (ستاج) للناشئين في تخصصها، فإن منبر مسجد الإمام البخاري كان يومها رهن إشارة الناشئين في ميدان الإمامة والخطابة والوعظ والإرشاد؛ لأن المتعلم لا يمكن أن يطمئن على ما لديه من العلوم إلا إذا عرضها للتطبيق العملي، وعرضها للنقد والتمحيص، والذين تلقوا فيه التداريب العملية فيها هم على نوعين:

النوع الأول: المتفرغون للدراسة فيها وقتا ما أذكر منهم:

- عبد المجيد أواحاج إمام وخطيب مسجد القدس بتمسية بإنزكان.
- إبراهيم الكابـوس إمام وخطيب مسجد الإمام مالك بأكادير.
- عبد الله العلوي الضرير إمام وخطيب مسجد "أُحُـــد" بأكادير.
- أحمد العاصمي إمام وخطيب مسجد الهدى بمدينة الصخيرات الرباط.
- محمد أيت موح إمام وخطيب مسجد الإخلاص بـ"تنجداد" بالراشدية.
- جطو عبد الله إمام وخطيب بدولة الإمارات.
- محمد لاماني إمام وخطيب مسجد الزيتون بتكوين بأكادير.
- علي الجنــدي إمام وخطيب مسجد النجـاح بأكادير.
- محمد تكوبـــة إمام وخطيب مسجد مالك بن أنس بالدراركـــة أكادير.
- ذهاب رشيد إمام مسجد فاس بحي الألفة بالدار البيضاء.
- حسن بلعسري إمام وخطيب مسجد الخير بأيت اعزى مدينة تارودانت.
- زراك محمد إمام وخطيب مسجد أولاد عبوا ومدير مدرسة الإمام مسلم للتعليم العتيق التابعة له، بأولاد برحيل قرب مدينة تارودانت.
- رضوان صابر مدير مدرسة سيدي عياد للتعليم العتيق بأولاد برحيل.
- حسن البواه المشرف على مدرسة عمر بن الخطاب بأولاد برحيل.
- خالد العموري إمام مسجد الفتح بأولاد برحيل.

النوع الثاني: طلبة يجمعون بين التلقي في المدارس العصرية وتتبع حفظ القرآن فيها أذكر منهم:

- أجكان محمد، وهو الآن مرشد تابع لوزارة الأوقاف.
- مصطفى نيروي، وهو الآن أستاذ في الطور الثانوي.
- محمد بدوش، وهو الآن أستاذ في الطور الثانوي.
- عبد الحق الكواني، وهو الآن إمام بمسجد بدولة ألمانيا.

وإنصافا للتاريخ أسجل هنا أن هناك علماء وأساتذة قدموا الخير الكثير من علمهم لطلبة هذه المدرسة في بدايتها، أذكر منهم:

- سيدي محمد زنداك إمام مسجد القدس بأكادير آنذاك.
- سيدي إد سعيد الحسن إمام مسجد عمر بن الخطاب بأكادير آنذاك.
- سيدي إبراهيم أقداح إمام مسجد عمر بن عبد العزيز بأكادير آنذاك.
- سيدي محمد باسكو إمام مسجد سيدي الحبيب البوشواري بأكادير حاليا.

واليوم -ولله الحمد- مدرسة الإمام البخاري للتعليم العتيق، استمرت على سكتها تؤدي دورها بفضل الله تعالى وهي تحتضن 83 طالبا وطالبة، وتخضع لنظام وزارة الأوقاف تحت قانون (01-13)، وإذا كان لكل شيء قلب فإن قلب أية مؤسسة هو إدارتها والذي له الفضل في إدارة هذه المدرسة هو الأستاذ يوسف أسندال الذي تولى الحراسة العامة، فعمل بجد واجتهاد ونظام وانتظام، فهو قلبها النابض لا يكل ولا يمل، يعمل بيده وعقله وشعوره يحب عمله ويخلص في إنجازه.

أما طاقم التدريس فيتكون سنة 2011- 1012م من كل من:

1) عبد ربه عبدالله بنطاهر مديرا.
2) ذ. يوسف أسندال حارسا عاما.
3) إبراهيم أوراشي مدرسا ومحفظا.
4) عبد الحفيظ مخلص مدرسا ومحفظا.
5) ذ. محمد أوصحفي مدرسا.
6) ذ. رشيد اللوب مدرسا.
7) ذ. الحسين شكور مدرسا.
8) ذ. مولود الحنفي مدرسا.
9) ذ. الطيب الشطاب مدرسا.
10) محسن محمد الحبيب مدرسا.
11) منى الزيتوني مدرسة.
12) غزلان هبون مدرسة.
13) لطيفة رافعي مدرسة.

اللمحة الخامسة: دورس الوعظ والإرشاد

أما نظام دروس الوعظ والإرشاد في هذا المسجد فقد كان -قبل تجهيزه بالتلفزيون الواعظ- حسب الأيام والشهور على شكل هرم: تبدأ بقاعدة واسعة جميع أيام الأسبوع وتنتهي بيومين في الأسبوع كما يلي:

1) شهر رمضان تلقى الدروس بين العشائين يوميا وتتناول مواضع مختلفة من الفقه والحديث والتفسير والسيرة.

2) شهر شوال وذي القعدة تلقى الدروس بين العشائين خمسة أيام في الأسبوع: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، وتتناول موضوع توعية الحجاج بالصور الثابتة والمتحركة وبالمجسمات لأماكن المشاعر مستخدما الحاسوب بالشاشة الكبيرة (داتشو).

3) شهر محرم تلقى الدروس بين العشائين أربعة أيام في الأسبوع: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، وتتناول موضوع الزكاة: فقها وحديثا وتفسيرا.

4) شهر ربيع الأول وربيع الأخير تلقى الدروس بين العشائين ثلاثة أيام في الأسبوع: السبت والأحد والاثنين، وتتناول موضوع السيرة النبوية وفقهها.

5) أما باقي السنة – صفر، جمادى الأولى، جمادى الأخيرة، رجب، شعبان- فتلقى الدروس بين العشائين يومين في الأسبوع: السبت فقه العبادات، الأحد فقه المعاملات.

ولما تم تجهيز المسجد بالتلفزيون الواعظ ليقوم بهذا الدور سنة 2006م اقتصـرتُ في الوعظ والإرشاد على ثلاثة أمور: الدروس في رمضان، دروس الحج، بعض المناسبات التاريخية والطارئة.

اللمحة السادسة: أوليات

أسجل هنا للتاريخ أن هذا المسجد قد سجل أوليات على مستوى الجهة يقينا، وعلى مستوى المغرب حسب ظني، منها:

1) كان أول مسجد تقدم فيه دروس الحج عن طريق المجسمات في مدينة أكادير، حيث أخذتها من مدرسة "ألـمـا" العتيقة على يدي شيخي وأستاذي وسندي وسيدي العلامة الحاج محمد الصغير التناني رحمه الله تعالى، فطورتها بمساعدة الفنان في النجارة السيد صوباحي مولاي الحسن، حتى أصبحت تغطي جميع مواقع المشاعر في مكة المكرمة، ومواقع المزارات في المدينة المنورة، وقد استفاد

منها الحجاج كثيرا ولا زالوا، ومنه امتد العمل بها إلى جل المساجد في أكادير، ومنها إلى مساجد بعض المناطق والمدن أخرى.

2) كان أول مسجد تقدم فيه دروس الحج عن طريق الحاسوب والشاشة الكبيرة (الداتشو)، ومنه امتد العمل به إلى بعض المساجد في مدينة أكادير أيضا ومنها إلى مساجد بعض المناطق والمدن أخرى.

3) كان أول مسجد تقدم فيه دروس محاربة التدخين والسيدا عن طريق الصور والشاشة أيضا.

4) كان من المساجد التي سجلت الرقم القياسي في المساهمة في بناء المساجد الأخرى، وخطبه شاهدة على ذلك؛ حيث قدم من منبره على مدى عشرين سنة أزيد من ألف خطبة أكثر من ثلثها يحمل دعوة الناس للمساهمة في بناء المساجد، والحث على التعاون مع الجمعيات المكلفة بها في أسلوب شيق وحافز، وجد آذانا صاغية وقلوبا واعية، وأعمالا وافية.

5) أول مسجد في مدينة أكادير الحديثة يسجل تاريخه ويكتب، وتنشر الخطب التي ألقيت من منبره، وهو ما يهدف إليه هذا الكتاب.

المطلب الثاني: ترجمة خطيب مسجد الإمام البخاري

بقلم الأستاذ محند إيهوم بن علي التناني بعنوان:

"الفقيه الباحث عبد الله بنطاهر التناني السوسي"

1) نشأته وتعلمه:

يعتبر الفقيه الباحث عبد الله بن محمد بنطاهر التناني السوسي من أهم الشخصيات التي لها وزنٌ كبير في الساحة العلمية والفقهية بسوس، خدم العلم وأهله بالتعليم والخطابة والكتابة والإرشاد، وترك بصمات واضحة على صفحات سجل علماء منطقته، وقدم بذلك خدمات جُلَى للعلم وأهله، ولبلده وأمته.

ففي قرية صغيرة بـ "ألـمـا" تسمي "إِيغْزْرْ إِيْمْدَّاحْنْ" التابعة لقبيلة "إفسفاسن" بـ "إدوتنان" أكادير جنوب المغرب ولد يوم الأربعاء 9 ذي الحجة 1379 هـ الموافق 24/ ماي/ 1960 للميلاد.

وبها نشأ وترعرع وأمضى أيام طفولته، وفي مسجدها بدأ حياته العلمية -شأن أغلب أطفال قريته- فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وبدأ حفظ القرآن الكريم على يد إمام مسجد تلك القرية -آنذاك- والذي يدعى: "أحمد الأساوي" .

بعد ذلك انتقل إلى مدينة أكادير فاستأنف حفظ القرآن الكريم على يد صهره فيما بعد الفقيه المجد "عبد الله بن محمد الكابوس" التناني، وذلك في أحد مساجد حي "البطوار" بأكادير فبقي لديه مدة.

إثرها رحل إلى قرية "تازْنْتُوت" بـ"إداوتنان" وحط رحاله عند المقرئ الفقيه محمد الأنجعافي التناني لاستكمال حفظ القرآن الكريم.

وبعد ذلك تاقت همته إلى خوض غمار العلوم والمعارف، فشد الرحال سنة 1400هـ الموافق 1980م إلى معلمة التربية والتعليم، ومنارة العلم والعرفان بـ"إداوتنان": "مدرسة ألـمـا العلمية العتيقة"

وخلال مقامه بالمدرسة درس جل أمهات المتون والفنون العلمية التي تدرس بالمدرسة العلمية الألموية، كالنحو، والصـرف، والفقه، والميراث، والتوحيد، والحساب، والعروض، والمنطق، والتوقيت، والبيان، ومصطلح الحديث، بالإضافة إلى التفسير، والأدب، والتاريخ، وأصول الفقه.

وفي مدة وجيزة حاز من تلك الفنون معظمها، وظهر نبوغه، وتفوقه على أقرانه من الطلبة، وصار من أبرزهم على العموم، فاهتم به شيخه وأولاه كامل العناية، وهو عنده بين تلامذته في الصف الأول، ولذلك اختاره سنة 1403هـ الموافق 1982م ليكون مساعدا له في مهمته التعليمية.

وخلال مقامه بتلك المدرسة شارك بجد في كل العلوم والفنون المدرسة، وتناقل فيها بين الأخذ والعطاء، والتلقي والتلقين، حتى حصلت له درجة مغبوطة بوأته مكانا مرموقا في أوساط زملائه الطلبة، فكان مرجعهم في حل العوائص وتوضيح ما يعسر على الأفهام.

فنالت دروسُه إعجاب الفقيه والطلبة على السواء، لكونه أضفى عليها أسلوبا عصريا ومنهجية متطورة.

2) **شيوخه**:

- أخذ جل ما لديه عن الفقيه الشيخ محمد بن محند التناني المعروف بالصغير (المتوفى 20 جمادى الأخيرة 1419هـ، 12 أكتوبر 1998م) وهو آنذاك في أوج عطائه وفي قمة جده واجتهاده، فدرس عليه جميع الفنون التي تدرس بالعتيقة، مختصراتها ومطولاتها، فأكب لديه على دراسة العلوم الشرعية واللغوية مدة 9 سنوات، أي من عام 1980 إلى غاية 1989؛ فعلى يديه تصلب عوده وتمرست أخلاقه، إذ هو بالنسبة له المعلم المربي، والأب الروحي، والموجه الوجيه.
- الفقيه الحسين أحدارف التناني تلميذ الأول المتوفى 24 ربيع الأول 1419هـ 19 يوليوز 1998م؛ وعن شيخه هذا قال:

"أعلن أمام التاريخ ـ وعَبَراتي تسبق عِبارتي ـ أن سيدي العلامة أحدارف الحسين –رحمه الله تعالى– هو أول أستاذ تأثرت به في دراستي، فعلى يديه تفتحت أزهار الفنون والعلوم أمام بصيرتي، وبأجوبته المقنعة عرفت الطريق الذي أسلكه اليوم وأنا مرفوع الرأس، وعلى مسار دروسه المتميزة واصلت اليوم في العلوم الشرعية واللغوية السير بالسرى، وعلى ضوء توجهاته النيرة أستنير في هذا العصر الذي بمشاكله وتر الأعصاب وحير الألباب، فعلى يديه درست الأدب العربي وألفية ابن مالك، وعلم المنطق، وعلم الأصول، وعلم البلاغة وعلوم الحديث، وعلم الميراث، ما بين سنة 1400هـ 1980م وبين 1403هـ 1982م.

ما زلت أتخيل وقفته، واستشعر اندفاعه وسيل الكلمات من فمه والأفكار من فهمه وهو يشرح ويوضح أصعب الأبواب في علم المنطق، وعلم أصول الفقه، وعلم الميراث، فما توضحت أمامي أشكال القياس المنطقي وأضربه لأول مرة إلا

بتوضيحه المتميز، وما استوعبتُ المناسب الملائم في علة القياس الأصولي لأول مرة إلا بشرحه المتفنن. ولا أخفيكم سرا إن قلت بأنني أتذكر توجيهاته كلما خضت غمار البحث والتنقيب في بطون الكتب، وكلما أبحرت على أمواج التدريس والتأليف، وكأن شيئا بداخلي يذكرني به -رحمه الله تعالى- كلما استعصتْ عليَّ مسألة، وصعب فهمها وإدراك عمقها، وكأني بي ألتمس نجدته كما كنت أفعل وأنا طالب مبتدئ في مدرسة ألـمـا العتيقة، أغترف من معين علمه الفياض"[1]

➢ الفقيه المحدث الشيخ أبو محمد عمر بن محمد الفلاني الشهير بفلاته، ينتهي نسبه إلى عقبة بن نافع فاتح أفريقيا، المدرس بالمسجد النبوي الشريف ما يقارب 49 سنة، المتوفى يوم الأربعاء 29/ 11/ 1419 هـ في مدينة المـصطفىﷺ رزقنا الله وإياه شفاعته عن عمر يناهز أربعة وسبعين عاماً، وصلى عليه في المسجد النبوي بعد صلاة العصر ودفن بالبقيع؛ أخذ عنه في الروضة الشريفة بداية "سنن أبي داوود" في الفترات التي يتردد فيها على الحرمين حاجا ومعتمرا وزائرا، فأجازه بإجازة علمية.

➢ المدرس بالمسجد الحرام بمكة المكرمة الشيخ محمد بن علي ابن آدم بن موسى مؤلف كتاب شرح النسائي، -حفظ الله- روى عنه صحيح البخاري وأجازه بأسانيده في بيته بمكة أثناء موسم حج 1425هـ[2].

3) **وظائفه:**

➢ في سنة 1410 الموافق لـ 1989 تخرج من مدرسة "ألـمـا" منتقلا إلى مسجد الإمام البخاري بأكادير فتسلم زمام تسييره، لينشر به ما تعلمه من شيوخه، فعين به إماما وخطيبا ومدرسا إلى اليوم.

وفي هذا المسجد سطع نجمه وتفجرت مواهبه العلمية في الخطابة والإرشاد والكتابة والتعليم، فكانت له فيه دروس ومواعظ قيمة، وله فيه خطب منبرية مفيدة، صاغها صياغة ممتازة، وخطها بأسلوب عميق الأفكار، متناسق العبارات، فصيح اللغة، خال من الحشو والتكرار والاجترار، عبر فيها عن مواقفه وتطلعاته.

وفي تحليلاته يظهر مواطن الداء، ويقترح الحلول ويصف الأدوية الناجعة، يتناول من حين لآخر قضايا ساخنة، ومواضيع معاصرة حساسة، شأن من لا يخشون في الصدع بالحق والجهر بالواقع لومة لائم، مما جعله يصطدم أحيانا مع من لا يرضى أن يسمع تلك القضايا والمواضيع وهي تثار فوق المنبر.

---

(1) من شهادة له بعنوان: "شهادة طالب في أستاذه" نشرتها ضمن ترجمة الفقيه الحسين أحدارف التناني.
(2) انظر مجلة المذهب المالكي العدد 11 ص 186، الصادرة في 11 شتاء 1432هـ/ 1101م

فاستطاع أن يحتل بها مكانة مرموقة في قلوب محبيه وعارفيه، حتى عده الكثيرون الخطيب الناجح المتفوق.

وقد أعجبت -كما أعجب غيري- بأسلوبه المتميز في خطبه ودروسه وكتبه على العموم، يرتب الأفكار ترتيبا رائعا، وينظمها تنظيما محكما، دون تنافر أو خلل أو اضطراب، متحليا بالشجاعة الأدبية في جل ما يكتب أو يقول.

له طريقة في الكتابة تُضفي على انتاجاته مزيدا من الرونق والبهجة، يضيف بها الجديد إلى القديم، في جل كتاباته يفاجئ القارئ والسامع بإبداع متميز، جامعا بين المعاصرة والأصالة، لقد بث في كتاباته الأفكار الإصلاحية وحاول استنهاض الهمم في ميدان التعليم العتيق، ووجه نقدا بناء لقانون التعليم العتيق، ولبعض المفاهيم المغلوطة، وذلك ديدن الكاتب المقتدر، والخطيب الناجح.

كذا كذا فليخطَّ النثرَ من كتبا ... وليبذل النصح للإخوان من خطبا

العقلُ يظهر في شيئين رونقُه ... في النطق إن قال أو في الكتب إن كتبا

- في سنة 1422 هـ الموافق 2002 م أسس بجانب المسجد مدرسة علمية قرآنية عتيقة أطلق عليها: "مدرسة الإمام البخاري" وهي مدرسة ثانية في المجال الحضري بعد مدرسة "أنزا العتيقة" وكان مديرها إلى الآن، وقد أعطت ثمارها في ظرف وجيز، فخرجت من طلبة العلم والقرآن ومن الفقهاء، بعضهم التحق للإمامة والخطابة ببعض المساجد، والبعض التحق بالمدارس العتيقة الأخرى ليستكمل دراسته.

- له باع طويل في فقه المناسك، وخبرة كبيرة ميدانية فيما يتعلق بإرشاد الحجاج، حيث رافق الحجاج مرشدا ومفتيا أزيد من عشرين سنة متتالية، ولذلك أطلق عليه بعض الباحثين لقب: "فقيه المناسك في جنوب المغرب"[1] وهو -حسبما في علمي- أول من جمع بين الدروس النظرية والتطبيقية في مناسك الحج والعمرة بأكادير، وذلك باستعمال المجسمات للمشاعر المقدسة، والصور المختلفة، وجهاز الحاسوب، وآلة العرض الرقمية (داتشو) ولذلك لقيت دروسه تلك استحسانا وإقبالا من طرف عموم الناس، وقلده أئمة آخرون في هذه السنة الحميدة.

- في سنة 1423 ه 2002م اختير من طرف وزارة الأوقاف عضوا في اللجنة الوطنية لوضع مقرر للتعليم العتيق.

---

(1) محمد مستقيم البعقيلي في بحثه: (دليل المرأة، في الحج والعمرة، وفق المذهب المالكي) ص: 178.

➢ في سنة 1424هـ 2003م اختير من طرف وزارة الأوقاف بالمغرب عضوا في لجنة التحكيم لجائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية.

➢ في بداية سنة 1426 هـ الموافق 2006م عين منسقا لفرع المجلس العلمي المحلي بأكادير، وبقي فيه ثلاث سنوات، فكان عضوا فعالا خصوصا في المجال العمل الاجتماعي وساهم فيه بعدة محاضرات علمية، وشارك في مختلف الندوات، وفي الدورات التدريبية لفائدة الأئمة والخطباء، كما له مشاركات في برامج بالإذاعات الوطنية والمحلية.

➢ شارك في تأطير الأئمة ضمن دروس برنامج "ميثاق العلماء" فكان مؤطرا لأئمة المساجد التابعة لجماعة "أمسكروض" بأحواز أكادير.

➢ كان عضوا فعالا في عدد من الجمعيات الخيرية، وخصوصا جمعيات بناء المساجد.

➢ شارك في عدة ندوات وطنية ودولية في المغرب والسعودية والإمارات.

4) آثاره العلمية والفكرية:

وقد أغنى المكتبة السوسية خصوصا والمغربية على سبيل العموم بعدة مؤلفات وأبحاث فقهية وأدبية قيمة، وكان يشتغل منذ مدة في مشروع تأصيل الفقه المالكي بالأدلة الشرعية، فمن هذه المؤلفات النفيسة التي أخرجها للوجود:

1) "الحج في الفقه المالكي وأدلته" وهو كتاب مفيد أسسه على النصوص الشرعية وعلى معرفته بالواقع، وأضاف به جديدا إلى الفقه الإسلامي عموما والمذهب المالكي خاصة، وقدم خدمة جليلة إلى الحجاج والمعتمرين، وهو من سلسلة كتاباته الجيدة في تأصيل الفقه المالكي، وقد قدم لطبعته الأولى د، محمد جميل رئيس المجلس العلمي بأكادير، كما قدم لطبعته الرابعة د، اليزيد الراضي رئيس المجلس العلمي بتارودانت، وقرظه الأديب السوسي عبد الله التتكي بأبيات جميلة يقول فيها:

قسماً لقدْ وفقتَ يا ابن الطاهرِ * وأجدتَ في هذا الكتاب الباهر
زنت الغلافَ بصورة من مكة * بحجيجها، زينَ الربى بأزاهر
تُهديه إكراما له ولما حوى * فالعلم فوق دراهم وجواهرِ
الحج منذ كتبتَ فيه تفتحت * أغلاقه وبدا بلون زاهرِ
أوضحتَ للطلاب غامضَ فقهه * فهُدو إليه وما الخفي كالظاهرِ

يسَّـرتَ للحُجاج طرقَ أدائه * وشهرتَ أقوالا خلتْ من شاهر
وسهرتَ تربطُ أفرعا بأصولها * فيه، وليس نَؤُومنا كالساهرِ
طالعتُه ورأيت ثمرة جهدكم * ومضاءَ عزم للشواغل قاهرِ
فمنحتُ نصحي كلَّ حاج جاهرا * ليس المسـرُّ لنصحه كالجاهرِ:
إقرأ كتاب الحج لابن الطاهر * من قبل حجك للحرام الطاهر
واصحبْ مؤَلفه إلى ذاك الحمى * تسعدْ وتظفرْ بالدليل الماهرِ[1]

ومن مؤلفاته أيضا:

2) مدونة الأسرة في إطار المذهب المالكي "الزواج"

3) مدونة الأسرة في إطار المذهب المالكي "الطلاق"

4) مدونة الأسرة في إطار المذهب المالكي "الولادة"

5) مدونة الأسرة في إطار المذهب المالكي "الأهلية والنيابة الشـرعية"

6) مدونة الأسرة بالمغرب في إطار المذهب المالكي "الوصايا والتنزيل"

وتعتبر هذه الكتب الستة من سلسلة تأصيل فقه الأسرة في المذهب المالكي بالأدلة الشرعية من خلال قانون مدونة الأسرة بالمغرب.

7) فقه الأعيان الطاهرة والنجسة في المذهب المالكي وأدلته.

8) آراء علماء العصر في الإحرام بالطائرة.

9) المنهاج في يوميات الحج

10) حاجة المسلم إلى آداب قضاء الحاجة دينيا وصحيا.

11) دور الشاعر التناني في الأدب العربي السوسي.

12) جمع وتحقيق لفتاوى الشيخ أحمد الكاشطي التناني.

13) تحقيق شرح أرجوزة الهبطي في العدة لابن خجو "منشور بالمجلة"

14) تحقيق شرح الإعلام بحدود قواعد الإسلام لأبي العباس القباب الفاسي بطلب من الرابطة المحمدية رابطة علماء المغرب، وهو الآن تحت الطبع.

15) نفحات من المنبر "موسوعة الخطب المنبرية في عشرين جزءا "مرقون"، من رحمه استخرج هذا الكتاب "فقه السيرة النبوية من خلال المنبر".

وكلها كتب ومؤلفات قيمة ومفيدة، صاغها في قالب جميل ووفق منهج علمي دقيق، فتلقاها منه جمهور القراء والباحثين بالإعجاب والإكبار.

---

(1) انظر ديوان الشاعر: آمال وآلام، ص: 89.

وبتعاون مع الدكتور "محمد أومنو" أسس "مجلة المذهب المالكي" فكان منسقا علميا فيها وقد صدر منها الآن عددها الرابع عشر، وله فيها بحوث فقهية تعالج تراث المذهب المالكي ومستجدات العصر من النوازل الفقهية وغيرها.

وله عدةٌ بحوث وعروض قيمة، ومقالات جيدة في مواضيع مختلفة وبالأخص حول المدارس العتيقة السوسية وقضاياها، وكان لنشاطه العلمي والفقهي صدى واسع في الأوساط العلمية والأدبية بسوس وغيرها.

5) تحليات العلماء له[1]:

➢ حلاه رئيس المجلس العلمي بأكادير سابقا الأستاذ إبراهيم نوراوي بأنه:

«بذل جهودا مشكورة خلال الفترة التي قضاها منسقا في المجلس في سبيل نشر التوعية الدينية والمعرفية والوطنية في مجالات مختلفة، بإلقاء دروس دينية وعلمية وتوجيهية عبر أجهزة وسائل الإعلام السمعي المحلية والجهوية والوطنية، وعلى منابر المساجد، وبتأطير ندوات ومحاضرات وأمسيات قرآنية ومسابقات، كما نظم لقاءات اجتماعية وتواصلية ودينية مختلفة مع المغاربة المهاجرين، ومع أطفال وشباب المخيمات الصيفية، ومع تلاميذ المؤسسات التعليمية، وكان من المؤطرين لدورات تكوين الحجاج باستعمال الوسائل التقنية الحديثة، وللدورات التربيبة لفائدة القيمين الدينيين من أئمة وخطباء، ونشاطه متميز في المجال الاجتماعي مما جعل المجلس العلمي المحلي لأكادير من المجالس التي حققت نتائج عملية في هذا المجال»[2].

---

(1) «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون» فتح الباري: 10/ 478. قال محمد مستقيم: هذا الدعاء مأثور عن كثير من السلف؛ فقد روى البخاري في الأدب المفرد عن عدي بن أرطاة، قال: "كان الرجل من أصحاب النبيﷺ إذا زُكي قال: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون"، الأدب المفرد، ص: 267، ح: 761، ورواه ابن عساكر موقوفا على أبي بكر الصديقرضي الله عنه، ونصه: "كان أبو بكر إذا مُدح قال: اللهم أنت أعلم بي مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون، واغفر لي مالا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون" تاريخ دمشق: 30/ 332.
ورواه البيهقي بسنده عن الوليد بن مزيد البيروتي عن الإمام الأوزاعي ونصه: "سمعت الأوزاعي يقول: اذا أثنى رجل على رجل في وجهه فليقل: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي من الناس، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون" شعب الإيمان: 4/ 227، ح: 4875.ونسبه الغزالي في إحيائه لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه ونصه: "وقال عليرضي الله عنه عنه لما أثني عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون" إحياء علوم الدين: 3/ 161.

(2) من إشهاد له بتاريخ 25 ربيع الأول 1430هـ 23 مارس 2009م، عدد 145.

➢ وحلاه رئيس المجلس العلمي لمدينة تارودانت الدكتور اليزيد الراضي بأنه:

«الفقيه الجليل، العلامة النبيل...، الذي جرد صارم فكره، وامتشق قلمه المطواع البليغ، وجاهد بالتأليف، في مواقع فقهية استراتيجية، زلت فيها الأقدام، وحارت فيها الأقلام، وطاشت فيها الأحلام...، ففتح الأقفال، وأزال الإشكال، وأمد المكتبة العربية والإسلامية بكتب غالية، تنم عن ذوق جميل، وفكر جليل، وخلق نبيل، ونفَس طويل»[1].

➢ وحلاه رئيس المجلس العلمي لمدينة أكادير الدكتور محمد جميل: بأنه:

«يمتاز بمعرفته الجيدة بمواقع المناسك فقها وعملا من خلال التأليف مع كثرة تردده على الديار المقدسة صحبة الحجاج والعمار»[2].

➢ وحلاه الفقيه محمد مستقيم البعقيلي بأنه:

«فقيه المناسك في الجنوب المغربي»[3]. وبأنه: «خَدَمِ الفقهِ المالكي خِدْمَةً جليلة، فأثرى مكتبته بسلسلة من الأبحاث والمؤلفات...، كلُّها تَدُلُّ على علمٍ جم، وفكر ثاقب، وعقل راجح، ورأي رزين، ونظر سديد، ورُؤية واقعية تُجاه النوازل المعاصرة، والمسائل المُسْتَجِدة على الساحة الفقهية بمفهومها الشامل، ومدلولها الواسع العام»[4].

➢ وحلاه الفقيه امحمد أيت بو مهاوت بأنه:

«بذل مجهودا كبيرا في تأصيل الفقه المالكي، وقدم خدمة جليلة للحجاج والمعتمرين والقراء بصفة عامة، وهو يمتاز بموهبة عالية وبمعرفة جيدة بفقه المناسك ومواقعها»[5].

وفقه الله للمزيد من العطاء العلمي والمعرفي، خدمة لدينه ووطنه وأمته آمين.

بقلم: محند إيهوم بن علي التناني
يوم: الاثنين 22/ ربيع الثاني1432هـ
الموافق 28/ 03/ 2011.
Ihoum1@gmail.com

---

(1) تقديم الطبعة الأولى للكتاب "الحج في الفقه المالكي وأدلته" لعبد بن الطاهر.
(2) من تقديم الطبعة الأولى للكتاب "الحج في الفقه المالكي وأدلته" لعبد بن الطاهر.
(3) دليل المرأة في الحج والعمرة وفق المذهب المالكي للفقيه محمد مستقيم، ص: 178.
(4) من تقريظ الطبعة الرابعة لكتاب "الحج في الفقه المالكي وأدلته" لعبد بن الطاهر.
(5) جريدة ميثاق الرابطة العدد 973، شوال 1422هـ يناير 2002م.

الفصل الأول: خطب السيرة بين الولادة والبعثة
وفيه ست خطب

1) الخطبة [1] ذكرى المولد النبوي بين الاحتفاء والاختفاء(1)

الحمد لله الذي أنعم علينا بولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فجعله ملاذا لذوي الحاجة والأرامل والأيتام، وأشهد أن لا إله إلا الله أرسل نبيهﷺ في زمن سادت فيه عبادة الأصنام، وطغت فيه على العقائد الخرافات والأوهام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأنام، الداعي إلى شريعة التوحيد والتوافق وصلة الأرحام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه مادمت الأيام.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته...

ها هو شهر ربيع الأول سيحل بساحتنا بعد أيام، وهو الشهر الثالث من الشهور العربية الإسلامية، وهو شهر تزاحمت فيه الذكريات المتعلقة بالحبيب المصطفىﷺ، وهو شهر يسمى شهر سيرة المصطفىﷺ، ليس لأننا نتذكر فيه ولادته ونقرأ فيه سيرته، فهذا واجب المسلم طيلة السنة كلها؛ بل لأنه شهر يحمل في طياته أحداثا كبرى من السيرة العطرة، لا نعلم منها إلا أسماءها، أما تفاصيلها، والاستفادة منها، والإقتداء بها فقليل من يعلمها.

ففي شهر ربيع الأول ولد الرسولﷺ، وفيه بدأ الوحي بالرؤيا المنامية، وفيه هاجرﷺ من مكة إلى المدينة، وفيه توفيﷺ فالتحق بالرفيق الأعلى؛ إنها منعطفات كبرى في حياتهﷺ: الولادة، والبعثة، والهجرة، والوفاة، وعلاوة على ذلك فقد وقعت فيه أيضا أحداث أخرى، وإن كانت كل أحداث هذه السيرة كبرى، فهي بالنسبة للأربعة السابقة صغرى، ففيه نزلت الآية التي حرمت الخمور، وفيه وقعت غزوة بني النضير، وغزوة دومة الجندل، وغزوة الغابة، وسرية خالد بن الوليد إلى قبيلة بني الحارث المسيحية بنجران فأسلمت عن بكرة أبيها، وفيه توفي إبراهيم ابن النبيﷺ(2).

أيها الإخوة المؤمنون؛ إن الاحتفال بمولد الرسولﷺ قد اختلف فيه الناس قديما وحديثا إلى ثلاث فرق:

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 27 صفر 1431 هـ 12 / 2 / 2010 م.

(2) وقع اضطراب في تعيين شهر وسنة وفاته. انظر فتح الباري: 2/ 529.

1) منهم من يحتفي به عن طريق الرقص والموسيقى والغناء، أو بسرد مولديات محشوة بأساطير وقصص لا أصل لها، وأحاديث موضوعة ومكذوبة على النبيﷺ، وهذا نوع من التفسخ والانحلال.

2) منهم من يعتبر كل ما له علاقة بالمولد النبوي الشريف بدعة يجب أن تختفي وتزول عن المجتمع، وهذا نوع من التشدد والتنطع.

3) منهم المتوسطون الذين يقفون في المولد النبوي بين الاحتفاء والاختفاء؛ لا يَدْعون إلى الاحتفاء به على طريقة الطرف الأول، كما لا يقولون بوجوب اختفائه وإزالته على طريقة الطرف الثاني؛ بل يعتبرونه ذكرى عظيمة، والاحتفال بها أمر مطلوب في كل زمان ومكان، والاجتماع لسيرتهﷺ أمر مشروع في كل الأحيان، وخصوصا إذا كان في شهر ربيع الأول شهر ولادتهﷺ. «وخير الأمور أوساطها»[1]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

عليك بأوساط الأمور فإنها ... نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

فإذا كنا نتذكر ميلادهﷺ مرة في السنة، فإنهﷺ يتذكره ويعظمه كل أسبوع، ويعبر عن ذلك بالصيام، روى الإمام مسلم: أنهﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي»[3].

يا أحبة المصطفىﷺ يجب أن نعلم أن ذكرى المولد النبوي هي وسيلة للدعوة إلى الله، وفرصة مثلى ينبغي ألا تفوت دون تذكير الناس بأخلاق النبيﷺ وآدابه، بحياته وسيرته، بمعاملاته وعباداته، حتى نُحيي في معاملاتنا سنته، وفي قلوبنا محبته.

وسنكتفي اليوم في هذه الخطبة بمناسبة ولادته على ثلاثة دروس مهمة: درس في المعجزات، ودرس في الابتلاءات، ودرس في البشارات

---

(1) رُوي بلفظ "أوسَطُهَا" و "أوْسَاطُها"، ورفعه ضعيف، فقد رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند فيه مجهول عن علي مرفوعا، ورواه البيهقي في سننه عن عمرو بن الحارث الأنصاري المصري مرفوعا بسند منقطع، وأورده الديلمي في مسنده بلا إسناد عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: "...**خير الأعمال أوسطها**..."، ورواه البيهقي في شعبه بسند صحيح موقوفا على التابعي الجليل مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير(ت: 86هـ، أو 95هـ)، ورواه أبو نعيم الإصبهاني في حليته من قول التابعي الجليل أبي قلابة عبد الله بن زيد (ت: 104هـ)، انظر: - الطبقات الكبرى لابن سعد: 7/ 142، - السنن الكبرى للبيهقي: 3/ 273، ح: 5897، - شعب الإيمان له: 5/ 261، ح: 6601، - حلية الأولياء لأبي نعيم: 2/ 286، - مسند الفردوس للديلمي: 2/ 212، ح: 3036، - المقاصد الحسنة للسخاوي، ص: 332، ح: 455، - كشف الخفا للعجلوني: 1/ 174، ح: 1247، سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: 14/ 1163، ح: 7056.

(2) البقرة: 143.

(3) صحيح مسلم: 2/ 820، كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

أما في درس المعجزات فنكتفي بمعجزة حادثة الفيل التي وقعت في العام الذي ولد فيه المصطفى ﷺ؛ حيث أهلك الله تعالى أصحاب الفيل الذين جاءوا بجيش جرار لهدم بيت الله الحرام، يقودهم ملكهم باليمن أبرهة الأشرم بفيله العظيم، فهزموا كل القبائل العربية التي وقفت في طريقهم، ناسين أن للبيت ربا يحميه، ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾[1].

ومن هنا نتعلم أن لله جنودا يسلطها على الظالمين لا تخطر بالبال، فإذا أهلك الله تعالى أصحاب الفيل بطير أبابيل أي جماعات، فقد سلط الله تعالى على العالم في السنوات الأخيرة نفس الجنود الربانية، طيور مهاجرة أبابيل فهددت العالم بما يسمى بوباء "فلونزا الطيور".

فكانت هذه المعجزة إكراما لولادة المصطفى ﷺ، حيث دلت على عظمة الإسلام؛ فهؤلاء العرب الذين انهزموا أمام جيش صاحب الفيل، هم الذين هزموا كل جيوش الأرض آنذاك، بعد ثلاث وستين سنة هي عمر النبي ﷺ، فكانت ولادته ﷺ إنذارا بهلاك كل كافر جبار، كما أكد ذلك التاريخ؛ فكلما تمسك المسلمون بسنته ﷺ فازوا، وكلما ابتعدوا عنها انهزموا، وكلما تحلوا بها انتصروا، وكلما تخلوا عنها اندحروا؛ فهي مقياس النصر والهزيمة في الأمة المسلمة.

أما في درس الابتلاءات فنكتفي بولادة المصطفى ﷺ يتيما، فقد مات أبوه وهو في بطن أمه؛ وذلك عندما تزوج أبوه عبد الله بآمنة بنت وهب سافر في تجارة إلى الشام ولم يعلم بأن زوجته حامل بجنين مبارك سيتغير وجه العالم على يديه، فلما أحست به آمنة في بطنها، بقيت تنتظر عودة زوجها، لتزف له بشراها، ولتخبره بالجنين الذي بدأ يتحرك في أحشائها، ولكن القافلة رجعت بكل رجالها إلا زوجها عبد الله، لقد مرض في الطريق، ومات في المدينة التي سوف تكون يوما منطلق دعوة الجنين الذي خلفه في بطن زوجته.

تصوروا -يا عباد الله- حال آمنة أم النبي ﷺ؛ امرأة في زهرة شبابها، تزوجت بزوج تبادله الود والحب والعطف والحنان، وهي تنتظر رجوعه على شوق أحر من الجمر لتفاجئه بهذا البشرى التي تحمل في أحشائها، إذا بها تفاجأ بموته فيحرق كبدها! هل تحسون بالألم الذي اعتصر قلبها؟ هل تشعرون بالمعاناة التي عانت منها؟ ولكن رغم كل هذا فقد استمرت الحياة، وولد النبي ﷺ ليغير العالم، فمن الذي يستطيع أن يتصور يومئذ أن هذا الجنين الذي سيولد يتيما سيتغير العالم على

(1) الفيل: 3-5.

يديه؟ وهكذا تعلمنا السيرة أن اليأس لا محل له في قلب المؤمن، ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1].

ولم يتوقف أمر اليتم عند هذا الحد؛ بل ماتت أمه وعمره ست سنوات، ثم مات جده وعمره ثمان سنوات، وذلك لفوائد كثيرة:

منها حتى يربيه الله تعالى بشكل عملي على إكرام اليتامى، بتحمله مرارة اليتم بنفسه؛ وما راء كمن سمع، ولهذا جاء في القرآن الكريم، في إطار تأديب الله له على إكرام اليتامى، ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى؟ فأما اليتيم فلا تقهر﴾[2]، فاستجابﷺ لهذا التأديب، فكان خير مدافع عن حقوق اليتامى، يكرمهم ويزيل الأحزان عنهم، ولا أدل على ذلك من قولهﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»[3].

ومنها حتى يكون أسوة للأيتام في كل زمان، ليعلموا أن الابتلاء ليس بنقمة، وأن اليتم لا يكون أبدا حائلا بين الإنسان وبلوغ أعلى المراتب، وتبوء المكانة المرموقة، وقد قالﷺ: «...إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[4].

أما في درس البشارات فنكتفي ببشارة رهبان النصارى وأحبار اليهود بولادة المصطفىﷺ؛ فقد بشرت بهﷺ نصوص التوراة والإنجيل، ولكن الأيادي المغرضة حرفتها، إما بإزالة ما يدل على النبيﷺ منها، وإما بتفسير ضال يحول المعاني عن مقصودها ومرادها، فقد كان الصحابة من أهل المدينة يقولون: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول اللهﷺ منا؛ كان معنا يهود أهل الكتاب، وكنا إذا غلبناهم وانتصرنا عليهم قالوا: إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسولهﷺ اتبعناه وكفروا به، ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[5].

ويوجد اليوم في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء من التوراة رغم تحريفها ما يلي: «وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه،

---

(1) يوسف: 87.

(2) الضحى: 6-9.

(3) رواه البخاري في صحيحه: 5/ 2032، كتاب الطلاق/ باب اللِّعَانِ وَقَوْلِ اللهَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، ولفظه: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرَج بينهما شيئا"، ورواه الترمذي في سننه: 4/ 320، ح: 1318.

(4) حسن، وأوله: "عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما..." رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2396، وابن ماجه في السنن: 2/ 1338، ح: 4031، وأورده الألباني في الصحيحة: 1/ 276، ح: 146.

(5) البقرة: 89.

ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك».

والأناجيل المحرفة اليوم كثيرة منها "إنجيل برنابا" الذي لا زال يحمل في طياته صراحة البشارة بالنبيﷺ ، وبأن اسمه هو "الفارقليط"[1] ومعناه في اللغة السريانية: "الذي له حمد كثير"، وهذا يوافق في اللغة العربية معنى "أحمد" الذي جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2].

ومن هنا نعلم أن النبيﷺ هو الحق الواضح، الذي شهدت به الأعداء، واعترفت به في العالم كل العقلاء، الذين ينشدون في حياتهم العدل والإنصاف، ويرفضون الظلم والإجحاف، فلا يكون من أعدائهﷺ إلا أحد الصنفين اللَذَيْن نقرأهما في الفاتحة كل صلاة "المغضوب عليهم"، أو "الضالين".

فأما المغضوب عليهم فهم من يعرف الحقيقة ويحاربها، وهو الإنسان المعاند الذي يظلم نفسه وقناعته قبل أن يظلم غيره. وهؤلاء هم الذين يتحكمون في العالم اليوم اقتصاديا وإعلاميا؛ فيشوهون الحقائق بالتحريف، ويحاربونها بالتعتيم، فيسوقون شعوبهم لتحقيق مصالح شهواتهم ونزواتهم، على حساب قناعات عقولهم وشعورهم.

أما الضالون فهم الذين يجهلون الحقيقة ثم يحاربونها، وهم الضحية الذين تقدم لهم الحقائق مشوهة فيحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهؤلاء هم الأغلبية الساحقة من الشعوب الضالة التي يقودها صنف المغضوب عليهم إلى متاهات الضلال والغواية، بعيدا عن منارات العدل والهداية. ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾[3].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(1) في تفسير ابن عرفة (1/ 118) قال المازرى: إن اسمه فيها بالعبرانية «واركليط».

(2) الصف: 6.

(3) الفاتحة: 5-7.

الحمد لله رب العالمين....

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

ألا كفى إنكارا لفوائد هذه الذكرى! ألا كفى تنكرا للاستفادة منها! فهي فرصة لملء القلوب والنفوس، لا لملء المعدات والبطون، وهي كذلك فرصة لربط الناس بالسيرة النبوية الصحيحة، لا بالأوهام والأساطير، فحياة المصطفىﷺ ليست في حاجة للرقص والموسيقى والغناء، ليست في حاجة للمدح بالأكاذيب والأساطير، ليست في حاجة للإطراء بما لا أصل له من الخرافات والأوهام، ليست في حاجة لألوان الكذب حتى نقربها من قلوب العوام، فأمامنا شمائله وأخلاقهﷺ قد امتلأ بها القرآن الكريم، ونطقت بها كتب الحديث، وأبرزتها بشكل عملي كتب السيرة.

يا أحبة المصطفىﷺ زَيِّنوا سيرتكم بأخلاق المصطفىﷺ وزِنُوا ما تمدحون به المصطفىﷺ بميزان أهل الحديث، فإن كان صحيحا أو حسنا فلا حرج، وإن كان موضوعا وكذبا فألف حرج وحرج، والرسولﷺ يقول: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[1]. ومهما مدح المادحون فلن يصلوا مدح القرآن له إذ قال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2].

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى[3]

وكل ما فعل المادحون أنهم إنما زينوا كلامهم بصفاته وأخلاقهﷺ كما قال شاعر رسول اللهﷺ حسان بن ثابتﷺ:

ما إن مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد[4]

وكما قال أبو تمام أيضا:

ولم أمدحكْ تفخيما بشعري ولكنِّي مدحتُ بك المديحا[5]

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ

---

(1) صحيح متواتر، - صحيح البخاري: 1/ 434، كتاب الجنائز/ باب ما يكره من النياحة على الميت، - صحيح مسلم: 4/ 2298، كتاب الزهد والرقائق/ باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

(2) القلم: 4.

(3) البيتان ينسبان لعمر ابن الفارض.

(4) صاغ معناه الشاعر السوداني المعاصر د. وافي الحاج ماجد في قصيدة رائعة في مدح النبيﷺ، فقال:

فإذا مدحت محمدا بقصيدتي * فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

(5) شرح ديوان أبي تمام، ص: 74.

2) الخطبة [2] حالة العرب يوم ولد المصطفى ﷺ(1)

الحمد لله الذي أنعم علينا بولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فجعله ملاذا لذوي الحاجة والأرامل والأيتام، وأشهد أن لا إله إلا الله أرسل نبيهﷺ في زمن سادت فيه عبادة الأصنام، واستقسم الناس فيه بالأزلام، وطغت فيه على العقائد الخرافات والأوهام، وعلى المعاملات الفسوق والآثام، فعم فيه الظلم والظلام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأنام، ولد في عصر حالة العرب فيه التقاتل والانقسام، وقد شتت شملهم النزاع والخصام، فكانﷺ في الحرب رسول السلام، وفي السلم منبع الحب والوئام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام، وعلى التابعين لهم بإحسان ماذمت الأيام والأعوام.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون، أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته...

ها هو شهر ربيع الأول قد حل بساحتنا، الشهر الثالث من الشهور العربية الإسلامية، وهو شهر تزاحمت فيه الذكريات المتعلقة بالحبيب المصطفىﷺ، وهو شهر يمكن أن نسميه شهر سيرة المصطفىﷺ ليس لأننا نتذكر فيه ولادته ونقرأ فيه سيرته، فهذا واجب المسلم طيلة السنة كلها؛ بل لأنه شهر يحمل في طياته عدة أحداث من السيرة العطرة، لا نعلم منها حتى أسماءها، فكيف بتفاصيلها؟ فكيف بالاستفادة منها، والاقتداء بها؟.

ففي هذا الشهر -يا عباد الله- ولد الرسولﷺ، وفيه بدأ الوحي بالرؤيا المنامية، وفيه هاجرﷺ من مكة إلى المدينة، وفيه وقعت غزوة بني النضير، وفيه نزلت الآية التي حرمت الخمور، وفيه وقعت غزوة دومة الجندل، وغزوة الغابة، وسرية خالد بن الوليد، التي كانت سببا في إسلام قبيلة بني الحارث المسيحية بنجران عن بكرة أبيهم، وفيه توفي إبراهيم ابن النبيﷺ، وفيه توفي النبيﷺ فالتحق بالرفيق الأعلى.

إنها أحداث نجهل أغلبها تماما، فماذا تعلم -أيها الأخ المسلم- من هذه المواقع؟: لو كانت تحتضن مقابلات في كرة القدم، أو لقاءات أبطال اللهو واللعب، لعلمنا منها كل شيء، ولكنها احتضنت أبطال الإسلام، أبطال لا إله إلا الله، أبطال نشر الدعوة إلى الله، فكان نصيبها من وسائل إعلامنا التجاهل والإهمال، كما تجاهلنا الكثير من حقائق ديننا وتراث تاريخنا.

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 1 ربيع الأول 1422 هـ 25 / 5 / 2001 م.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن حالة العرب يوم ولد الهدى والنورﷺ، حتى نقف على جمال الإسلام وجلاله، ولا يعرف الإسلام إلا من عرف الجاهلية؛ لأن الشيء يعرف بضده -كما يقال- وهذا عمر بن الخطابرضي الله عنه الذي عاش الجاهلية بعنادها وجبروتها، بشركها وظلامها، وعاش أيضا الشريعة الإسلامية بسماحتها ويسرها، بنورها وهديها، يقول: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية». ويوضح لنارضي الله عنه في كلمة ذهبية، وفي سطر واحد، حالة العرب يوم ولد المصطفىﷺ إذ يقول: «كنتم أقل الناس وأحقر الناس وأذل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة من غيره أذلكم الله»[1]، نعم يا سيدي يا أمير المؤمنين!! لا يعرف نور الإسلام وعلمه، ولا يعرف سماحته ويسره، إلا من اطلع على جهل الجاهلين، إلا من اطلع على ظلام الجاهلية وتعصبها وعنفها.

فالعرب يوم ولد المصطفىﷺ هم أقل الناس وأحقر الناس وأذل الناس؛ يعيشون في جاهلية جهلاء، وفي عصبية عمياء، وفي حالة مزرية بكل المقاييس.

فهم أذل الناس عقيدة، حيث عبدوا الأصنام وهي أحجار صنعوها، ثم سجدوا لها وركعوا، وقد كانوا يعبدون حجرا فإذا وجدوا أحسن منه أخذوه وألهوه وتركوا عبادة الأول، وقد روي أن عمررضي الله عنه في الجاهلية، أراد السفر في قافلة تجارية، وكان العرب يصنعون آلهتهم من الأحجار والأشجار، فيحملونها للعبادة في الأسفار، وعمر بن الخطاب هذه المرة أراد أن يكرم في الجاهلية صنمه أيما إكرام، فصنعه من التمر بعد أن أزال منه النواة، ثم عجنه فصور منه إلهه بوجه ويدين ورجلين، ولكن شاء الله العلي القدير، أن يطول بهم السفر، فينتهي الزاد والمأكل، فما كان من عمر وهو في جاهليته، إلا أن التجأ إلى صنمه الذي صنعه وعبده، ولكن هذه المرة لم يلتجأ إليه ليستغيث به ويعبده، بل ليدفع به عضة الجوع ويأكله، فقضم في البداية رأس صنمه فقط، ولكن الرأس فقط قليل لا يسمن ولا يغني من جوع، وفي اليوم التالي التهم اليد والرجل، وفي الثالث أكل الجسد كله[2].

فانظروا -راعاكم الله- إلى هذه الصورة، كيف يفعل الجهل والكفر، في غياب العقل والفكر؟ كيف كانت وضعية العرب قبل الإسلام؟ كيف يعبد أحدهم إلهه ثم أخيرا يأكله؟ ثم انظروا -رعاكم الله- كيف يصنع الإسلام الرجال؟ انظروا إلى عمر قبل الإسلام وإلى عمررضي الله عنه بعد الإسلام، فشتان ما بين العمرين!

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 291، ح: 8196، ولفظه: "كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله".
(2) لم أعثر على مصدر هذه القصة.

فلا غرابة -يا عباد الله- أن تكون باقي نواحي الحياة في الجاهلية تابعة للعقيدة، لأن محل العقيدة القلب، والقلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله. فقد انتشر فيهم تبعا لفساد العقيدة الظلم بكل أنواعه، والغش بكل ألوانه، فتعاملوا بالربا، وأركسوا في مستنقعات القمار والخمور، وما يتبع ذلك من الخبث والخبائث: فاستعبدوا المرأة ووأدوا البنات، وقتلوا أولادهم خشية الجوع والإملاق، وذهبت الوحدة بينهم أدراج الرياح، فتشرذموا وتفرقوا، وقامت بينهم حروب طاحنة لأتفه الأسباب، كحرب البسوس التي استمرت وحمي وطيسها أربعين سنة! الشيء الذي فتح عليهم النفوذ الأجنبية من الفرس والروم.

روى الإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبيﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[1].

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة عن أم سلمة أن جعفر بن أبي طالبرضي الله عنه قال لملك الحبشة النجاشي: «أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله؛ من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام»[2]. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح[3].

وروى البخاري عن عائشة زوج النبيﷺ أخبرت: «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل

(1) صحيح مسلم: 2/ 644، كتاب الجنائز/ باب التشديد في النياحة.
(2) – صحيح ابن خزيمة: 4 / 13، ح: 2260، – مسند أحمد: 1/ 202، ح: 1740.
(3) مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد للهيثمي: 6/ 27.

الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمدﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم»[1].

وهذا -أيها الإخوة في الله- لا يعني أن العرب لا فضائل لهم، بل وجد الإسلام لديهم فضائل أصلحها وهذبها، وأزال رواسب الجاهلية عنها، فجعلها خالصة لله بعد أن كانت خالصة للنفس والقبيلة والعصبية؛ بل إنهم يتمتعون بفضائل لكنها غلوا فيها حتى أصبحت رذائل، يتصفون بالأخلاق؛ لكنها حقيرة الهدف وذليلة المقصد: فالشجاعة غلوا فيها حتى تحولت إلى تهور يقتل بعضهم بعضا، فهذبها الإسلام حتى كانت لإعلاء كلمة الله، والغيرة غلوا فيها حتى أصبحت ظلما، فهذبها الإسلام حتى صارت حماية للأعراض والشرف، والخوف من العار غلوا فيه حتى أدى بهم إلى وأد البنات، فهذبه الإسلام حتى أكرم به المرأة والبنات، والجود والكرم غلو فيه حتى تحول إلى تكبر وافتخار، فهذبه الإسلام حتى كان لوجه الله دون سمعة ولا رياء، وحماية الجار والجوار والقرابة، غلوا فيها حتى تحولت إلى عصبية ممقوتة، فنصروا أخاهم ظالما أو مظلوما، فهذبها الإسلام حتى كانت لرفع الظلم عن المظلوم، ومنع الظالم عن ظلمه، كما تبث ذلك في الحديث فقد روى البخاري ومسلم، أن النبيﷺ قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، فقال رجل: أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره»[2].

---

(1) صحيح البخاري: 5/ 1970، كتاب النكاح/ باب من قال لا نكاح إلا بولي.

(2) صحيح البخاري: 2/ 863، كتاب المظالم/ باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما.

تلكم -يا عباد الله- هي حالة العرب يوم ولد المصطفىﷺ ولد فكان نورا مبينا يضيء في هذه الظلمات، وبرهانا ساطعا يزيل هذه الخرافات، وعدلا يمنع قتل الأولاد ووأد البنات، فأعزهم الله بهذه الولادة المباركة، فكانوا في العالم سادات، ففتحوا أقصى الشروق وأقصى الغروب،كما فتحوا عمق النفوس وعمق القلوب. فها هو عمر بن الخطاب الذي كان في الجاهلية يعبد صنما صنعه إلى آخر النهار فيأكله، هو نفسه الذي حكم بعد أن رباه الإسلام وأصلحه وهذبه، الجزيرة العربية كلها، والفرس والعراق والشام ومصر، إنه حكم منطقة ذات أطراف شاسعة، أصبحت اليوم ثلاث عشرة دولة.

فلا غرابة إذا علمنا أن النبيﷺ قال: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا....»[1].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) متفق عليه، ولفظه لمسلم في صحيحه: 4/ 2031، كتاب البر والصلة والآداب/ باب الأرواح جنود مجندة.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

إن حالة العرب قبل الإسلام، فيها أوصاف إذا أمعنت فيها، تجدها هي السائدة في حالة العرب والمسلمين اليوم، كأن التاريخ يعيد نفسه.

نعم -أيها الاخوة في الله- لقد صدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: فمهما تطلبوا العزة من غير الإسلام أذلكم الله[1]؛ والواقع اليوم يشهد؛ فقد طلب المسلمون اليوم العزة والنصر من القوانين المستوردة، ففقدوا هويتهم وأصالتهم، واستوردوا الحلول الغريبة عن واقع الأمة لحل مشاكلها فاستعصت مشاكلها وزادت، وطلبوا العزة من القوميات فتشتت شملهم، وطلبوها من العصبية فتشرذم أمرهم، وسعوا لحل مشاكل المرأة وراء سراب تحريرها فغرروا بها، واستغلوا جسدها ووأدوا شرفها، فزادت فتنتها، وتمردت على حجابها، ورفضت دينها وحياءها وحشمتها، فهتك الله الشرف والأعراض بها، وطلبوا الحلول بالديون الربوية فأذلتهم شر إذلال، فأصبحوا آلة صماء عمياء في يد أعدائهم، يستغلون ثرواتهم وخيراتهم، ويسوقونهم إلى القرارات التي يريدونها رغم أنوفهم، فكانوا دائما عالة على غيرهم، لا يصنعون أي شيء، ويستوردون كل شيء، حتى قيل فيهم: لو قيل لكل شيء عد إلى أصلك لخشيت أن يبقى المسلمون حفاة عراة! لا يحسب لهم في اغتصاب أرضهم، أي حساب، ولا يعتبر في هتك أعراضهم وزن ولا قيمة، وأرخص الدماء في العالم هي دماء العرب والمسلمين، وأوضح دليل على ذلك ما يحدث اليوم في فلسطين على يد سادات الحروب الصليبية والصهيونية، من هدم وتهديد، وقتل وتشريد، ونفي وإبعاد، فلم ينج من ظلمهم لا الأطفال الرضع ولا الشيوخ الركع ولا البهائم الرتع، فإلى الله المشتكى والمفزع؛ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2] ولن يصلح أمر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها، وهو العودة إلى الإسلام، أفرادا وجماعات، محكومين وحكومات...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

(1) سبق تخريجه في خطبة حالة العرب يوم ولد المصطفى صلى الله عليه وسلم رقم: 2.

(2) متفق عليه ولفظه للبخاري في صحيحه: 5/ 2238، ح: باب رحمة الناس والبهائم.

3) الخطبة [3] إرهاصات تؤذن بولادة المصطفىﷺ(1)

الحمد الله الذي قدر الأمور وقضاها، وبسابق علمه أجراها وأمضاها، فأكرم الأمة بولادة المصطفىﷺ فأعلاها، وبالخير أرسلها وعليه أرساها، سبحانه وتعالى خلق النفوس فسواها، فألهمها فجورها وتقواها، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره أدام علينا نعمه ووالاها، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل ربا وتقدس إلها، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله رفع منار الحنيفية وأعلى سماها، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما طلعت شمس بضحاها، وليلها إذا يغشاها.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية حالة العرب يوم ولد الرسول ﷺ ، فوقفنا بكم على الظلمات التي يتخبط فيها العرب قبل الإسلام، من عبادة الأصنام، إلى الاستقسام بالأزلام، إلى الربا والقمار والخمور ومختلف الآثام، إلى وأد البنات وقتل الأولاد ومختلف الآلام، إلى حروب طاحنة حصدت الأخضر واليابس من الأنام. وقفنا بكم على هذه الجاهلية الجهلاء، وهذه العصبية العمياء، وهذه الحالة المزرية بكل المقاييس، حتى يتبين لنا نور الإسلام في هذا الظلام الدامس.

واليوم نكشف لكم الستار عن إرهاصات وقعت إشارة وإيذانا بولادة المصطفىﷺ. أتدرون ما معنى الإرهاصات؟ إنها مقدمات عظيمة، يجعلها الله تعالى بين يدي أمر أراد إظهاره، وقد تكون هذه المقدمات خارقة للعادة. والأمر الخارق للعادة قد يقع من نبي بعد النبوة فيسمى معجزة، وقد يقع من نبي قبل النبوة فيسمى إرهاصا، وقد يقع من ولي فيسمى كرامة، وقد يقع من بعض العوام فيسمى إعانة، وقد يقع من فاسق فإن وافق مراده سمي استدراجا، وإن خالف مراده سمي إهانة. والله تعالى إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، وقدم له إرهاصات وإشارات تدل عليه. والإرهاصات التي تدل على نبوة النبيﷺ وعلى عظم شأنه كثيرة ومتعددة، قد وقعت في أحداث عظيمة، كأن الدنيا يومها أعلنت الطوارئ لاستقبال الحبيب المصطفىﷺ.

ومن هذه الإرهاصات -يا عباد الله- حفر بئر زمزم، على يد عبد المطلب جدهﷺ هذا الماء المبارك الذي أكرم الله به إسماعيل -عليه السلام-، مع أمه هاجر، ولكن

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 30 صفر 1424 هـ 2 / 5 / 2003 م.

مرور السنوات والقرون طمسته فانمحى أثره، وأخفت عوامل الأزمنة وتوالي العصور موقعه، حتى جاء عبد المطلب جد النبيﷺ فألهمه الله تعالى حفر بئر زمزم، إكراما للمصطفىﷺ وإيذانا بقرب زمانه، وهو الذي قالﷺ: «ماء زمزم لما شرب له»[(1)]، وقالﷺ: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»[(2)]؛ كأن ماء زمزم دليل على أن مكة تستعد بمائها وبهجتها لاستقبال دين كلمة التوحيد، ودين توحيد الكلمة من جديد، دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[(3)].
هذا الدين الذي أرسل الله تعالى على يد نبي تحققت فيه دعوة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(4)].
ومن هذه الإرهاصات -يا عباد الله- بشارة رهبان النصارى وأحبار اليهود بزمن ظهور المصطفىﷺ فقد بشرت به كتب الأنبياء من التوراة والإنجيل، ولكن الأيادي المغرضة حرفتها، إما بإزالة ما يدل على النبيﷺ منها، وإما بتفسير ضال يحول المعاني عن مقصودها ومرادها، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما -وكان يقرأ قبل إسلامه التوراة والإنجيل- قال: «إنه ﷺ لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا

---

(1) رواه البيهقي من حديث جابر بن عبد الله، سنن البيهقي الكبرى: 5/ 202، ح: 9766، وقد صححه جماعة منهم الدمياطي والسيوطي والألباني، انظر: - فتح الباري: 3/ 493، - إرواء الغليل: 4/ 320، ح: 1123، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 966، ح: 5502، - السلسلة الصحيحة: 2/ 543، ح: 883.
(2) صحيح، رواه الطيالسي في مسنده: 1/ 61، ح: 457، والبزار في مسنده: 9 / 369، ح: 3948، والطبراني في المعجم الصغير: 1/ 186، ح: 295، وأصله عند مسلم من حديث أبي ذر بلفظ: "إنها مباركة إنها طعام طعمة" صحيح مسلم: 4/ 192، كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي ذر، وقد صححه ابن عيينة والدمياطي والمنذري والهيثمي والألباني، انظر: - الترغيب والترهيب: 2/ 135، - مجمع الزوائد: 3/ 286، -إرواء الغليل: 4/ 324، ح: 1123، - السلسلة الصحيحة: 9/ 1558 ح: 2585، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 478، ح: 2435.
(3) الشورى: 13.
(4) البقرة: 127-129.

عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا»[1]. والأناجيل المحرفة اليوم كثيرة منها (إنجيل برنابا) الذي لا زال يحمل في طياته صراحة البشارة بالنبيﷺ، وبأن اسمه هو "الفارقليط" ومعناه في اللغة السريانية: الذي له حمد كثير، وهذا في اللغة العربية نفس المعنى لأحمد وقد طبع هذا الإنجيل ولكن حجب الحقد والجهالة غيبته عن التداول في الأسواق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

ومن هذه الإرهاصات -يا عباد الله- نسبه الشريف ﷺ، فعندما أراد الله أن يكرم به البشرية اختار له نسبا من أطهر أنساب العرب أبا عن جد، أتدرون لماذا؟ لكيلا يكون نسبه مرتعا للألسنة المغرضة، ومطية للصد عن دين الله الذي بعث به، والنسب من الأصول الخمسة التي جاء الإسلام ليحافظ عليها:

العقل والنفس كذا المال وجب صون لها والدين أيضا والنسب

وللمحافظة على النسب أحل الله تعالى الزواج والنكاح، وحرم الزنا والسفاح، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[3] فنسب المصطفى لم يعرفه السفاح المنتشر في الجاهلية، فهو نسب طاهر طيب. لقد ولد ﷺ من آمنة بنت وهب وعبد الله بن عبد المطلب، وهما من أحسن شباب مكة خلقا وخلقا، وأطهرهم أصلا ونسبا، فهو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. أخرج هذا القدر من نسبه ﷺ البخاري في صحيحه، وكل رجل من رجالات هذه السلسلة معروف في التاريخ بالكرم والشهامة، وعزة النفس والشجاعة، كما قال ﷺ فيما روى مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[4].

---

(1) صحيح البخاري: 2/ 747، كتاب البيوع/ باب كراهية السخب في السوق.
(2) الصف: 6-9.
(3) الإسراء: 32.
(4) صحيح مسلم: 4/ 1782، كتاب الفضائل/ باب فضل نسب النبي ﷺ.

ومن هذه الإرهاصات –يا عباد الله– أن أمه ﷺ رأت حين حملت به نورا قد خرج منها أضاءت له الدنيا، وتلألأت له الأرجاء، روى أحمد والحاكم بإسناد جيد قوي أنهﷺ قال: «دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام »[1]؛ فكان هذا النور إشارة إلى أن لهذا الجنين عند الله شأنا عظيما، إشارة إلى أن دعوتهﷺ ستمتد امتداد خيوط النور والظلمة على وجه الأرض، فها هو نور الإسلام اليوم يغزو قارات الدنيا بأكملها، فيفتح القلوب، ويزيل الأحقاد، ويضيء مسيرة التاريخ، كما رأت آمنة بنت وهب والمصطفىﷺ جنين في بطنها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

(1) – مسند أحمد: 4/ 127، – المستدرك على الصحيحين: (2/ 453، ح: 3566)، (2/ 656، ح: 4174).

الحمد لله رب العالمين...

أيها الاخوة المؤمنون!

إذا كانت هذه الإرهاصات هي مقدمات لبعثة هذا الدين، ولولادة الرسول الأمينﷺ، فإننا اليوم نشاهد في الواقع إرهاصات هي بمنزلة مقدمات لتجديد هذا الدين مرة أخرى، ولعودته لقيادة الحضارة العالمية مرة أخرى، روى الإمام أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح عن تميم الداري قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر»[1]. وروى أبو داود عن أبي هريرة أن الرسولﷺ يقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائةِ سنةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دينَها»[2].

ومن إرهاصات عودة هذا الدين أن الإسلام رغم هذه الحروب الشرسة، التي يشنها أعداءه ضده يزيد ولا ينقص، فلو وضعنا أي دين آخر في موقع الإسلام اليوم، ثم حورب بالكيفية التي يحارب بها الإسلام من أعدائه ومن أدعيائه على حد سواء، فلن يبقى له أي أثر، لانماع كما ينماع الملح في الماء، ولكن الإسلام كلما حورب زاد وانتشر، وكلما اعتدي عليه اتضح وظهر، فحين جاء الاستعمار لبلاد المسلمين في بداية القرن الماضي، كان من أهدافه إزالة الإسلام عن الواقع، وتنصير المسلمين فأطلقوا أهدافا عملوا بجد للوصول إليها: منها "عام ألفين إفريقيا كلها مسيحية" ورصدوا لتحقيق ذلك أموالا طائلة، وقدموا جهودا جبارة؛ ولكن ما ذا حدث؟ إنهم لم يحصلوا على شيء؛ بل إنهم فوجئوا بهذا الدين ينتشر في عقر دارهم انتشارا منقطع النظير. إن دعاة التنصير اليوم يستغلون كل شيء لمحاربة الإسلام، ومع الأسف قد يكون ذلك بيد بعض أبناء الإسلام الذين غرر بهم، لقد استغلوا لهدف التنصير في الدول الإسلامية قضية المرأة، وقضية اللهجات المحلية التي لم ترتق إلى مستوى اللغة، وقضية الأقليات الإثنية، وقد نال المغرب من هذه الحملة المسعورة حصة الأسد، لأنه بوابة إفريقيا، ولكن المغرب دائما –ولله الحمد– له مقومات إسلامية عربية تتحطم على صخراتها كل مكايد المنصرين؛ فإذا كان دعاة التنصير، يستغلون الشبح الثلاثي: الفقر والجهل والمرض، كي يفوزوا بتنصير فقير أو مريض أو أمي، فإن الذي يدخل إلى الإسلام منهم هم رجالات الفكر أمثال "جارودي" و"مراد هفمان" و"كات ستفن"، وليس هذا نشوة عابرة ولا أقول هذا من تلقاء

(1) – مسند أحمد: 4/ 103، – المستدرك على الصحيحين: 4/ 477، ح: 8326.

(2) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 4/ 109، ح: 4291، والحاكم في المستدرك: 4/ 567، ح: 8592، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 148، ح: 599.

نفسي؛ بل هذا هو الواقع الذي لا يرتفع، فمنهم من أعلن إسلامه في مسجدكم هذا، ومنهم محام دولي ومهندس فلاحي أعلن أمامي في هذا الأسبوع: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ. وإن أكبر دليل على فشلهم الذريع اليوم هو أنتم، فهاهي إفريقيا وعام ألفين قد مرت، وأنتم لا زلتم على أرضها تقيمون المساجد، لا زلتم تعمرون بيوت الله بلا إله إلا الله، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1].

ومن إرهاصات عودة هذا الدين هذه الصحوة الإسلامية التي نراها اليوم تمتد عبر الأجيال وتكتسح العالم وتمتد امتداد خيوط النور والظلمة على وجه الأرض. هذه الصحوة التي أنجبت علماء مجتهدين، حملوا هموم الأمة فعملوا من أجلها، كما أنجت شهداء مجاهدين، استرخصوا أنفسهم وبذلوا أموالهم في سبيل الله. رغم العراقيل الضخمة التي ما فتئ أعداء الإسلام يضعونها أمامها، فهي لازالت تشق طريقها بخطى ثابتة حثيثة. وإن ما يحدث اليوم في العراق وفلسطين من هذه الاعتداءات الظالمة ليس هو نهاية صحوة الأمة؛ بل هو دليل واضح، وإرهاص بين على قرب ولادة الأمة المسلمة من جديد، فكل حمل لابد فيه من المعاناة، وكل ولادة متعسرة كما يقال، فالمرأة لا تضع حملها إلا بالتأوه والأنين.

ومن إرهاصات عودة هذا الدين هذه الظاهرة التي نعيشها نحن في مدينة "أكادير" بجنوب المغرب بالخصوص وهي ظاهرة بناء المساجد عن طريق هذه المساعدات العمومية، هذه المساعدات الجماعية الجمالية، حيث تتكون جمعية لبناء مسجد ثم تبدأ عملية البناء وليس في يدها إلا بضعة آلاف من الدراهم، ولا تمر سنة أو سنتان، بل شهور معدودات حتى يصلوا في البناء مئات الملايين! سبحان الله! من أين لهم هذا؟ إنه من الإيمان الذي وقر في قلوب المؤمنين المحسنين، هذا الإيمان الذي يعد من الإرهاصات القوية ومن الأدلة البينة على أن المستقبل الزاهر سوف يكون لهذا الدين، حينما تصدق النيات، وتطبق الآيات البينات. ولا أقول هذا نقلا وسماعا؛ بل أتحدث عن تجربة عملية رأيت فيها آثار الإيمان في الأعمال عندما تشع بشاشته في القلوب.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) الأنفال: 36.

4) الخطبة [4] وقفات في ولادة المصطفىﷺ[1]

الحمد لله الذي جعل ولادة المصطفىﷺ إرواء لكل غليل، فأنزل عليه القرءان شفاء لكل عليل، وأرسله بشريعة تخفف عن الناس الصعب والثقيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل، اصطفى سيدنا محمداﷺ من نسب له في الشرف أصل أصيل، ومن سلالة هي لكل مجد علامة ودليل، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله جعل الله ولادته في عام أهلك فيه أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، إيذانا بهلاك كل كافر على يد المتمسكين بشرعه الجليل، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين لهم في نشر الدين الباع الطويل، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم نهاية الدنيا ومتاع الدنيا قليل.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون ! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

هاهو شهر ربيع الأول قد حل بساحتنا، وهو شهر تزاحمت فيه الذكريات المتعلقة بالحبيب المصطفىﷺ، وهو شهر سيرة المصطفىﷺ ليس لأننا نتذكر فيه ولادته ونقرأ فيه سيرته، فهذا واجب المسلم طيلة السنة كلها، بل لأنه شهر يحمل في طياته عدة أحداث من السيرة العطرة؛ ومن أجل هذا نخصص هذا الشهر كل سنة بسيرة هذا الحبيبﷺ.

وقد قدمنا لكم في الجمعة الماضية في سلسلة خطب السيرة النبوية الإرهاصات التي سبقت ولادة الرسولﷺ؛ فهي بمنزلة إشارات إلى أن النبيﷺ سيكون له شأن عظيم، وخبر جسيم، لأن الله تعالى إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه. واليوم نقف بكم وقفات مع ولادة هذا النور العظيم في شخصية المصطفىﷺ، هذا النور الذي أزال عن البشرية ظلمات الجاهلية، فقادها إلى الأنوار الربانية، نرفع الستار عن أحداث صاحبت ولادتهﷺ فدلت على عظمته وشرفه.

فما أحوجنا لمدارسة السيرة ونحن نعيش حالة بعيدة عن القدوة بهذه السيرة، على مستوى الفرد والأسرة، وعلى مستوى المجتمع والدولة، وعلى مستوى الشعوب والأمة!

فما أحوجنا إلى وقفات في السيرة العطرة ونحن نرى المأساة التي يعيشها المسلمون اليوم في أكثر من صعيد!

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 8 ربيع الأول 1422 هـ 1 / 6 / 2001 م

فما أحوجنا لوقفات في السيرة نسلط الأضواء الكاشفة على أحداثها، لنأخذ منها وصفة نداوي بها معاناة هذا الظلم البائس، أو مصباحا ننير به الطريق في هذا الظلام الدامس!

الوقفة الأولى: لقد تقدم لكم أن النبيﷺ ولد من عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب لقد تزوج بها عبد الله مبكرا وعمره خمس وعشرون سنة، وعمرها لم يتجاوز العشرين، وهما شابان طاهران يتمتعان بأخلاق متميزة، والزواج المبكر للشباب حفظ وحماية وحصانة ووقاية، من استطاع من الشباب تحمل أعباء الأسرة فلا ينبغي له أن يتردد في حصانة نفسه وحفظ دينه. يا معشر الشباب هذه سيرة نبيكمﷺ تعلمكم مند بدايتها أن الزواج المبكر مبارك، والرسولﷺ يناديكم ويتحبب إليكم بهذا النداء المحبب فيقول: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1]. يا معشر الشباب استجيبوا لنداء الرسولﷺ، وقفوا ضد ظاهرة هذه العنوسة الخطيرة، ألا فتزوجوا المؤمنات القانتات العابدات، الطاهرات بالصلاة، المتزينات بالوضوء، ألا فتزوجن المؤمنين العاملين المجدين، لعل الله يبعث في أولادكم من يجدد هذا الدين في الأمة، دعونا من المتبرجات الكاسيات العاريات، دعونا من عارضات الأجساد والأزياء في الشوارع، اللواتي شبع منهن الذباب والذئاب والخنافس، دعونا من أشباه الرجال ولا رجال. قال الله تعالى: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾[3].

الوقفة الثانية: عندما تزوج عبد الله بآمنة سافر في تجارة إلى الشام ولم يعلم بأن زوجته حامل بجنين سيتغير وجه العالم على يديه، وبقيت آمنة تنتظر عودته، لتزف له بشراها، ولتخبره بالجنين الذي بدأ يتحرك في أحشائها، ولكن القافلة رجعت بكل رجالها إلا عبد الله زوج آمنة، لقد مرض في الطريق ومات في المدينة التي سوف تكون يوما منطلق دعوة الجنين التي خلفه في بطن زوجته.

تصوروا -يا عباد الله- حال آمنة أم النبيﷺ؛ امرأة في زهرة شبابها، تزوجت بزوج تبادله الود والحب والعطف والحنان، وهي تنتظر رجوعه على شوق أحر من

---

(1) رواه الشيخان: - صحيح البخاري: 2/ 673، كتاب الصوم/ باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، -صحيح مسلم: 2/ 1018، كتاب النكاح/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.
(2) الأعراف: 58.
(3) النور: 26.

الجمر لتفاجئه بهذا البشرى التي تحمل في أحشائها، إذا بها تفاجأ بموته. هل تحسون بالألم الذي اعتصر قلبها هل تشعرون بالمعاناة التي عانت منها؟ لقد سجلت لنا ذلك في مرثية حين قالت:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحدا خارجا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم[1]

ولكن رغم كل هذا فقد استمرت الحياة، وولد النبيﷺ ليغير العالم، فمن الذي يستطيع أن يتصور يومئذ أن هذا الجنين الذي سيولد يتيما سيتغير العالم على يديه؟ وهكذا تعلمنا السيرة أن اليأس لا محل له في قلب المؤمن، ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[2] ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾[3]. فرغم الهزيمة التي تعاني منها الأمة المسلمة في كثير من الأصعدة، فرغم معاناة القدس والعراق، لا ينبغي للمسلم أن ييأس وهو يعاني، لا ينبغي له أن يقنط وهو يتألم؛ بل يجب أن يكون رجاؤنا في الله كبيرا، ونعمل من أجل تحقيق هذا الرجاء ليلا ونهارا، ونصبر في أداء هذا العمل صبرا كثيرا.

أخلقْ بذي الصبرِ أن يحظى بحاجته ومدمنِ القرعِ للأبوابِ أن يلجا[4]

الوقفة الثالثة: لقد ولدﷺ يوم الاثنين الثاني عشر على الراجح من شهر ربيع الأول، دون أن تحس أمه بالألم الذي تحس به النساء عادة عند الولادة، فكانﷺ رحمة حتى برحم أمه، لأنه أرسله الله رحمة للعالمين. ولما ولدﷺ ألهم الله جده فسماه محمدا، ليحمده أهل الأرض والسماء، روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[5].

---

(1) الطبقات الكبرى: 1/ 100.
(2) يوسف: 87.
(3) الحجر: 56.
(4) البيت للشاعر محمد بن يسير الرياشي البصري (ت 230هـ)، من قطعة مطلعها:
مَاذَا يُكَلفك الرَّوْحَاتِ والدُّلَجَا؟ * البِرَّ طَوْراً وَطَوْراً تَرْكَبُ اللُّجَجَا
الأغاني لأبي الفرج الإصبهاني: 14/ 43.
(5) – صحيح البخاري: 3/ 1299، كتاب المناقب/ باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، – صحيح مسلم: 4/ 1828، كتاب الفضائل/ باب في أسمائه.

الوقفة الرابعة: لقد ولد المصطفىﷺ في عام اسمه عام الفيل! أتدرون ما هو عام الفيل؟ إنه عام أهلك الله فيه أصحاب الفيل، الذين جاءوا بجيش جرار لهدم بيت الله الحرام، بقيادة ملكهم باليمن أبرهة الأشرم، فهزموا كل القبائل العربية التي وقفت في طريقهم، ناسين أن للبيت ربا يحميه، ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾[1]. وفي هذا إشارة إلى أن ولادتهﷺ إنذار لكل كافر جبار، وهلاك لكل مشرك وظالم، كما أكد ذلك التاريخ، فكلما تمسك المسلمون بسنة هذا المولود المباركﷺ فازوا، وكلما ابتعدوا عن هذه السنة انهزموا ، فهي مقياس النصر والهزيمة في مسرح الأمة المسلمة، فكلما تحلوا بها انتصروا، وكلما تخلوا عنها اندحروا.

ومن حادثة الفيل نتعلم أن هدم بيوت الله ليس وليد اليوم بل ضرب بجذوره في أعماق التاريخ، وولد بولادة الرسولﷺ؛ فما يفعل أعداء الإسلام اليوم في فلسطين والعراق ببيوت الله ليس بجديد، من إحراق للمسجد الأقصى، إلى قتل المصلين في مسجد الخليل، إلى هدم مساجد تاريخية تحمل التراث الإسلامي شامخة عبر الزمان، حتى أتى إليها الوحش الصهيوني والصليبي، فلم يعر لحق الدين ولا لحق التاريخ ولا لحق الحضارة أي اهتمام، فهدموا المساجد وقتلوا الساجدين.

وإذا كان صاحب الفيل جاء ليهدم بيت الله حسيا، فرد الله كيده تكريما لولادة المصطفى ﷺ ، فإن منا اليوم من يهدم بيوت الله معنويا!.

أتدرون كيف ذلك؟ إن هدم آثار المساجد ونتائجها أشد خطرا من هدم حيطانها! وإن تقزيم دورها حتى لا يتجاوز مجرد الصلاة أشد خطرا من إزالة جدرانها! وكيف لا والصلاة إنما تكون كاملة حين تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فهل تنكرون أن شوارعنا تهدم بفسقها شرع الله الذي نتعلم من مساجدنا؟ وهل تنكرون أن وسائل الإعلام، التي ضربت حصارا على الكرة الأرضية بالأقمار الصناعية، تهدم كل يوم وبشكل فسقي خطير، الأخلاق التي نتعلمها من بيوت الله، وإن وسائل الإعلام لأشد خطرا في هدم بيوت الله من صاحب الفيل.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهل تنكرون أن معاملاتنا تتنكر في غالب الأحيان للأخلاق التي تعلمنا من مساجدنا. ماذا ستفعل بيوت الله وألف هادم وراءها يمحو أثرها؟

---

(1) الفيل: 3-5.

أرى ألف بان لا يقوم بهادم فكيف ببان خلفه ألف هادم؟[1]

ماذا ستغني خطبة الجمعة مرة في الأسبوع؟ إذا كان خطب الشرور تبث لأفراد الأمة كل يوم، بل كل دقيقة، فما على القابع في منزله إلا أن يضغط على الزر لتتراء له رسائل الفسق ووسائل الهدم من خلال الفضائيات، أما المنكر الجاهز كل وقت وحين فهو رهن إشارة كل مريد عبر شبكة الانترنيت. والعيب ليس في الانترنيت ولا في الفضائيات، بل هذا نعمة كبرى، ما نعاني اليوم إلا من التخلف عن ركبها المتقدم، ولكن العيب في اليد التي تبحث عن السموم فيها، في الأنامل التي تضغث على الأزرار.

إن حادثة الفيل -يا عباد الله- تبين لنا عظمة الإسلام فهؤلاء العرب الذين انهزموا أمام جيش صاحب الفيل، هم الذين غلبوا وهزموا كل جيوش الأرض آنذاك، بعد ثلاث وستين سنة هي عمر هذا المولود المباركﷺ، ولم يكن للعرب دور ولا كيان قبل ولادتهﷺ، ولكن بعد ولادته وتحت راية دينه، أصبح لهم ولأول مرة في التاريخ دور عالمي يؤدونه، وأصبحت لهم قوة جارفة تكتسح المماليك الطاغية، وتحطم العروش الظالمة في الفرس والروم، ليبلغوا إلى الناس دين هذا المولود المباركﷺ وهاهو الصحابي الجليل ربعي بن عامر عندما سأله ملك الفرس آنذاك لماذا جئتم إلينا؟ قال له: «والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[2]؛ فحادثة الفيل تعلمنا أن العرب لم يدخلوا التاريخ بأمثال أبي جهل وأبي لهب، وإنما دخلوه بأمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاصرضي الله عنهم.

ومن حادثة الفيل نتعلم أن لله جنودا يسلطها على الظالمين لا تخطر ببال إنسان، فإذا أهلك الله تعالى أصحاب الفيل بطير أبابيل أي جماعات، فإن العالم اليوم أصبح يرتعد ويرتعش من نفس الجنود الربانية، طيور مهاجرة أبابيل تهدد العالم بما يسمى بوباء فلونزا الطيور، لأن فساد البشر قد انتشر، وظهر بما كسبت أيدي الناس في البر والبحر.

---

(1) البيت للشاعر الأيوبي عبد الرحيم بن علي اللخمي المشهور بالقاضي الفاضل(529هـ - 596هـ)، من قصيدة مطلعها:

أَبى الدَمعُ أَن يُشْفَى بِهِ هَمٌّ هائِم * وَلا رِيَّ إِلّا الرَشفُ مِن ظَلمِ ظالِمِ

(2) تاريخ الطبري: 2/ 401.

الوقفة الخامسة: لقد ولد النبيﷺ مختونا، روى الحاكم أن الأخبار قد تواترت أن رسول اللهﷺ ولد مختونا[1]، والختان سنة من سنن الإسلام، وخصلة من خصال الفطرة، تزين صورة المؤمن ومظهره، وتحقق فيه إحدى مواطن الاقتداء بالنبيﷺ وهي السريرة والسيرة والصورة، وهي من الأمور التي ابتلى الله بها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾[2] ومن خصال الفطرة خمس عشرة خصلة جمعها من قال:

يا أيها الطالب حسن السيرة عليك دوما بخصال الفطرة
فإنها تصون حسن الصورة وتحفظ الود مع العشيرة
فاختتن واستك وقلم وافرُق واغسل براجمك ثم استنشق
واستنثرن ومضمضن وانتضحا وقص شاربك واترك اللحا
واستنج واحلق عانة واغتسل لجمعة بنَتف إبط أكمل
فتلك عشر مع خمس وردت في قول خير الخلق نعم ما احتوت
وإن بعضها بها الله ابتلى خليله ففاز نعم المبتلى
ونحن مأمورون باتباعه يا فوز من سلك نهج شرعه

الوقفة السادسة: لما ولد المصطفىﷺ استبشرت به أرجاء مكة، ففرح به أعمامه وأهله، وسارت ببشرى ولادته النساء والرجال، يبشر بعضهم بعضا، فتمسح هذه البشارة عن القلوب آثار الصدمة التي أصابت عائلته من موت أبيه وهوﷺ جنين في بطن أمه، فتسلمته بعد خروجه إلى الدنيا ثُوَيبة وهي خادمة عمه أبي لهب، فأرضعته من لبنها، فكانت أول امرأة أرضعته من النساء بعد أمهﷺ، ثم سارعت تبشر بهذا الطفل المبارك سيدها أبا لهب، لما سمع بهذه البشارة العظمى لمس الفرح شَغاف قلبه، فهز كيانه، ثم أعتق خادمته ثويبة التي بشرته، فكانﷺ رحمة بها وهو لا يزال في مهده، ومدعاة للتحرير وهو في مهده، فلا غرابة أن تكون دعوتهﷺ من أجل التحرير وهو في نبوته، لقد تحولت بسببه هذه الخادمة من العبودية إلى الحرية، وأغلى ما يتمنا الإنسان في هذه الدنيا هو الحرية. ورغم عداوة أبي لهب للنبيﷺ ورغم موته كافرا فتبت يداه في النار، فقد روى البخاري في صحيحه عن عروة مرسلا أن العذاب يخفف عنه وهو في النار، بسبب عتقة لأَمَته ثويبة حين بشرته بولادة

---

(1) المستدرك على الصحيحين: 2/ 657، ح: 4177.
(2) البقرة: 124.

المصطفى ﷺ[1]، وإذا كان العذاب يخفف عن أبي لهب وهو الكافر الذي ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾[2] فكيف بالمؤمن إذا فرح بالمصطفى ﷺ وفي هذا قيل:

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه بتبت يداه في الجحيم مخلدا
أتى أنه في يوم الاثنين دائما يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره بأحمد مسرورا ومات موحدا[3]

وقد صح أيضا في البخاري أن الله -عز وجل- يخفف العذاب عن عمه أبي طالب رغم كفره، بسبب ما قدمه من الخير للنبي ﷺ[4]. وهذا التخفيف لا يعني إخراجهما من النار، بل نقلهما من مكان شديد العذاب إلى مكان أخف منه، فهما في النار على كل حال، ولكن الله شاء لهما أن يتمتعا وهما في النار برحمة المصطفى ﷺ الوارفة الظلال، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وهو الذي قال: «إنما أنا رحمة مهداة»[5].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) صحيح البخاري: 5/ 1961، كتاب النكاح/ باب وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، ونصه: "قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ فلما مات أريه بعض أهله بشر خيبة قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم، غير أني سُقِيتُ في هذه بعتاقتي ثويبة".
(2) المسد: 3.
(3) تنسب هذه الأبيات للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أبي بكر القيسي المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي (777هـ- 842هـ)، صاحب كتاب (مورد الصادي، في مولد الهادي).
(4) صحيح البخاري: 3/ 1408، / باب قصة أبي طالب، ونصه: "حدثنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار".
(5) صحيح، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 3/ 223، ح: 2981، والحاكم في المستدرك: 1/ 91، ح: 100، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 882، ح: 490.

الحمد لله رب العالمين....

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

إن الفرح بالرسول ﷺ أمر مطلوب في كل زمان ومكان، والاجتماع لسيرته أمر مشروع في كل الأحيان، وخصوصا إذا كان في شهر ربيع الأول شهر ولادته. فإذا كنا نتذكر ميلاده ﷺ مرة في السنة، فإنه ﷺ يتذكره ويعظمه كل أسبوع، ويعبر عن ذلك بالصيام، روى الإمام مسلم: أنه ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي»[1].

يا أحبة المصطفى ﷺ يجب أن نعلم أن هذه الذكرى التي سوف تحل بساحتنا هذا الأسبوع، هي وسيلة كبرى للدعوة إلى الله، وفرصة مثلى ينبغي ألا تفوت دون تذكير الناس بالنبي ﷺ بأخلاقه وآدابه، بحياته وسيرته، بمعاملاته وعباداته، حتى نحيي في معاملاتنا سنته، وفي قلوبنا محبته، ألا كفى إنكارا لفوائد هذه الذكرى! ألا كفى تنكرا للاستفادة منها! فهي فرصة لملء القلوب والنفوس، لا لملء المعدات والبطون، وهي فرصة لربط الناس بالسيرة النبوية الصحيحة، لا بالأوهام والأساطير، فحياة المصطفى ﷺ ليست في حاجة للمدح بالأكاذيب والأساطير، ليست في حاجة للإطراء بما لا أصل له من الخرافات والأوهام، ليست في حاجة لألوان الكذب حتى نقربها من قلوب العوام، ألا كفى كذبا على الحبيب المصطفى ﷺ! ألا كفى من الخرافات والأساطير، فأمامنا شمائله وأخلاقه ﷺ قد امتلأ بها القرءان الكريم، ونطقت بها كتب الصحاح، وأبرزتها بشكل عملي كتب السيرة.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

---

(1) صحيح مسلم: 2/ 820، كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

5) الخطبة [5] وقفات في طفولة المصطفىﷺ(1)

الحمد لله الذي من علينا بسيرة خير البرايا، فجعلها للأمة أكرم النعم وأجل الهدايا، نحمده سبحانه ونشكره ونسأله الثبات على السنة والسلامة من المحن والرزايا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والخفايا، والمطلع على مكنون الضمائر والنوايا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله كريم الخصال وشريف السجايا، جاهد في سبيل الله ضد الكفر والفتن والبلايا، عليه من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وأشرف التحايا، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم تكشف فيه النفوس عما فيها من الأسرار والخبايا.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

هانحن ما زلنا في شهر ربيع الأول، شهر ولادة المصطفىﷺ، وقد قدمنا لكم في الجمعة الماضية في سلسلة خطب السيرة النبوية أحداثا وإرهاصات صاحبت ولادتهﷺ فدلت على نبوته ورسالته.

فتعالوا بنا اليوم نقف معكم وقفات في طفولتهﷺ كيف عاشها؟ وما هي الأحداث التي صاحبتها؟ محاولين بفقه السيرة إصلاح ما بأنفسنا ومجتمعنا، مما كسبت أيدينا.

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن طفولة النبيﷺ وقعت فيها أحداث بارزة لا ينبغي للمسلم أن يجهلها، لأن من جهلها حرم الاستفادة منها، وسأقتصر في عجالة هذه الخطبة على ثلاثة أحداث منها.

لماذا ولد النبيﷺ يتيما؟ ثم حادثة شق صدرهﷺ، ثم تعرف النصارى عليه واعترافهم بنبوته وهو طفلﷺ.

الحدث الأول: لقد قدمنا لكم في الخطبة الماضية أن المصطفىﷺ مات أبوه وهو في بطن أمه؛ فولدﷺ يتيما، ولم يتوقف أمر اليتم عند هذا الحد؛ بل ماتت أمه وعمره ست سنوات، ثم مات جده وعمره ثمان سنوات، وفي استقباله الدنيا بهذا الشكل عدة حكم وإشارات:

منها أن اليتم في حقهﷺ معجزة كبرى؛ بل هو دليل واضح على صدق رسالته، وبرهان ساطع على نبوته، تدفع الناس إلى الإيمان به، إذ كيف يأتي اليتيم بدين يشمل

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 8 ربيع الأول 1427 هـ 9/ 4/ 2006م.

جوانب الحياة كلها، ويمتد عبر الزمان والمكان، ويأتي بحقائق علمية في شتى المجالات، أبهرت اليوم العلماء والمفكرين، فقادتهم إلى الإيمان به مقتنعين؟

ومنها لكيلا يكون لأحد دور في تربيته ولكيلا يمن عليه أحد، فالله هو الذي أدبه فأحسن تأديبه كما قال البوصيري رحمه الله:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم[1]

ومنها لكيلا يدعي أعداء الإسلام أن الذي رباه على هذه الدعوة أبوه أو جده أو أمه، خصوصا إذا علمنا أن الرياسة في مكة تؤول دائما إلى أجداده في الجاهلية.

ومنها ليكون أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعلموا أن اليتم ليس بنقمة، وأن اليتم لا يكون أبدا حائلا بين الإنسان وبلوغ أعلى المراتب، وتبوء المكانة المرموقة، وقد قالﷺ: «...إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»[2].

ومنها ليؤدبه الله تعالى بشكل عملي على إكرام اليتامى، وذلك بتحمله مرارة اليتم بنفسه لأن القاعدة دائما هي "ما راء كمن سمع"، ولهذا جاء في القرآن الكريم، في إطار تأديب الله له على إكرام اليتامى، ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر﴾[3]، فاستجابﷺ لهذا التأديب، فكان خير مدافع عن حقوق اليتامى، يكرمهم ويزيل الأحزان عنهم، ولا أدل على ذلك من قولهﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»[4].

الحدث الثاني: لقد كان من عادة العرب آنذاك أن يرضعوا أولادهم في البوادي، فأسعد الله سبحانه وتعالى حليمة السعدية بإرضاع المصطفىﷺ.

وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء[5]

فظهرت عليهﷺ وهو في أحضانها علامات النجابة مبكرا، فأفاض الله على بيتها من النفحات والبركات والخيرات ما لم تعهده من قبل، مما جعلها تعتقد أن للطفل

---

(1) البيت للبوصيري في قصيدته الميمية المشهورة بـ(البردة).

(2) حسن، وأوله: "عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما..." رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2396، وابن ماجه في السنن: 2/ 1338، ح: 4031، وأورده الألباني في الصحيحة: 1/ 276، ح: 146.

(3) الضحى: 6-9.

(4) صحيح، رواه البخاري في صحيحه: 5/ 2032، كتاب الطلاق/ باب اللِّعَانِ وَقَوْلِ اللهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، ولفظه: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا"، ورواه الترمذي في سننه بلفظ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى"، سنن الترمذي: 4/ 320، ح: 1318.

(5) البيت للبوصيري في همزيته المشهورة.

الذي بين يديها، والذي يتغذى من ثديها شأنا عظيما. وفي هذه الفترة وقعت لهﷺ حادثة شق الصدر. أتدرون ما هي حادثة شق الصدر؟

إنها عملية جراحية دون مخدر ولا دم، ودون مكدر ولا ألم، قام بها جبريل عليه السلام، بمساعدة ملائكة الرحمن، حيث أخذ النبيَّﷺ فشق صدره كما روى الإمام مسلم(1) ثم استخرج من قلبه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه كما كان، دون رعاية طبيب ولا إنعاش ممرض، وقد تكررت لهﷺ هذه العملية ليلة الإسراء كما في الحديث المتفق عليه(2).

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن هذه العملية الخارقة للعادة، هي بمنزلة تطهير معنوي، وإنما اتخذت هذا الشكل المادي المحسوس، لأن الله -عز وجل- أراد أن يبين لنا فيها بدليل ملموس، أن النبيﷺ معصوم من الخطأ، لأن أعماله كلها شرع وسنة، وحركاته كلها دين وملة، يجب الإقتداء به في كل أحواله وأعماله، قال الله سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾(3).

والعصمة -يا عباد الله- خاصة بالأنبياء، ولا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه، فكل من ادعى العصمة -مثل غلاة الشيعة والصوفية- فادعاؤه هذا دليل على أنه كذاب ماكر لا يريد إلا الاستحواذ على القلوب، لا يريد إلا أن يصطاد الدنيا بشبكة الدين؛ لأن الرسولﷺ يقول: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطاءين التوابون»(4).

فالنبيﷺ إذن معصوم بعناية الله سبحانه، ولهذا نجد أن الله سبحانه قد وبخه، ورده إلى الصواب، في عدة مسائل، منها: قضية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، حين أعرض عنه النبيﷺ رغبة في إيمان رؤساء قريش، فنزل القرءان الكريم يصحح المسار: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة﴾(5) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عصمة الله لهﷺ.

لقد يئس الشيطان أن يكون له في المصطفىﷺ حظ ونصيب، بل قرينه قد أسلم فلا يأمره إلا بخير، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أن النبيﷺ

(1) صحيح مسلم: 1/ 147، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول اللهﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.
(2) - صحيح البخاري: 1/ 135، كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، - صحيح مسلم: 1/ 147، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول اللهﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.
(3) آل عمران: 31.
(4) حسن، رواه الترمذي في سننه: 4/ 659، ح: 2499.
(5) عبس: 1-11.

قال: «ما منكم من أحد إلا وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي ولكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[1].

أما نحن فللشيطان فينا ألف حظ وحظ!! فقد يكون حظ الشيطان من الإنسان في قلبه، حين يصدق بالشعوذة والخرافات، ويؤمن بالسحرة والأوهام، فيؤمن دون دليل، ويصدق دون برهان. وقد يكون حظه من الإنسان في ماله، إذا اكتسبه من الحرام، أو أنفقه في الحرام. وقد يكون حظه من الإنسان في الأولاد، إذا أساء تربيتهم. وقد يكون حظه من الإنسان في فرجه بالزنا. وقد يكون حظه من الإنسان في لسانه بالغيبة والنميمة والكذب. وقد يكون حظه من الإنسان في عينه وبصره، والعين تزني وزناها النظر؛ بل قد يكون حظه من الإنسان حتى في صلاته التي يعبد بها الله سبحانه وتعالى، وذلك حين تكون خالية الوفاض من الخضوع والخشوع، جافة جوفاء، يضيع ركوعها وسجودها وأركانها، ويلتفت يمينا وشمالا وقد سألت عائشة النبيﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقالﷺ: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» رواه البخاري والنسائي[2] وغيرهما. وقد يكون حظ الشيطان من الإنسان وافرا حين يُعرِض عن ذكر الله سبحانه، وتعالى وقد قال الله سبحانه: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[3]. بل حين يُعرِض الإنسان عن ذكر الله يكون الشيطان مشاركا له حتى في أمواله وأولاده، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[4].

ومن حادثة شق الصدر يعلمنا الله تعالى أن القلب بصلاحه يصلح الإنسان وبفساده يفسد الإنسان، وهذا ما أكده الرسولﷺ بعد في نبوته فقد روى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير أن الرسولﷺ قال: «ألا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألاَ وَهِيَ القَلْبُ»[5]. فالقلب الصالح لا حظ للشيطان فيه، لأنه لا يقبل الشرك ولا الإلحاد ولا الرياء

(1) صحيح مسلم: 4/ 2167، كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا.
(2) – صحيح البخاري: 1/ 261، ح: 718، كتاب صفة الصلاة/ باب الالتفات في الصلاة، – السنن الكبرى للنسائي: 1/ 191، ح: 526.
(3) الزخرف: 36.
(4) الإسراء: 64.
(5) – صحيح البخاري: 1/ 28، كتاب/ باب فضل من استبرأ لدينه، – صحيح مسلم: 3/ 1219، كتاب المساقلة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

والسمعة ولا النفاق ولا القنوط ولا السخط ولا الحسد، ولا البغضاء؛ فالقلب الصالح ملؤه الإيمان والأمل والإخلاص والصدق، يتحلى بمقامات اليقين:

خوف رجا شكر وصبر توبة   زهد توكل رضا محبة[1]

ومن حادثة شق الصدر نتعلم أن عناية الله تعالى بطفولة النبيﷺ فيه تنبيه وتوجيه للآباء وأولياء الأطفال والمعلمين والمدررين، حتى يبذلوا قصارى جهودهم لإبعاد حظوظ الشيطان عن أطفالهم، ليس بالعملية الجراحية، لأن ذلك مستحيل في حق غير الله تعالى، بل بالعملية التربوية، التي يكون أساسها القدوة الحسنة، والتربية بالأحوال مقدمة على التربية بالأقوال، فالأطفال يتأثرون بالمشاهدة، أكثر مما يتأثرون بالمذاكرة، والرسولﷺ يقول فيما روى الشيخان عن أبي هريرة: «مَا مِنْ مَولُودٍ إلا يُوَلَدُ على الفِطْرَة فأبواه يُهودَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ...»[2]، ويقولﷺ فيما روى أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[3]. ويقولﷺ فيما روى الترمذي: «ما نحَلَ والدٌ ولداً من نُحلٍ أفضَلَ من أدبٍ حسنٍ»[4].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العلمين...

---

(1) البيت من منظومة "المرشد المعين، على الضروري من علوم الدين"، لأبي محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الفاسي (990هـ – 1040هـ).

(2) – صحيح البخاري: 1/ 456، كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، – صحيح مسلم: 4/ 2047، كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...

(3) سنن أبي داود: 1/ 133، ح:495.

(4) رواه الترمذي في سننه: 4/ 338، ح: 1952 مضعفا إياه، وضعفه البخاري في تاريخه الكبير: 1/ 422، ح:1356، والذهبي في تلخيصه: 4/ 263، كما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: 3/ 249، ح:1121.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون.

الحدث الثالث: بعد أن أحكم اليتم قبضته على النبيﷺ وجد نفسه لا أب ولا أم ولا جد، لم يجد إلا كفالة عمه أبي طالب، فقام عمه بكفالته أحسن قيام، فاشتد في قلبه محبته، حتى إنه ليفضله على أبنائه، فصاحبه في السفر والحضر.

فلما بلغﷺ اثنتي عشرة سنة، سافر معه أبو طالب إلى الشام، وفي الطريق مر براهب اسمه "بحيرى"[1] كما روى الترمذي بسند صحيح[2] فتعرف هذا الراهب على النبيﷺ من خلال علامات النبوة التي قرأها في التوراة والإنجيل، فعلم أنه خاتم الأنبياءﷺ، فأخبر بذلك عمه، فكان ذلك دليلا آخر على أن اليهود والنصارى، يعرفون النبيﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولكن الأحقاد أعمت أبصارهم وبصائرهم، ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾[3].

ومن هذا نتعلم أن النبيﷺ هو الحق الواضح، الذي شهدت به الأعداء، واعترفت به في العالم كل العقلاء، الذين ينشدون في حياتهم العدل والإنصاف، ويرفضون الظلم والإجحاف؛ فلا يكون من أعدائهﷺ إلا أحد الصنفين الذَيْن نقرأهما في الفاتحة كل صلاة: المغضوب عليهم، أو الضالين؛

فأما المغضوب عليهم فهم من يعرف الحقيقة ويحاربها، وهو الإنسان المعاند الخبيث الطوية، الذي يظلم نفسه وقناعته قبل أن يظلم غيره.

أما الضالون فهم الذين يجهلون الحقيقة ثم يحاربونها، وهم ضحية الصنف المغضوب عليهم، الذين تقدم لهم الحقائق مشوهة فيحسبون أنهم يحسنون صنعا، ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾[4].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

---

(1) اخْتُلِفَ في ضبْطه؛ فقيل: بُحَيْرَاءَ بِضم الباء الموحدة وفَتح الحاء المهملة وألف ممدودة، وقيلَ: بَحِيرَى بِفَتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وألف مقصورة، انظر: تحفة الأحوذي، على سنن الترمذي: 10/ 64.

(2) سنن الترمذي: 5/ 590، ح:3620.

(3) البقرة: 89.

(4) الفاتحة: 5-7.

6) الخطبة [6] وقفات في شباب المصطفىﷺ[1]

الحمد لله الذي أكرمنا بسيرة من ختمت رسالته كل الرسائل، وجعل الإقتداء بهﷺ منبع المكارم والفضائل، ووقاية من المفاسد والرذائل، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل الصالحين في الدنيا والآخرة من الأفاضل، وأركس المفسدين في النار مقرنين في الأصفاد والسلاسل، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيد بالبراهين والدلائل، الذي وحد الأمة بالتوحيد بعد أن كانت شتى الفرق والفصائل، فبين لنا أن قوة الشباب أفضل الطرق إلى النصر وأنجع الوسائل، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا في كل خير من الأوائل، وعلى التابعين لهم في التمسك بما في دين الله من الأحكام والمسائل.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في سلسلة خطب السيرة النبوية، وقفات في ولادتهﷺ ووقفات في طفولتهﷺ بمناسبة شهر الربيع النبوي، واليوم نستخرج من سيرة المصطفىﷺ بطاقة تعريف لشبابه، نستنطق مراجع السيرة، لنرى كيف عاشﷺ شبابه؟ خصوصا أننا اليوم نرى الشباب مستهدفا بجميع الوسائل، وفي جميع المستويات، وكثير من الشباب في فراغ، و"النفس الأمارة إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل"[2]، فهو مستهدف من وسائل الإعلام التي فغرت فاها لتلتهم منا أخلاق الشيب والشباب، بفسقها ومجونها، مستهدف من عبدة الشيطان الذين لا يعرفون للحرام حدودا، مستهدف من عباد الصليب الذين يستغلون ذلكم الشبح الثلاثي الخطير: الفقر والجهل والمرض.

إن فترة الشباب -يا عباد الله- هي مرحلة القوة، لها نكهة خاصة، وذوق خاص، والإنسان مهما كان لا يحب الخروج من فترة الشباب، فحين يرى بوادر المغادرة من مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيب يبادر بطمسها، فيتخوف من الصلع حين يزيل الشعر من رأسه، ومن الشعر الأبيض حين ينزل برأسه؛ فيكون كما قال الفقيه المالكي سند بن عنان الأزدي رحمه الله:

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 15 ربيع الأول 1422 هـ 7 / 6 / 2001 م.

(2) من كلام الصوفية كما رواه عنهم الإمام الشافعي، انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 3/ 129.

وزائـرة للشيـب حـلـت بمـفـرقـــي فبادرتـها بالنتـف خوفا من الحتف
فقالت: على ضعفى استطلت ووحدتـي رويدك للجيش الذي جاء من خلفي[1]

والإنسان عندما يبلغ من الكبر عتيا أحلى ما يتمنى وأغلى ما يرجو: لو رجع شبابه إليه وهيهات! وقديما قيل:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب[2]

فيجب أن نعرض شبابنا على شباب المصطفىﷺ، علنا نستفيد وقد طال جهلنا، علنا نستيقظ وقد تعمق سباتنا، علنا نتذكر وقد طالت غفلتنا.

أيها الاخوة المؤمنون! لقد تميز الرسولﷺ في شبابه بثلاثة أمور: الأول: العفاف والطهارة الحسية والمعنوية، الثاني: الكد والعمل، الثالث: المشاركة الفعالة في المسائل المهمة، تلكم والله أهداف الشباب الطموح، تلكم والله عناصر الشباب المثالي الناجح.

أما العنصر الأول فهو العفاف والطهارة، فقد أدبهﷺ ربه فأحسن تأديبه، بعيدا عن مدنسات الأخلاق، وملوثات الفضائل، ومدمرات المكارم، فكانت عصمة الله تحول بينه وبين أن يسمر مع السامرين، وأن يسهر في ليالي اللهو والفسق مع الساهرين، كما روى ابن إسحاق وصححه الحاكم والذهبي وغيرهما. فالرسولﷺ عفيف في العقيدة والأخلاق، عفيف في المعاملات واكتساب الأرزاق، فلم يشربﷺ الخمر قط، ولم يسجد لصنم قط، ولم تعرف عنه الخيانة، ولا الكذب، ولا الغش، حتى التصقت به صفات الصدق والأمانة، فنالﷺ في مجتمعه وشبابه درجة الأمين، وتزوج وعمره خمس وعشرون سنة، والزواج المبكر للشباب حصن وبركة، ووقاية من الفساد والتهلكة، وأمر دافع للعمل والحركة، وفي كل حركة بركة.

فلا غرابة –يا عباد الله– أن يكون الرسولﷺ أولَ الداعين لعفة الشباب، لأنه تربى على العفة والطهارة، فقالﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3]، وقالﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، ومنها: «شاب

---

(1) البيتان للفقيه المالكي سند بن عنان الأزدي المصري (ت 541هـ)، انظر الديباج لابن فرحون، ص: 207.
(2) البيت للشاعر العباسي أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم العنزي(130هـ – 211هـ)، من قطعة مطلعها:
بَكَيتُ عَلى الشَبابِ بِدَمعِ عَيني * فَلَم يُغنِ البُكاءُ وَلا النَحيبُ
ديوان أبي العتاهية، ص: 23.
(3) متفق عليه: – صحيح البخاري: 2/ 673، كتاب الصوم/ باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، – صحيح مسلم: 2/ 1018، كتاب النكاح/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.

نشأ في عبادة الله»[1]، وقالﷺ: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال»، ومنها: «عن شبابه فيما أبلاه»[2]، وقالﷺ: «اغتنم خمسا قبل خمس» ومنها: «شبابك قبل هرمك»[3].

فما أحوج شبابنا –يا عباد الله– للإقتداء بعفاف وطهارة المصطفىﷺ خصوصا ونحن في عصر أصبحت فيه الرذيلة فضيلة، والفساد حضارة، فشوارعنا مع الأسف لم تكن في مستوى صاحب شريعتناﷺ، فإذا أراد الشاب الخمر فمتاجرها الكبرى في مداخل المدينة رهن إشارته، فإذا أراد الزنا فدور الدعارة في أحياء المدينة معلنة، وإذا أراد المخدرات فسوقها السوداء على الشوارع، يمارس فيها أباطرتها البيع والشراء، وإذا دخل إلى المنزل فوسائل الإعلام أو الألغام في انتظاره، فما عليه إلا أن يضغط على الزر لتتراءى له المحطات الفضائية فتبث له الشبهات والشهوات، بشكل لا يخطر حتى ببال الشيطان.

أما العنصر الثاني في شباب الرسولﷺ فهو الكد والعمل، فأنتم تعلمون أن النبيﷺ ولد يتيما: مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وعمره ست سنوات، ومات جده وعمره ثمان سنوات، فكان في كفالة عمه أبي طالب، ولم يرضﷺ وهو شاب، أن يكون حملا ثقيلا على عمه، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، كما روى البخاري، وأخبرنا ﷺ بذلك بعد النبوة، وهنا نلمس من أخلاقهﷺ التواضع، فكم منا اليوم كان راعي الغنم، ولكن لما أصبح له مركز اجتماعي مهم، لم يرض حتى أن يتذكر تلك الفترة، فكيف بأن يذكرها ويعلنها، بل قد لا يذكرها إلا ليلعنها، والمصطفىﷺ لم يمنعه مركزه النبوي، ولا شرفه الرباني، أن يقول كنت أرعى الغنم لأهل مكة، لأن رعي الغنم على كل حال كد وعمل شريف. وهكذا لم يعرفﷺ في شبابه الفراغ، ولم تنل منه البطالة أي منال، فهو يعرف كيف يحول فراغه إلى كد وعمل، وإلى جد وأمل.

فلا غربة أن يكون بعد النبوة، أولَ الدعاة إلى العمل الدؤوب، وهو الذي نزل عليه ﴿فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾[4]، وهو الذي مجد مختلِف أنواع الحرف

---

(1) متفق عليه: – صحيح البخاري: 1/ 234، كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، – صحيح مسلم: 2/ 715، كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة.

(2) صحيح، رواه الطبراني بهذا اللفظ عن معاذ بن جبل في المعجم الكبير: 20/ 60، وصحح المنذري إسناده في الترغيب والترهيب: 4/ 214.

(3) صحيح، رواه الحاكم في المستدرك: 4/ 341 وصححه، ووافقه الذهبي في التلخيص: 4/ 306.

(4) الشرح: 7-8.

والنشاطات الاقتصادية، لأنهﷺ تربى على العمل وحب الكسب منذ نعومة أظفاره، فقالﷺ في الفلاحة، فيما روى البخاري ومسلم: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[1]، وقال في التجارة فيما روى الترمذي: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[2]، وفيما روى الأمام أحمد أنهﷺ سئل عن أفضل الكسب فقال: «بيع مبرور، وعمل الرجل بيده»[3]، وقال في مختلِف أنواع الأعمال اليدوية: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[4]...

إن مشكل البطالة أيها الاخوة في الله، هو مشكل عويص، ذاق ويلاتها الشيب والشباب، وعانى منها المثقفون وحاملوا الشهادات، كما عانى منها الأميون ومتوسطوا الثقافات. فعلى المسؤولين أن يجِدُّوا في إيجاد فرص الشغل للشباب العاطل، والبحث عن الحلول لهذا المشكل النازل، لا بالكلام والوعود والأوراق، بل بالمعامل والمصانع والأسواق، فإن مقياس النجاح للحكومات في العالم، إنما هو بمقدار تقليصها لأخطبوط الفراغ والبطالة، وبقدر إيجادها لفرص الشغل والعِمالة.

أما العنصر الثالث في شباب الرسولﷺ فهو المشاركة الفعالة في القضايا المصيرية، التي تهم أهل مكة بصفة خاصة، والعرب بصفة عامة.

فقد شارك ﷺ في حرب تسمى حرب الفجار دفاعا عن مكة وأهلها، فكان يزود أعمامه بالنبال والسلاح وعمره لم يصل بعد العشرين.

ثم شارك في حلف الفضول وعمره عشرون سنة، فكان فيه عضوا مؤسسا، وحلف الفضول: هو عبارة عن نقابة أنشئت للدفاع عن حقوق الأجير، عبارة عن منظمة لحقوق الإنسان، عبارة عن جمعية خيرية مهمتها نصرة المظلوم حتى يأخذ حقه من الظالم، وقد قالﷺ عن هذا الحلف: «حضرت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه»، رواه الإمام أحمد والحاكم وهو صحيح[5].

---

(1) – صحيح البخاري: 2/ 817، كتاب المزارعة/ باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، – صحيح مسلم: 3/ 1188، كتاب المساقاة/ باب فضل الغرس والزرع.
(2) حسن، رواه الترمذي في سننه: 3/ 515، ح: 1209، وقال: "هذا حديث حسن".
(3) مسند أحمد: 3/ 466، وقد أورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 159، ح: 607.
(4) صحيح البخاري: 2/ 730، كتاب البيوع/ باب كسب الرجل وعمله بيده.
(5) – مسند أحمد: 1/ 190، – المستدرك على الصحيحين: 2/ 239، ح: 2870.

ثم شاركﷺ في بناء الكعبة، عندما انهدمت بسبب الأمطار، وعمره خمس وثلاثون سنة، وكان ينقل الحجارة بنفسهﷺ، فكشف لنا بناء تجديد الكعبة، عن مكانتهﷺ الأدبية في الوسط القرشي، لأنه لما تم البناء تحركت العصبية الجاهلية بين قريش، فاختصموا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، وكل قبيلة تريد أن تستأثر بذلك لنفسها، حتى كادوا يتحاكمون للسيوف، ولكنهم اتفقوا في آخر الأمر على أول رجل يدخل عليهم من باب بني شيبة، وهو المسمى الآن بباب السلام، فكان الداخل هو المصطفىﷺ، فهتفوا كلهم على لسان واحد: أتاكم الأمين، رضينا به؛ فتولى الرسولﷺ وضع الحجر بيده الشريفة، بكيفية ترضي الجميع، إذ وضع الحجر الأسعد في ثوبه، فدعا من كل قبيلة فردا، فحمل الجميع الحجر إلى مكانه، فكانﷺ رحمة حفظ الله به دماء قريش، ومنع به حربا لو بدأت لما كانت لها نهاية، حتى يذوق ويلاتها كل بيت، ويعاني من مأساتها كل أسرة.

أيها الاخوة المؤمنون! يجب علينا نحن اليوم أن نقتدي بشباب المصطفىﷺ، يجب أن نفتح للشباب المشاركة في صنع القرار، المشاركة في مراكز القرار، المشاركة في قيادة المصالح والمهمات واتخاذ القرار، سواء على مستوى الأسرة الكبيرة في الأمة والدولة، أو على مستوى الأسرة الصغيرة في البيت والعائلة، وقد كان آخرُ من ولاه الرسولُﷺ في حياته قيادة الجيش شابا، لم يتجاوز عمره عشرين سنة، وهو أسامة بن زيد رضي الله عنه وفي الجيش آنذاك كبار المهاجرين والأنصار، في مستوى أبي بكر وعمر وأمثالهما...

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

ذلكم هو شباب الرسولﷺ. فهل كان شبابنا على مستوى ذلكم الشباب النبوي المبارك؟ إن شبابنا اليوم على ثلاثة أنواع:

شباب في صحوة إسلامية يحتاجون لمن يقودهم.

شباب في غفلة شيطانية يحتاجون لمن يوقظهم.

شباب في ظلمة إلحادية يحتاجون لمن ينقذهم.

فأما شباب الصحوة الإسلامية، فهم في حاجة لقيادة صالحة، تقودهم لقضايا الأمة الكبرى، بعيدا عن الاختلافات الجزئية، بعيدا عن الأغراض والأهواء، بعيدا عن الحركات الملغومة، إلى حركة تزرع المحبة والإخاء، بعيدا عن السلفية المزعومة، إلى سلفية ترجع بنا إلى كتاب الله وسنة سيد الأنبياء، بعيدا عن الصوفية المسمومة، إلى صوفية تربي فينا أخلاق الحنيفية السمحة، بعيدا عن النزاعات المغرضة، والآراء الضيقة إلى فضاء أرحب وأوسع، فضاء الأخوة الإيمانية، والمحبة الصادقة.

أما شباب الغفلة الشيطانية، الغافلون حتى عن أنفسهم، الذين لا يعرفون للعمل الصالح سبيلا، الذين يتتبعون مواقع الخمر والمخدرات والزنا، كل همهم إشباع غرائزهم، فهم في حاجة لمن يوقظهم من غفلتهم، لمن يحرك مشاعر الإيمان في قلوبهم بشعائر الإسلام، لمن يذكرهم بمشاريع الخير في نفوسهم بشرائع الأخلاق، حتى تزول عنهم غشاوة الغفلة، وآفات اللامبالات.

أما شباب الظلمة الإلحادية، فهم وإن كانوا قلة فخطورتهم أشد وأنكى، الذين يسبون الدين والملة، ويستهزئون من حلول الإسلام، ويتبرمون من قال الله، وقال الرسول، الذين يسمون أنفسهم "عبدة الشيطان" بشكلهم الغريب، ونزواتهم الشاذة الذين يتجرؤون على سب الصحابة والتابعين والعلماء. الذين لا يتورعون أن يرددوا أقوال أئمة الكفر والإلحاد: لا إله والحياة مادة، الدين أفيون الشعوب.

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

نعوذ بالله! فهؤلاء في حاجة لمن ينقذهم، لمن ينور قلوبهم، لمن يجعلهم يقفون على جلال الإسلام وجماله، في حاجة لمن يحاورهم بالتي هي أحسن، لا لمن يحاربهم بالتي هي أخشن، ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[1]...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) فصلت: 24.

الفصل الثاني: خطب السيرة بين البعثة والهجرة

وفيه ست خطب

7) الخطبة [1] الرؤيا المنامية بداية البعثة النبوية(1)

الحمد لله الذي جعل الرؤيا المنامية وحيا، وجعل به كلمته هي العليا، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة لا نعصي له فيها أمرا ولا نهيا، بوحيه تطمئن القلوب وتحيا، فتتبعها الجوارح طاعة وهديا، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله شريف الخصال وكريم الْـمُحَيَّا، كانت خلقه في الجمال والجلال التمامَ ونهاية الْـمُغَيَّا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين نصروا الـهُدى جهرا وقدموا الندى خُفيا، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى نهاية الدنيا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها هو شهر ربيع الأول قد حل بساحتنا، وقد قدمنا لكم في الجمعة الماضية أنه شهر قد امتلأ بالذكريات المتعلقة بالحبيب المصطفىﷺ؛ ففيه ولدﷺ، وفيه بدأ الوحي بالرؤيا المنامية، وفيه هاجرﷺ من مكة إلى المدينة، وفيه توفيﷺ فالتحق بالرفيق الأعلى؛ وعلاوة على ذلك فقد وقعت فيه أيضا أحداث أخرى، هي بالنسبة لهذه لأربعة صغرى، ففيه نزلت الآية التي حرمت الخمور، وفيه وقعت غزوة بني النضير، وغزوة دومة الجندل، وغزوة الغابة، وسرية خالد بن الوليد لقبيلة نجران، وفيه توفي إبراهيم ابن النبيﷺ.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن الحدث الثاني من هذه الأحداث، وهو: بداية الوحي بالرؤيا المنامية.

أيها الإخوة المؤمنون؛ من المعلوم أن أول آية تنزل من القرآن الكريم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وأنها نزلت في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، وبذلك اشتهر أن الوحي بدأ ينزل في رمضان، هذا فيما يخص نزول الوحي والنبيﷺ في اليقظة، فيسمع ويعي.

ولكن ينبغي أن نعلم أن الوحي يأتي النبيﷺ في أشكال مختلفة: منها الرؤيا المنامية، منها النفث في الروع وهو القلب، منها أن يتمثل له جبريل رجلا، منها أن يأتي كصلصلة الجرس أي صوت له طنين قوي كصوت وقوع الحديد بعضه على

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 4 ربيع الأول 1431 هـ 19 / 2 / 2010 م.

بعض، وهو أشده عليهﷺ وأثقل، ومنها أن يكلمه الله تعالى مباشرة كما كلم موسى عليه السلام.

والوحي بالرؤيا المنامية هو الذي بدأ في ربيع الأول بستة أشهر قبل رمضان، قالت أمنا عائشة عن هذه الفترة كما روى البخاري: «كان النبيﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»، ويقولﷺ فيما روى الشيخان: «ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، وذلك أن عُمْرَهﷺ بعد البعثة إلى الوفاة هو ثلاث وعشرون سنة، وكم من ستة أشهر موجود في ثلاث وعشرين سنة؟ إنه ستة وأربعون جزءا، وواحد منها هو فترة الوحي بالرؤيا المنامية.

إذن الرؤيا المنامية نوع من الوحي؛ فإذا كانت من النبيﷺ فهي شرع وشريعة، وجب الأخذ بها، وامتثال أمرها، وقد بادر سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل امتثالا للرؤيا، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، كما بادر النبيﷺ بالاستجابة فورا، حينما رأى في منامه أنهﷺ قد دخل مكة مع أصحابه معتمرين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، فخرجﷺ للعمرة والظروف لم تكن مواتية؛ وكفار قريش يسيطرون على مكة المكرمة، وبينهم وبينه حرب طاحنة؛ باردة وساخنة.

أما إذا كانت الرؤيا من غير النبيﷺ فلا بد من تفسيرها حسب قواعدها وضوابطها، يعلمها من له العناية والدراية بها، وهي ما تبقى لنا من الوحي والنبوة بعد موت النبيﷺ؛ يقولﷺ فيما روى مالك في الموطأ: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات... الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له»، والناس بالنسبة لاعتبارها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: منهم من ينكرها ويتنكر لها، ويعتبرها مجرد أضغاث أحلام، ومجرد انعكاس لما يتعرض له الإنسان في يقظته من مسرات ومضرات، لا علاقة لها بالمبشرات ولا بالمنذرات، فهي عندهم أمر مادي صِرف كما زعموا.

النوع الثاني: منهم مشعوذون يلهثون وراء كل ما يزين لهم الشيطان منها، ويعملون على مقتضياتها، فيظنون أنهم بها يعرفون المغيبات، وبها يكشفون الستار عما سيقع في المستقبل، وعما وقع في الماضي، فيهربون بها من الواقع المر الذي يعيشونه، ويستغلون البسطاء من الناس، يستميلون بها عقولهم من أجل استنزاف جيوبهم. فتكالب كثير من الناس عليهم بسبب الخواء الروحي الذي يتبعه الجزع، فتعلّقوا بالمنامات، حتى أصبحت شغلَهم الشاغل عبر المجالس والمنتديات

والمجامع؛ بل وفي القنوات الفضائية التي جعلتها وسيلة جلب لمتتبعيها، وطعم استقطاب لمشاهديها، إلى أن طغت على الفتاوى الشرعية، فأصبح الناس يسألون عن المناميات وتفسيرها، أكثر بأضعافٍ من السؤال عن أمور الدين ومستلزماتها؛ وما تهافتُ الناس على الرؤيا بهذه الصورة المفرطة إلا لونٌ من ألوان الهروب من الواقع، والخروج عن الإطار المتوازن المتكامل الذي وضعه الشارع.

وليس هذا قاصراً على عامة الناس فحسب؛ بل قد ابتُلي به الكبراء، الخائفون على كراسيهم من الزوال، وعلى مناصبهم من الزلزال؛ فكم أقضّت المناميات من مضاجع الكبار؟ وكم شغلت وشوشت من عقول العظام؟ فتجد أحدَهم يرى الرؤيا أياً كانت فتضطرب لها حواسُّه وترتعد منها فرائصُه، وتُحبَس أنفاسه، فلا تستريح له نفس ولا يهدأ له بال إلا إذا عثر على معبر لها ومفسر، حتى يظهر له أشرّ هي أم خير! بحيث لا تصل حالته إلى هذا الحد إذا ارتكب المعاصي المخزية، أو اقترف الذنوب المحزنة، أو ظلم العباد وأفسد البلاد، وما رؤيا ملك مصر مع يوسف عليه السلام بخافية عنا

أما النوع الثالث: فهم أصحاب الوسطية والاعتدال، الذين ساروا على نهج النبوة، الذين يرون أن الرؤيا ثلاثة أقسام؛ كما يقول النبي ﷺ فيما روى ابن ماجه بسند حسن: «إن الرؤيا ثلاث: منها أهاويل[1] من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[2].

أما القسم الأول أهاويل الشيطان فقد علمنا الرسول ﷺ كيف نتعامل معها وذلك بما يلي:

1) أن تتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان.
2) أن تتفل حين تستيقظ من نومك ثلاثاً عن يسارك.
3) أن لا تذكرَها لأحد أصلاً.
4) أن تتحوّل من جنبك الذي كنت عليه.
5) أن تقرأ آية الكرسي؛ للحديث: من قرأها لا يقربهُ شيطان.

وفي هذا يقول النبي ﷺ فيما روى مسلم: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا حَلَم أحدكم حُلْماً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً وليتعوّذ بالله من شرها، فإنها

---

(1) أهاويل: جمع أهوال وهو جمع هول، كأقاويل جمع أقوال وهو جمع قول (جمع الجمع).

(2) صحيح، رواه البخاري في التاريخ الكبير: 8/ 348، ح: 3276، وابن ماجه في السنن: 2/ 1285، ح:3907، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 4/ 487، ح: 1870.

لن تضرّه»[1]، ويقولﷺ فيما روى البخاري: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»[2].

أما القسم الثاني فهو: ما يحدِّث به المرء نفسَه في يقظته، كمن يكون مشغولاً بسفر أو تجارة أو يخاف من شيء، أو نحو ذلك، فينام فيرى في منامه ما كان يفكّر فيه في يقظته، وهذا من أضغاث الأحلام التي لا تعبير لها، ولا ينبغي للمسلم أن يحدث بها أيضا، روى مسلم أن أعرابياً جاء إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي ضُرب، فتدحرج فاشتددتُ على أثره (تبعته)! فقال له رسول اللهﷺ: «لا تحدث الناس بتلعّب الشيطان بك في منامك»[3].

أما القسم الثالث فهو: الرؤيا الصادقة الصالحة التي تكون من الله مبشرة ومنذرة؛ ولكن لا تحرم حلالا ولا تحل حراما، و لا تشرع حكما. وقد تكون واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل كرؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنَه، وقد تكون خافية برموز تحتاج فيها إلى معبر يفسرها، كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا ملك مصر مع يوسف عليه السلام؛ فقد اجتمع فيهما التبشير والإنذار في آن واحد؛ أما رؤيا صاحبي السجن فقد قتل أحدهما وعاش الآخر، أما رؤيا ملك مصر فبشارتها هي السَّعة في الرزق سبعَ سنين، وإنذارها هي الجدب والقحط سبعًا مثلها؛ يقول النبيﷺ: «الرؤيا معلقة برجْلِ طائر ما لم يحَدِّث بها صاحِبُها، فإذا حدَّث بها، وقعت؛ فلا يحدِّث بها إلا عالما، أو ناصحا، أو حبيبا»[4].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) متفق عليه، ولفظه من صحيح مسلم: 4/ 1771، كتاب الرؤيا.

(2) صحيح البخاري: 6/ 2563، كتاب التعبير/ باب الرؤيا من الله.

(3) صحيح مسلم: 4/ 1776، كتاب الرؤيا/ باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام.

(4) صحيح، رواه ابن حبان بهذا اللفظ في صحيحه: 13/ 420، ح: 6055، ورواه الترمذي بلفظ قريب وقال: "هذا حديث حسن صحيح" سنن الترمذي: 4/ 536، ح: 2278.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

إن تفسير الرؤيا المنامية على الملأ بمشاهدة الملايين في الفضائيات، أو من خلال المجامع الممتلئة بالحشود، أمر خطير؛ لأنها نوع من الرجم بالغيب الخاص بالله تعالى، والنصوص في ذلك كثيرة: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللهُ﴾[1]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ﴾[2]، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ﴾[3]، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[4]. وقد نقل ابن عبد البر أن الإمام مالكا سئل: أيعبُر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: «أبالنبوة يُلعب»؟ وكان ابن سيرين وهو العالم المؤول حينما يسأل عن رؤيا كثيرا ما يقول: لا أدري، وكان يقول للسائل: «اتق الله وأحسن في اليقظة فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم، وإنما الجواب بالظن والظن يخطئ ويصيب».

فإذا كان هذا هو قول إمام المعبرين في زمانه وما بعده من الأزمان، فما الظن بمن جاء بعده؟! إنا لنسمع بالمعبِّر في الفضائيات يُسأل عن الرؤيا مئات المرات لا تسمع مرةً يقول: لا أدري، أو يقول: هذه أضغاث أحلام، أو يقول: هذه حديث نفس!

وتفسيرها أيضا له صلة وثيقة بحال صاحبها في الصلاح والطلاح، في الصدق والكذب، ومعرفه حاله في ذلك عبر الشاشات أمر متعذر؛ والرسولﷺ يقول فيما روى الشيخان: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب»[5]، «...وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا...»[6]، فقد رُوي أن ابن سيرين سأله رجلان كل منهما رأى أنه يؤذِّن، فعبرها للصالح منهما بالحج؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[7] وعبر للطالح بأنه سيسرق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[8].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ

---

(1) النمل: 65.
(2) الأنعام: 59.
(3) يونس: 20.
(4) الجن: 26.
(5) رواه البخاري بلفظ: «رؤيا المؤمن» صحيح البخاري: 6/ 2574، كتاب التعبير/ باب القيد في المنام، ورواه مسلم بلفظ: «رؤيا المسلم» صحيح مسلم: 4/ 1773، كتاب الرؤيا.
(6) هذه الزيادة من رواية مسلم.
(7) الحج: 27.
(8) يوسف: 70.

8) الخطبة [2] حالة النبيﷺ وأصحابه قبل الإسراء[1]

الحمد لله الذي أكرم الأنبياء بمعجزات لا ترد ولا تقصى، فأيد سيدنا موسى عليه السلام بمعجزة العصا، وأبرأ بسيدنا عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص، وأسرى بعبدهﷺ ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأشهد أن لا إله إلا الله علم كل شيء عددا وأحصى، فأسبغ علينا من النعم ما لا يعد ولا يحصى، ودفع عنا من النقم ما لا يوصف ولا يستقصى، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أمر بكل خير وأوصى، فغلَّبه الله على كل ما عسر واستعصى، وهدى به إلى الإيمان والطاعة من كفر وعصى، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه صلاة وسلاما عدد التراب والحصى.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها نحن في شهر رجب، وهو من الشهور الحرم الأربعة، قد حمل إلينا في طياته ذكريات عظيمة، من السيرة النبوية العطرة، هذه السيرة التي أصبحت الأمة المسلمة اليوم في حاجة ماسة لدراستها، في حاجة ماسة للوقوف على أحداثها، في حاجة ماسة للتعلم من فقهها، في حاجة ماسة للسير على منوالها، حتى تكون على بصيرة من أمرها، وقد شتت الأعداء شملها؛ ففي شهر رجب وقعت غزوة تبوك، ومعجزة الإسراء والمعراج.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن معجزة الإسراء والمعراج، التي وقعت في شهر رجب على الراجح، من السنة العاشرة بعد البعثة، هذه المعجزة الكبرى التي خرقت كل النواميس المعهودة، وكل القوانين المعروفة في العادة، حين أسرى الله بعبدهﷺ في رحلة أرضية مباركة، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به في رحلة سماوية مباركة، إلى فوق سبع سماوات، إلى قاب قوسين أو أدنى،وهناك رأى من آيات ربه الكبرى.

هذه المعجزة التي تعتبر بمنزلة العبور من المحنة إلى المنحة، وبمنزلة الانتقال من العسر إلى اليسر، ومن الشدة إلى الفرج، ومن الامتحان والابتلاء إلى بوادر الفوز والنجاح.

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 19 رجب 1420 هـ 29/ 10/ 1999 م.

كيف ذلك أيها الإخوة في الله؟ وفي الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجيب على هذا التساؤل إلا إذا رجعنا إلى ما قبل الإسراء، ولا نستطيع أن نتبين قيمة هذه المعجزة، إلا إذا كشفنا الستار عن الأحداث التي سبقت الإسراء.

لقد كان الرسولﷺ ومعه أصحابه قبل الإسراء يعانون من أنواع الاضطهادات، وأشكال التنكيل والإيذاء، فمنذ أن جهر الرسولﷺ بالدعوة، ورمى المشركين بالتسفيه والضلال، انفجرت مشاعرهم بالحقد والكراهية، فصاروا يصبون جام غضبهم على الرسولﷺ وأتباعه.

فتارة يشنون عليهم حربا كلامية من السخرية والاستهزاء، ومن التشويه والتضليل، فالرسولﷺ ينادى بالمجنون وقالوا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[1] ويوصم بالسحر والكذب يقول الله سبحانه: ﴿وقال الكافرون: هذا ساحر كذاب﴾[2] ويستقبل بنظرات ملتهبة حقودة، وعواطف منفعلة هائجة، يقول الله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾[3] وليس حظ المسلمين بأقل من حظ الرسولﷺ، فهم محطة اللمز والغمز والتنابز، يقول الله سبحانه: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾[4].

وتارة يستعملون حرب التنكيل والتعذيب وسفك الدماء، خصوصا ضد المستضعفين من المؤمنين الذين لا عصبة لهم تحميهم، ولا قبيلة تدافع عنهم، فيكون نصيبهم التعذيب والتجويع والموت.

فمن هؤلاء المعذبين في الله عمار بن ياسر وهو من السابقين إلى الإسلام، أسلم هو وأبوه ياسر وأمه سمية فكان المشركون يخرجون بهم إلى وهج الصحراء، والرمال، فيعذبونهم بحر الشمس في الصيف، وما أدراك ما حر الشمس في الصحراء؟ ويمر عليهم النبيﷺ وهم يعذبون فما استطاع إلا أن يقول بقلب معذب: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[5] أما أمه سمية فقد أغلظت القول لأبي جهل وهو يمارس عليها التعذيب، فضربها بحربة في قبلها فماتت، فكانت أول شهيد في الإسلام، وأما أبوه ياسر، فمات أيضا بعد زوجته تحت العذاب، وأما عمار

---

(1) الحجر: 6.

(2) ص: 4.

(3) القلم: 51.

(4) المطففين: 29-32.

(5) المستدرك على الصحيحين: 3/ 432.

بن ياسر فشددوا عليه العذاب بالحر تارة، وبوضع الأحجار على صدره أخرى، وهم يقولون: لا نتركك حتى تسب محمدا أو تلحق بأبويك، ففعل ذلك فتركوه، فأتى النبيَّ ﷺ وهو يبكي، ترى لماذا يبكي؟ هل لموت أبيه وأمه؟ أم لفرط التعذيب الذي تعرض له جسده؟ كلا! لقد بكى لأنه سب النبي ﷺ مكرها، لقد نزلت عليه تلك الكلمة التي سب بها النبي ﷺ كالصاعقة، أنسته كل شيء حتى موت أبيه وأمه، فيقول له الرسول ﷺ: ما وراءك يا عمار؟ فيقول: شر يا رسول الله! لقد نلت منك وكفرت بك، فيقول له ﷺ كيف تجد قلبك؟ فيقول: أجده مطمئنا بالإيمان، فيقول ﷺ: فإن عادوا إليك فعد، فنزل قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾[1].

وبهذا شرع لنا الإسلام قاعدة مهمة في الدين، قاعدة تجعل الإسلام يلائم أي عصر مهما كانت الظروف، قاعدة بنى العلماء عليها أحكاما كثيرة، ألا وهي: الضرورات تبيح المحظورات فإذا جاز أن ينطق المسلم بكلمة الكفر للضرورة، فإن المحظورات الأخرى أولى بالجواز للضررورة، ولكن الضرورة تقدر بقدرها، وقد أكد هذه القاعدة أكثر من آية وحديث يقول الله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾[2]، ويقول الرسول ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[3].

ومن هؤلاء المعذبين في الله بلال بن رباح، وما أدراك ما بلال؟ فهو قمة في الثبات، وجبل في الصبر والتحمل في سبيل الله، بل هو سيد المعذبين في الله! كان رضي الله عنه عبدا خادما وكان سيده أمية بن خلف -لعنه الله- يخرجه كل يوم في الظهيرة حين يحمى وهج الشمس فيقلبه على الرمال الملتهمة ظهرا لبطن، وكان يأمر بالصخور

---

(1) النحل: 106.

(2) الأنعام: 145.

(3) لم يرد في شيء من كتب الحديث بلفظ: «رُفِعَ عن أمتي...»، وإن اشتهر بذلك على الألسنة، وورد به في كثير من كتب التفسير والفقه والأصول وغيرها، وإنما ورد بلفظ: «إن الله تجاوز عن أمتي...»، وبلفظ: «تجاوز الله عن أمتي...»، وبلفظ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي...»، وبلفظ: «إن الله تجاوز لأمتي...»، وبلفظ: «إن الله وضع عن أمتي...»، وبلفظ: «وَضَع الله عن أمتي...»، وبلفظ: «وُضِع عن أمتي...»، وبلفظ «إن الله رفع عن أمتي...»، وبلفظ: «رفع الله عن أمتي...»، وقد اختُلف فيه فصححه ابن حبان والحاكم، وحسنه النووي وابن رجب الحنبلي، وأنكره أبو حاتم الرازي وأحمد، وقال محمد بن نصر المروزي: ليس له اسناد يحتج بمثله.
انظر: - صحيح ابن حبان: 16/ 202، ح: 7219، المستدرك على الصحيحين: 2/ 216، - روضة الطالبين، وعمدة المفتين، للنووي: 8/ 193، - جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص: 371، - علل ابن أبي حاتم: 1/ 431، ح: 1296، - المقاصد الحسنة، ص: 369، ح: 528، - كشف الخفاء: 1/ 522، ح: 1393.

العظيمة فتلقى على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد أو تموت، فما يزيد بلال رضي الله عنه عن ترديد كلمة التوحيد: أحد أحد فرد صمد، لم يتنازل لهم عن مبدإه قيد أنملة، لأنه يعلم أن التنازل عن الحق المشروع انهزام وذل وانكسار، وخيانة للإيمان والقناعة والضمير، حتى اشتراه أبو بكر فأعتقه في سبيل الله وفيه يقول عمر بن الخطاب: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»[1].

ومن هؤلاء المعذبين في الله مصعب بن عمير فقد كان رضي الله عنه شابا وسيما، جميل الطلعة نضيرا، وكان أبوه المشرك يمنع عنه الطعام والشراب حتى تشقق جسمه الوسيم، وتفتت جلده النضير، من معاناة الجوع ومأساة العطش.

ومنهم عثمان بن عفان عندما أسلم كان عمه المشرك يلفه في حصير فيشعل النار بجانبه فتعذب بحرها ودخانها.

ومنهم خباب بن الأرت وكان كفار قريش عندما أسلم يشعلون النار ويضعونه عليها حتى تنطفئ بودك ظهره. ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا.

ولم يقتصر الأمر على جانب الرجال فحسب، بل شاركت المرأة بجانب الرجل في تحمل مخاض ولادة الإسلام منذ أول وهلة، بل سجلت المرأة في تاريخ الإسلام أرقاما سبقت بها الرجال، فأول من آمن بالنبي ﷺ كان امرأة وهي زوجة النبي ﷺ خديجة، وأول شهيد في الإسلام كان امرأة وهي سمية أم عمار.

وممن عذب في الله منهن امرأة اسمها زنيرة، بالله عليكم! هل سمعتم بهذا الاسم قط؟ هل عرفتم من هي هذه المرأة المؤمنة؟ لو كانت فنانة فاسقة، تعرض في أسواق الفسوق جمالها، وتعتو في الأرض فسادا بغنائها، أو كانت ممثلة تحطم دعائم الأسر بتبرجها وسفورها، أو كانت تحصد الأرقام في ألعاب عريها ومهانتها، لتعرفنا عليها، ولسمعنا الكثير عنها، ولقامت قيامة وسائل الإعلام بذكرها والافتخار بها؛ ولكن زنيرة -رضي الله عنها- بعيدة كل البعد عن هذا، فهي امرأة عذبت لأنها تقول: ربي الله، عذبت حتى خارت قواها وذهب بصرها، فقال الجلادون الذين يعذبونها: ما أصاب بصرها إلا غضب اللات والعزى فقالت رضي الله عنها: والله ما تضر اللات ولا العزى ولا تنفعان، فرد الله لها بصرها في الحين[2].

يا من يتشدق اليوم بتحرير المرأة أو التغرير بها! يا من يريد اليوم إدماج المرأة في التنمية وتحمل المسؤولية! هاهي المرأة في بداية الإسلام قد تحملت مسؤولية الثبات على الإسلام، واندمجت في سبيل تنمية الإيمان، لكن مع المحافظة على شرفها.

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1371، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب بلال بن رباح.
(2) السيرة النبوية، لابن هشام: 2/ 161.

أيها الإخوة في الله! عندما رأى الرسولﷺ أن اضطهاد الكفار لأصحابه قد ازداد، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، -أي ما يسمى الآن إثيوبيا وأريتريا- فرارا بدينهم عن الفتنة وأبدانهم عن الإبتلاء.

ولم يكن الرسولﷺ بمعزل عن هذا الإيذاء، فقد أوذي وضرب وناله السب والشتم، وكان أبو جهل من ألد أعدائه يمنعه من الصلاة في المسجد الحرام، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود صورة توضح لنا أشكال الاضطهادات، التي تعرض لها النبيﷺ قال ابن مسعودرضي الله عنه وهو شاهد عيان: بينما رسول اللهﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور -أي إبل- بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟ والسلا: هي المشيمة التي تلف الجنين وهو في بطن أمه، فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط، فلما سجد النبيﷺ وضع السلا بين كتفيه فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، والرسولﷺ ساجد، وعلى ظهره هذه القذورات، حتى جاءت بنته فاطمة فأزالتها عنه[1].

يالله من هذه الوقاحة! لقد وصل العناد بالمشركين، إلى أن يستمرئوا تلويث الساجدين بالأقذار، ويتمايلوا ضحكين من منظر النجاسة ودماء المشيمة، وهي تسيل على كتفي الرسولﷺ . وروى البخاري أيضا أن عقبة هذا -لعنه الله- جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟[2]، وكان عقبة هذا وأبو لهب وزوجته أم جميل جيران النبيﷺفكانوا يرمون الأزبال أمام منزلهﷺ ويضعون الأشواك في طريقه.

ولم يكتفوا بذلك، بل ضربوا على الرسولﷺ وأصحابه، حصارا اقتصاديا ثلاث سنوات، حتى أكلوا أوراق الشجر وتغذوا بالجلود اليابسة، فهذا سعد بن أبي وقاص يحكي صورة توضح لنا معاناة المسلمين من هذا الحصار الجائر، وكيف أضناهم الحرمان وألجأتهم الحاجة إلى أكل ما لا يستساغ، قالرضي الله عنه: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة أي صوتا تحت البول فإذا قطعة من جلد البعير يابسة،

---

(1) – صحيح البخاري: 1/ 94، كتاب الوضوء/ باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، – صحيح مسلم: 3/ 1418، كتاب الجهاد والسير/ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
(2) صحيح البخاري: 3/ 1400، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ/ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»

فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها ورضضتها أي: خلطتها بالماء، فأكلت منها ثلاث أيام[1].

يا من يأكل اليوم الخبز الفطير! ويا من يتغذى باللحوم الطرية! ويا من يتفكه اليوم من الفواكه بالأشكال! ويا من يألف السرير والوثير! هل علمت أن الصحابة وهم خير القرون، كان بعضهم يأكل الجلد اليابس لأنه لا يجد غيره، فما أشد جرأتنا على الله حينما نخالف شرعه، ونحن في هذه النعم الجمة! وما أوسع رحمته بنا إذ لم يهلكنا بما كسبت أيدينا!

ثم بعد هذه المعاناة جاء ذلك العام البائس الذي سماه الرسولﷺ عام الحزن، حيث توفيت زوجته خديجة التي كانت الحجر الحنون الذي يواسيه، وتوفي عمه أبو طالب الذي كان الدرع الواقية التي يحميه، فكانﷺ هدفا سهلا لاعتداءات المشركين، حتى هاجرﷺ إلى الطائف، عله يجد عند أهلها قلوبا واعية، وآذانا صاغية، ولكنهﷺ رجع من الطائف بمأساة على مأساة، حيث طرده أهلها شر طِردة، ورموه بالأحجار حتى سالت قدماه الشريفتان بالدماء.

وفي هذا الخضم من المعاناة والابتلاءات والمحن، جاءت الإسراء والمعراج، فكانت إيذانا باليسر والفرج، فمسحت عن قلب النبيﷺ وقلوب أصحابه متاعب الاضطهاد، ومعاناة التنكيل والتعذيب، وتعلن فيها العناية الربانية، أن الله تعالى في قدرته أن ينصر الإسلام على الكفر في لمح البصر، وكيف لا وهو سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم قطع به السماوات الطباق حتى كان قاب قوسين أو أدنى دون أن يمنعه قصر الزمان ولا طول المكان، وبعد الإسراء مباشرة بدأ إسلام الأنصار في المدينة، وبدأ الإسلام ينتشر خارج مكة، فكانت الإسراء بذلك بمثابة العبور من المحنة إلى المنحة، وبمثابة نقطة البداية في انتشار دين الإسلام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---
(1) الروض الأنف: 3/ 216-217.

الحمد لله رب العالمين

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

ما أشبه اليوم بالبارحة! فإذا عانى المسلمون اليوم من أنواع التنكيل والاضطهاد، وإذا هدمت اليوم مساجدهم، وهتكت أعراضهم، واغتصبت أراضيهم، وإذا شن الأعداء عليهم حربا مدمرة في فلسطين وكشمير والبلقان، والقوقاز والشيشان، فما كل ذلك من أعداء الإسلام بجديد، وإذا حوصر المسلمون اليوم في العراق اقتصاديا، فما الحصار الاقتصادي من الأعداء بجديد، وإذا شوه الأعداء اليوم الإسلام، وألصقوا به تهما وجرائم هو نفسه جاء ليحاربها؛ من الإرهاب والتطرف وانتهاك حقوق الإنسان، فقد عانى النبيﷺ قبلنا من هذا النوع من التشويه، فرمي بالجنون والسحر والكذب.

وإذا كان النبيﷺ قد قال: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1] فإن وضعية الأمة المسلمة اليوم تفرض علينا أن نقول نيابة عن النبيﷺ: صبرا آل فلسطين وكشمير والبلقان فإن موعدكم مع النبيﷺ في الجنة، صبرا آل العراق فإن موعدكم مع النبيﷺ في الجنة، صبرا آل الشيشان فإن موعدكم مع النبيﷺ في الجنة.

فما هذا كله إلا فترة امتحان وابتلاء، وستأتي -إن شاء الله- فترة يسر ونجاح، فما علينا إلا أن نتقي الله تعالى، ونعود إلى ديننا الحنيف، أفرادا وجماعات، محكومين وحكومات، في القلوب والمعاملات، ما علينا إلا أن نصحح مسارنا، فننصر دين الله فينا، لينصرنا الله على أعدائنا، وما ذلك على الله بعزيز.

ولكن إذا كان المسلمون اليوم مضطهدين كما اضطهد الصحابة رضوان الله عليهم، فبيننا وبينهم بون شاسع، فالصحابة يعذب أحدهم وهو يردد: أحد أحد، إنهم يعذبون وهم متمسكون بدينهم، يضطهدون ونساءهم في عفاف وحشمة وحياء، يعذبون وهم في وحدة متماسكة، يحس بمأساة بعضهم جميعهم، لا عبرة للمال عندهم في سبيل كرامة المسلم، أما نحن اليوم فيعذب بعضنا وتدمر بلاده ويقتتل مع أهله وأولاده، والبعض الآخر منا في غيبوبة من الخمور والمخدرات، والنساء كاسيات عاريات، والأغنياء لا يدفعون أموالهم إلا في الشهوات والنزوات، وأنى لنا أن ننتصر كما انتصر الصحابة وهذه حالتنا!

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ

---

(1) المستدرك على الصحيحين: 3/ 432.

9) الخطبة [3] الإسراء: رحلة أرضية مباركة[1]

الحمد لله الذي أكرم المصطفى ﷺ بمعجزة الإسراء، فأرسله هاديا حين زاغت الأبصار وضلت الآراء، فأزال بنوره عن العقيدة الشك والمراء، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل من أصول الإسلام الولاء والبراء، وهو سبحانه المستحق لكل مدح وإطراء، وهو سبحانه المنعم علينا بنعم فاقت الإحصاء والاستقراء، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي حارب كل ضلال وافتراء، فجاء بأحكام تدرأ عن أتباعها الضراء، وبشريعة تجلب للإنسانية السراء، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين كانوا في نشر الإسلام خير سفراء...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية، الأحداث التي سبقت الإسراء والمعراج، فمنها تعلمنا أن معجزة الإسراء بمنزلة اليسر بعد العسر، وبمنزلة المنحة الإلهية بعد المحنة والامتحان، وأن الأزمة إذا اشتدت انفرجت، وأن مع العسر يسرا، وقدمنا أن الإسراء رحلة أرضية، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإليها يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[2]، وأن المعراج رحلة سماوية، من المسجد الأقصى إلى ما فوق سبع سماوات، وإليها يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[3].

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن أحداث هذه الرحلة الأرضية المباركة: الإسراء نقف عندها وقفات نتعلم منها كيف نحافظ على فطرة شريعتنا، نتعلم منها كيف نحرك مشاعر الخير في قلوبنا، نتعلم منها كيف نبني مشاريع النصر لتحرير قدسنا، نتعلم منها كيف نحمي من الفساد شوارعنا.

أيها الإخوة في الله؛ لقد بدأت رحلة الإسراء بعملية جراحية أجريت لقلب المصطفى ﷺ تسمى بحادثة شق الصدر، إنها عملية جراحية دون مخدر ولا دم، ودون مكدر ولا ألم، إنها عملية دون رعاية طبيب ولا إنعاش ممرض؛ ففي تلك الليلة المباركة: ليلة السابع والعشرين من شهر رجب على المشهور، نزل جبريل عليه السلام، فشق صدره ﷺ ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست ممتلئ حكمة وإيمانا،

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 26 رجب 1420 هـ 5/ 11/ 1999 م.

(2) الإسراء: 1.

(3) النجم: 13-18.

فأفرغه في صدره، ثم أطبقه فرجع كما كان، روى ذلك البخاري ومسلم[1]، وليست هذه أولَ مرة، بل شق صدره وهو طفل حيث استخرج منه جبريل حظ الشيطان[2].

أيها الإخوة المؤمنون؛ إن هذه العملية هي تطهير معنوي اتخذت شكلا محسوسا استعدادا لرحلة الإسراء، وهي من الأمور الخارقة للعادة التي يجب التصديق بها دون شك ولا مراء، لأنها وردت بطرق صحيحة، ولأن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير، فهي من المعلوم من الدين بالضرورة، تدل على أن النبيﷺ معصوم من الخطأ، لقد يئس الشيطان أن يكون له فيه حظ ونصيب؛ بل إن شيطانه قد أسلم فلا يأمره إلا بخير، روى مسلم أن النبيﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي! ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»[3]، ولكن العصمة خاصة بالأنبياء، وكل من ادعى العصمة لنفسه من غلاة الشيعة والصوفية، فادعاؤه هذا دليل على أنه كذاب ماكر، لا يريد إلا الاستحواذ على القلوب، لحاجة في نفسي يعقوب، لا يريد إلا أن يصطاد الدنيا بشبكة الدين.

هذا هو الرسولﷺ، لاحظ فيه للشيطان، أما نحن فللشيطان فينا ألف حظ وحظ! لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فقد يكون حظه منك في مالك بالغش والربا والرشوة، أو في فرجك بالزنا، أوفي لسانك بالكذب والغيبة والنميمة، أو في خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أو حتى في عبادتك وصلاتك.

وما الالتفات في الصلاة إلا نصيب الشيطان منها، روى البخاري والنسائي وغيرهما، أن عائشة سألت النبيﷺ عن الالتفات في الصلاة؟ فقالﷺ : «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[4].

وما الرياء والسمعة والإعجاب بالنفس في غياب الإخلاص إلا حظ الشيطان من عمل الإنسان، والله يخبرنا أن إبليس قال: ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم

---

(1) – صحيح البخاري: 1/ 135، كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، – صحيح مسلم: 1/ 147، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

(2) صحيح مسلم: 1/ 147، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

(3) صحيح مسلم: 4/ 2167، كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا.

(4) – صحيح البخاري: 1/ 261، ح: 718، كتاب صفة الصلاة/ باب الالتفات في الصلاة، – السنن الكبرى للنسائي: 1/ 191، ح: 526.

المخلصين﴾[1] والرسول ﷺ يقول: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه...»[2].

وما الإعراض عن ذكر الله إلا نصيب وافر للشيطان من حياة المسلم، لأنه حينما يأكل أو يشرب أو ينام أو يتصل بزوجته دون ذكر اسم الله، وحين يقبل على أي عمل في حالة الإعراض عن ذكر الله، فإن الشيطان شريك له في ذلك العمل، والله تعالى يقول: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[3] ويقول سبحانه: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[4].

أيها الإخوة في الله؛ بعد شق صدره ﷺ أسري به بواسطة البراق، وهو أسرع من البرق والضوء، فلما أراد الرسول ﷺ أن يركب تصبب البراق عرقا حياء من النبي ﷺ؛ لأنه يعلم أن الذي سيركبه هو أفضل خلق الله على الإطلاق، ونحن والله أولى بالاستحياء من الرسول ﷺ حين نضيع سنته، ونخالف أمره، ونجافي الإقتداء به، وقد بين لنا ﷺ أن الحياء هو: «أن تحفظ الرأس وما وعوى والبطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا»[5]، وإذا كان البراق قد استحيا من النبي ﷺ ، فلماذا لا نستحيي نحن وقد ارتكبنا هذه المخالفات الصارخة لأمره وسنته، في شوارعنا وبيوتنا ومعاملاتنا وأسواقنا ومدارسنا؟ فلماذا لا نستحيي نحن اليوم حكاما ومحكومين من هذا السكوت المطبق المغشوش المتخاذل عن تلك

---

(1) سورة ص82-83.

(2) ضعيف، رواه الطبراني بهذا اللفظ عن أنس في المعجم الأوسط: 5/ 328، ح: 5452، والبيهقي في شعب الإيمان: 1/ 471، ح: 745، وضعَّف الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: 1/ 90-91، وكذا العجلوني في كشف الخفاء: 1/ 386، ح: 1035، وقد ورد من روايات وطرق أخرى يصير بمجموعها حسنا كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة: 4/ 412-416، ح: 1802.

(3) الإسراء: 64.

(4) الزخرف: 36.

(5) رواه الترمذي بهذا اللفظ عن ابن مسعود مرفوعا من طريق أبان بن إسحاق الأسدي عن صباح بن محمد البجلي الأحمسي، سنن الترمذي: 4/ 637، ح: 2458، ورواه عنه الحاكم مرفوعا من الطريق المذكورة أيضا وصحح إسناده، ولفظه: "من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة..."، المستدرك على الصحيحين: 4/ 359، قال المنذري: "وقد ضُعِّفَ الصَّباح برفعه هذا الحديث، وصوابه عن ابن مسعود موقوفا عليه"، الترغيب والترهيب: 2/ 348، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 222، ح: 935.

الاعتداءات المعلنة ضد الإسلام والمسلمين في فلسطين، والرسولﷺ يقول ما معناه: من نصر مسلما نصـره الله ومن خذل مسلما خذله الله[1].

أيها الإخوة المؤمنون! ففي أقل من لمح البـصـر، وصـلﷺ المـسجد الأقـصـى، فوجد في استقباله الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم إلى عيسى علـيهم الـسلام، بُعثـوا كلهم إكراما لخاتم الأنبياء، فصلىﷺ بهـم إمامـا، وبـذلك نـال مرتبـة إمـام الأنبيـاء والمرسلين، وإنما جعل الإمام ليؤتم به، ويقتـدى بعملـه، فلـماذا نـضيع نحـن قـدوة المصطفىﷺ وقد رضيه الأنبياء إماما؟ فلماذا ننفر من سنته وهو أسوة المرسلين؟ وفي مراسيم الاستقبال قدم له جبريـل -كـما روى البخـاري وغـيره- الخمـر والحليـب فاختارﷺ الحليب ورفض الخمر فزكى جبريل اختياره فقال: «أصبت الفطرة»[2].

وهل تدرون أيها الإخوة في الله ما معنى الفطرة؟ إنها بيئة الإنسان التي أبدعه الله عليها، وطبيعته التي خلقه الله عليها، وهي وضع كل شيء محله الذي يليق بـه، فـإذا جاوز الشيء حـده، أو وضـع في غـير محلـه، أو تـسبب في إضرار الإنـسان في دينـه ودنياه، فهو إخلال بهذه الفطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[3].

فمن الإسراء أيها الإخوة في الله نتعلم أن الحليب يوافق الفطرة بنوعيهـا: فطـرة الدين لأنه حلال، وفطرة البدن لأن الإنسان يحتاج بطبيعته إلى الحليـب ومـشتقاته، لأنه يحتوي على مواد تتقوى بها عظام الإنسان وعضلاته، فهـذا -والله- دليـل آخـر على أن الإسلام دين الفطرة، يلائم طبيعة البشر فالبعد عن الإسـلام هـو بعـد عـن الطبيعة البشرية، يقول الرسولﷺ: «كل مولود يولد على الفطـرة فـأبواه يهودانـه أو ينـصرانه أو يمجـسانه...»[4]، ألـيس الإنـسان عنـدما يولـد لا يتغـذى إلا بفطـرة الحليب؟ فهو أيضا لا يقبل إلا فطرة الإيمان.

أما الخمر فقد رفضه الرسولﷺ ليلة الإسراء لأنه يفسد الفطرة بنوعيهـا: فطـرة الدين لأنه حرام وكفى الخمر خبثا وشرا، أنـه يحـول الإنـسان إلى بهيمـة عجـماء، لا عقل ولا نور، يتبول ويتغوط في أثوابه، يسب أباه وأمه ويشتم أبناءه وأعز أصدقائه،

---

(1) حسـن، رواه أبـو داود في سـننه: 4/ 271، ح: 4884، والطـبراني في معجميـه؛ الأوسـط: 8 ص: 282، ح:8642، والكبير: 5/ 105، ح: 4735، وقد حسن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائـد: 7/ 267، والألبـاني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 292-293، ح: 5690.

(2) – صحيح البخاري: 3/ 1269، كتاب التفسير/ باب ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾، – صحيح مسلم: 1/ 154، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

(3) الروم: 30.

(4) – صحيح البخاري: 1/ 456، كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الـصبي فـمات هـل يـصلى عليـه، – صـحيح مسلم: 4/ 2047، كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

فلا فرق بينه وبين الحمار والكلب والخنزير، يقول الرسولﷺ فيما روى الطبراني وهو صحيح: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته»[1]، وفي رواية: «الخمر أم الخبائث ومن شربها لم تقبل منه صلاة أربعين يوما فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية»[2] وفي رواية الحاكم: «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر»[3]. وكما تفسد الخمر فطرة الدين، فهو أيضا يفسد فطرة البدن؛ لأن الأمراض التي يكبدها الخمر جسد السكارى والمدمنين كثيرة جدا، وخطيرة جدا، أمراض تقشعر من ذكرها الجلود، وقد وصلت إلى أرقام مخيفة، وعدت ضحاياها بالآلاف: السرطان، تشمع الكبد، أمراض البنكرياس، أمراض العقل، أمراض الجهاز الهضمي، وعلى رأس هذه الأمراض كلها مرض السيدا من المخدرات، لأنه لا فرق بين الخمر والمخدرات، فالرسولﷺ يقول: «كل مسكر حرام»[4] «والخمر هو ما خامر العقل»[5] وستره، وأزال فطرة الإنسان عن موقعها، وفعل المخدرات في ذلك واضح وليست أقل ضررا من الخمور، فإذا كانت الخمر أمَّ الخبائث فإن المخدرات هي أبو الخبائث وجدها وأصل كل خبيث.

فالوقوف في الإسراء والمعراج عند هذا الحدث، يفرض علينا أن نحافظ على فطرتنا، يفرض علينا أن تقتدي بالنبيﷺ في اختياره اللبن والحليب، ورفضه الخمر والمخدرات، يفرض علينا أن نقف ضد المخدرات التي يعاني منها مجتمعنا اليوم، يفرض على الآباء أن يراقبوا أبناءهم، وأن يقتربوا منهم، وأن يكونوا لهم خير أصدقاء، وأن يشاركوهم في أمورهم الخاصة، لئلا يسوقهم قرناء السوء إلى أوكار الخمور، والوقوع فريسة لسموم المخدرات.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) – المعجم الأوسط: 3/ 276، ح: 3134، – المعجم الكبير: 11/ 164، ح: 11372، قال الهيثمي: "وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف"، مجمع الزوائد: 5/ 67، وحسنه الألباني في: – صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 631، ح: 3345، – السلسلة الصحيحة: 4/ 468-469، ح: 1853.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 81، ح: 3667، وحسنه الألباني في: – صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 631، ح: 3344، – السلسلة الصحيحة: 4/ 469، ح: 1854.

(3) المستدرك على الصحيحين: 4/ 162، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 6/ 707، ح: 2798.

(4) صحيح مسلم: 3/ 1587، كتاب الأشربة/ باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

(5) – صحيح البخاري: 4/ 1688، كتاب التفسير/ باب قوله: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾، – صحيح مسلم: 4/ 2322، كتاب التفسير/ باب في نزول تحريم الخمر.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

لقد انتهت رحلة الإسراء في القدس، وبدأت رحلة المعراج من القدس، ليربط الله قلوب المسلمين بالمسجد الأقصى، الذي يقول فيه الرسولﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»(1) فالقدس هي نهاية الإسراء وهي بداية المعراج، وهي اليوم تعاني من أسر اليهود وظلم الصهاينة، تعاني من سرطان الاستيطان، تعاني أرضها المقدسة، من المستوطنات المدنسة، تعانى من خذلان المسلمين واستسلامهم، تعاني من كيد اليهود ونقض العهود، لقد صدق الله حين قال: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾(2) وحين قال: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾(3) هذا هو الواقع اليوم، كلما وقع فريق من الصهاينة اتفاقا يأتي فريق آخر ليتملص منه، من "ديفيد"، إلى "مدريد"، إلى "أسلو" إلى "وايريفر" إلى "شرم الشيخ"؛ إنها أماكن سجلها التاريخ عارا في جبين الأمة المسلمة، وشبكات الاستيطان تزيد تحكما كلما وقع اتفاق في الأوراق والخيال، وكأن الله تعالى يحذرنا من هذا حين أتبع آية الإسراء مباشرة بقضية اليهود، وفسادهم في الأرض مرتين، وأنهم إذا عادوا لظلم عباد الله عاد الله عليهم بالانتقام والهلاك، فقال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا﴾(4) إلى أن قال سبحانه: ﴿وإن عدتم عدنا﴾(5).

أيها الإخوة في الله! لقد كتب عمر عندما فتح القدس عهدا وميثاقا لأهلها المسيحيين، وعقد معهم اتفاقا موقعا من كلا الطرفين: «ألا يساكن أهلَ القدس أحدٌ من اليهود»(6)، واليوم ضيعت الأمة هذا العهد حين تشتت شملها، وخارت قواها راضية بآلامها، مضيعة آمالها، وكأن القدس هي المؤشر الذي تقاس به قوة الأمة وضعفها فلم يمض زمان قويت فيه الأمة إلا وحررت القدس من يد الأعداء، ولم يمض زمان ضعفت فيه الأمة إلا وضاعت القدس في يد الأعداء.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) – صحيح البخاري: 1/ 398، كتاب الصلاة/ أبواب التطوع/ باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، – صحيح مسلم: 2/ 1014، كتاب الحج/ باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

(2) المائدة: 82.

(3) البقرة: 100.

(4) الإسراء: 4.

(5) الإسراء: 8.

(6) تاريخ الطبري: 2/ 449.

10) الخطبة [4] مشاهد من الإسراء والمعراج (1)

الحمد لله الذي مَنَّ علينا ببعثة خير البرايا، وجعل التمسك بسنته عصمة من الفتن والبلايا، نحمده سبحانه ونشكره على النعم والهدايا، ونسأله الثبات على السنة والسلامة من المحن والرزايا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والخفايا، والمطلع على مكنون الضمائر والنوايا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله كريم الخصال وشريف السجايا، عليه من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وأشرف التحايا، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم تكشف فيه النفوس عما فيها من الأسرار والخبايا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

لازلنا في موضوع معجزة الإسراء والمعراج، نمخر عباب بحارها، ونغوص في أعماقها؛ إذ هي أجدر بوقفات أمام أحداثها، لنستخرج منها فوائد نصلح مجتمعنا بها، وقد قدمنا لكم فى الجمعة الماضية أن الإسراء رحلة أرضية مباركة ربطت في قلوب المسلمين بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأجريت فيها للنبيﷺ العملية الجراحية التي تسمى بشق الصدر، واختار فيها النبيﷺ الحليب ورفض الخمر فوافق الفطرة، وصلى فيها بالأنبياء فنال مرتبة إمام الأنبياء والمرسلين.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن مشاهد رآها النبي ليلة الإسراء، نستعرض صور تلك المشاهد، لنعرض عليها أحداث مجتمعنا، محاولين بها إصلاح ما فسد فينا؛ إذ هي الدواء الناجع والمرهم الشافي، تلك المشاهد التي تبين ثواب أناس فعلوا الخير في الدنيا، وعقاب أناس فعلوا الشر فيها، مشاهد هي بمثابة الترغيب والترهيب، شاهدها النبيﷺ وهي وقائع ملموسة، ونماذج محسوسة، وتلكم وسيلة من وسائل التربية العظيمة، التي ما اكتشفها الإنسان إلا في هذا العصر، وأسماها وسائل الإيضاح في التربية الحديثة.

وسنكتفي في خطبة اليوم بثلاثة مشاهد إن شاء الله:

المشهد الأول: شاهد فيه النبيﷺ صورة توضح الكيفية التي يعذب الله بها الزانية والزاني، هذا الإنسان الفاسق الذي لا يتورع حين يرتكب أخطر جريمة ضد المجتمع والدين، جريمة يهتك بها عرض أخيه الإنسان ويخدش بها شرفه! هذا

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 3 شعبان 1420 هـ 12/ 11/ 1999 م.

الفاسق الذي يعرض نفسه لجريمة تعد اليوم وسيلة النقل لجراثيم السيدا، بواسطتها توزع جراثيم الأمراض على أجسام الفساق! هذا الفاسق الذي يرضى أن يجعل من أبناء صلبه أولاد الحرام!

لقد رأى النبيﷺ الزناة يعذبهم الله في صورة بشعة، أقبح منظرا، وأقبح لبوسا، وأنتن ريحا، كأن ريحهم المراحيض[1]. وفي رواية: أنهﷺ رأى النساء الزانيات في وضعية مزرية بكل المقاييس، يعذبن وهن معلقات بثديهن[2].

هذا إذا كان الزاني أو الزانية من غير المتزوجين، أما المتزوجون فمنظرهم أشد وأنكى، لقد رآهم النبيﷺ -علاوة على الصورة الأولى- يعذبون، بين أيديهم لحم طيب نضيج ولحم خبيث منتن، فيأكلون من اللحم الخبيث رغما عنهم، واللحم الطيب بين أيديهم[3]، إن الله سبحانه يعذبهم بصورة تشبه جريمتهم في الدنيا، لأن من يمارس الزنا وهو متزوج -رجلا كان أو امرأة- يترك زوجه في الحلال الطيب، ليركس نفسه في أحضان فاسقين وفاسقات أشبه بمراحيض متنقلة، والجزاء من جنس العمل.

المشهد الثاني: رأى فيه الرسولﷺ صورة توضح لنا الكيفية التي يعذب الله بها المتهافتين على المسؤولية ومناصب الحكم، الذين يتحملون ما لا يستطيعون من أمور الناس، فيضيعون متطلبات القيام بها، رغم ذلك يريد منها المزيد بشغف وشره، ولو كان ذلك ببذل الرشاوى والوسائط،ربما يفشل حتى في تحمل مسؤولية بيته وأبنائه، وهو يريد تحمل مسؤولية الناس، كما هو مشاهد اليوم في مسارح الانتخابات، فما يكاد أحدهم يحصل على كرسي في مجلس ما، حتى يسعى جادا للحصول على كرسي آخر أعلى منه منصبا ونفوذا.

والرسولﷺ رأى مثل هؤلاء في صورة رجل جمع على ظهره في جهنم حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يريد أن يزيد عليها[4]، ولهذا يحذر الرسولﷺ من

---

(1) لم أعثر على حديث يبين أنه رأى ذلك ليلة الإسراء؛ بل رآه في منامه كما في المعجم الكبير: 8/ 156-157.

(2) أورده ابن هشام في السيرة: 2/ 253، من حديث أبي سعيد الخدري، ونصه: "...قال: ثم رأيت نساء معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم...".

(3) رواه البزار في مسنده: 17/ 5، وابن جرير الطبري في تفسيره: 15/ 7، كلاهما من حديث أبي هريرة، قال ابن كثير: "في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة"، تفسير ابن كثير: 3/ 22.

(4) رواه البزار في مسنده: 17/ 5، وابن جرير الطبري في تفسيره: 15/ 7، كلاهما من حديث أبي هريرة، قال ابن كثير: "في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة"، تفسير ابن كثير: 3/ 22.

عدم القيام بحق أمانات الناس، فيقول فيما روى البخاري ومسلم: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة»(1) ويقول فيما روى البخاري: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»(2) أي نعم المرضعة المسؤولية في أيامها، لما فيها من عاجل اللذات والمسرات، وبئست الفاطمة عند ذهابها حين تنقطع المسرات وتبقى الحسرات، ويقولﷺ فيما روى الإمام مسلم: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»(3) ويقولﷺ فيما روى الإمام أحمد: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك، إلا أتى اللهَ -عز وجل- مغلولا يوم القيامة يده إلى عنقه، فكه بره أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة»(4).

المشهد الثالث: رأى فيه الرسولﷺ كيف يكرم الله المجاهدين في سبيل الله، الذين يقدمون الغالي والنفيس لإعلاء كلمة الله، الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم وأقلامهم وألسنتهم لتكون كلمة الله هي العليا، رآهم النبيﷺ يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه.

والجهاد -ياعباد الله- أنواع: جهاد النفس، والجهاد باللسان، والجهاد بالمال، والجهاد بالنفس.

أما جهاد النفس فهو أول الجهاد وأساسه، فهو إصلاح النفس من براثين الشهوة ومستنقعات الهوى، لأن الفاسد لا يصلح، وفاقد الشيء لا يعطيه، روى الترمذي وصححه عن فضالة بن عبيد أن النبيﷺ قال: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»(5) وفي رواية الديلمي عن أبي ذر أنهﷺ قال: «أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك

---

(1) - صحيح البخاري: 6/ 2614، كتاب الأحكام/ باب من استرعي رعية فلم ينصح، - صحيح مسلم: 1/ 125، كتاب الإيمان/ باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.
(2) صحيح البخاري: 6/ 2613، كتاب الأحكام/ باب ما يكره من الحرص على الإمارة.
(3) صحيح مسلم: 3/ 1457، كتاب الإمارة/ باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.
(4) حسن، رواه أحمد في المسند: 5/ 267، وحسنه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 997، ح: 5718، - السلسلة الصحيحة: 1/ 685، ح: 349.
(5) صحيح، رواه الترمذي وقال فيه: "حسن صحيح"، سنن الترمذي: 4/ 165، ح: 1621، ورواه ابن حبان في صحيحه: 10/ 484، ح: 4624 وصححه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1133، ح: 6679، - السلسلة الصحيحة: 3/ 484، ح: 1496.

وهواك في ذات الله»[1]. فالإنسان المنهزم أمام شهواته، لا يمكن أن ينتصر على عدوه، فجهاد النفس والشيطان هو الأساس الذي يبنى عليه كل أنواع الجهاد، فجهاد اللسان لا يقبل من إنسان يقول ما لا يفعل، والله تعالى يقول: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[3].

أما الجهاد باللسان فلن يتأتى إلا بعد جهاد النفس وإصلاحها، وهو جهاد الدعوة والتبليغ، آلته اللسان والحوار، فقد يكون باللسان حين يقدم للناس دين الله ميسرا فتتألف به القلوب، وقد يكون بكتب ألفت دفاعا عن الإسلام، فالإنسان الذي أصلح نفسه، يجب عليه أن يدعو للصلاح غيره، وهذا الجهاد هو الذي بدأ به النبيﷺ حين واجه المشركين في مكة، فصدع في وجوههم بكلمة حق دون سلاح ولا عتاد، ففند ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد الآباء والأجداد، دون أن يبالي بالأخطار التي كانت تحدق به من جراء ذلك العناد، عناد الشرك والكفران، سلاحه في هذه المعركة القرآن، وقد كانﷺ قرءانا يمشي على وجه الأرض، وقد سمى الله تعالى دعوته تلك جهادا كبيرا، إذ قال لرسولهﷺ وهو لا يزال بمكة قبل الهجرة: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾[4] وروى أبو داود والترمذي أن النبيﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[5].

أما الجهاد بالمال فإنه يأتي بعد جهاد النفس، ويكون بكل مال قدم لنشر الإسلام ولمساعدة المسلمين، وهو قرين الجهاد باللسان، كلاهما في حاجة لقرينه، والجهاد بالمال، لا يتحقق إلا بالحلال، والرسولﷺ يقول: «إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا...»[6] وهو مقدم في القرآن الكريم على الجهاد بالنفس يقول الله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[7]

(1) رواه الديلمي في مسند الفردوس: 1/ 127، وأبو نعيم في الحلية: 2/ 249، قال الألباني: إن صح سنده إلى سويد بن حجير فالحديث صحيح، السلسلة الصحيحة: 3/ 483، ح: 1496.
(2) الصف: 3.
(3) البقرة: 44.
(4) الفرقان: 52.
(5) – سنن أبي داود: 4/ 124، ح: 4344، – سنن الترمذي: 4/ 471، ح: 2174، – السنن الكبرى للنسائي: 4/ 435، ح: 7834.
(6) صحيح مسلم: 2/ 703، كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.
(7) التوبة: 41.

والرسولﷺ يقول: «مَنْ جَهّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله فقد غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا»(1).

أما الجهاد بالنفس فهو عقد بيع مع الله تعالى فهو جهاد الحرب والقتال، آلته السلاح والمقاومة، يقول الله تعالى فيه: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾(2).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(1) -صحيح البخاري: 3/ 1045، كتاب الجهاد والسير/ باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير، -صحيح مسلم: 3/ 1507، كتاب الإمارة/ باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير.
(2) التوبة: 111.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

لا بد هنا من تصحيح ما قد يتبادر إلى الدهن في مفهوم الجهاد بالنفس، لابد أن نعلم أنه من مسؤولية الدولة وحكام الأمة، فهم المسؤولون عن تنفيذه ورعايته، وعن إعلانه وتيسيره وإنهائه، حسب ما تقتضيه مصالح الأمة، والحكام –أيضا– هم المسؤولون بالدرجة الأولى أمام الله تعالى عن تعطيل الجهاد وضياعه، ولا يجوز لأي فرد من أفراد المسلمين أن يتبناه إلا بإذن الحاكم الشرعي، وإلا فإنه سيصبح فوضى وظلما واعتداء، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم﴾[1].

وهو موجه أساسا لدفع الظلم ورد العدوان، وتأديب أعداء الإسلام الذين يشنون عليه حربا ويعلنون ضده العداوة، والبادئ أظلم، يقول الله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾[4]، ويقول سبحانه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[5].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ...

(1) الأنفال: 60.
(2) البقرة: 190.
(3) التوبة: 13.
(4) التوبة: 36.
(5) الممتحنة: 8-9.

11) الخطبة [5] مشاهد من الإسراء والمعراج (تتمة)[1]

الحمد لله الذي خلق الإنسان فأتقن ما صنع، وشرع الشرائع فأحكم ما شرع، سبحانه وتعالى لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما خلق وأبدع، ألف القلوب بالمصطفى ﷺ وأقنع، ووحد به الصفوف وجمع، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل من عبد الله وخضع، وجاهد في سبيل الله حتى انتشر دين الله وسطع، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم يحصد فيه الإنسان من الدنيا ما زرع.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

لا زلنا في موضوع الإسراء والمعراج، وهو موضوع زاخر بالفوائد والحكم، مليء بآلات التربية ووسائل الإصلاح، وقد رأى فيه الرسول ﷺ من آيات ربه الكبرى. وقد قدمنا لكم في الجمعة الماضية ثلاثة مشاهد رآها النبي ﷺ تعد بمنزلة الترغيب والترهيب، والإنسان في هذه الدنيا لا يكون صالحا إلا بوسائل الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، وقد بعث النبي ﷺ بشيرا ونذيرا، ووقفنا بكم عند المشهد الأول: الذي يوضح كيف يعذب الله الزناة، وعند المشهد الثاني: الذي يوضح كيف يعذب الله الحكام الظالمين، وعند المشهد الثالث: الذي يوضح لنا ذلكم الجزاء العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن بقية مشاهد الإسراء والمعراج:

المشهد الرابع: رأى فيه الرسول ﷺ صورة توضح عذاب الذين يتعاملون بالربا، الذين يمتصون دماء الناس بالديون الربوية المجحفة، الذين يحاربون الله ورسوله، تلك الجريمة التي أخبر النبي ﷺ أن أقلها يعادل جريمة من يزني بأمه[2]، رأى النبي ﷺ أكلة الربا يسبحون في بحر من الدماء[3]؛ لأنهم قد امتصوا في الدنيا دماء الناس، بطونهم منتفخة أمثال البيوت[4]، كلما حاول أحدهم القيام سقط، والناس

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 10 شعبان 1420 هـ 19/ 11/ 1999 م.

(2) صحيح، رواه الحاكم وصححه في المستدرك: 2/ 43، ولفظه: «الربا ثلاثة وسبعون بابا، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه...»، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 663، ح: 3534.

(3) رؤيا آكل الربا وهو يسبح في نهر من الدم ورجل على شط النهر يضربه بالحجر كلما أراد أن يخرج من النهر رؤيا منامية لا إسرائية وحديثها في صحيح البخاري.

(4) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 2/ 353، وابن ماجه في السنن: 2/ 763، ح: 2273، وضعفه الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: (1/ 66)، (4/ 117)، (8/ 131)، وابن كثير في التفسير: 1/ 327.

يسحقونهم بأرجلهم، لأنهم كانوا في الدنيا يسحقون قلوب الناس بالربا، والله تعالى يقول: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾[1].

المشهد الخامس: رأى فيه الرسول ﷺ صورة توضح لنا عذاب الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، الذين يستغلون من فقدوا حنان الأبوين، ويسلبون أموال من يستحق كل التكريم، ويختلسون في الخيريات وغير الخيريات أموال من قال فيهم ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين»[2]، لقد رآهم ﷺ في ليلة الإسراء لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيدهم قطع من النار كالأفهار، -أي كالأحجار- يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم[3]، والله تعالى يقول: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾[4].

المشهد السادس: رأى فيه الرسول ﷺ ذلك المنظر التعس الذي يعذب الله به أولئك الذين يأكلون زكاة أموالهم، الذين يعتدون على حق الفقير والمسكين، الذين يملكون الملايير في البنوك الداخلية والخارجية، ثم يمنعون عن فقراء المسلمين الملاليم، رآهم ﷺ يسرحون كما تسرح البهائم إلى الضريع والزقوم[5]، وهما من نباتات جهنم، يقول فيه النبي ﷺ فيما روى الترمذي: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه»[6]، والله تعالى يقول: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون كغلي الحميم﴾[7]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع﴾[8].

المشهد السابع: رأى فيه الرسول ﷺ عقاب خطباء الفتنة، الذين يقولون ما لا يفعلون، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، الذين ينهون عن مناكر هم يرتكبونها، الذين يعدون الناس بالوعود الكاذبة والكلمات المعسولة، وقد يكون من

---

(1) البقرة: 275.

(2) رواه البخاري في صحيحه: 5/ 2032، كتاب الطلاق/ بَاب اللِّعَانِ وَقَوْلِ اللهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، ولفظه: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا.

(3) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: 15/ 13، من حديث أبي سعيد الخدري.

(4) النساء: 10.

(5) رواه البزار في مسنده: 17/ 5، وابن جرير الطبري في تفسيره: 15/ 7، كلاهما من حديث أبي هريرة، قال ابن كثير: "في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة"، تفسير ابن كثير: 3/ 22.

(6) رواه الترمذي في سننه: 4/ 706، ح: 2585، وقال: "حسن صحيح"، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك مع التلخيص: 2/ 294، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2/ 931، ح:5250، إلا أنه عاد ليصدر عليه حكمه النهائي بالضعف في السلسلة الضعيفة: 14/ 633، ح: 6782.

(7) الدخان: 43.

(8) الغاشية: 6.

هؤلاء من يخطب من فوق منبر الجمعة، أو منبر الإذاعة، أو منبر الجرائد ووسائل الإعلام، أو منبر مجالس المسؤولية والحكم، رأىﷺ مثال هؤلاء تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا ينقطع عنهم ذلك أبدا[1]، ذلك لأن الإسلام يريد من كل خطيب مهما كان، الكلمة الصادقة التي يصدقها العمل.

المشهد الثامن: رأى فيه الرسولﷺ صورة توضح لنا كيف يعذب الله أولئك الثرثارين الذين يتشدقون بالكلام الساقط في كل مكان، الذين يتنابزون بالألقاب من كل همزة لمزة، الذين يغتابون الناس ويتتبعون عوراتهم، فيضرون بدينهم وعرضهم، ويحصدون من كلامهم الحسرة والندامة، رآهمﷺ يخمشون وجوههم بأظافر من نحاس، ثم تعود كما كانت فيخمشونها مرة أخرى... [2] وهكذا.

وفي رواية أن النبيﷺ رأى صخرة يخرج منها ثور عظيم، ثم يريد أن يعود إليها فلا يستطيع[3]، ذلكم هو مثل الكلمة إذا ما غادرت فم الإنسان، فإن من المستحيل أن تعود إليها مرة أخرى، فالكلمة قبل أن تخرج يملكها صاحبها، أما إذا خرجت من فمه فهي التي تملك صاحبها؛ لأن الإنسان إنما تعرف قيمته بلسانه، ويحكم عليه حسب أقواله، والرسولﷺ يقول: «من يضمن لي ما يبن لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[4]، ويقولﷺ: «أكثر ما يدخل الناس النار: الأجوفان الفم والفرج»[5]، ورحم الله من قال:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس أعين
وعينك إن أبدت إليك مساويا ... فدعها وقل: يا عين للناس أعين[6]

ورحم الله الشافعي إذ قال:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران[7]

---

(1) حسن، رواه البيهقي في الشعب: 2/ 283، 1773، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: 1/ 88، ح: 129.
(2) صحيح، رواه أحمد في مسنده: 3/ 224، وأبو داود في سننه: 4/ 269، ح: 4878، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، 2/ 926، ح: 5213، - السلسلة الصحيحة: 2/ 69، ح: 533.
(3) رواه البزار في مسنده: 17/ 5، وابن جرير الطبري في تفسيره: 15/ 7، كلاهما من حديث أبي هريرة، قال ابن كثير: "في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة"، تفسير ابن كثير: 3/ 22.
(4) صحيح البخاري: 5/ 2376، كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».
(5) صحيح، رواه أحمد في المسند: 2/ 442، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك: 4/ 324.
(6) ينسبان للشافعي ضمن أربع أبيات، ديوان الإمام الشافعي، ص: 113.
(7) البيتان للشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص: 111.

المشهد التاسع: رأى فيه الرسولﷺ صورة أولئك المنافقين الذين لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، الذين يصلون الظهر والعصر مع الغروب، ويصلون المغرب والعشاء بعد الانتهاء من برامج "التلف المزين"، وصلاة الفجر مع طلوع الشمس، رأىﷺ مثال هؤلاء في صورة رجال ترضخ رؤوسهم بالصخور كلما رضخت عادت كما كانت، لا ينقطع عنهم ذلك أبدا[1]، والرسولﷺ يقول فيهم: «أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر...»[2]، ويقولﷺ في الذين يؤخرون العصر إلى الغروب: «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا»[3]. لقد خاب وخسر إذن من ضيع الصلاة وهي عماد الدين والله تعالى يقول: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾[4].

وبعد أن استعرضﷺ هذه المشاهد التي تعد بمنزلة الترغيب والترهيب، عرج به فجاب أقطار السماوات العلا، وهي مزدانة بمواقع الأنبياء -عليهم السلام-؛ ففي السماء الأولى استقبله آدم، وفي الثانية ابنا الخالة: يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، ثم إلى سدرة المنتهى حيث ناجى ربه، وفرض عليه الصلوات، فكانت أول أمرها خمسين صلاة، ولكنه بمشورة من أخيه موسى -عليه السلام-، خففت حتى بلغت خمس صلوات، فقال الله تعالى: «قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرا»[5] «هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي»[6] فدل ذلك على عظمة الصلاة، حيث إن الفرائض كلها فرضها الله تعالى والنبيﷺ على الأرض، إلا الصلاة فقد فرضها والنبيﷺ قاب قوسين أو أدنى، فهي عمود الدين وهي الصلة اليومية بين الإنسان وربه؛ بل هي المعراج اليومي لروح المؤمن كل يوم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) صحيح، رواه أحمد في مسنده: 3/ 224، وأبو داود في سننه: 4/ 269، ح: 4878، وصححه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته، 2/ 926، ح: 5213، - السلسلة الصحيحة: 2/ 69، ح: 533.
(2) صحيح مسلم: 1/ 451، كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب فضل صلاة الجماعة.
(3) صحيح مسلم: 1/ 434، كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب التبكير بصلاة العصر.
(4) مريم: 59.
(5) صحيح البخاري: 3/ 1173، كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة.
(6) - صحيح البخاري: 1/ 136، كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، - صحيح مسلم: 1/ 148، كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

الحمد لله رب العلمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

عندما رجع الرسولﷺ من هذه الرحلة المباركة إلى مكة، استقبله المشركون بالإنكار والجحود، بل شنوا ضده حملة مسعورة، مستغلين استحالة السفر في لحظات من ليل إلى مكان يشقون إليه الفيافي في شهور، فأرادوا إفحام النبيﷺ فتحدوه أن يصف لهم القدس إن كان صادقا فيما يقول، وخصوصا أن منهم من زارها وعلم أبوابها وأوصافها، ولكن تحديهم هذا باء بالفشل الذريع، عندما أخبرهمﷺ عن أوصاف القدس بدقة، فأجابهم عن كل سؤال يتعلق بها؛ لأن الله عز وجل رفع له القدس وكشف له عن أستارها[1]؛ بل أخبرهمﷺ عن قافلة تجارية لهم في طريقها إلى مكة: عن مكانها وأحداثها وأوصافها[2]، فصدق في كل ذلك، وبهذا كانت رحلة الإسراء دليلا واضحا، وبرهانا ساطعا، وحجة دامغة، على رحلة المعراج إلى ما فوق سبع سماوات.

هذا هو موقف المشركين! أما المسلمون فقد صدَّقوا ذلك دون تردد، فكان أول من قاد حملة هذا التصديق أبو بكر عندما أخبره أبو جهل بذلك، وهو يريد أن يزعزع الإيمان في قلبه، إذا بأبي بكر يفاجئه بقوله: «والله لئن كان قاله لقد صدق»[3]، فنال بذلك مرتبة الصديقية، حين سماه النبيﷺ الصديق، والصديقية هي المرتبة الثانية بعد النبوة يقول الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾[4]...

ألا فاتقوا الله عباد الله، وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

---

(1) – صحيح البخاري: 3/ 1409، كتاب فضائل الصحابة/ باب حديث الإسراء وقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾، – صحيح مسلم: 1/ 156، كتاب الإيمان/ باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال.

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير: 7/ 283، ح: 7142، من حديث شداد بن أوس الطويل، وفي سنده إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، وثقه ابن معين وضعفه النسائي، مجمع الزوائد: 1/ 74، ورواه البيهقي في دلائل النبوة: 2/ 355–357، وصححه، وعلق عليه ابن كثير في تفسيره: 3/ 15 قائلا: "ولا شك أن هذا الحديث المروي عن شداد بن أوس مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو منكر؛ كالصلاة في بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك".

(3) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: 2/ 245.

(4) النساء: 69.

12) الخطبة [6] خطورة المسؤولية من خلال الإسراء والمعراج[1]

الحمد لله الذي أمر كل مسؤول بالعدل والأمانة، وحذره من الظلم والخيانة، وهو يمارس حكمه وبرلمانه، وأشهد أن لا إله إلا الله خلق الإنسان ومكانه، وأمد له عمره وزمانه، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي نشر دينه وإيمانه، فأراح بمعجزة الإسراء والمعراج شعوره ووجدانه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه كريمي الأخلاق والديانة، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم يبسط فيه الله قسطه وميزانه.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

يقول الله -عز وجل- في سورة الإسراء: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[2]. إن معجزة الإسراء شرف ما بعده شرف، ونعمة ما فوقها نعمة، وإكرام ما وراءه إكرام؛ حيث أسرى بالنبيﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، فأراه كثيرا من آياته، وأبهج نفسه بأنوار ذاته، وذلك بعد أن زين له السموات، وبسط له القبول في الملكوت، وبعث له الأنبياء والمرسلين، وأخدمه الملائكة المقربين، وسخر له البراق والمعراج، وأدناه منه قاب قوسين أو أدنى، كل ذلك في ليلة مباركة.

فياله من شرف عظيم! وياله من فضل جسيم! ويالها من ليلة سعدت بها الدنيا! وطابت بها الحياة، واهتز لها الكون، وأشرقت بأنوارها جنبات الوجود.

تصوروا -يا عباد الله- لو أن ملكا من ملوك الأرض، أحب موظفا من موظفي دولته الذين أخلصوا له، وأراد أن يكافئه على إخلاصه، فدعاه إلى ضيافته في قصره، وبعث إليه خدمه، وأرسل إليه سيارته، وأقام له على جنبات الطريق الأشجار والأزهار، لكان له في الناس شأن وأي شأن. فما بالكم إذا كان الداعي هو الله تعالى ملك الملوك، والمدعو هو خاتم النبيئين؟ وأما الخدم فهم الملائكة، وأما السيارة فهي

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 26 رجب 1423 هـ 4/ 10/ 2002 م.
(2) الإسراء: 1.

البراق، وأما الطريق فهي السموات العلى، وأما الورود والرياحين فالأنبياء والمرسلون، وأما قصر الضيافة فهو بساط الأنس، وأما الجائزة الثمينة فهي الصلاة المفروضة، وأما الآيات والمشاهد فشيئ يقف عنده اللسان مقصرا، والبيان محصورا، والقلم خاشعا، والطرف حائرا كليلا. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمرونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[1].

فمعجزة الإسراء والمعراج مدرسة عظيمة، أستاذها سيدنا محمدﷺ، وحارسها العام جبريل -عليه السلام-، ومديرها الله سبحانه وتعالى، وتلامذتها أمة الإسلام، فهي رحلة تشريعية، فيها آيات كبيرة، ومشاهد كثيرة، فيها للأمة العبرة والموعظة، والدروس النافعة؛ فقد رأىﷺ مشاهد تصور عقوبة الذين يرتكبون المنكرات في الدنيا، من الزناة وأكلة الربا وأكلة أموال اليتامى.

ومن تلكم المشاهد التي كشفها الله ليلة الإسراء للنبيﷺ مشهد يصور لنا كيف يعذب الله المتهافتين على المسؤولية ومناصب الحكم، الذين يتحملون ما لا يستطيعون من أمور الناس ولو بالرشاوى والوسائط، الذين لا يكاد أحدهم يحصل على كرسي في مجلس ما حتى يسعى جادا للحصول على كرسي آخر أعلى منه منصبا ونفوذا، فربما يفشل أحدهم حتى في تحمل مسؤولية بيته وأبنائه، لقد رأى النبيﷺ مثالا لهؤلاء في صورة رجل في جهنم قد جمع على ظهره حزمة خشب عظيمة لا يستطيع حملها، قد أنهكت قوته وقصمت ظهره، وهو يريد منها المزيد، يعذب هكذا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

هاهي الانتخابات قد انتهت للتو في بلادنا، وانتهت معها ما يسمى بالاستحقاقات الوطنية، التي يسميها البعض الاستخفافات الوطنية، فربح فيها من ربح، وخسر من خسر، فكشفت لنا عن أمثلة واضحة للصورة التي شاهده النبيﷺ ليلة الإسراء! أتدرون من هو الفائز فيها؟ ومن هو الخاسر؟ الفائز -والله- من نجاه الله من المسؤولية وتحملها، الفائز -والله- من حفظه الله من تولي السلطة وسمومها!

---

(1)النجم: 8-18.

أما الخاسر فهو من حصل على المسؤولية بالوسائل الخبيثة أو تقدم إليها من أجل أهداف خبيثة، فالخاسر من تحمل المسؤولية عن طريق الرشوة والمال الحرام، ومن حصل على المسؤولية من أجل التلاعب بالأموال العامة على حساب مصالحه الخاصة، ومن تولى المسؤولية من أجل أن تسلط عليه الأضواء الإعلامية ليحقق رغباته الشخصية، أو ليحصن نفسه ضد المحاسبة والعقوبة، ومن مرض بمرض الكرسي، الذي همه أن يتولى فقط، أن يكون له كرسي في مجلس ما وإن لم يكن أهلا له، فمثل هؤلاء تتقلب عليهم كراسيهم يوم القيامة خزيا وندامة.

أيها المسؤول الكريم؛ يا من حمله الله مسؤولية عباده؛ حتى لا تتعرض بعد موتك لهذه الفضيحة الفظيعة، ولهذا المشهد الرهيب الذي شاهد النبيﷺ ليلة الإسراء، فهذه نصائح غالية قد قدمها النبيﷺ بين يديك، فخذ بها في عملك إن كنت ترجو النجاة في الدنيا والآخرة، إن كنت ترجو نجاة دينك ودنياك، ومن يرجو النجاة لا بد أن يسلك إليها مسالكها؛ فقديما قال: أبو العتاهية:

لا تأمنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ   ولو تمنعتَ بالحُجَّابِ والحرسِ
ما بالُ دينكَ ترضى أن تدنسهُ   وثوبك الدهرَ مغسولٌ من الدنسِ
ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مسالكَها   إِن السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ[1]

النصيحة الأولى: اعلم أن المسؤولية أمانة ستسأل عنها وحدك يوم القيامة، وسوف يكون السؤال على قدر المسؤولية، روى البخاري ومسلم أن الرسولﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

النصيحة الثانية: اعلم أن الناس الذين ولاك الله أمرهم هم أهل الله وعياله، لا تضر منهم أحدا، ولا تظلم أحدا، فكن خادما مخلصا لهم ليحبك الله تعالى، وتصور

(1) الأبيات لأبي العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص: 115، وقد روى ابن حبان في روضة العقلاء: 1/ 285، أنه وعظ بها هارون الرشيد.
(2) – صحيح البخاري: 1/ 304، كتاب الجمعة/ باب الجمعة في القرى والمدن، – صحيح مسلم: 3/ 1459، كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر.

لو أن أحدا اعتدى على عيالك وأهلك ماذا سيكون رد فعلك!؟ فقد روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود أن رسول اللهﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»(1). فكن بارا بهم، ولا تكن آثما في حقهم، فكن معتنيا بمصالحهم، لا مستغلا لمصالحهم. وعن أبي أمامة أن النبيﷺ قال: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى اللهَ مغلولاً يوم القيامة يده إلى عنقه، فكه بره، أو أوثقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة»(2).

النصيحة الثالثة: لا تحرص على المسؤولية ليعينك الله عليها، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبسئت الفاطمة»(3). أي نعم المرضعة المسؤولية في أيامها لما فيها من عاجل اللذات، وبئست الفاطمة عند ذهابها حين تنقطع اللذات وتبقى الحسرات. وروى البخاري ومسلم أن النبيﷺ قال مخاطبا الصحابي الجليل عبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأت الذي هو خير»(4).

النصيحة الرابعة: لا تفرح بالمسؤولية، ولا تعتبر الحصول عليها فوزا ونجاحا؛ فإنها ليست غنيمة تستحق التهنئة عليها، وإنما هي أمانة تستحق التعزية من أجلها، وإنما هي أمانة تستوجب ممن أحبك أن يبكي عليك لا أن يفرح لك، روى الترمذي أن النبيﷺ قال: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء: إذا كان المغنم دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبر صديقه،

---

(1) ضعيف، رواه الطبراني في معجمه الكبير: 10/ 86، ح: 10033، وفي سنده أبو هارون موسى بن عمير القرشي الضرير متروك يروي المناكير، - الكامل في ضعفاء الرجال: 6/ 340-343، ت: 1819، - مجمع الزوائد: 8/ 191، - السلسلة الضعيفة: 4/ 372، ح: 1900.

(2) حسن، رواه أحمد في المسند: 5/ 267، والطبراني في المعجم الكبير: 8/ 172، ح: 7720، وحسنه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 997، ح: 5718، - السلسلة الصحيحة: 1/ 685، ح: 349.

(3) صحيح البخاري: 6/ 2613، كتاب الأحكام/ باب ما يكره من الحرص على الإمارة.

(4) صحيح البخاري: 6/ 2443، كتاب الأيمان والنذور/ قول الله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾، - صحيح مسلم: 3/ 1273، كتاب الأيمان/ باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه.

وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء، أو خسفا أو مسخا»(1).

واعلم أن المسؤولية مهما عظمت ليست إلا غرورا، فلو انتخبتك الدنيا بأجمعها فلا ينبغي لك أن تغتر بها، فيوما ما سوف تزول عنك مسراتها وتبقى حسراتها.

عش ما بدا لك سالِما   في ظل شاهقة القصور
يُسْعَى عليك بما اشتهيـ   ـت لدى الرواح إلى البكور
فإذا النفوس تقعقعت   عن ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا   ما كنت إلا في غرور(2)

النصيحة الخامسة: إذا كنت ضعيفا لا تستطيع تحمل المسؤولية فتَنَحَّ عنها لتنجو بنفسك؛ فقد روى مسلم أن أبا ذر رضي الله عنه طلب من النبي ﷺ ذات يوم أن يرشحه للمسؤولية قائلا: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب ﷺ بيده على منكب أبي ذر ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»(3). والنبي ﷺ استنكر على أبي ذر أن يتولى المسؤولية وهو ضعيف لا يؤدي حقها، ولكنه لم يستنكر عليه أن يتولاها إذا استطاع أن يؤدي حقها، فذلك لا بأس به، وقد رشح سيدنا يوسف -عليه السلام- نفسه لمسؤولية خزائن الأرض، قائلا لحاكم مصر آنذاك ما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾(4)؛ فمن رأى في نفسه أنه على علم تام بواجبات المسؤولية، يعرف كيف يحافظ على الأمانة فليتقدم كيوسف، ومن رأى أنه ضعيف فليكن أبا ذر، وهيهات أن يكون فينا مثل يوسف وأبي ذر!.

النصيحة السادسة: إياك والغش كن على حذر من الخيانة؛ لا تحرم على نفسك الجنة إذا رأيت أنك ضعيف، وإذا رأيت أنك ستغش وتخون، ارفق بنفسك فإن أولى

---

(1) رواه الترمذي في سننه: 4/ 494، ح: 2210، وقال: "غريب لا نعرفه من حديث علي بن أبي طالب إلا من هذا الوجه ولا نعلم أحدا رواه عن يحيى بن سعيد غير الفرج بن فضالة، و...قد تكلم فيه بعض أهل الحديث وضعفه من قبل حفظه"، وضعفه الألباني في: ضعيف سنن الترمذي، ص: 249، وضعيف الترغيب:2/ 57، ح:1407، وضعيف الجامع الصغير، ص:41، ح:287، والسلسلة الضعيفة:3/ 312، ح:1170.
(2) الأبيات لأبي العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص: 81، وقد ذكر ابن الأثير في الكامل: 5/ 358، أنه وعظ بها هارون الرشيد فأبكاه.
(3) صحيح مسلم: 3/ 1457، كتاب الإمارة/ باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.
(4) يوسف: 55.

شيء برفقك هو نفسك، لا تدفع نعيم الخلود في سبيل النعيم المحدود، فالمسؤولية نعيم قد منحك كرسيا في مجلس لفترة محدودة، لكن على حساب ماذا؟ على حساب كرسي في الجنة خالدا فيها أبدا، روى البخاري ومسلم ولفظه للبخاري أن النبيﷺ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة»[1].
وفي رواية أنهﷺ قال: «ما من وال يلي رعيَّة من المسلمين، فيموت وهو غاش لهم، إلا حرَّم الله عليه الجنة»[2].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) – صحيح البخاري: 6/ 2614، كتاب الأحكام/ باب من استرعي رعية فلم ينصح، – صحيح مسلم: 1/ 125، كتاب الإمارة/ باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.
(2) صحيح البخاري: 6/ 2614، كتاب الأحكام/ باب من استرعي رعية فلم ينصح.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

إن ذكرى الإسراء لترفع صوتها صارخة لرفع الظلم الصهيوني والصليبي عن القدس وفلسطين، لترفع صوتها صارخة لإحياء الجهاد؛ فيوم تركت الأمة الجهاد أذلها الله، فانهزمت أمام أعدائها، روى الطبراني عن أبي بكرﷺ أن النبيﷺ قال: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[1]. وفي رواية «إلا ضربهم الله بالذل»[2].

ومن لم يستطع أن يجاهد اليوم، بسبب الحكام الذين أغلقوا أبواب الجهاد على شعوبهم، فلا يجوز له بحال أن ينسى الجهاد، لأن مجرد نسيانه نفاق، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»[3]، والجهاد أنواع؛ يبدأ بجهاد النفس، إلى الجهاد باللسان، إلى الجهاد بالمال، إلى الجهاد بالنفس، وكلها طوع يد المسلم إلا الجهاد بالنفس؛ فهو من مسؤوليات الحاكم الشرعي، ولا يجوز للفرد أن يتبناه، وإلا كان فوضى.

فعلى المسلم إذن أن يتمنى الجهاد، وأن يحدث به نفسه، وأن يكثر التفكير فيه؛ لأن الإسلام لا يريد لجذوة الجهاد أن تموت في القلوب، لأن المسلم عندما يحدث نفسه بالجهاد، فإنه بذلك يطرد من إحساسه اليأس والقنوط، إذ لا محل لذلك في قلب المؤمن، ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[4] ويدفع عن نفسه الجبن والوهن، ويجعل روح الجهاد متقدا بين جنبيه، والرسولﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[5] وروى البيهقي عن أنس أن النبيﷺ قال: «نية المؤمن أبلغ من عمله»[6]. وقالﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...»[7] وروى مسلم عن سهل بن حنيف أنهﷺ قال: «من سأل اللهّ الشهادة بصدق بلغه اللهّ منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[8].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) حسن، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 149، ح: 3839، وحسنه المنذري في: الترغيب والترهيب: 2/ 217، والألباني في: - صحيح الترغيب: 2/ 71، ح: 1392، - السلسلة الصحيحة: 3/ 352، ح:2663.

(2) ليس حديثا، بل هو من خطبة أبي بكر الصديق ﷺ عند ما تولى الخلافة، السيرة النبوية لابن هشام: 6/ 82.

(3) صحيح مسلم: 3/ 1517، كتاب الإمارة/ باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو.

(4) يوسف: 87.

(5) صحيح مسلم: 1/ 69، كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

(6) ضعيف، رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 343، وضعَّف إسناده.

(7) - صحيح البخاري: 1/ 3، كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، - صحيح مسلم: 3/ 1515، كتاب الإمارة/ باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية".

(8) صحيح مسلم: 3/ 1517، كتاب الإمارة/ باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى.

الفصل الثالث: خطب السيرة بين الهجرة والأحزاب

وفيه ست عشرة خطبة

13) الخطبة [1] الهجرة النبوية مدرسة تربوية(1)

الحمد لله مقدر المقدور، ومصرف الأيام والشهور، ومجري الأعوام والدهور، أحمد سبحانه وتعالى وأشكره وأستغفره إليه تصير الأمور، وهو سبحانه وتعالى العفو الغفور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ننتفع بها يوم يبعثر ما في القبور، ويحصل ما الصدور، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله وعبده الشكور، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ما امتدت البحور، وتعاقب العشي والبكور، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم النشور.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن للأمة الإسلامية ذكريات جليلة، ومناسبات عظيمة، وحديث المناسبة إنما تنفع بحسن المحاسبة، فالإنسان الذي لا يحاسب نفسه، ولا يراجع أعماله، لا يمكن أن يستفيد من مناسبات تاريخه.

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ضاع قوم ليس يدرون الخبر(2)

وها نحن قد وضعنا أرجلنا على عتبة العام الهجري الجديد، ونحن اليوم في أول جمعة لعام 1426، وقد حزم العام الماضي حقائبه وانصرف، حاملا معه ملفات العباد بما لهم وما عليهم، فطوبى لمن رفع ملفه في سلك أصحاب اليمين، وويل لمن وضع ملفه في سلك أصحاب الشمال، نودع عاما هجريا مضى، ونستقبل عاما هجريا أتى، والأمة المسلمة تعيش بين حرب الإبادة بالألغام، وحرب الإشاعة بالإعلام. سبحان الله ما أسرع مرور الأيام وانصرام الشهور والأعوام! والمسلم الموفق الملهم من أخذ من ذلك دروسا وعبرا، واستفاد منه مذكرا ومزدجرا، وتزود من الممر للمقر، وعلم أنه إلى الله المرجع والمستقر، والمؤمن الكيس من حاذر الغفلة عن الآخرة، حتى لا يعش في غمرة، ويؤخذ على حين غرة، فيكون عظة وعبرة.

وأول مناسبة نتذكرها في بداية كل عام هجري جديد، هو حدث الساعة وحديثها، هو الحدث الذي غير مجرى التأريخ، هو الحدث الذي يحمل في طياته

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 2 محرم الحرام 1426 هـ 11/ 2/ 2005 م.

(2) البيت للشاعر أحمد شوقي من قصيدة معنونة بـ "رسالة الناشئة"، من الشوقيات: 4/ 38، ومطلعها:
أَحْمَدُ اللهَ وَأُطْرِي الأَنبياء * مَصدَرَ الحِكمَةِ طُرّاً وَالضِّيَاء

معاني الشجاعة والتضحية والفداء، ومعاني النصر والصبر والإباء، ومعاني التوكل والقوة والإخاء، ومعاني الاعتزاز بالله وحده مهما بلغ كيد الأعداء، ذلكم هو هجرة النبيﷺ من مكة إلى المدينة، نتذكرها في بداية السنة، ليس لأنها وقعت في شهر محرم كما قد يعتقد البعض؛ بل لأن شهر محرم هو بداية عام هجري جديد. أما الهجرة فإنما وقعت في شهر ربيع الأول الشهر الثالث الهجري.

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن الهجرة النبوية، مدرسة تربوية عظيمة، أستاذها سيدنا محمدﷺ، وحارسها العام جبريل عليه السلام، ومديرها الله سبحانه وتعالى، وتلامذتها أمة الإسلام، فهي رحلة تشريعية من مكة إلى المدينة عبر الغار، راسمة للتاريخ والأجيال الفوائد والآثار، مقدمة دروسا نافعة للأمة في مستهل عامها الجديد.

وأول درس نتعلمه من مدرسة الهجرة يتناول التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب؛ فالرسولﷺ أول المسلمين وسيد الذين على ربهم يتوكلون، ورغم ذلك اتبع الأسباب التي تحميه في هجرته، ما من وسيلة يراها تساعد في إنجاح الهجرة إلا وأخذ بها، نلمس ذلك في خروجهﷺ ليلا، مجهزا بالزاد والمأكل، متخفيا في الغار ثلاثة أيام، وقد غاير الطريق إلى المدينة، سالكا إليها ساحل البحر الأحمر، وكل ذلك أسباب ومعالجة لا تنفي التوكل على الله تعالى.

ومن هذا نتعلم أن المسلم يجب عليه أن يتحرك في حياته، وفي كل حركة بركة، باحثا عن نصيبه من الدنيا ونصيبه من الآخرة، والله تعالى يقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(1). ويقول سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(2). وروى الترمذي وابن حبان عن أنس بن مالك وعمرو بن أمية قالا: قال رجل للنبيﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قالﷺ: «اعقلها وتوكل»(3). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يجلس أحدكم في بيته فيقول: اللهم ارزقني؛ فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»(4). ومن هنا استنبط العلماء قاعدة: "ترك الأسباب معصية والاتكال عليها كفر".

---

(1) القصص: 77.

(2) الجمعة: 10.

(3) حسن، رواه الترمذي في سننه: 4/ 668، ح: 2517، عن أنس بن مالك من طريق يحيى بن سعيد القطان عن المغيرة بن أبي قرة السدوسي، وعلق عليه يحيى القطان راويه بقوله: "هذا عندي حديث منكر"، وقال فيه الترمذي: "هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، ورواه ابن حبان في صحيحه: 2/ 510، ح: 731، بسند حسن عن عمرو بن أمية الضمري.

(4) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين: 2/ 62، بلفظ: "لاَ يَقْعُدُ أحدكم عن طلب الرزق يقول اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لاَ تمطر ذهباً ولاَ فضة".

ومن مدرسة الهجرة نتعلم الإيمان الصادق بالله تعالى يبرز ذلك جيدا والرسولﷺ في الغار وأعداءه في فم الغار يتربصون به، وقد كتفوا البحث وتتبعوا الآثار حتى أوصلتهم إلى فم الغار، فيتأزم الموقف لدى أبي بكر، ليس خوفا على نفسه؛ بل خوفا على رسول اللهﷺ فيقول: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»[1] فتبسم الرسولﷺ والتبسم في وجه الموت أمر لا يجيده إلا العظماء المؤمنون بحفظ الله ونصره، فيقولﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»[2] فمن المغلوب ؟ ومن الخاسر في الجولة؟ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾[3] فلا خوف مع الله ولا حزن مع الله ولا ضرر مع الله.

ومن مدرسة الهجرة نتعلم أن المسلم ينبغي أن يفر بدينه من الفتن، وأن يغادر المكان الذي لا يتمتع فيه بحرية العبادة وإن كان البلد والوطن، فالرسولﷺ غادر مكة بعد أن أغلقت عليه قريش الأبواب، وأنذرته أن يغادر مكة ولا يبقى في ساحتها، مكة الذي ولد في ربوعها وترعرع في تلالها، وشرب من ماءها، وله فيها ذكريات الطفولة البريئة، والشباب الطاهر، فيخرجوه منها، ويا ليتهم تركوه ليخرج سالما معافى، ولكنهم يريدون أن يخرجوه جثة هامدة، فيغادرﷺ مكة خفية، خيفة من أذى الكفر وأعداء الإسلام، محاطا بجنود ربانية لا ترى بالعين المجردة عن الإيمان، يغادر مكة وقلبه يتفتت أسى وحسرة، فيلقي إليها النظرة الأخيرة، وعينه تفيض من الدمع حزنا ألا يعود إليها مرة أخرى، فيترجم هذا الأسى إلى كلمات يناجي بها مكة، مهد الطفولة والشباب، فيقولﷺ وهو واقف بالحزورة[4]: «قد علمت أنك خير أرض الله وأحب الأرض إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت»[5]. هذه الكلمات التي تدل على مكانة الوطن في الإسلام، بينما الرسول كذلك إذا بالقرآن ينزل فيمسح عن قلبه الكبير الألم الكبير، ويعدهﷺ بفرح العودة بعد لوعة المغادرة، ويضمن له الابتهاج بالعناق بعد آلام الفراق، وكيف لا والله لا يخلف الميعاد، وقد قال سبحانه: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[6].

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1337، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه.

(2) صحيح البخاري: 3/ 1337، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه.

(3) التوبة: 40.

(4) الحزورة: مكان مرتفع قليلاً وهو الآن داخل المسجد بعد الزيادة، وكانت موجودة ناحية أجياد.

(5) مصنف عبد الرزاق: 5/ 27.

(6) القصص: 85.

ومن مدرسة الهجرة نتعلم كيف ينبغي أن يكون عليه دور الشباب في الإسلام؛ فالهجرة تبرز بشكل واضح وجلي دور الشباب في الإسلام. فعندما طوق المشركون بيت النبيﷺ ينتظرون خروجه ليجهزوا على روحه ويفتكوا به، ففي هذا الظرف الخطير، يأتي جبريلعليه السلام، فيخبر النبيﷺ قائلا: الأعداء خارج البيت يريدون قتلك، وربك يأمرك بالهجرة، وحينئذ كلفﷺ الشاب علي بن أبي طالب ليقوم بمهمتين:

المهمة الأولى: ليرد الودائع والأمانات التي بيدهﷺ إلى أهلها، لأنهﷺ معروف في مكة بالصدق والعفة والأمانة، فهو عند قريش صندوق الأمانات النفيسة، ومستودع الودائع الثمينة، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنهﷺ كان خلقه القرآن فالله تعالى يقول: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[1]، ولكن مما يبعث على الغرابة والعجب حقا أن كفار قريش حاربوا النبيﷺ وعادوه وحاولوا قتله، وهم يعتقدون أنه أمينا ثقة صادقا عفيفا، لا يجدون لأشيائهم الثمينة مخبأ حاميا ولا حرزا حافظا إلا في بيتهﷺ.

أما مهمة علي الثانية فهي النوم في فراش النبيﷺ حتى يشوش على أجهزة الرصد عند الكفار، فيحسبون أن النبيﷺ لازال في فراشه لأنهم ينظرون من شقق الباب، وينتظرون خروجهﷺ ، فإذا ما نظروا رأوا عليا فيظنونه محمداﷺ .

علي بن أبي طالب ذلك الطفل الصغير، أول من أسلم من الأطفال، ينال ثقة النبيﷺ في أماناته، ويقدم روحه فداء لهﷺ، فينام في فراشه وهو يعلم مسبقا ما ينتظر من ينام في هذا الفراش، ينام وهو يرى السيوف مشرعة، قد تنقض عليه في أية لحظة، ولكن نفسه هانت عليه لأنه يقدمها حماية للحبيب المصطفىﷺ.

ومن هؤلاء الشباب عبد الله بن أبي بكر ذلكم الشاب الدؤوب في العمل، الذي يقوم بدور المخابرات لصالح الرسولﷺ يتحسس الأخبار ثم ينقلها ليلا إلى الرسولﷺ في الغار. ومن هنا نتعلم أن المخابرات ليست وليدة اليوم؛ بل سبق إليها الرسولﷺ منذ أربعة عشر قرنا، ولا يخفى عليكم أن المخابرات أساس من أسس الانتصار، وعنصر أساس من عناصر القوة، ولا يمكن لأي نظام أن يستقيم، ولا لأي دولة أن تستقيل إلا بجهاز المخابرات، وما تعاني الأمة المسلمة اليوم إلا لأنها عطلت هذه السنة النبوية الشريفة، وهذا السلاح النبوي النافذ، فاتخذ فيها أعداءها المبادرة، فطوقوها بجيش عرمرم من الجواسيس في شتى المجالات، عسكريا واقتصاديا وإعلاميا... وهلم جرا.

---

(1) النساء: 58.

ومن هؤلاء الشباب الذين ساهموا في الهجرة عامر بن فهيرة، أتدرون من هو عامر بن فهيرة؟ وهل سمعتم بهذا الاسم قط؟ لو كان من الفنانين والفنانات، أو المطربين والمطربات، أو اللاعبين واللاعبات، أو الممثلين والممثلات الأحياء منهم والأموات، لو كان من أبطال كرة القدم وألعاب القوى، أو من أبطال أفلام الغرام والحرام، الذين يلوثون الهواء في فضائيات الهوى، لفرضته على أسماعنا وأبصارنا وسائل الإعلام فرضا، ولكن عامر بن فهيرةﷺ شاب كان يرعى الغنم لأبي بكر، فلعب دورا كبيرا في هجرة الرسولﷺ حيث يقوم بعملية مزدوجة: إنه يسوق غنمه ليمحو بها أثر عبد الله بن أبي بكر ذهابا وإيابا من الغار وإلى الغار، حتى لا يفطن به قريش فيكتشفون أمره، ثم يرعاها بمقربة الغار ليزود الرسولﷺ بألبانها.

ذلكم هو صورة دور الشباب المسلم، لنصرة الدين والملة، فأين هذا من الشباب المخدر اليوم بالشهوات، ممن كانوا فرائس لبرامج القنوات والفضائيات، التي ضربت حصارا محكما على السماوات، -اللهم حوالينا ولا علينا-، أو الذين كانوا ضحايا لمقاهي الإنترنت من شبكة المعلومات، التي تقدم الفسق المعلب الجاهز في وقت وحين، حسب الرغبة والطلب، أو أولئك المولعين بربط المواعيد المشبوهة عبر الهواتف النقالة، كل هذا في الوقت الذي يرجى منهم الاطلاع بأغلى المهمات، في الحفاظ على الدين والقيم والأخلاق أمام المتغيرات. والعيب ليس في القنوات ولا في شبكة المعلومات، ولا في الهواتف النقالة؛ بل ذلك نعمة كبرى، جهلها أمية، ومن لم يتقن التعاطي معها هو أمي هذا العصر، وإنما العيب في الأنامل التي تضغط على الأزرار، بحثا عن مواقع الفسق والزور.

أقول قول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

من مدرسة الهجرة نتعلم كيف ينبغي أن يكون عليه دور المرأة في الإسلام، فالمرأة في الإسلام ليست أبدا للمتعة وحمل المتاع، بل يعتبرها الإسلام عنصرا فعالا في المجتمع، لقد لعبت في هجرة النبيﷺ دورا أساسا، فلنستمع لعائشة -رضي الله عنها- تحكي عن العنصر النسوي الذي تولى عملية التجهيز في هجرة النبيﷺ فتقول: «فجهزناهما -أي الرسولﷺ وأبا بكر- أحث الجهاز، وضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين»[1].

فها هي المرأة إذن تساهم بجانب الرجل في هجرة النبيﷺ فقد حررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا، واعتبرها شقيقة الرجل لا عدوته، والرسولﷺ يقول فيما روى أبو داود والترمذي: «النساء شقائق الرجال»[2]؛ فقد ساهمت المرأة في عهد الرسولﷺ في مختلف الأعمال، وشاركت المشاركة الفعالة في الميادين التي تناسبها، وما أنكر النبيﷺ ذلك عليها، فقد رأينا في عهدهﷺ ممرضات ومعلمات وفقيهات وتاجرات ومستشارات؛ بل حتى مجاهدات في المجال العسكري وقد قالﷺ في غزوة أحد: «ما التفت يمينا ولا شمالا إلا ورأيت أم عمارة[3] تقاتل دوني»[4]، وقال عمر ابن الخطاب في أم سَلِيط: «كانت تزفر لنا القرب يوم أحد»[5]؛ أي: تحملها.

كل ذلك تحت مظلة أحكام القرآن الكريم، وسيادة شرع الله الحكيم، وما كان هذا الشرع في أي وقت من الأوقات حائلا بينها وبين مزاولة أشغالها، ولكن الإسلام بكل بساطة يريد تحرير المرأة، ولكن لا يريد التغرير بها، لا يريد ابتزاز جمالها، واستغلال جسدها ودلالها، فيما يسمى بالسياحة الجنسية، ومدينتنا هذه مشهورة في بعض فنادقها بذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1419كتاب فضائل الصحابة/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(2) صحيح، رواه الترمذي: 1/ 189، ح: 114، - وأبو داود: 1/ 61، ح: 236، وصححه الألباني في: - صحيح سنن أبي داود: 1/ 431، - السلسلة الصحيحة: 6/ 860، ح: 2863.

(3) أم عمارة هي: نسيبة بنت كعب النجارية الأنصارية والدة أبي سعيد الخدري كما في فتح الباري: 7/ 367.

(4) الطبقات الكبرى: 8/ 412، وفتح الباري لابن حجر: 6/ 80.

(5) رواه البخاري في صحيحه: 3/ 1056 كتاب الجهاد والسير/ باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو.

14) الخطبة [2] قبيل الهجرة النبوية[1]

الحمد لله الذي خلق الإنسان فأتقن ما صنع، وشرع الشرائع فأحكم ما شرع، سبحانه وتعالى لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما خلق وأبدع، ألف القلوب بالمصطفى ﷺ وأقنع، ووحد به الصفوف وجمع، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل من عبد الله وخضع، وهاجر في سبيل الله فأيده بجنود لا ترى ولا تسمع، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا حتى انتشر دين الله وسطع، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم يحصد فيه الإنسان من الدنيا ما زرع.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

هانحن قد وضعنا أرجلنا على عتبة العام الهجري الجديد، ونحن اليوم في أول جمعة لعام 1421 من الهجرة، وقد حزم العام الماضي حقائبه وانصرف، حاملا معه ملفات العباد بما لهم وبما عليهم، فطوبى لمن رفع ملفه في سلك أصحاب اليمين، وويل لمن وضع ملفه في سلك أصحاب الشمال، وأول شيء نتذكره في بداية كل عام هجري جديد، هو هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ذلكم الفيصل الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[2].

أيها الاخوة المؤمنون! أتدرون متى نزلت هذه الآية الكريمة؟ إنها لم تنزل أثناء الهجرة ولا بعدها مباشرة، إنها نزلت بعد تسع سنوات من الهجرة، عندما دعا النبي ﷺ أصحابه لمحاربة الروم في غزوة تبوك، تلك الغزوة التي جاءت في فصل الحرارة والصيف، وفي سنة القحط والجفاف، مع بعد المسافة والشقة، فتخلف من أجل ذلك بعض الصحابة، فنزلت هذه الآية الكريمة توبيخا لهم على تقاعسهم عن الاستجابة لنداء النبي ﷺ، تذكرهم بالهجرة، وبأن الله تعالى ليس في حاجة لجهادهم إن أراد أن ينصر نبيه ﷺ، فجاءت هذه الآية إذن في معرض تذكير الناس كلما تأخروا عن نصرة الإسلام، بأن الله سينصر نبيه بهم أو بغيرهم؛ بل بجنود من ملائكة الرحمن لا ترى، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول العلماء، فكانت

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 2 محرم الحرام 1421 هـ 7/ 4/ 2000م.
(2) التوبة: 40.

الهجرة بذلك وسيلة تذكير الناسين، وتنبيه الغافلين، ورسالة تستنهض همم المتقاعسين، وتوقظ عزائم المتهاونين، على مر العصور والأزمان.

فما أحوج الأمة اليوم للتذكير بالهجرة وقد تقاعس أفرادها عن نصرة الإسلام في كثير من المجالات، وخذلوا إخوانهم المضطهدين في كثير من الساحات، وقد جثت الصليبية المطعمة بالصهيونية على ثرواتها ومصالحها، كأني بالآية الكريمة اليوم تخاطبنا؛ بل إنها لتخاطبنا: إلا تنصروا النبيﷺ في الشيشان وفلسطين وكشمير والبلقان وفي أسركم وشوارعكم، وفي اقتصادكم وإعلامكم، وفي سائر معاملاتكم، فقد نصره الله في الهجرة وحيدا ليس معه إلا أبو بكر الصديق في الغار، فالله تعالى ليس في حاجة لنصرنا وجهادنا إذا خذلنا نبيناﷺ بل نحن في حاجة لذلك! ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾(1).

إن الهجرة -يا عباد الله- لهي نقطة تحول من الذل إلى العز، ومن استعمار الشرك إلى حرية الإيمان، ومن جور الكفر إلى عدل الإسلام، لقد كان المسلمون في مكة يتعرضون لأنواع التنكيل وأشكال التعذيب، على يد كفار قريش، خصوصا منهم المستضعفين، حتى إن أحدهم لا يستطيع أن يعبد الله إلا من وراء الستار، بل لقد وصلت العنجهية والغطرسة بالمشركين إلى أن يمدوا يد الأذى للمصطفىﷺ ، لقد نالوا منه بالضرب والشتم، وبالسب والتسفيه، وبالحصار الاقتصادي والاجتماعي، وفي آخر المطاف، عندما علموا بإسلام الأنصار في المدينة المنورة، ثارت حفيظتهم، وفقدوا صوابهم، وانتهى صبرهم، فعقدوا مؤتمرا مغلقا، تحت الرياسة المشتركة بين الشيطان الرجيم في صورة شيخ نجدي، وبين عدو الله أبي جهل، فأسفر هذا المؤتمر الملعون عن الاتفاق على قتل المصطفىﷺ بعد أن رفض إبليس اقتراح سجنه واقتراح نفيه، ثم انتخبوا من كل قبيلة شابا للقيام بهذه المهمة، ليضربوا النبيﷺ ضربة رجل واحد، فلا يعرف من أجل ذلك من قتله، فيضيع دمه هدرا، والقرآن الكريم يعلق على هذه المقترحات الماكرة إذ يقول: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾(2).

نعم -أيها الاخوة في الله- والله خير الماكرين، فما يكاد أي ظالم على مر العصور والأزمان، يكيد للإسلام ويضيق الخناق على الدعاة إلى الله، ويقف حجر عثرة في سبيل مده ونشره، إلا ورأينا الإسلام يمتد رغم أنفه، وينتشر في مكان لا يخطر بباله، لقد هال المشركين وصعب عليهم أن يسلم بضع عشرات من أهل مكة، إذا بهم

(1) آل عمران: 182.
(2)الأنفال: 30.

يفاجئون بإسلام قبيلة الأوس والخزرج عن بكرة أبيها في المدينة، والمدينة يومئذ هي الطريق الرئيسي والاستراتجي الذي يمد مكة بالتجارة من الشام، فتكون تجارتهم تحت رحمة المسلمين.

وقد شهدنا في هذا العصر أمثلة واضحة لذلك، لقد كان الإسلام عند الاستعمار الغربي في النصف الأول من هذا القرن في الستينات، وقبل الستينات مشكلا خارجيا -إن كنتم تتذكرون-، إنهم يحاربونه في الدول الإسلامية، إذا به يمتد اليوم امتداد خيوط النار والظلمة على الكرة الأرضية، فينتشر في عقر دارهم وبين مفكريهم بكيفية لم يحسبوا لها أي حساب، حتى أصبح لديهم الإسلام اليوم مشكلا وخطرا داخليا كما يزعمون، والحقيقة أنه ليس في الإسلام أي مشكل ولا أي خطر ولله الحمد؛ بل المشاكل والأخطار في فسوقهم التي يقف الإسلام بطهارته ضدها، ومطامعهم التي يقف الإسلام بعدله حربا لها.

وها نحن اليوم نرى الإسلام يحارب ليس فقط من أعدائه؛ بل حتى من بعض أدعيائه الذين يدَّعون الإسلام وهو منهم براء، والعلاقة التي تجمعهم بالإسلام هي محاربته ومحاولة النيل من أحكام شريعته، وتعطيل قرآنه، باسم التقدم المشبوه والاجتهاد المشوه، لم يكفهم أن يحاربوه سرا فحاربوه علنا، فلو أتينا بأي دين آخر غير الإسلام ووضعناه في موضع الإسلام وحورب بالكيفية التي يحارب بها الإسلام من طرف أعدائه وأدعيائه على حد سواء، لما بقي له أي أثر، ولكن الإسلام كلما حاربوه ومكروا ضده تمكن في القلوب وكلما أنفقوا في حربه الأموال الطائلة اطمأنت إليه النفوس فانتشر وسطع، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾(1) وإذ يقول: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾(2).

هكذا -يا عباد الله- صعب على قريش إسلام الأنصار، فأغلقت الأبواب على النبيﷺ وأنذرته في خلال أربع وعشرين ساعة أن يغادر مكة ولا يبقى في ساحتها، مكة الذي ولد في ربوعها وترعرع في تلالها، وشرب من ماءها، وله فيها ذكريات الطفولة البريئة، والشباب الطاهر، فيخرجوه منها، ويا ليتهم تركوه ليخرج سالما معافى، ولكنهم يريدون أن يخرجوه جثة هامدة، فخرجﷺ من مكة خفية، خيفة من أذى الكفر وأعداء الإسلام، محاطا بجنود ربانية لا ترى بالعين المجردة عن الإيمان، فكانﷺ كما قيل:

---

(1) التوبة: 32.
(2) الأنفال: 36.

تخفيت من خصمي بظل جناحه   فعيني ترى خصمي وليس يراني[1]

لقد دخل الرسولﷺ بيته وضرب عليه الكفرة الفجرة طوقا محكما، لأنه يهدد مصالحهم التي بنيت على الظلم، ولأنه يصادر شهواتهم، ولأنه لا يطاوعهم في نزواتهم، وهكذا أهل الباطل قديما وحديثا، يرون في حملة المبادئ ورواد الحق خصماء ألداء، لأن رواد الحق يقولون: لا في وجه كل معصية وكل شهوة وكل نزوة، لأنهم لا يرضون بفتات الموائد، لأنهم لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يرضون أن يكونوا من الدواجن الذين يقيسون الأشياء بمقياس البطن والمعدة، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين...

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

(1) البيت في أصله لأبي نواس من قصيدة يمدح بها محمد بن الفضل بن الربيع، ومطلعها:
لِمَن طَلَلٌ لَم أشجه وَشَجاني * وَهاجَ الهَوى أَو هاجَهُ لِأَوانِ

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

لقد طوق الكفار بيت النبيﷺ، وتحروا متى يخرج ليفتكوا به، وهنا تأتي الشجاعة؛ ليست كتلك التي يبديها الناس اليوم من أجل المصالح والمناصب، والجيوب والبطون؛ بل إنها شجاعة يقدم فيها النبيﷺ رأسه من أجل دين الله! وفي هذا الظرف الخطير، يأتي جبريلعليه السلام، فيخبرهﷺ قائلا: الأعداء خارج البيت يريدون قتلك، وربك يأمرك بالهجرة، وحينئذ كلفﷺ علي بن أبي طالب ليرد الودائع التي بيدهﷺ إلى أهلها، ولينام في فراشه حتى يشوش على أجهزة الرصد عند الكفار، فيحسبون أن النبيﷺ لازال في فراشه لأنهم ينظرون من شقق الباب، وينتظرون خروجهﷺ، فإذا ما نظروا رأوا عليا فيظنونه محمداﷺ .

علي بن أبي طالب ذلك الطفل الصغير، أول من أسلم من الأطفال، يفدي بروحه الرسولﷺ فينام في فراشه وهو يعلم مسبقا ما ينتظر من ينام في هذا الفراش، ينام وهو يرى السيوف مشرعة، قد تنقض عليه في أية لحظة، ولكن نفسه هانت عليه لأنه يقدمها حماية للحبيب المصطفىﷺ يوم كان جهاد الأطفال والشباب بذل النفس والنفيس في سبيل الله، أما اليوم فقد نكست المعايير، واختلت الموازين، فأصبح لدينا الجهاد هو التنابز بالألقاب، هو توزيع ألقاب الشرك والتضليل والتبديع على الناس.

وهكذا -يا عباد الله- خرج المصطفىﷺ من البيت بلا سيف وهم بالسيوف، وخرج بلا سلاح وهم مدججون بالسلاح، لقد علمنا التاريخ أن الله -عز وجل- ينصر المسلم بمعجزات لا تخطر بباله، ولكن بعد أن يبرهن بالامتحان والابتلاء على إيمانه، والله تعالى يقول: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1] لقد أخذ الرسولﷺ حفنة من التراب فألقى الله النوم على الكفار الذين طوقوا بيته فناموا، وسقطت سيوف الخزي والعار من أيديهم، فخرجﷺ بعد أن نثر التراب والغبار على رؤوسهم ووجوههم، وهو يقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[2]؛ فكان القرآن له حرزا وحجابا والله تعالى يقول: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾[3]، ومن هنا نتعلم أن

---

(1) العنكبوت: 2-3.

(2) يس: 9.

(3) الإسراء: 45.

القرآن لا يكون حجابا بالتعليق ولا بالتبخير كما يفعل بعض الناس اليوم، والأدهى من ذلك والأمر الذين يكتبون القرآن بالسمخ ثم يشربون من مائه وهل السمخ إلا أوساخ وجراثيم؟ والرسولﷺ قدوتنا لم يثبت عنه أنه علق القرآن حجابا أو بخره أو شرب من مائه، ولكنهﷺ قرأه فخرج من بيته في حجاب من العناية الربانية دون أن يراه المشركون، وقد جرب ذلك الصالحون. فحفظهم الله من أعدائهم، قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن سورة الإسراء آية 45): «لقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن "منثور" من أعمال "قرطبة" مثل هذا. وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: "هذا ديبله"؛ يعنون شيطانا. وأعمى الله -عز وجل- أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك»[1].

أما بقية أحداث الهجرة فذلكم موضوع الخطبة في الجمعة المقبلة إن شاء الله...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ

(1) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): 10/ 270.

15) الخطبة [3] أثناء الهجرة النبوية (تتمة)[1]

الحمد لله الذي نشر الحق وأبطل الباطل بهجرة خير البرايا، فجعلها للأمة أكرم النعم وأجل الهدايا، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ونسأله الثبات على السنة والسلامةَ من المحن والرزايا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والخفايا، والمطلع على مكنون الضمائر والنوايا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله كريم الخصال وشريف السجايا، هاجر من مكة إلى المدينة فرارا بدينه من الفتن والبلايا، عليه من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وأشرف التحايا، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم تكشف فيه النفوس عما فيها من الأسرار والخبايا...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته، فبالتقوى تصل الأمة إلى أسمى المدارك، وبالطاعة تسلم من ضربات الشر والمهالك.

يقول النبيﷺ في الحديث المتفق عليه: «إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

قد منا لكم في الجمعة الماضية الأحداث التي بدأ بها الرسولﷺ هجرته من مكة إلى المدينة، وقدمنا لكم أن كفار قريش قد اتفقوا على قتلهﷺ لما علموا بإسلام أهل المدينة، فطوقوا بيته منتظرين خروجه ليضربوه ضربة رجل واحد، فينتهي أمر الإسلام إلى الأبد، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[3] فخرجﷺ في عناية ربانية وفي حجاب من الله تعالى، بعد أن قرأ أوائل سورة يس، فأعمى الله أبصارهم كما عميت بالكفر بصائرهم، فوضع النبيﷺ مع أبي بكر خطة محكمة لإنجاح الهجرة، وليلتحق بالمدينة المنورة حيث الأنصار الذين آووه ونصروه.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن هذه الخطة النبوية، المعصومة بالعناية الربانية، نصاحب النبيﷺ في هجرته من مكة إلى الغار، ومن الغار إلى المدينة، نستجلي فوائدها، ونستفيد من نفحاتها.

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 9 محرم الحرام 1421 هـ 14/ 4/ 2000م.

(2) – صحيح البخاري: 1/ 3، كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، – صحيح مسلم: 3/ 1515، كتاب الإمارة/ باب قوله ﷺ : " إنما الأعمال بالنية".

(3)الأنفال: 30.

أيها الاخوة المؤمنون؛ لقد خرج النبيﷺ ومعه أبو بكر إلى غار ثور، وغار ثور موجود في الاتجاه المعاكس لطريق المدينة، وذلك للتمويه على الكفار؛ لأن أنظارهم ستتجه للبحث عنه في الطرق المؤدية للمدينة، فيدخل النبيﷺ الغار؛ وتتكرر حادثة الغار في حياة المصطفىﷺ فمن غار حراء بدأت البعثة النبوية، حيث كان النبيﷺ يتعبد قبل البعثة، فنزلت أول آية من القرآن الكريم: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾[1]، ومن غار ثور بدأت الهجرة النبوية، وبدأ أول يوم في التاريخ الهجري.

وعندما كان الرسولﷺ في الغار أعلنت مكة حالة الطوارئ، ورصدت الجوائز المغرية "مائة ناقة" لمن يأتي بالرسولﷺ حيا أو ميتا، و"مائة ناقة" لمن يأتي بأبي بكر حيا أو ميتا، إنها جوائز لمحاربة الدعاة إلى الله، تماما كما يفعل أعداء الإسلام اليوم ضد رموز الجهاد في سبيل الله، وما الجوائز التي نسمعها اليوم ضد المجاهدين بجديدة! فهي لون من ألوان محاربة الإسلام ولدت بولادة الإسلام نفسه.

وفي غار ثور يبرز دور الشباب في إنجاح هجرة الرسول ﷺ .

فمن هؤلاء الشباب علي بن أبي طالب وقد قدمنا لكم أنه قام بعملية التشويش ضد أجهزة الرصد عند الكفار، حينما نام في فراش النبيﷺ فظنوه محمداﷺ .

ومنهم عبد الله بن أبي بكر ذلكم الشاب الذؤوب، يقوم بدور المخابرات لصالح الرسولﷺ يتحسس الأخبار ثم ينقلها ليلا إلى الرسولﷺ في الغار. فالمخابرات ليست وليدة اليوم؛ بل سبق إليها الرسولﷺ منذ أربعة عشر قرنا، ولا يخفى عليكم أن المخابرات أساس من أسس الانتصار، وعنصر أساس من عناصر القوة، التي طلب الله عز وجل من الأمة إعدادها، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[2] ولا يمكن لأي نظام أن يستقيم، ولا لأي دولة أن تستقيل إلا بجهاز المخابرات.

ومن هؤلاء الشباب الذين ساهموا في الهجرة عامر بن فهيرة، الذي كان يرعى الغنم لأبي بكر، فلعب دورا كبيرا في هجرة الرسولﷺ حيث يقوم بعملية مزدوجة: إنه يسوق غنمه ليمحو بها أثر عبد الله بن أبي بكر في ذهابه وإيابه من الغار وإليه، حتى لا يفطن به قريش فيكتشفون أمره، ثم يرعاها بمقربة الغار ليزود الرسولﷺ بألبانها.

---

(1) العلق: 1-2.
(2) الأنفال: 60.

ولم يقتصر الأمر على جانب الذكور فحسب بل قد لعبت المرأة في هجرة النبيﷺ دورا أساسيا، فلنستمع لعائشة -رضي الله عنها- تحكي عن العنصر النسوي الذي تولى عملية التجهيز في هجرة النبيﷺ فتقول: «فجهزناهما -أي الرسولﷺ وأبا بكر- أحث الجهاز، وضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين»[1].

يا من يدعو اليوم لتحرير المرأة! فها هي المرأة تساهم بجانب الرجل في هجرة النبيﷺ فقد حررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا، واعتبرها شقيقة الرجل لا عدوته، والرسولﷺ يقول: فيما روى أبو داود والترمذي «النساء شقائق الرجال»[2]، فقد اندمجت المرأة في عهد الرسولﷺ في مختلف الأعمال، وشاركت المشاركة الفعالة في الميادين التي تناسبها، وما انتظرت أحدا ليدمجها[3]، ، وما أنكر النبيﷺ ذلك عليها، فقد رأينا في عهدهﷺ ممرضات ومعلمات وفقيهات وتاجرات ومستشارات؛ بل حتى مجاهدات في المجال العسكري وقد قالﷺ في غزوة أحد: «ما التفت يمينا ولا شمالا إلا ورأيت أم عمارة تقاتل دوني»[4]، كل ذلك تحت مظلة أحكام القرآن الكريم، وسيادة شرع الله الحكيم، وما كان هذا الشرع في أي وقت من الأوقات حائلا بينها وبين مزاولة أشغالها، فالإسلام يريد تحرير المرأة، ولكن لا يريد ابتزاز جمالها، واستغلال جسدها ودلالها، لا يريد أن تكون عارضة الأزياء في الشوارع والشاشات والساحات، لا يريد أن تصور عارية أو شبه عارية في واجهات المحلات، وأغلفة المجلات، وسلع التجارات، لمختلف الإشهارات.

وهكذا -يا عباد الله- ساهم الشباب ذكورا وإناثا في الهجرة، فيبقىﷺ في الغار ثلاثة أيام، لا جنود ولا حراسة، تحرسه العناية الربانية في جنود لا ترى بالعين المجردة من الإيمان.

وإذا العناية لا حظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

فيكثف الكفار البحث ويتتبعون الآثار إلى مدخل الغار، فيتأزم الموقف لدى أبي بكر، ليس خوفا على نفسه؛ بل خوفا على النبيﷺ فيقول: «لو أن أحدهم نظر تحت

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1419كتاب فضائل الصحابة/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(2) صحيح، رواه الترمذي: 1/ 189، ح: 114، - وأبو داود: 1/ 61، ح: 236، وصححه الألباني في: - صحيح سنن أبي داود: 1/ 431، - السلسلة الصحيحة: 6/ 860، ح: 2863.

(3) تزامنت هذه الخطبة مع الحال السائدة في المغرب يومها، من دعوة المنظمات النسائية لما سمى: "إدماج المرأة في التنمية"، التي تشتمل على أمور تتعارض مع القرآن الكريم.

(4) الطبقات الكبرى: 8/ 412.

قدميه لأبصرنا»[1] فتبسمﷺ والتبسم في وجه الموت أمر لا يجيده إلا العظماء الواثقون بحفظ الله ونصره، فيقولﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»[2] فمن المغلوب؟ ومن الخاسر في الجولة؟ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾[3]، فلا خوف مع الله ولا حزن مع الله ولا ضرر مع الله.

وبعد ثلاثة أيام يخرجﷺ من الغار، فيغادر مكة وقلبه يتفتت أسى وحسرة، فيلقي إليها النظرة الأخيرة، وعينه تفيض من الدمع حزنا ألا يعود إليها مرة أخرى، فيترجم هذا الأسى إلى كلمات يناجي بها مكة، مهد الطفولة والشباب، فيقولﷺ: «قد علمت أنك خير أرض الله وأحب الأرض إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت»[4] إذا بالقرآن ينزل فيخفف عن القلب الكبير الألم الكبير، ويعد الرسولﷺ بفرح العودة بعد لوعة المغادرة، ويضمن له الابتهاج بالعناق بعد آلام الفراق، وكيف لا والله ﴿لا يخلف الميعاد﴾[5] وقد قال سبحانه ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[6].

وفي الطريق طارده مشرك اسمه سراقة، يرجو من وراء رأسه مائة ناقة، والرسولﷺ يقرأ القرآن ولا يلتفت لأن الله معه، فيدعو على سراقة فتغوص به قوائم فرسه في الأرض، فيصبح مهددا بالموت بعد أن هدد به الرسولﷺ فلما تبين له أن الرسولﷺ في حماية ربانية، وتيقن أن النصر حليفه ولو بعد حين، طلب منه أن يكتب له أمانا على حياته، فأمر النبيﷺ له بذلك، فرجع من حيث أتى وهو يصد عن النبيﷺ كل من صادفه يبحث عنه، ففي الصباح خرج عدوا للإسلام وفي العشي رجع حاميا للإسلام.

وفي الطريق التقىﷺ رجلا من العرب يعرف أبا بكر ولا يعرف رسول اللهﷺ فيسأله: من هذا يا أبا بكر؟ فيجيبه أبو بكر: هذا هاد يهديني الطريق، فيظن الرجل أن المقصود هو طريق الدنيا وأبو بكر إنما قصد طريق الآخرة، فهو لا يريد أن يكشف عن النبيﷺ فيشى به الرجل عند أعدائه، وهو كذلك لا يريد أن يكذب لأنه

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1337، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه.
(2)صحيح البخاري: 3/ 1337، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه.
(3) التوبة: 40.
(4) مصنف عبد الرزاق: 5/ 27.
(5) آل عمران: 9.
(6) القصص: 85.

يعلم شناعة الكذب في أخلاق المسلم، وأنه من علامات النفاق، وأنه يهدي إلى الفجور، وفي الأثر: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1] وليس في الإسلام كذبة بيضاء بل الكذب كله أسود.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد: 1/ 297، ح: 857، والطبراني المعجم الكبير: 18/ 106، ح: 201، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد: 8/ 130، وصحح الألباني وقفه على عمران بن الحصين في صحيح الأدب المفرد: 1/ 319، ح: 662.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

قد يقول القائل: لم تحمل الرسولﷺ في هجرته كل هذه المعاناة؟ فلم كل هذا التخطيط المحكم؟ فلم الغار والأسفار؟ ألم يستطع الله تعالى أن ينصره في لمح البصر وأن يسري به من المسجد الحرام إلى المسجد النبوي دون وعثاء السفر وكآبة المنظر؟ وكيف لا! وقد أسري به إلى أبعد من ذلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والسماوات السبع ليلة الإسراء؟

لهذا القائل نقول: إن الله تعالى أراد أن يعلمنا بكيفية عملية محسوسة، كيف نتوكل على الله مع اتخاذ الأسباب، وأن التوكل دون الأخذ بالأسباب إنما هو تواكل وانهزام ورهبانية، ولا رهبانية في الإسلام، وأن اتخاذ الأسباب دون التوكل على الله إنما هو إلحاد وجحود وكفران، وقد قال العلماء: "ترك الأسباب معصية والاتكال عليها كفر" وهذا هو السر حين جمع الرسولﷺ في الهجرة بين التخطيط والإلحاح في الدعاء، والأمة المسلمة اليوم ما انهزمت إلا عندما تركت التخطيط لمستقبلها، ورضيت بمخططات أعدائها، فأصبحت بذلك في مؤخرة الركب الحضاري وقد كانت منه قبل اليوم في موضع الزمام.

وهكذا -يا عباد الله- دخل النبيﷺ المدينة معززا مكرما فرحب به الأنصار وهتف الشباب والولدان:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

16) الخطبة [4] غزوة الأبواء أول غزوات الرسولﷺ(1)

الحمد لله الذي افتتح الجهاد بغزوة الأبواء، فأسس به الإسلام مشروعية منازلة الأعداء، حتى يزول عن العقيدة الشك والمراء، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل من أصول الإسلام الولاء والبراء، وهو سبحانه المستحق لكل مدح وإطراء، وهو سبحانه المنعم علينا بنعم فاقت الإحصاء والاستقراء، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي حارب كل ضلال وافتراء، فجاء بأحكام تدرأ عن أتباعها الضراء، وبشريعة تجلب للإنسانية السراء، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين كانوا في نشر الإسلام خير سفراء...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

دعونا اليوم نرجع بكم إلى هذه السيرة العطرة مرة أخرى ، نستكشف أسرارها، نصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها؛ فهي منبع سيال لا ينضب معينها، ومدرسة عظيمة تنوعت أبحاثها وشعبها، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها.

دعونا اليوم نطل بكم من خلال هذا الشهر شهر صفر، على حدث آخر من السيرة النبوية وهو أول غزوة غزاهاﷺ، وهي التي تسمى في السيرة بغزوة الأبواء، والأبواء: قرية قرب مكة بها دفنت أم الرسول ﷺآمنة، إنها من الأماكن التي نجهلها تماما! لو احتضنت مقابلة واحدة من كرة القدم لعلمنا منها كل شيء (موقعها الجغرافي، ومناخها، وارتفاعها عن مستوى البحر أو انخفاضها، ومساحتها ومسافتها)، ولكنها احتضنت أحداثا من سيرة المصطفىﷺ؛ ولذلك جهلناها، كما جهلنا كثيرا من حقائق ديننا، وتاريخنا، وتراثنا.

أيها الإخوة المؤمنون؛ لقد خرج الرسولﷺ في هذه الغزوة ليعترض قافلة تجارية لقريش، حتى يسترد المسلمون بعضا من أموالهم التي استولى عليها المشركون في مكة ظلما وعدوانا، وفي الطريق عقد معاهدة الشراكة العسكرية مع قبيلة من العرب اسمها بنو ضمرة على أن ينصرهمﷺ على من عاداهم، وأن يجيبوه إلى نصره إذا دعاهم، ولم يحدث أي صدام عسكري في هذه الغزوة، ولكن أهميتها تكمن في أنها

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في 15 صفر 1321 هـ 19/ 5/ 2000م، ثم أعيدت بزيادت وتفصيل في 11صفر الخير 1425هـ 2/ 4/ 2004م.

سجلت للتاريخ البداية العملية للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة في حياة النبيﷺ؛ ذلكم لأن دعوة النبيﷺ مرت بمراحل أربعة:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا بدون قتال، التي بدأت بقوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾(1) واستمرت ثلاثة سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهرا بدون قتال، التي بدأت بقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾(2) واستمرت إلى ما بعد الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرا مع قتال المعتدين والظالمين، التي بدأت بقوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾(3).

المرحلة الرابعة: الدعوة جهرا مع قتال كل من يقف في سبيل نشر الإسلام والتي بدأت بعد غزوة الأحزاب حين قال النبيﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا؛ نحن نسير إليهم»(4).

والمرحلة الثالثة من هذه المراحل الأربعة هي التي بدأت بغزوة الأبواء. فكانت هذه الغزوة إذن أولَ مشاركة فعلية للرسولﷺ في الخروج لمواجهة الأعداء في ساحات المعارك، بعد أن أذن الله بقتال المعتدين، وبها افتتح الرسولﷺ الجهاد في سبيل الله بنزال الأعداء.

والجهاد –يا عباد الله– أربعة أنواع بالترتيب: جهاد النفس والشيطان، ثم الجهاد بالدعوة واللسان، ثم الجهاد بالمال وما يملك الإنسان، ثم الجهاد بالنفس والسنان، وهي مرتبة هكذا؛ كل نوع من هذه الأنواع لا يتحقق إلا بعد الذي قبله.

أما جهاد النفس فهو أول الجهاد وأساسه، فهو إصلاح النفس وإنقاذها من براثين الشهوة ومستنقعات الهوى، لأن الفاسد لا يصلح، وفاقد الشيء لا يعطيه، روى الترمذي وصححه عن فضالة بن عبيد أن النبيﷺ قال: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»(5) وفي رواية الديلمي عن أبي ذر أنهﷺ قال: «أفضل الجهاد أن تجاهد

---

(1) العلق: 1.

(2)الحجر: 94.

(3)الحج: 39-40.

(4) صحيح البخاري: 4/ 1508، كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

(5) رواه الترمذي وقال: "حسن صحيح"، سنن الترمذي: 4/ 165، ح: 1621، ورواه ابن حبان في صحيحه: 10/ 484، ح: 4624 وصححه الألباني في: – صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1133، ح: 6679، – السلسلة الصحيحة: 3/ 484، ح: 1496.

نفسك وهواك في ذات الله»[1]. فالإنسان المنهزم أمام شهواته، لا يمكن أن ينتصر على عدوه، فجهاد النفس والشيطان هو الأساس الذي يبنى عليه كل أنواع الجهاد، فجهاد اللسان لا يقبل من إنسان يقول ما لا يفعل، والله تعالى يقول: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[3]؛ فنحن والله في حاجة لإصلاح أنفسنا أولا، فلا يمكن أن ننتصر على الصهاينة والصليبين بعقيدة محشوة بالخرافات، وبطون مليئة بالمحرمات، وبفروج ملوثة بفسق الفاسقين والفاسقات، لا يمكن أن ننتصر بنساء متبرجات، وشباب تربى في أحضان الخمور والمخدرات، لا يمكن أن ننتصر باقتصاد أساسه الربا وبمعاملات حشوها الغش والرشوة والخيانة، ولن ننتصر إلا بعقيدة خالصة، ومعاملات صالحة، وقيادة صادقة، وحدة ناصعة، وتوبة ناصحة.

أما الجهاد باللسان فلن يتأتى إلا بعد جهاد النفس وإصلاحها، وهو جهاد الدعوة والتبليغ، آلته اللسان والحوار، فالإنسان الذي أصلح نفسه، يجب عليه أن يدعو للصلاح غيره، وهذا الجهاد هو الذي بدأ به النبيﷺ حين واجه المشركين في مكة، فصدع في وجوههم بكلمة حق دون سلاح، ففند ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد الآباء والأجداد، دون أن يبالي بالأخطار التي كانت تحدق به من جراء الشرك والعناد، كل ذلك بالحجة البالغة، والأدلة الدامغة، سلاحه في هذه المعركة القرآن، ليس في يده فقط؛ بل في قلبه ولسانه ومعاملاته، وقد كانﷺ قرءانا يمشي على وجه الأرض، وقد سمى الله تعالى دعوته تلك جهادا كبيرا، إذ قال له سبحانه وهوﷺ لا زال بمكة قبل الهجرة: ﴿فلا تطع الكفرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾[4]. يقول الله تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾[5] ويقول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[6] وروى أبو داود والترمذي أن النبيﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان

(1) رواه الديلمي في مسند الفردوس: 1/ 127، وأبو نعيم في الحلية: 2/ 249، قال الألباني: إن صح سنده إلى سويد بن حجير فالحديث صحيح، السلسلة الصحيحة: 3/ 483، ح: 1496.
(2) الصف: 3.
(3) البقرة: 44.
(4) الفرقان: 52.
(5) فصلت: 33.
(6) آل عمران: 110.

جائر»[1]. وروى البخاري أنهﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية»[2] وروى الترمذي أنهﷺ قال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[3].

وهذا الجهاد باللسان، وبالتي هي أحسن، واجب على كل مسلم ومسلمة بشرط أن يكون عالما بما يدعو إليه تجاه أبناءه وأقربائه ومعارفه أولا، قال الله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[4]، ثم تجاه أي مسلم يراه في معصية قال الله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[5]، ثم تجاه الإنسان مهما كانت عقيدته قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[6]. والجهاد باللسان ليس هو الوعظ والإرشاد فقط، ولا الخطب المنبرية فقط؛ بل هو أيضا تأليف الكتب النافعة، ووسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، وعبر الفضائيات وشبكات الانترنيت الواسعة. وقديما كنا نقول: قد أصبح العالم قرية واحدة، واليوم قد أصبح بالانترنيت بيتا واحدا.

أما الجهاد بالمال فإنه يأتي بعد جهاد النفس، وهو قرين الجهاد باللسان، كلاهما في حاجة لقرينه، والجهاد بالمال، لا يتحقق إلا بالحلال، والرسولﷺ يقول: «إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا...»[7]، وهو مقدم في القرآن الكريم على الجهاد بالنفس يقول الله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[8] ويقول الرسولﷺ فيما روى الشيخان: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً في سَبِيلِ الله فقد غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً في أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا»[9].

---

(1) – سنن أبي داود: 4/ 124، ح: 4344، – سنن الترمذي: 4/ 471، ح: 2174، – السنن الكبرى للنسائي: 4/ 435، ح: 7834.

(2) صحيح البخاري: 3/ 1275، كتاب أحاديث الأنبياء/ باب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

(3) صحيح، رواه الترمذي في السنن: 5/ 34، ح: 2658، من حديث ابن مسعود وصححه، كما صححه الألباني في: –صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1145، – صحيح الترغيب والترهيب: 1/ 21، ح: 89.

(4) الشعراء: 214.

(5) التوبة: 71.

(6) سبأ: 28.

(7) صحيح مسلم: 2/ 703، كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(8) التوبة: 41.

(9) – صحيح البخاري: 3/ 1045، كتاب الجهاد والسير/ باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير، – صحيح مسلم: 3/ 1507، كتاب الإمارة/ باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافة في أهله بخير.

أما الجهاد بالنفس فهو عقد بيع مع الله تعالى فهو جهاد الحرب والقتال، آلته السلاح والمقاومة، يقول الله تعالى فيه: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[1]، وهو من مسؤولية الدولة وحكام الأمة، فهم المسؤولون عن تنفيذه ورعايته، وعن إعلانه وتيسيره وإنهائه، حسب ما تقتضيه مصالح الأمة، والحكام أيضا هم المسؤولون أمام الله تعالى عن تعطيل الجهاد اليوم وضياعه، ولا يجوز لأي فرد من أفراد المسلمين أن يتبناه إلا بإذن الحاكم الشرعي، وإلا فإنه سيصبح فوضى وظلما واعتداء وإرهابا، وهو موجه أساسا لدفع الظلم ورد العدوان، وتأديب أعداء الإسلام الذين يشنون عليه حربا ويعلنون ضده العداوة، والبادئ أظلم، يقول الله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[3].

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن الناس اليوم في قضية الجهاد على طرفي نقيض؛ فمنهم من يريد إزالته من قاموس الإسلام، باسم سماحة الإسلام، وباسم السلام. فهذا خطأ؛ لأن الجهاد موجود في القرآن الكريم، ولا يمكن تنحيته إلا بتنحية القرآن نفسه، وهذا مستحيل، روى الطبراني عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[4]، وقال أبو بكر: «إلا ضربهم الله بالذل»[5]. ومنهم من يفسر الجهاد بالقتال فقط، وهذا خطأ فادح أيضا، جنى على المسلمين في العالم ويلات هم في غنى عنها، وبسببه وُسم الإسلام بإرهاب الآمنين وهو منه براء.

---

(1) التوبة: 111.
(2) البقرة: 190.
(3) الممتحنة: 8-9.
(4) حسن، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 149، ح: 3839، وحسن الحافظ المنذري إسناده في: الترغيب والترهيب: 2/ 217، والألباني في: - صحيح الترغيب:2/ 71، ح: 1392، - السلسلة الصحيحة:3/ 352، ح: 2663.
(5) سيرة ابن هشام: 6/ 82.

وبين هؤلاء وأولئك وسط هو الحق المبين، «وخير الأمور أوسطها»[1] والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2]؛ فالجهاد مشروع لكنه يتناول جميع نواحي الحياة: فالتربية جهاد، والتعليم جهاد، والعمل جهاد، والتوعية جهاد، والطب جهاد، وإذا كان الإعلام الطالح فسادا فإن الإعلام الصالح جهاد، والإعلاميات في شبكة الانترنيت جهاد.

فلو أنك -أخا الإسلام- أنقذت مسلما واحدا بمالك من ضعف الفقر إلى قوة الغناء، أو بطبك من نقمة المرض إلى نعمة الصحة، أو بعلمك من ذلة الجهل والأمية إلى عزة العلم، أو بتوعيتك من ظلام الشرك والخلاعة إلى نور الإيمان والطاعة، لكنت مجاهدا في سبيل الله والرسولﷺ يقول: «لأن يهدي الله رجلا بك خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[3]، وفي رواية «خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[4].

وإذا كان الجهاد أنواعا؛ فإن كل نوع شرع له الإسلام من يتحمل مسئوليته خاصة، واحترام التخصص فيه واجب، وإلا كان فوضى يجني على المسلمين ما لا يستطيعون تحمله من الفتن والمصائب: فجهاد النفس والشيطان هو طبعا مسئولية الجميع، وضمن صلاحيات الكل، أما الجهاد باللسان فهو من صلاحيات ومسئوليات العلماء، لا أقول "رجال الدين"، لأنه لا يوجد في الإسلام مصطلح "رجال الدين"، فكل مسلم هو رجل دين، وكل مسلمة هي امرأة دين، أما الجهاد

---

(1) رُوي بلفظ "أوسَطُهَا" و "أوْسَاطُها"، ورفعه ضعيف، فقد رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند فيه مجهول عن علي مرفوعا، ورواه البيهقي في سننه عن عمرو بن الحارث الأنصاري المصري مرفوعا بسند منقطع، وأورده الديلمي في مسنده بلا إسناد عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: "...**خير الأعمال أوسطها**..."، ورواه البيهقي في شعبه بسند صحيح موقوفا على التابعي الجليل مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير (ت: 86هـ، أو 95هـ)، ورواه أبو نعيم الإصبهاني في حليته من قول التابعي الجليل أبي قلابة عبد الله بن زيد (ت: 104هـ)، انظر: - الطبقات الكبرى لابن سعد: 7/ 142، - السنن الكبرى للبيهقي: 3/ 273، ح: 5897، - شعب الإيمان للبيهقي: 5/ 261، ح: 6601، - حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء للإصبهاني: 2/ 286، - مسند الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي: 2/ 212، ح: 3036، - المقاصد الحسنة للسخاوي، ص: 332، ح: 455، - كشف الخفا للعجلوني: 1/ 174، ح: 1247، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني: 14/ 1163، ح: 7056.

(2) البقرة: 143.

(3) صحيح البخاري: 3/ 1077كتاب الجهاد والسير/ باب دعاء النبيﷺ إلى الإسلام. -صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي بن أبي طالبرضي الله عنه.

(4) ضعيف، رواه الطبراني في المعجم الكبير: 1/ 315، ح: 930، وضعف الألباني إسناده بأبي خالد الدالاني الأسدي الكوفي، السلسلة الضعيفة: 6/ 509، ح: 2950.

بالمال فهو من مسئوليات الأغنياء. وأما الجهاد بالنفس فهو من مسئوليات وصلاحيات السلطة والدولة. والنبيﷺ يبين ذلك إذ قال فيما روى الإمام مسلم: «مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، (وهذا مسئولية السلطة) فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، (وهذا مسئولية العلماء) فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذلكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[1] (وهذا هو جهاد النفس وفي مسئولية كل مسلم).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) صحيح مسلم: 1/ 69، كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

إن الحرب في الإسلام ليست للتدمير وقتل البشر؛ بل إنها تنساب عطفا ورحمة، إنها تتألق في سماء الإنسانية، وترتفع عن حضيض الأنانية، إنها لمواجهة من يحمل السلاح ضد الأمة، لقد حرم الإسلام قتل من لا يحمل السلاح من الرجال والنساء، روى أبو دود أن النبيﷺ قدم وصية لجنوده، وصية تحمل آداب الجهاد الإسلامي، وقوانين الحرب في الإسلام، تلك الآداب التي تجعل الحرب في الإسلام رحمة، تلك القوانين التي لم يعرفها العالم المتحضر اليوم، قالﷺ: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»[1]، وفي رواية: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا»[2].

انظروا -رعاكم الله- كيف كان الإسلام رحمة حتى في حربه، وقارنوا بين الحرب في الإسلام، والحروب التي أدارها اليوم دعاة الحضارة وحقوق الإنسان، الذين ينعتون اليوم المسلمين بالإرهاب، إنهم لم يحسبوا في حروبهم أي حساب للأطفال ولا للنساء ولا للشيوخ ولا لرجال الدين عندهم، إنهم هدموا المستشفيات على مرضاها، وأحرقوا المحاصل الفلاحية وحيواناتها. فاسألوا القدس وفلسطين، واسألوا العراق والبلقان والشيشان، واسألوا قبل ذلك هروشما ونكزكي وبرلين؟!

لقد أسفرت الحرب العالمية الأولى عن ضحايا تقدر ***بتسعة عشر مليون قتيلا*** أكثر من نصفهم مدنيون. وأسفرت الحرب العالمية الثانية عن ضحايا تقدر ***بخمسة وستين مليون قتيل***. وأسفرت محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة في العصور الوسطى في أوربا عن ***اثني عشر مليون قتيلا***. وأسفرت الشيوعية في العالم عن ضحايا تقدر ***بثلاثين مليون قتيلا***.

بينما تتبع العلماء غزوات الرسولﷺ كلّها على مدى عشر سنوات، فوجدوا أنها لم تسفر إلا عن ***1018 قتيلا*** من كلا الفريقين: من الكفار والمسلمين معا، كلهم

---

(1) ضعيف، رواه أبي داود في السنن: 3/ 37، ح: 2614، عن أنس ﷺ، وفي سنده خالد بن الفِزْرِ مجهول، ولذلك ضعَّفه الألباني في: - ضعيف سنن أبي داود: 2/ 325، ح: 450، -ضعيف الجامع الصغير، ص: 194.

(2) رواه أبو داود في السنن: 3/ 37، ح: 2613، وقد صححه الألباني في: - صحيح سنن أبي داود: 7/ 369، ح: 2353، - إرواء الغليل: 5/ 86، ح: 1247، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 244، ح: 1078.

عسكريون ليس فيهم مدنيون ولا نساء ولا أطفال، ورغم ذلك أقامﷺ دولة، وأحيا أمة، وأثبت العقيدة، وأصلح المجتمع.

قارنوا -يا عباد الله- بين هذا وذاك؛ لتدركوا كيف كان النبيﷺ رحمة مهداة في حربه وسلمه، ولتدركوا معنى قول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1].

واسألوا في هذه الأيام العراق وبيت المقدس وأكناف بيت المقدس،حيث قوافل الشهداء إلى الله تترى، وفي مقدمتها الأطفال الرضع، والشيوخ الركع، والبهائم الرتع. ففي الأسبوع الماضي قتلوا الشيخ الشهيد، "أحمد ياسين" شيخا قد اشتعل رأسه شيبا وبلغ من الكبر عتيا وعمره 67 عاما، شيخا نالت من صحته سنوات السجن والحرمان، شيخا مقعدا لا يمشي إلا بكرسي متحرك، لا يسمع إلا بصعوبة، ولا يرى إلا بصعوبة، أي جريمة هذه؟ وأي جبن هذا؟

ولكن استشهاد الشيخ الشهيد ليس غريبا لا من جهته، ولا من جهة أعدائه، ليس غريبا من جهته لأنه -يا أخي- نال ما تمنى؛ فلا يكاد يطلع علينا في أية قناة إلا وتمنى على الله تعالى أن يرزقه الشهادة، فلا غرابة أن يحقق الله أمنيته، وأن يستجيب الله دعاءه، فهو في الحقيقة لا يستحق التعزية ولكن التهنئة. وليس غريبا أيضا من جهة المجرم الصهيوني الجبان "شارون" وبالأحرى "شرٌّ" الذي لا يعرف جرمه حدودا، فصبرا وشاتيلا شاهدة تاريخية على نوعية هذا المجرم الظالم الوقح الجبان. ولكن أهل بيت القدس وأكناف بيت القدس له بالمرصاد، فقد هاجروا الفنادق، وسكنوا الخنادق، وحملوا البنادق، استعدادا لمحاربة الصهاينة الفواسق، والفواسق يقتلن في الحل والحرم! ومن يقرعْ الباب يسمعْ الجواب.

ألا فاتقوا الله عباد الله! وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

---

(1) الأنبياء: 107.

17) الخطبة [5] عبر وفوائد من تحويل القبلة[1]

الحمد لله الذي خص الأمة ببعثة خير الأبرار، وميزها بقبلة تتجه إليها في الصلوات والأذكار، فأمرنا بالاقتداء بسيد الأخيار، ونهانا عن التشبه بالمشركين والكفار، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، عالم الخفايا والأسرار، والمطلع على مكنون الضمائر والأفكار، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صاحب الحلم والوقار، باتباعه ينال المسلم المقاصد والأوطار، ويتجنب خطوات الأشرار، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الأطهار، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دام الليل والنهار.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها هو شهر شعبان قد انتصف، وهو شهر يربطنا بسيرة المصطفىﷺ في أكثر من حدث، فقد قد منا لكم أن النبيﷺ كان يكثر فيه الصيام، لأنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وفيه وقعت معجزة انشقاق القمر التي يشير إليها الله تعالى إذ يقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[2]، وفيه ولد حفيد الرسولﷺ سيدنا الحسين بن علي، وفيه وقعت غزوة بني المصطلق وما فيها من أحداث عظيمة، وفيه تحولت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.

تعالوا بنا اليوم نقف بكم عند حدث تحويل القبلة، نرفع الستار عن الأمور التي ترمز القبلة إليها، لنستكشف أسرارها وأحكامها، لنستطلع فوائدها وحِكَمَها، حتى نتعلم لماذا كانت القبلة أولا إلى المسجد الأقصى؟ ولما تحولت أخيرا إلى المسجد الحرام؟.

إن موقع القبلة -يا عباد الله- في الأحكام الشرعية عظيم: فهي شرط من شروط الصلاة الأربعة؛ طهارة الحدث، وطهارة الخبث، وستر العورة، واستقبال القبلة، وإليها يتجه المسلم عند الدعاء والذكر وقراءة القرآن، وإليها يُوجِّه المسلم ذبيحته أثناء ذبحها، وإليها يُوَجَّه الميتُ عند خروج روحه، وعند وضعه في قبره، كما لا ينبغي للمسلم أن يستقبلها أو يستدبرها وهو يقضي حاجته من البول والغائط. وهذه القبلة كانت في بداية الهجرة إلى المسجد الأقصى ستة عشر شهرا، أو سبعة

---

(1) ألقيت أولا في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 17 شعبان 1420 هـ 26/ 11/ 1999 م، ثم أعيدت أخيرا في : 19 شعبان 1429 هـ 22/ 08/ 2008م.

(2) القمر: 1.

عشر شهرا كما روى البخاري[1]، وكان النبيﷺ في هذه الفترة يقلب وجهه في السماء، في رغبة واضحة، دائم التطلع إلى الله سبحانه ليوجه القبلة إلى الكعبة المشرفة.

وبهذا يعلمنا النبيﷺ كيف ينبغي للمسلم أن يتطلع دوما إلى الأفضل في الأعمال، أن يتشوف إلى الانتقال من حسن إلى أحسن؛ لأن المسجد الحرام يحتضن أول بيت وضع للناس، ولأن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة في غيرها، بينما تكون في المسجد الأقصى بخمسمائة. وفي منتصف شعبان على المشهور من السنة الثانية من الهجرة، استجاب الله تعالى لهذا التطلع النبوي المبارك، فأمر بالاتجاه إلى الكعبة المشرفة.

فيا ما أكثر ما استجاب الله تعالى لتطلعات المصطفىﷺ! ويا ما أكثر ما لبى الله تعالى رغاباتهﷺ! وهو الذي قال فيه: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[2] حتى قالت فيه عائشة: «والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك» رواه البخاري ومسلم واللفظ له[3]، وفي هذا أعظم التشريف وأجل التكريم، يقول الله تعالى:﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾[4].

ومن فوائد هذا التحويل ما يلي:

أولا: لقد جعل الله القبلة أولا إلى المسجد الأقصى حتى يربط المسلمين بالقدس، حتى يسجل في تاريخ الإسلام أن القدس هي أولى القبلتين؛ بل إن تحويل القبلة هو بمنزلة الربط الروحي بين المساجد الثلاثة، لأن القبلة تحولت في المسجد النبوي، من المسجد الأقصى، إلى المسجد الحرام. والحديث عن القدس اليوم حديث ذو شجون، يبعث في القلوب الأحزان، لأننا نتذكر القدس اليوم وهي تعاني وتنادي؛ إنها تعاني من التهويد الذي يمارسه الصهاينة علنا، تحت حماية الصليبية العالمية المصهينة، إنها تعاني من هدم بيوت أهلها، وانتزاع هويات سكانها، ومصادرة

(1) صحيح البخاري: 1/ 23، كتاب الإيمان/ باب الصلاة من الإيمان وقول الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، يعني: صلاتكم عند البيت.
(2) الضحى: 5.
(3) – صحيح البخاري: 4/ 1797، كتاب التفسير/ باب قوله ترجىء من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء،
– صحيح مسلم: 2/ 1085، كتاب الرضاع/ باب جواز هبتها نوبتها لضرتها.
(4) البقرة: 144.

أراضيها، إنها تعاني من سرطان الاستيطان، يعاني أرضها المقدسة من المستوطنات المدنسة، ولسان حالها ينادي: يا للمسلمين! ولكن لا حياة لمن تنادي.

ولكن المؤمن يجب عليه أن يكون على كل حال متفائلا والله تعالى يقول: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[2]؛ فلئن انتصر اليهود اليوم، وسلبوا منا أولى القبلتين، فإنه لا ينبغي أن نقنط من سعة رحمة الله، ولا ينبغي أن نيأس من معين روح الله الذي لا يغور، فسوف يأتي يوم -متى شاء الله- ينتصر فيه المسلمون على اليهود. وهذا غير بعيد لو اتحد المسلمون بكلمة التوحيد على أساس هذه القبلة، لو اتفقوا في توحيد الكلمة على أساس هذه القبلة، لو ملكوا سيادتهم وثروتهم، لو تمسكوا بشريعة ربهم، لو نصروا الله في معاملاتهم، لنصرهم الله على أعدائهم.

ثانيا: لقد جعل الله تعالى القبلة أولا إلى المسجد الأقصى، ليتعلم الصحابة ومن تبعهم إلى يوم الدين، كيف يتجردون من التعصب للمكان، هذا التعصب الذي شتت الأمة اليوم طرائق قددا، فأصبح كل فريق يبكي على أرضه، ويحارب من أجله أخاه المسلم، فيظلمه ويحتقره ويخذله، فأصبح الوطن بذلك وثنا يعبد، في حين أن المسلم أخو المسلم وإن كان وراء الحدود الجغرافية المصطنعة، وإن كان في العراق وفلسطين، والرسول ﷺ يقول: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3]. ويقول ﷺ ما معناه: من نصر مسلما نصره الله ومن خذل مسلما خذله الله[4].

ومن المعلوم -يا عباد الله- أن العرب في جاهليتهم تعلقوا أيما تعلق بالكعبة؛ يعظمونها، يمجدونها، يتقربون إليها، يحبونها حبا جما، ومن الصعب بمكان صرفهم عنها، فأراد الله تعالى أن يكون تعظيم المسلمين للكعبة تعظيما لله سبحانه أولا، وأن يجردهم من كل تعصب لجنس أو لغة أو لون أو قومية أو أرض أو بيت أو تاريخ، ولو كان مكة والكعبة، فاختار لهم -فترة من الزمان- المسجد الأقصى ليظهر من

---

(1) يوسف: 87.
(2) الزمر: 53.
(3) متفق عليه ولفظه للبخاري في صحيحه: 5/ 2238، ح: باب رحمة الناس والبهائم.
(4) معناه جاء في حديث حسن، رواه أبو داود في سننه: 4/ 271، ح: 4884، والطبراني في معجميه؛ الأوسط: 8/ 282، ح: 8642، والكبير: 5/ 105، ح: 4735، وقد حسن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: 7/ 267، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 292-293، ح: 5690.

يتبع الرسولﷺ مجردا من كل تعصب، وليفرز ويميز من يتبع الرسول لأنه رسول الله عمن يتبعه لأنه أبقى على الكعبة قبلة للصلاة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها، إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾[1].

ثالثا: لقد تحولت القبلة أخيرا إلى المسجد الحرام، ليميز الله -عز وجل- المؤمن الصادق من المتردد المنافق، وتحويل القبلة هي بمنزلة امتحان كشف الله تعالى به الأستار عن المنافقين، لقد صنف تحويل القبلة الناس إلى أربعة أصناف:

1) المؤمنون الصادقون قالوا: سمعنا وأطعنا.

2) المشركون قالوا: ما بال محمد عاد إلى قبلتنا.

3) اليهود قالوا: ما بال محمد ترك قبلتنا.

4) المنافقون دورهم التشكيك وضرب مصداقية الإسلام من الداخل، قالوا: إذا كانت صلاة محمد إلى البيت الحرام هي الصحيحة، فما كان قد صلى إلى الأقصى غير صحيح، وإن كانت صلاته إلى الأقصى هي الصحيحة، فما يصلي الآن إلى الكعبة غير صحيح، فنسي الخبثاء أن لب العبادة وروحها النابض، هو امتثال أوامر الله عز وجل أينما كانت، ولا يوجد داء أخطر على الأمة من المنافقين الأدعياء، الذين يدَّعون الإسلام وهو منهم براء، والأمة المسلمة اليوم ما تعاني إلا من أحفاد هؤلاء، لأنهم يحاربون الإسلام باسم الإسلام، ونحن اليوم لا نخاف على الإسلام من أعدائه بالقدر الذي نخاف عليه من أدعيائه.

ولم يدر هؤلاء السفهاء من المشركين واليهود والمنافقين، أنهم بهذه الحملة المسعورة ضد تحويل القبلة، يقدمون دليلا قويا على أن القرآن من عند الله، لأن الله تعالى أخبر عن ذلك قبل أن يقدموا عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم (أي صلاتكم) إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[3].

رابعا: لقد تحولت القبلة أخيرا إلى الكعبة المشرفة لتصبح رمز وحدة المسلمين، يتوجهون إليها أينما كانوا، في تلكم الحلقات المستديرة الخلابة التي نشاهدها حول الكعبة، تبتدئ في المسجد الحرام، وتمتد امتداد خيوط النور والظلمة على الكرة

---

(1) البقرة: 143.

(2) البقرة: 142.

(3) البقرة: 143.

الأرضية، فأصبحت بذلك أحد مقومات الوحدة بين المسلمين وما أكثرها! وإن أمة قبلتها واحدة، وقرآنها واحد، وعقيدتها واحدة، واقتصادها متكامل فيما بينها، ومناطقها الجغرافية متصلة، وإن أمة هذه حالتها لجديرة بوحدة متماسكة، لجديرة بتوحيد الكلمة على أساس من كلمة التوحيد، لو ملكت قوة الإرادة وحسن الإدارة، ولكن أعداء الإسلام، يضعون عراقيل شتى، ويميلون بكل أثقالهم ضد تحقيق هذه الوحدة، لأنهم يعلمون أنها سوف تكون حجر عثرة لمطامعهم ومفاسدهم الظالمة.

خامسا: لقد تحولت القبلة أخيرا إلى الكعبة المشرفة، لكي يميز الله تعالى الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم، فاليهود والنصارى يتوجهون في طقوسهم إلى القدس، فأراد الله عز وجل أن يستأثر المسلمون بأول بيت وضع للناس، ببيت رفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، فالكعبة المشرفة هي رمز وحدة الأمة، وعنوان تماسكها، ما دامت تعتصم بوجهتها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾[1].

ومن خلال تحويل القبلة -يا عباد الله- أراد الإسلام أن يقول لنا: ينبغي للمسلم أن يتميز عن غيره، ينبغي للمسلم ألا يتشبه بغيره، فقد روى البخاري أن النبيﷺ قال: «خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب»[2]، وروى أبو داوود أن النبيﷺ قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[3]، وروى الترمذي أن النبيﷺ قال: «نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»[4]؛ ورواه الطبراني بلفظ: «طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهر أفنيتها»[5] بل تبرأﷺ ممن يتشبه بغير المسلمين في مظهره أو مخبره،

---

(1) البقرة: 145.

(2) صحيح البخاري: 5/ 2209، كتاب اللباس/ باب تقليم الأظفار.

(3) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 4/ 44، ح: 4031، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1059، ح: 6149.

(4) ضعيف، رواه الترمذي في السنن: 5/ 111، ح: 2799، وقال: "هذا حديث غريب وخالد بن إلياس يضعف"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته: 1/ 234، ح: 1616.

(5) حسن، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 231، ح: 4057، وحسنه في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 730، ح: 3935، - السلسلة الصحيحة: 1/ 472، ح: 236.

في قلبه أو قالبه، فقال فيما روى الترمذي: «ليس منا من تشبه بغيرنا...»[1] وويل لمن تبرأ منه الحبيب المصطفى ﷺ.

وقد حذرنا النبي ﷺ من اتباع اليهود والنصارى فأخبر أن الأمة المسلمة سوف يأتي عليها زمان تقلد فيه اليهود والنصارى تقليدا أعمى، فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا: آليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[2]. لقد صدق الرسول ﷺ ! فها هو عصرنا هذا يتحقق فيه ما أخبر به منذ أربعة عشر قرنا، لقد اتبعنا هؤلاء في شتى المجالات؛

ففي المجال السياسي استوردنا القوانين التي تخالف أصالة ديننا وثقافتنا. وفي المجال الاقتصادي فتحنا باب المعاملات لأخطبوط الربا، فأنهك اقتصادنا. وفي مجال الأسرة فالمستغربون منا ما زالوا ينعقون وراء تغيير مدونة الأحوال الشخصية، حتى تستجيب لمتطلبات هذا التقليد الأعمى. وفي المجال الإعلامي خذ لك جولة واحدة في فضائيات الأمة ليتراءى لك هذا المسخ الممقوت.

أما شوارعنا فتكفي فيها إطلالة واحدة، لتجدها مطبوعة بهذا التقليد، فالشباب وهم روح الأمة وقلبها النابض، يلهثون وراء الموضة وعادتهم المفضلة السير وراء ما استجد من "كُوبَّات" الصهاينة بحثا عن الجمال في غير محله.

أما في مجال المرأة فإن الموضة الغربية حطمت طهارة المرأة المسلمة، وسممت عفتها، فلم تترك لها لباسا يذكر، فصارت تخرج في لباس هو بمنزلة التصريح بممتلكاتها الجسدية، فمرة تكون بلباسها خليعة، ومرة تبدي بلباسها عدم الاكتراث، ومرة تخرج من دائرة الأنثى لتتشبه بالرجال، فلا هي في الحقيقة برجل ولا هي بامرأة، تاركة الأظافر الطويلة كأنها الوحش المفترس، ولقد صدق من قال:

قل للجميلة أرسلت أظفارها ... إني لخوف كدت أمضي هاربا
إن المخالب للوحوش نخالها ... فمتى رأينا للظباء مخالبا؟
بالأمس أنت قصصت شعرك غيلة ... ونقلت عن وضع الطبيعة حاجبا
وغدا نراك نقلت ثغرك للقفا ... وأزحت أنفك -رغم أنفك- جانبا[3]

---

(1) رواه الترمذي: 5/ 56، ح: 2695، وقال: هذا حديث إسناده ضعيف"، وحسنه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 96، ح: 5431، - السلسلة الصحيحة: 5/ 227، ح: 2194.

(2) صحيح البخاري: 6/ 2669، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم ، - صحيح مسلم: 4/ 2054، كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

(3) الأبيات أوردتها نعمت صدقي في كتاب: التبرج، ص: 24، ولم تنسبها لقائل معين.

إنها تتلون بمكياجها وأصباغها كأنها الحرباء، طورا شقراء وطورا سمراء، لا تكاد تستقر على موضة حتى تبدو لها أخرى أشد وأنكى، في جاذبية شيطانية تجذب الجنسين إلى الفاحشة والمنكر، ثم إلى توزيع جراثيم السيدا.

هل تعلمون -يا عباد الله- أن رئيس أميركا في هذه الأيام وقع قانونا للفصل بين الذكور والإناث في المدارس لما في الاختلاط من المفاسد، وإذا كانت أمريكا تدعو للفصل بين الذكور والإناث، فإن ديننا قد دعانا لذلك مند أربعة عشر قرنا، فلماذا لا نستجيب لدينا فنتميز عن غيرنا؟

فعلينا أن نحارب هذا التقليد اللامحسوب للغرب في غثه وسمينه، وهذا الانفتاح اللامحدود على الغرب بعُجَره وبُجَره، فإن المفاسد التي نعاني منها ليست إلا نتيجة محتومة لهذا التقليد، ليست إلا ضريبة الابتعاد عن تعاليم الإسلام، ليس إلا عقوبة خرق هذا الامتياز الذي تفرضه علينا تحويل القبلة بما فيها من رموز وإشارات.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

لما تحولت القبلة ذهب أحد الصحابة لأحد مساجد المدينة، فوجد أهل ذلك المسجد ما زالوا يصلون إلى الأقصى وهو في صلاة الفجر، ولم يعلموا بعدُ أن القبلة قد تحولت إلى الكعبة، فلما أخبرهم بتحويل القبلة استداروا كما هم، فصلوا ركعة إلى الأقصى وركعة إلى المسجد الحرام، فسمي هذا المسجد إلى الآن بـ"مسجد القبلتين"[1].

ومن هذا نتعلم -يا عباد الله- الفوائد الآتية:

أولا: وجوب امتثال أوامر النبيﷺ فورا على أية حال، وهو الذي قال فيه الله تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2] وهو الذي قالﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[3].

ثانيا: وجوب تبليغ أحكام الشرع ووجوب الدعوة إلى الله أينما حل المسلم وارتحل.

ثالثا: أن المسلم إذا نسي أو أخطأ فصلى لغير القبلة فصلاته صحيحة، ولهذا قال الفقهاء: إن القبلة شرط في الصلاة بالذكر والقدرة.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

---

(1) صحيح مسلم: كتاب المساجد/ باب تحويلِ القبلة من القدسِ إلى الكعبة. وفي طبقات ابن سعد: 1/ 242. أن النبيﷺ «زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاما وحانت الظهر فصلى رسول اللهﷺ بأصحابه ركعتين ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب فسمى: مسجد القبلتين».

(2) النساء: 80.

(3) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، ص: 12، وصححه النووي في الأربعين حديثا؛ الحديث الحادي والأربعون، وضعفه ابن رجب الحنبلي، والإمام الألباني انظر: - جامع العلوم والحكم، ص: 386، - السنة لابن أبي عاصم بتحقيق الألباني، ص: 12 - مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني: 1/ 59، ح: 167.

18) الخطبة [6] أسس الانتصار في غزوة بدر الكبرى[1]

الحمد لله الذي أكرم المصطفى ﷺ بغزوة بدر الكبرى، وأرسله بالعدل والشورى، فحارب المشركين قتلا وأسرا، فحقق الله له عليهم فوزا ونصرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له علا نية وسرا، أجزل على المجاهدين ثوابا وأجرا، وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، فكان في ظلام الكفر الدامس سراجا منيرا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم يحدد مصير الناس جنة أو سعيرا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

لقد كان رمضان عند السلف الصالح شهر الصبر والجهاد، وشهر العزيمة والتوفيق والسداد، يتسلحون فيه بقوة الإرادة والعدة والعتاد، فينشطون في حقل الدعوة والكفاح، وينطلقون في ميادين الفوز والفلاح، يملئونه بالجد المثمر والسعي والأمل، لم يكن عندهم أبدا شهر فتور ونوم وكسل، لم يكن أبدا عندهم مدعاة ضعف الإنتاج والتراخي عن العمل، لم يكن عندهم أبدا شهر المنوعات أو بالأحرى الممنوعات الغنائية أو الفلمية. لقد سجل لنا رمضان ذكريات عظيمة:

ففي رمضان نزل القرآن الكريم، فكان شهر نزوله ومدارسته.

وفي رمضان السنة الثانية من الهجرة، وقعت غزوة بدر الكبرى.

وفي رمضان السنة الرابعة من الهجرة حفر ﷺ الخندق استعدادا لغزوة الأحزاب.

وفي رمضان السنة الثامنة من الهجرة فتح ﷺ مكة المكرمة.

وفي رمضان السنة التاسعة من الهجرة، هدم ﷺ المسجد الضرار الذي بناه المنافقون بجوار مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى.

وفي رمضان سنة 92 هجرية، فتح طارق بن زياد الأندلس فدخل قرطبة، فانتصر على الملك "ردريغو".

وفي رمضان سنة 479 هجرية، انتصر القائد المغربي المسلم يوسف بن تاشفين على ملك الصليبيين "ألفونس السادس" في معركة الزلاقة قرب غرناطة.

---

(1) ألقيت أولا في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 8 رمضان 1420 هـ 17/ 12/ 1999م، ثم أعيدت أخيرا مختصرة في: 17رمضان 1423 هـ 22/ 11/ 2002م.

وفي رمضان سنة 658 هجرية انتصر القائد المسلم سيف الدين قطز في معركة عين جالوت، على جيوش التتار بقيادة هولاكو بعد أن ران على القلوب أنها جيش لا يقهر.

وفي رمضان سنة 361هجرية افتتح الفاطميون صلاة الجمعة في الجامع الأزهر فكان أكبر جامعة إسلامية في العالم.

وفي رمضان سنة 1973 ميلادية من هذا القرن، حطمت الجيوش العربية في سينا والجولان بعد أن اتحدت، أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر.

واليوم نقف بكم عند واحدة من ذكريات النصر في رمضان. تلكم الذكرى التي كانت أول انتصار يتحقق للإسلام ضد أعدائه في ميدان القتال. تلكم الذكرى التي سجلها للتاريخ اليومُ السابع عشر من رمضان، من السنة الثانية من الهجرة. تلكم هي غزوة بدر الكبرى التي سماها القرآن الكريم بالفرقان، لأن الله عز وجل فرق فيها بين الحق والباطل. تلكم الغزوة التي انتصر فيها المسلمون وعددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، أمام جيش المشركين وقوامه تسعمائة مقاتل، يفوق المسلمين عدة وعددا، مدججين بأحدث الأسلحة آنذاك، بينما لا يتجاوز عدد المسلمين ثلث عدوهم، ومنهم من لا يملك من السلاح إلا عصا في يده، ورغم ذلك انتصر المسلمون فحصدوا من المشركين سبعين قتيلا وسبعين أسيرا، جلهم قادة ورؤساء. وحق لكل عاقل أن يتساءل: لماذا انتصر المسلمون في هذه الغزوة رغم قلة عددهم وضعف عتادهم؟ ترى ما هي أسس الانتصار في هذه الغزوة المباركة؟

فتعالوا بنا لنعيش مع النبيﷺ لحظات مباركة، لحظات يستعد فيها لخوض هذه المعركة، نكشف الستار عن أحداث سبقت هذه الغزوة، فنستخرج منها مبادئ هي أسس الانتصار، لعل الأمة تستفيق من عميق سباتها، ومن عقيم اختلافاتها، لعلها تنفض غبار الذل والخذلان عنها، لعلها تسترجع في الريادة والقيادة مكانتها، إذا ما رجع إلى أحضان الإسلام أفرادها. والله تعالى يقول: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(1).

فما أحوجنا إلى الرجوع لغزوة بدر ونحن نرى إخواننا في فلسطين يقتلون ويشردون! وما أحوجنا إلى غزوة بدر نستجلي فيها أسس الانتصار وقد انهزمت الأمة في شتى الميادين!

---

(1) الرعد: 11.

فمن غزوة بدر نتعلم -يا عباد الله- أن من أسس الانتصار، مبدأ اتخاذ الحيطة والحذر، وبتعبير العصر جهاز المخابرات، فالنبيﷺ لم يكن يتغافل حتى يباغته عدوه في عقر داره، كما هو حال الأمة اليوم؛ بل إنهﷺ يتخذ المبادرة، فيهاجم قبل أن يهاجم، ويبث العيون والجواسيس والحراس، وينشر الدوريات الاستطلاعية في سائر الاتجاهات، يتحسسون الأخبار فينقلونها إليهﷺ، فيتحرك على مقتضاها، ويتخذ الحيطة على أساسها، وهو الذي نزل عليه قوله سبحانه: ﴿خذوا حذركم﴾[1].

وقد كان عمه العباس في مكة يكتم إسلامه لسنوات، حتى يتمكن من اختراق صفوف المشركين، فيكشف للرسولﷺ عن مكايدهم ضده، وقد نجح في مهمته نجاحا كبيرا، فقد نقلت إليهﷺ هذه المخابرات النبوية، أخبار قافلة تجارية لمشركي مكة، يقودها أبو سفيان، وفيها أموال تركها المسلمون حين هاجروا إلى المدينة، فاستولى عليها المشركون ظلما وعدوانا، فأراد الرسولﷺ أن تكون من نصيب الصحابة، يستردون بها بعضا من حقوقهم التي سلبت منهم، فاقترح عليهم التعرض لها، لعل الله يجعلها من نصيبهم، فقد روى الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري أنهﷺ قال للصحابة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير لعل الله يُغْنِمُناها؟ (أي يجعلها من غنيمتنا) فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا... »[2]، وإن كلمة «أُخْبِرتُ» هنا لتدل دلالة واضحة على أن النبيﷺ كان قد اتخذ لنفسه جهاز المخابرات مصبوغا بالسرية التامة، فإنهﷺ لم يقل: أخبرني فلان؛ بل قال: «أُخْبِرتُ» حتى يحافظ على هذه السرية في أمان.

فالمخابرات إذن -يا عباد الله- ليست وليدة اليوم؛ بل سبق إليها الرسولﷺ منذ أربعة عشر قرنا، ولا يخفى عليكم أن المخابرات أساس من أسس الانتصار، وعنصر من عناصر القوة، التي طلب الله عز وجل من الأمة إعدادها، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[3]، ولا يمكن لأي نظام أن يستقيم، ولا لأي دولة أن تستقيل إلا بجهاز المخابرات. ولكن المخابرات في الإسلام نوعان:

---

(1) النساء: 71.

(2) حسن، رواه الطبراني في المعجم الكبير: 4/ 174-175، ح: 4056، وحسَّن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: 6/ 74.

(3) الأنفال: 60.

نوع هدفه الوقوف على أسرار عدو الإسلام وإمكانياته المادية والمعنوية، والتشويش على أهدافه الخبيثة ضد الأمة حتى تتقي شره قبل أن ينزل بها، فهذا من سنة النبيﷺ.

ونوع آخر أعد لمحاربة أفراد الأمة المسلمة، وللتجسس على الصالحين منها، فهذا في الإسلام تجسس خبيث حرام منهي عنه شرعا، فكل من يمارسه يمارس أعمالا محرمة، يقول فيها الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾[1]. والرسولﷺ يقول فيما روى البخاري ومسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[2].

وما تعاني الأمة المسلمة اليوم إلا لأنها عطلت هذه السنة النبوية الشريفة، وهذا السلاح النبوي النافذ، فاتخذ أعداءها المبادرة وطوقوها بجيش عرمرم من الجواسيس في شتى المجالات، عسكريا واقتصاديا وإعلاميا... وهلم جرا، فبسبب ذلك ضاعت منا فلسطين.

ولكن هذا لا يعني أن الدول المسلمة لا تملك المخابرات، نعم لديها مخابرات ولكنها مع الأسف أعدت لمحاربة أفرادها، وللتجسس على صالحيها، وللتشويش فيما بينها، فوقعوا فيما نهى عنه الله سبحانه وتعالى.

ومن غزوة بدر نتعلم -يا عباد الله- أن من أسس الانتصار مبدأ الشورى، فعند ما علم الرسولﷺ بواسطة الاستخبارات في مكة أن قافلة أبي سفيان قد نجت، وأن كفار مكة قد خرجوا لمواجهته في بدر بأعداد هائلة، تفوق المسلمين عدة وعددا، وهنا عقد النبيﷺ مجلسا للشورى، بعد أن أخبره الله تعالى بالفوز بإحدى الطائفتين: القافلة أو الجيش، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾[3]، فشكل الرسولﷺ على الفور مجلسا للشورى فقال: «أشيروا علي أيها الناس»[4]، فلم يتقدمﷺ بجيشه حتى أشار عليه

---

(1) الحجرات: 12.
(2) - صحيح البخاري: 5/ 2253، كتاب الأدب/ باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، - صحيح مسلم: 4/ 1985، كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها.
(3) الأنفال: 7.
(4) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 162.

جميع عناصره بالإقدام، حيث أجاب المقداد بن الأسود نيابة عن المهاجرين فقال: «يا رسول الله؛ امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾[1]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»[2]، وأجاب سعد بن معاذ نيابة عن الأنصار فقال: «فاظعن -أي ارحل- يا رسول الله حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا لأمرك فيه تبع »[3]، « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله»[4] وهنا اطمأن الرسولﷺ، فتقدم بكل ثقة وإيمان على بركة الله إلى بدر، حيث المعركة الفاصلة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(1) المائدة: 24.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 161-162.
(3) دلائل النبوة للبيهقي: 3/ 107.
(4) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 162.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

فمن غزوة بدر نتعلم أن من أسس الانتصار المساواة في تطبيق الشريعة، فالإسلام ليس فيه قانون يحمي الظالمين مهما كانوا، وليس فيه حصانة تشكل محمية للمجرمين، وليس فيه قانون لذوي الفقر والحاجة، والآخر لذوي الغناء وأصحاب النفوذ، لقد اتضحت هذه المساواة جلية في غزوة بدر، إنها تجلت في أسمى معانيها، وفي أجل أوصافها، حين كانت مراكب الجيوش المسلمة قليلة، والمسافة بين بدر والمدينة بعيدة، فقسم بينهم الرسولﷺ المراكب بالمساواة، حيث جعل كل ثلاثة رجال يتناوبون على بعير، ولم يميز الأقرباء منه عن غيرهم، ولا الأغنياء عن الفقراء، ولم يعزل القادة عن بقية الجنود، ولم يعزل لنفسه مركبا خاصا يستأثر به في كوكبة من أقربائه وأعوانه؛ بل إنهﷺ كان يتناوب مع اثنين من أصحابه على بعير، فلما قالا له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك؟ قال لهمﷺ فيما روى الإمام أحمد: «ما أنتما بأقوى على المشي مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[1]، وهو الذي قالﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[2] فغياب المساواة في أي مجتمع إيذان بهلاكه وانهزامه، وهو الذي قالﷺ: «إنما هلك من كان قبلكم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[3] ...

أما بقية الغزوة فلنا معها لقاء آخر في الجمعة المقبلة إن شاء الله تعالى.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) صحيح، رواه أحمد في المسند: 1/ 422، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 5/ 326، ح: 2257.

(2) صحيح، رواه أحمد في المسند: 5/ 411، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد: 3/ 266.

(3) – صحيح البخاري: 3/ 1282، كتاب أحاديث الأنبياء/ حديث الغار، – صحيح مسلم: 3/ 1315، كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود.

19) الخطبة [7] أسس الانتصار في غزوة بدر الكبرى (تتمة)[1]

الحمد لله الذي جعل سيرة المصطفىﷺ على الكفر أشد وأنكى، وجعل الإقتداء به للإيمان اختبارا ومِـحَكًّا، وجعل من رغب عن سنته من الفساق الهلكى، وأشـهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له خلقا وملكا، سبحانه وتعالى هو أضحك وأبكى، سبحانه وتعالى إليه المفزع والمشتكى، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله نما خلقه بالقرآن فطهر وزكا، فعطرت سيرتُه الأفاقَ عنبرا ومسكا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين حاربوا النفاق والشرك، وعـلى التـابعين لهـم بإحـسان إلى يـوم يجعل الله فيه الأرضَ دكا دكا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أو صيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية، الأحداث التي سبقت غزوة بدر الكبرى، التي كانت أول انتصار للإسلام على الشرك والإلحاد، والتي وقعت في 17 مـن رمـضان من السنة الثانية من الهجرة.

ومن تلكم الأحداث تعلمنا مبادئ يأخذ بها الإسلام، هي بمنزلـة أسـس يبنـى عليها الانتصار في مواجهة الأعداء، فقد منا لكم مبدأ اتخـاذ الحيطـة والحـذر، مبـدأ الشورى، مبدأ المساواة.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن بقية أحداث هـذه المعركـة، نـستخرج منهـا مبادئ النجاح وأسس الانتصار.

ومن غزوة بدر -يا عباد الله- نـتعلم أن مـن أسـس الانتـصار مبـدأ المعارضـة وقبول الرأي الآخر، فبعد أن استشار الرسولﷺ أصـحابه، وفـرق بيـنهم المراكـب الموجودة بالسوية، اتجه على جناح السرعة إلى بدر، حيث المعركة الفرقان بـين الحـق والباطل، فلما وصلﷺ بدرا أمر الجيش بالنزول أسفل الوادي، بيـنما العـدو أعـلاه، وهنا قامت المعارضة، يقودها الصحابي الجليل حُبَاب بن المنـذر، فقـال: «يارسـول الله؛ أهذا منزل أنزلكه الله: أم هو الـرأي والحـرب والمكيـدة؟»؛ أي هـل أمـرك الله بالنزول فيه، فليس من حقنا حينئذ أن نعارض، فما علينا إلا السمع والطاعة؟ أم هو مجرد رأيك في الحرب والمكيدة؟ فقالﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، وحينئذ

---

(1) ألقيت أولا في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 15 رمضان 1420 هـ 24/ 12/ 1999م، ثـم أعيـدت أخيرا مختصرة في: 17رمضان 1423 هـ 22/ 11/ 2002م.

اعترض حباب بن المنذر فبين لرسول اللهﷺ أن هذا ليس بالمكان الإستراتجي قائلا: ارحل بنا -يا رسول الله- حتى نكون أعلى الوادي فهناك سوف نتمكن من مصادر المياه، فنبني سدا أو قليبا نمنع به عن العدو المياه، فنشرب ولا يشربون. فأخذ الرسولﷺ بهذا الاقتراح وقال: «نعم الرأي»، فأدى ذلك إلى الانتصار الباهر[1].

ومن هذه القصة -يا عباد الله- نتعلم أن أحكام شرع الله لا يجوز بحال من الأحوال معارضتها، وقد رأينا أن الحبابرضي الله عنه سأل النبيﷺ أولا: «أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والمكيدة»؟ لأنهرضي الله عنه يعلم أن معارضة أحكام جاء بها الوحي في القرآن والسنة ما هو إلا إلحاد ونفاق، وأن رفضها ما هو إلا كفر بواح.

ومن هذه القصة نتعلم -أيضا- أن المعارضة ولدت بولادة الإسلام، وتشكلت في صفوف الصحابة منذ الوهلة الأولى، فهي لست وليدة هذا العصر؛ بل فتح لها الرسولﷺ صدره، فاستمع لها، ونزل على رأيها، فيما لا وحي فيه من مسائل الدنيا، وطبقها الصحابة من بعده على أرض الواقع؛

فهذا أبو بكررضي الله عنه يدعو رعيته لتشكيل المعارضة حين تولى الخلافة فقال في أول خطبة له: «أيها الناس؛ قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق -إن شاء الله تعالى-، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله»[2]، أي إن أخطأت وعصيت الله فعارضوني حتى أرجع إلى الصواب.

وهذا عمررضي الله عنه أراد ذات يوم -وهو أمير المؤمنين-، أن يشطب على النفاق الإجتماعي، وعلى المجاملات المشبوهة، أراد أن يتأكد من وجود المعارضة القوية في رعيته، فقال وهو على المنبر: «فما ذا أنتم فاعلون لو زغت عن الطريق المستقيم؟» إذا برجل بين الصفوف يقوم ويتحدث نيابة عن الجميع: «والله لو زغت يا أمير المؤمنين لقومناك بسيوفنا!» فعندئذ اطمأن عمر لما علم أن المعارضة لن تجامله على الأخطاء، فقال: «الحمد لله الذي جعل من رعيتي من إذا أخطأت قومني بسيفه».

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 167-168.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 6/ 82.

وإن الصلاة التي نصليها كل يوم خمس مرات لتعلمنا بدورها حسن المعارضة، وحسن الإذعان للحق، فالإمام الذي تصلي به -أيها الأخ المسلم-، ألستَ تعارضه حين يسهو في صلاته فيخطئ بالزيادة أو النقصان؟ ألستَ تقول له: سبحان الله! تنبيها له حتى يرجع إلى الصواب؟ فإذا ما رجع وجب الائتمام به واتباعه، وهكذا ممارسة الحكم في الدنيا من منظور الإسلام، فالمعارضة يجب أن تكون حتى يرجع الحاكم إلى الصواب، فإذا ما رجع فعلى السمع والطاعة.

ولكن المعارضة اليوم في العالم ليس هدفها الإصلاح وإنما تتخذ مبدأ الإصلاح مطية لأغراضها، فهدفها إزالة الحاكم، أو التشويش عليه وإن كان على صواب، أو معارضته من أجل المعارضة فقط.

ومن غزوة بدر نتعلم -يا عباد الله- أن من أسس الانتصار مبدأ التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب، مبدأ الرجوع إلى الله تعالى على كل حال، فالرسولﷺ قد وعده الله بالنصر، وأطلعه الله على مصاريع صناديد قريش، وأخبر بذلك أصحابه، ورغم أنهﷺ متأكد هكذا من النصر المبين، لم ينس الرجوع إلى الله، فكانﷺ يلح الليل كله في الدعاء ويقول: « اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1] وما زال يهتف حتى سقط منه الرداء، حتى تألم لحاله أبو بكر فقال له: «كفاك يا رسول الله مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك»[2].

ومن غزوة بدر نتعلم -يا عباد الله- أن من أسس الانتصار مبدأ الخضوع للحق ولو كان مرا، وأن الإذعان للعدل فضيلة، وأن الترفع عنه رذيلة، نتعلم منها أنه لا أحد فوق الشرع والقانون، نتعلم منها أن الحاكم يجب عليه إذا ظلم أن يمكن نفسه من مظلومه حتى يأخذ منه حقه، حدث ذلك في غزوة بدر عندما كان الرسولﷺ يسوي صفوف المقاتلين قبيل المواجهة، فمر بصحابي اسمه سواد بن غزية وهو خارج من الصف، فضربهﷺ بعصا في بطنه وقال: «استو يا سواد!».

وهنا يعترض سواد ويقول: أوجعتني يا رسول الله! وقد بعثك الله بالحق والعدل، فامنحني فرصة آخذ منك بحقي، وفورا ودون تردد كشف له الرسولﷺ عن بطنه الشريفة فقال: خذ يا سواد، استقد يا سواد! والصحابة ينظرون وقد

(1) صحيح مسلم: 3/ 1384، كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.
(2) نفس المصدر.

أفزعهم الموقف، وأذهلهم الأمر، فكيف يسمحون أن يضرب رسول اللهﷺ؛ ولكن هذا الصحابي فاجأ الجميع حين اعتنق بطن المصطفىﷺ يقبله، فقال لهﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد؟» فقال: يا رسو ل الله لقد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك في حياتي أن يمس جلدي جلدك[1].

الله أكبر! إنه موقف ايماني غني عن التعليق، منه ندرك عمق محبة المصطفىﷺ في قلوب أصحابه، ومنه نتعلم أن النبيﷺ يقبل بالمعارضة ولو كان ذلك يؤدي إلى إيذائه وضربه.

بالله عليكم يا إخوة الإيمان! هل عرفت التنظيمات الديمقراطية اليوم وقبل اليوم، أن الجندي البسيط يملك من الشجاعة ما يوقف به قائده، ثم يطلب منه أن يضربه كما ضربه، ويخضع القائد أمام الحق، ويمكن الجندي من نفسه؟ الذي نعلمه أن الجندي طاعته عمياء، هو آلة من الآلات، وقطعة كقطع السلاح، يصرفها القائد حيث شاء، والله إن السجن والتعذيب والإعدام أقرب إليه من التفكير في التطاول على رئيسه، أما في التربية المحمدية فالجندي إنسان عزيز، له نفس الحقوق التي لقائده، الشيء الذي جعله يفضل الموت على الذل، ويرغب في الاستشهاد رغبة عدوه في البقاء.

ومن غزوة بدر -يا عباد الله- نتعلم أن من أسس الانتصار مبدأ التآخي على أساس من العقيدة، مبدأ توحيد الكلمة على أساس من كلمة التوحيد، فالأخوة الإيمانية الصحيحة لا تخرقها الحدود الجغرافية المصطنعة، ولا تؤثر فيها الجنسيات المفتعلة، ولا تحدد باللون ولا باللغة؛ فالمسلم أخ المسلم وإن كان وراء هذه الحدود، يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، وقد قالﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2]، وقال أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[3].

ففي غزوة بدر تلاشت كل الروابط عند أهل بدر إلا رابطة الإيمان، فلا أهمية ولا اعتبار للأخوة ولا للبنوة ولا للأبوة ولا لأي نوع آخر من أنواع القرابة إذا ما تعارضت في أي نقطة مع رابطة الإيمان، فقد سجل الصحابة هذا في أرض بدر:

---

(1) السيرة النبوية: 3/ 173-174.

(2) متفق عليه، ولفظه للبخاري في صحيحه: 5/ 2238، ح: باب رحمة الناس والبهائم.

(3) - صحيح البخاري: 1/ 182، كتاب الصلاة/ أبواب المساجد/ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، - صحيح مسلم: 4/ 1999، كتاب البر والصلة والآداب/ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

فهذا أبو عبيدة بن الجراح قتل هناك أباه لأنه عدو الله[1]، وهذا عمر قتل خاله لأنه في صف المشركين[2]، وهذا مصعب بن عمير يمر على أخيه من أبيه وأمه[3] وهو أسير بيد أنصاري فقال له: شد يديك به فإن أمه ذات متاع، فقال له شقيقه: أهذه وصيتك بي يا أخي؟ أجابه مصعب: إن الأنصاري أخي دونك[4]، وقد سجل عنهم القرآن الكريم هذه الخصلة الإيمانية فقال: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[5].

ففي ظل هذه العقيدة الطاهرة وحد الرسولﷺ القلوب والأفكار، ووحد الصفوف والأهداف، فقد أكد لنا تاريخ الإسلام أن المسلم لا يمكن أن يتقدم حضاريا، ولا أن يتفوق عسكريا إلا في ظل الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة، فهي سر الفتوحات الإسلامية العظيمة، التي امتدت بعد وفاة النبيﷺ خلال تسع وثمانين سنة إلى الصين شرقا، وإلى فرنسا جنوبا، وإلى سيبيريا شمالا، وإلى المحيط جنوبا، فهي توحد ولا تفرق، تؤلف ولا تمزق.

وحين غاب رجل العقيدة والإيمان، أصبحت الأمة اليوم ذليلة حقيرة، فتسلط عليها من يذيقها مرارة الاستبداد والطغيان، وواقع المسلمين اليوم خير شاهد على ذلك؛ فقد تفرقوا طرائق قددا، كل حزب بما لديهم فرحون، فاستنجد بعضهم بالعدو الكافر ضد بعض، فأخذ يصول ويجول ويضرب ذات اليمين وذات الشمال، فتمكنت الصهيونية في رقاب العباد وثروات البلاد، وسلبت القدس وشردت أهلها وقتلت شبابها ولا زالت، لقد صدق عمر بن الخطابرضي الله عنه إذ قال يوم فتح القدس: «كنتم أقل الناس وأحقر الناس وأذل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلب العز من غيره أذلكم الله»[6].

---

(1) اسمه عبد الله بن الجراح بن هلال، وقصة قتل ابنه له كافرا في غزوة بدر رواها الطبراني في الكبير: 1/ 154.

(2) خال عمر بن الخطاب الذي قتله عمر كافرا في غزوة بدر هو: العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، انظر: - السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 185، - الطبقات الكبرى لابن سعد: 5/ 31.

(3) هو أبو عزيز زُرارة بن عمير العبدري، انظر: - الاستيعاب، في معرفة الأصحاب: 4/ 1714، ت: 3091، - الإصابة، في تمييز الصحابة: 7/ 274، ت: 10246.

(4) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 195-196.

(5) المجادلة: 22.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 291، ح: 8196، ولفظه: "كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله".

ومن غزوة بدر -يا عباد الله- نتعلم أن من أسس الانتصار مبدأ المشاركة الميدانية لقادة الأمة في إدارة المعارك ضد الأعداء، فالرسولﷺ لم يكن يوم بدر في برج عاجي يعطي الأوامر من بعيد، محاطا بخدمه وحراسه؛ بل نزلﷺ إلى أرض المعركة، فشارك مشاركة فعالة في إدارتها، يرفع معنويات جنوده وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[1]، فلا شك أن معنويات الجندي ترتفع حين يرى قائده بجانبه في الميدان، فقد روى الإمام أحمدعن علي بن أبي طالبﷺ قال: «لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول اللهﷺ وكان من أشد الناس، ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»[2]، وروى مسلم أنهﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «لا يتقدمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»[3]، وقد قال الله عز وجل في معرض الحديث عن غزوة بدر: ﴿يا أيها الذين إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[4]. صدق الله العظيم وغفر لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

---

(1) القمر: 45.
(2) مسند أحمد: 1/ 126.
(3) صحيح مسلم: 3/ 1510، كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد.
(4) القمر: 45.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

تلكم هي مبادئ إسلامية أصيلة نتعلمها من غزوة بدر الكبرى قدمنها لكم في خطبتين، خطبة الجمعة الماضية وخطبة اليوم وهي: مبدأ الحيطة والحذر، مبدأ الشورى، مبدأ المساواة، مبدأ قبول المعارضة والرأي الآخر، مبدأ الإذعان للحق وإن كان مرا، مبدأ التوكل على الله بعد اتخاذ الأسباب، مبدأ التآخي على أساس من العقيدة والإيمان، مبدأ المشاركة الميدانية من طرف القادة.

بهذه المبادئ انتصر المسلمون في هذه الغزوة رغم قلة عددهم بحيث لا يتجاوزن ثلة عدد المشركين، وبهذه الأسس حقق الإسلام أول نصر في ميدان القتال للتاريخ، لقد نصرهم الله حينما كانوا أهلا له بجيش من الملائكة كما ذكر القرآن: ﴿ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾[1]، ﴿وبخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[2]، وهنا يلوذ إبليس بالفرار وكان قد شارك في المعركة في صورة شيخ نجدي، يقول الله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾[3]. فقتل من المشركين سبعون، وأسر منهم سبعون، كلهم من سادة قريش.

أيها الإخوة المؤمنون؛ فما أحوج المسلمين اليوم لهذه المبادئ! وخصوصا أن الجبهات التي فتحها أعدائهم ضدها تشمل كل نواحي الحياة، من غزو فكري، إلى أخلاقي، إلى إعلامي، إلى صناعي، إلى اقتصادي، إلى نفسي، إلى عدوان مسلح حصد آلاف الأبرياء والمدنيين، كما يجري اليوم في القدس وفلسطين؛ فقد قتلوا هناك المرأة ورضيعها، وهدموا المدن على من فيها، وقتلوا الشيوخ وتمرات الإفطار في أفواههم، والقدس تنادي: يا للمسلمين؛ ولكن لا حياة لمن تنادي، والرسول ﷺ يقول ما معناه: من خذل مسلما خذله الله ومن نصر مسلما نصره الله[4].

ويوم تتمتع الأمة بهذه المبادئ في مجتمعاتها، ويوم تعيش الأمة هذه الأسس في واقعها، سيأتيهم النصر بحذافره.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) آل عمران: 124.

(2) آل عمران: 125.

(3) الأنفال: 48.

(4) جاء معناه في حديث حسن، رواه أبو داود في سننه: 4/ 271، ح: 4884، والطبراني في معجميه؛ الأوسط: 8/ 282، ح: 8642، والكبير: 5/ 105، ح: 4735، وقد حسن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: 7/ 267، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 292-293، ح: 5690.

20) الخطبة [8] قواعد الإدارة والتسيير في الإسلام من خلال غزوة بدر(1)

الحمد لله الذي أكرمنا بدين أساسه المرونة والتجديد والتيسير، وأزال عنا بواعث التنطع والتشدد والتعسير، وأشهد أن لا إله إلا الله علمنا من خلال غزوة بدر قواعد الإدارة والتسيير، فدعي للتدبير ونهي عن التبذير، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أعطي جوامع الكَلِم والتعبير، فألح في الدعاء والذكر والتكبير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين فاقوا في العمل رُواد التنظير والتفكير، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم يُحَدَّد فيه المصير إما الجنة وإما السعير.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون، أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها نحن نستقبل في هذا الأسبوع اليوم السابع عشر من رمضان هذا اليوم الذي يذكرنا بأول انتصار سجله التاريخ للمسلمين في المَيْدان العسكري؛ تلكم هي غزوة بدر الكبرى، التي وقعت في رمضان من السنة الثانية من الهجرة، تلكم الغزوة التي نجح النبيﷺ في تسيير إدارتها فانتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم (ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا)، أمام جيش من المشركين رغم كثرة عدده (تسعمائة مقاتل)، ورغم أن عدد المسلمين لا يتجاوز ثُلُثَ عدوهم فقد حصدوا من المشركين سبعين قتيلا وسبعين أسيرا.

وغزوة بدر ليست مجرد حدث وقع وانتهى؛ بل هي مدرسة عظيمة، أستاذها سيدنا محمدﷺ، وحارسها العام جبريلعليه السلام، ومديرها الله سبحانه وتعالى، وتلامذتها أمة الإسلام، وليست مدرسة عسكرية فحسب؛ بل هي مدرسة أخلاقية، ومدرسة اجتماعية، ومدرسة شرعية، ومدرسة التسيير...

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن نظام التسيير في الإسلام على ضوء غزوة بدر الكبرى، نتتبع القواعد التي أخذ بها النبيﷺ في إدارة المعركة فحقق نجاحا باهرا، ومن خلال ذلك نستكشف قواعد التسيير وأسسه كما طبقها المعلم الأولﷺ في أرض الواقع، تلك القواعد التي يحتاج إليها كل مسؤول في إدارته، بدْأً من الأب في إدارة شؤون أسرته، إلى المدير في مدرسته إلى صاحب الشركة في شركته، إلى العميد

---

(1) ألقيت أولا في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 17 رمضان 1426هـ 20/ 10/ 2005م، ثم أعيدت في: 15 رمضان 1428هـ 28/ 09/ 2007م.

في كليته، إلى العامل في عَمالته، إلى الوزير في وزارته، إلى الأمير في إمارته، وما انهزمت الأمة المسلمة اليوم على مستوى الفرد والجماعة إلا حينما خاب سعيها في التدبير، وفشلت أنظمتها في التسيير.

وأشد الفشل فتكا بالمجتمع هو فشل قواعد التسيير في الأسرة، وهي نواة المجتمع، والفساد حينما يتسرب إليها لا يقتصر على الزوجين فقط؛ بل يمتد إلى المجتمع في شكل تنامي ظواهر اجتماعية تعيق النمو وتؤخر التقدم الحضاري، وتكرس التخلف، وغالبا ما يخلف هذا الفساد وراءه أطفالا للضياع، والأطفال هم الذين يتحملون القسط الأكبر من فساد الأسر؛ حيث تدل الإحصيات أن أغلب الأطفال المشردين في الشوارع إنما كان ذلك بسبب تفكك الأسر وتشتيت شملها. فكانت الأسر في حاجة للرجوع إلى سنة الرسولﷺ حتى نتعلم كيف نحمي الأسر، ونتخذ العبر، ومدرسة غزوة بدر كفيلة إذا أحسنا التعلم فيها بتحقيق ذلك.

والقواعد التي أخذ بها النبيﷺ في غزوة بدر فانتصر هي ما يلي:

القاعدة الأولى: قاعدة اتخاذ الحيطة والحذر. فالمجتمع مليئ بالأعداء من قرناء السوء، إلى المخدرات، إلى الفساد بأشكاله وأنواعه، فكل إنسان تولى تسيير أمرٍ من أمور الناس -بدأ من الأب في أسرته إلى الأمير في دولته- لا يجوز له أن يستسلم للغفلة؛ بل يجب عليه أن يتيقظ ويتنبه.

فالنبيﷺ -قبل غزوة بدر وبعدها- لم يكن يتغافل حتى يباغثه عدوُّه في عقر داره، كما هو حال الأمة اليوم؛ بل إنهﷺ يتخذ المبادرة، فيبث العيون والجواسيس والحراس، وينشر الدوريات الاستطلاعيةَ في سائر الاتجاهات، يتحسسون الأخبار، ثم ينقلونها إليهﷺ، فيتحرك على مقتضاها، ويتخذ الحيطة والحذر على أساسها، فقد نقلت إليه مخابراتهﷺ أخبار قافلة تجارية لمشركي مكة، يقودها أبو سفيان، وفيها أموال تركها المسلمون حين هاجروا إلى المدينة، فاستولى عليها المشركون ظلما وعدوانا، فأراد الرسولﷺ أن تكون من نصيب الصحابة، يستردون بها بعضا من حقوقهم التي سلبت منهم، فاقترح عليهم التعرض لها، لعل الله يجعلها من نصيبهم، فقد روى الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري أنهﷺ قال للصحابة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير لعل الله يُغْنِمُناها؟ (أي

يجعلها من غنيمتنا) فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا... »(1)، وإن كلمة «أُخْـبِرتُ» هنـا لتدل دلالة واضحة على أن النبيﷺ كان قد اتخذ لنفسه جهازا للمخابرات مصبوغا بالسرية التامة فإنهﷺ لم يقل: أخبرني فلان، بل قال: "أُخْبرت" حتى يحافظ على هذه السرية في أمان.

القاعدة الثانية: قاعدة الشورى، ولا يمكن لأية إدارة أن تستقيم –بدأ من الأسرة إلى الدولة– إلا بالشورى، والشورى هي أساس الإدارة والتسيير، هـي عـماد الحـق والنصر والتدبير، هي مصدر الـسعادة والحريـة والتحريـر، بهـا يتحـصن المجتمـع المسلم ضد الظلم والإسراف والتبذير، وهي علاج للمجتمع من أمراض الطغيان، والدكتاتورية التي تستبد بالأمور، وتكمم الأفواه، ولا تفسح المجال لتـداول الآراء وإبدائها.

فالرسولﷺ عند ما علم قبيل غزوة بدر بواسطة الاستخبارات في مكة أن قافلـة أبي سفيان قد نجت، وأن كفار مكة قد خرجوا لمواجهته في بدر بأعداد هائلة، تفوق المسلمين عدة وعددا، شكلﷺ على الفور مجلسا للشورى، فقال: أشـيروا عـلي أيهـا الناس فلم يتقدمﷺ بجيشه حتى أشار عليه جميعُ عناصره من المهـاجرين والأنـصار بالإقدام.

القاعدة الثالثة: المساواة في تطبيق القـانون والـشريعة، ولا يمكـن لأيـة إدارة أن تستقيم –بـدأ مـن الأسرة إلى الدولـة– إلا بتحقيـق المـساواة في قانونهـا الأسـاسي والداخلي، وفي مؤسسة الأسرة روى البخـاري ومـسلم عـن الـنعمان بـن بـشير أن رسول اللهﷺ قال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»(2)؛ فالإسـلام لـيس فيـه قـانون يحمي الظالمين مهما كانوا، ولـيس فيـه حـصانة تـشكل محميـة للمجـرمين؛ فغيـاب المساواة في أية إدارة إنما هو علامة على فشلها، إنـما هـو إيـذان بهلاكهـا وانهزامهـا، والرسولﷺ يقول: «إنما هلك من كان قبلكم إذا سرق فيهم الـشريف تركـوه، وإذا

---

(1) حسن، رواه الطبراني في المعجـم الكبـير: 4/ 174-175، ح: 4056، وحـسَّن الهيثمـي إسـناده في مجمـع الزوائد: 6/ 74.

(2) – صحيح البخاري: 2/ 914 كتاب الهبة وفضلها/ باب الإشهاد في الهبـة، – صـحيح مـسلم: 3/ 1242، كتاب الهبات/ باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(1).

لقد اتضحت هذه المساواة جلية في غزوة بدر، إنها تجلت في أسمى معانيها، وفي أجل أوصافها، حين كانت مراكب الجيوش المسلمة قليلة، والمسافة بين بدر والمدينة بعيدة، فقسم بينهم الرسولﷺ المراكب بالمساواة، حيث جعل كل ثلاثة رجال يتناوبون على بعير، ولم يميز الأقرباء منه عن غيرهم، ولا الأغنياء عن الفقراء، ولم يعزل القادة عن بقية الجنود، ولم يعزل لنفسه مركبا خاصا يستأثر به في كوكبة من أقربائه وأعوانه؛ بل إنهﷺ كان يتناوب مع اثنين من أصحابه على بعير، فلما قالا له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك؟ قال لهمﷺ فيما روى الإمام أحمد: «ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»(2)، وهو الذي قالﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»(3).

القاعدة الرابعة: قاعدة القبول بالمعارضة، ولا يمكن لأية إدارة أن تستقيم -بدأ من الأسرة إلى الدولة- إلا بسماع الرأي الآخر، ولا شك أن القبول بالرأي الآخر دليل على العدل والإنصاف، ورفض للظلم والإجحاف.

فالرسولﷺ بعد أن استشار أصحابه، وفرق بينهم المراكب الموجودة بالسوية، اتجه على جناح السرعة إلى بدر حيث المعركة الفرقان بين الحق والباطل، فلما وصلﷺ بدرا أمر الجيش بالنزول أسفل الوادي، بينما العدو أعلاه، وهنا قامت المعارضة يقودها الصحابي الجليل حُبَاب بن المنذر، فقال: يا رسول الله! أهذا منزل أنزلكه الله: أي أمرك الله بالنزول فيه، فليس من حقنا حينئذ أن نعارض، فما علينا إلا السمع والطاعة؟ أم هو مجرد رأيك في الحرب والمكيدة؟ فقالﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، وحينئذ اعترض حباب بن المنذر فبين للرسولﷺ أن هذا ليس بالمكان الإستراتجي قائلا: ارحل بنا حتى نكون أعلى الوادي فهناك سوف نتمكن

---

(1) - صحيح البخاري: 3/ 1282، كتاب أحاديث الأنبياء/ حديث الغار، - صحيح مسلم: 3/ 1315، كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود.

(2) صحيح، رواه أحمد في المسند: 1/ 422، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 5/ 326، ح: 2257.

(3) صحيح، رواه أحمد في المسند: 5/ 411، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد: 3/ 266.

من مصادر المياه، فنبني سدا أو قليبا نمنع به عن العدو المياه، فنشرب ولا يشربون، فأخذ الرسولﷺ بهذا الاقتراح وقال: نعم الرأي، فأدى ذلك إلى الانتصار(1).

القاعدة الخامسة: قاعدة الخضوع للحق ولو كان مرا، ولا يمكن لأية إدارة أن تستقيم -بدأ من الأسرة إلى الدولة- إلا إذا خضع مديرها للحق، واعترف بالحقيقة ولو كانت مرا، ولا شك أن الإذعان للعدل فضيلة، وأن الترفع عنه رذيلة، وأن مجمتع العدل والمساواة لا أحد فيه فوق الشرع والقانون، وأن الحاكم العادل يجب عليه إذا ظلم أن يمكن نفسه من مظلومة حتى يأخذ منه بحقه.

حدث ذلك في غزوة بدر عندما كان الرسولﷺ يسوي صفوف المقاتلين قبيل المواجهة، فمر بصحابي اسمه سواد بن غزية وهو خارج من الصف، فضربهﷺ بعصا في بطنه وقال: استو يا سواد؛ وهنا يعترض سواد ويقول: أوجعتني يا رسول الله؛ وقد بعثك الله بالحق والعدل، فامنحني فرصة آخذ منك بحقي، وفورا ودون تردد كشف له الرسولﷺ عن بطنه الشريفة فقال: خذ يا سواد، استقد ياسواد! والصحابة ينظرون وقد أفزعهم الموقف، وأذهلهم الأمر، فكيف يسمحون أن يضرب رسول اللهﷺ؟!

ولكن هذا الصحابي فاجأ الجميع حين اعتنق بطن المصطفىﷺ يقبله، فقال لهﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسو ل الله لقد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك في حياتي أن يمس جلدي جلدك(2). الله أكبر! إنه موقف إيماني غني عن التعليق، منه ندرك عمق محبة المصطفىﷺ في قلوب أصحابه، ومنه نتعلم أن النبيﷺ يقبل بالمعارضة ولو كان ذلك يؤدي إلى إيذائه.

القاعدة السادسة: قاعدة التآخي المبني على التعاون والتكافل والمودة والمحبة، ولا يمكن لأية إدارة -بدأ من الأسرة إلى الدولة- أن تستقيم إلا بهذه الأخوة التي تنتج الثقة والصدق والأمانة بين أفرادها، فالأخوة بين الأشقاء في الأسرة واجب ومفروض، والعداوة بين العمال في الشركة أمر مرفوض، وقل مثل ذلك بين التلاميذ في المدرسة، فالأخوة الإيمانية الصحيحة لا تخرقها الحدود الجغرافية المصطنعة، ولا تؤثر فيها الجنسيات المفتعلة، ولا تحدد باللون ولا باللغة، فالمسلم أخ المسلم وإن كان وراء هذه الحدود، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 167-168.
(2) السيرة النبوية: 3/ 173-174.

ففي غزوة بدر تلاشت كل الروابط عند أهل بدر إلا رابطة الأخوة الإيمانية، فلا أهمية ولا اعتبار لأي نوع آخر من أنواع القرابة إذا ما تعارضت في أي نقطة مع مصالح المؤسسة، فقد سجل الصحابة هذا في أرض بدر: فهذا أبو عبيدة بن الجراح حارب هناك أباه لأنه عدو الله[1]، وهذا عمر حارب خاله لأنه في صف المشركين[2]، وهذا مصعب بن عمير يمر على أخيه من أبيه وأمه[3] وهو أسير بيد أنصاري فقال له: شد يديك به فإن أمه ذات متاع، فقال له شقيقه: أهذه وصيتك بي يا أخي؟ فأجابه مصعب: إن الأنصاري أخي دونك[4]. وقد سجل عنهم القرآن الكريم هذه الخصلة الإيمانية فقال: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[5].

القاعدة السابعة: قاعدة المشاركة الميدانية لقادة الأمة في الإدارة والتسيير، ولا يمكن لأية إدارة -بدأ من الأسرة إلى الدولة- أن تستقيم إلا بالمشاركة الميدانية المستمرة لقائدها.

فالرسول ﷺ لم يكن يوم بدر في برج عاجي مترفعا، يعطي الأوامر من بعيد، محاطا بخدمه وحراسه؛ بل نزل ﷺ إلى أرض المعركة متواضعا، فشارك مشاركة فعالة في إدارتها، يرفع معنويات جنوده وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[6]، فلا شك أن معنويات أي عامل في أية إدارة، وأي منخرط في أية مؤسسة ترتفع حين يرى قائده بجانبه في الميدان، فقد روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: «لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ وكان من أشد الناس، ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»[7].

---

(1) اسمه عبد الله بن الجراح بن هلال، وقصة قتل ابنه له كافرا في غزوة بدر رواها الطبراني في المعجم الكبير: 1/ 154، ح: 360.
(2) خال عمر بن الخطاب الذي قتله عمر كافرا في غزوة بدر هو: العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، انظر: - السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 185، - الطبقات الكبرى لابن سعد: 5/ 31.
(3) هو أبو عزيز زُرارة بن عمير العبدري، انظر: - الاستيعاب، في معرفة الأصحاب: 4/ 1714، ت: 3091، - الإصابة، في تمييز الصحابة: 7/ 274، ت: 10246.
(4) السيرة النبوية لابن هشام: 3/ 195-196.
(5) المجادلة: 22.
(6) القمر: 45.
(7) مسند أحمد: 1/ 126.

القاعدة الثامنة: قاعدة التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب، ولا يمكن لأية إدارة -بدأ من الأسرة إلى الدولة- أن تستقيم إلا بالرجوع إلى الله تعالى، المتمثل في الدعاء، والدعاء هو مخ العبادة ولبها؛ بل هو العبادة كلها، ويشترط في الدعاء أن تكون بلسان المقال وبلسان الحال، ولا يستجيب الله تعالى دعاء أية مؤسسة أو إدارة أفرادها على الذنوب عاكفون، وعلى معصية الرحمن مقيمون، وبعبادة الشيطان فرحون، وصدق من قال: إن الدعاء هو ترك الذنوب.

نحن ندعو الإله في كل كرب ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو إجابة لدعاء قد سددنا طريقها بالذنوب[1]

فالرسولﷺ في غزوة بدر قد وعده الله بالنصر، وأطلعه الله على مصاريع صناديد قريش، وأخبر بذلك أصحابه، ورغم أنهﷺ متأكد هكذا من النصر المبين، لم ينس الرجوع إلى الله، فكانﷺ يُلح الليل كله في الدعاء ويقول: « اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[2] وما زال يهتف حتى سقط منه الرداء، حتى تألم لحاله أبو بكر فقال له: «كفاك يا رسول الله مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك»[3].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) البيتان لأبي غانم معروف بن محمد بن معروف القصري الكَنْكَوَرِي الملقب بالوزير، انظر: معجم البلدان: 4/ 363.

(2) صحيح مسلم: 3/ 1384، كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.

(3) نفس المصدر.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

تلكم هي قواعد التسيير وأسس الإدارة كما طبقها الرسولﷺ في غزوة بدر الكبرى، فحقق للأمة فوزا كاسحا ونجاحا باهرا وهي: قاعدة الحيطة والحذر، قاعدة الشورى، قاعدة المساواة، قاعدة المعارضة، قاعدة الإذعان للحق، قاعدة التآخي، قاعدة المشاركة الميدانية من طرف القادة، قاعدة التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب.

بهذه القواعد انتصر المسلمون في هذه الغزوة رغم قلة عددهم، وبهذه الأسس حقق الإسلام أول نصر في ميدان القتال للتاريخ، ويوم تتمتع الأمة بهذه القواعد في مؤسساتها، ويوم تعيش الإدارات هذه الأسس في واقعها، ويوم تتربى الأجيال في الأسر على مبادئها، حينئذ تكون الملائكة بجانبها، والأبالسة تبتعد عنها وتجانبها، فتصل لما تطمح إليه من تقدمها وازدهارها.

أما وقد تشتت شمل الأمة والأسر، فغزا الفساد الأولاد في غفلة من الآباء، وظلم الآباء الأبناء، واستبد القادة بالآراء، واستسلموا في ذل للأعداء، فسوف يبقى الحال كما هو عليه من الذل والانهزام والفقر والتخلف إلى إشعار آخر.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

21) الخطبة [9] وقفات في غزوة بني قيتقاع[1]

الحمد لله حمدا يفوق حمد كل محمود، سبحانه وتعالى وهو الحكيم الودود، حذرنا من أشد الناس عداوة للذين آمنوا وهم اليهود، ووعدنا إن تمسكنا بشرعه النصر المنشود، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا والد ولا مولود، شهادة نتقي بها نارا الناس والحجارة فيها وقود، شهادة تنفعنا يوم يكون الناس بين شاهد ومشهود، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله شرع الشرائع وحدد الحدود، فدان لربه دون نكران ولا جحود، فنصره الله على أعدائه بملائكة وجنود، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين بذلوا في نشر الإسلام كل مجهود، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى اليوم الموعود.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن من مميزات هذا العصر الانتشار الباهر المتصاعد للإسلام في الغرب، ولا أقول هذا سماعا؛ بل هذا هو الواقع الذي لا يرتفع، فقد جاءني في هذا الأسبوع امرأة فرنسية من أصل يهودي، تسأل عن الإسلام، وبعد مناقشة بواسطة مترجم بيننا أعلنت «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اللهﷺ».

فلا تستغربوا -يا عباد الله- من إسلام هذه المرأة وهي يهودية، فاليهود ليسوا كلهم أشرارا؛ فسيرة الرسولﷺ تخبرنا أن اليهود قد أسلم منهم الكثير؛ منهم من الصحابة عبد الله بن سلام، وزيد بن السَّعْنَة، وزوجة النبيﷺ صفية.

دعونا اليوم إذن نرجع بكم إلى سيرة الرسولﷺ، نستكشف أسرارها، ونقف على علاقة اليهود بها، فالسيرة النبوية هي منبع سيال لا ينضب، ومدرسة عظيمة متعددة الأبحاث والشعب، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها، فهي سيرة تكشف لنا عن قرآن يمشي على وجه الأرض، هذا القرآن المتمثل عمليا في شخصية الرسولﷺ، وخصوصا أننا في شهر شوال الذي استقبل من هذه السيرة العطرة أربع غزوات كبرى وهي: غزوة بني قينقاع ضد اليهود في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة أحد ضد كفار مكة في السنة الثالثة، وغزوة الخندق ضد كفار مكة أيضا في السنة الرابعة وقيل الخامسة، وغزوة حنين ضد كفار الطائف في السنة الثامنة.

---

(1) ألقيت مرارا في مسجد الإمام البخاري بأكادير آخرها في: 14 شوال 1428هـ 26/ 10/ 2007م.

وبما أن هذه المرأة التي أعلنت إسلامها اليوم من أصل يهودي دعونا نختار لكم اليوم غزوة بني قينقاع الموجهة ضد اليهود.

وبنو قينقاع هم: قبيلة من قبائل اليهود الثلاثة، التي استوطنت المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول ﷺ وهي: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة.

أتدرون لماذا استوطن هؤلاء اليهود المدينة؟ فهم ليسوا أصلا من المدينة؛ بل ولا حتى من الجزيرة العربية؛ بل لا وطن لهم أصلا يعيشون دائما في مستوطنات ظالمة، حتى ينتقم الله منهم، فهم نبتة دخيلة في المجتمعات قديما وحديثا، وإنما استوطنوا المدينة لأنهم يقرءون في التوراة أن خاتم الأنبياء وأعظمهم سوف يهاجر إليها، ولكنهم يظنون أنه سوف يبعث فيهم، ولهذا كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي المنتظر، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به! فلما أصبح النبي المنتظر منظورا بأعينهم وأبصارهم، كفرت به قلوبهم وبصائرهم! قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

وغزوة بني قينقاع سببها مرتبط بغزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون في رمضان، وذلك أن يهود بني قينقاع لما وصلهم خبر انتصار الرسول ﷺ في بدر زاد ذلك من مخزون حقدهم الدفين، حتى استعصى عليهم أن يكتموه، فأعلنوا عنه قولا وفعلا؛ فكانوا يقولون للمسلمين لا يغرنَّكم انتصاركم في بدر على أجلاف من قريش لا يحسنون الحرب والمواجهة، فنحن أبناء الحرب والقتال، وكان النبي ﷺ يصبر على أذاهم، ويتمالك عن إيذائهم، متحليا بضبط النفس عن إعلان الحرب ضدهم، ولكنهم استمروا في غيهم، واستثمروا ضد النبي ﷺ كل ما لديهم من مكر متأصل وخديعة متجذرة.

أما القشة التي قصمت ظهر البعير، والنقطة التي أفاضت الكأس، والتي جعلت صبر النبي ﷺ ينفذ، فهي اعتداؤهم على حجاب امرأة مسلمة؛ حيث استعملوا معها خديعتهم اليهودية المعهودة، فقد ذهبت إلى سوقهم لتقضي بعض أغراضها، فحاول بعض اليهود أن يستزلوها من شرفها، وأن يخدعوها لتنزع حجابها، ولكنهم اصطدموا بقوة إيمانها وصمود إرادتها، فقام أحدهم بربط أسفل ثوبها إلى ظهرها وهي جالسة لا تشعر، فلما قامت ارتفع ثوبها، فبدت عورتها، فضحكوا منها قائلين: لم ترد كشف وجهها فانكشفت عورتها، فاستصرخت ياَلَلمسلمين، وعلى سرعة

---

(1) البقرة: 89.

البرق وجدت النصر؛ فقد صادف ذلك وجود مسلم في السوق، فجاء وضرب رقبة اليهودي ففصلها عن جسده، وهجم بقية اليهود الحاضرين على المسلم فقتلوه، فبذلك ارتكبوا جريمتين: جريمة الاعتداء على شرف امرأة مسلمة، وجريمة قتل مسلم، فاستحقوا بذلك الإجلاء والإبعاد، فتوجه إليهم الرسولﷺ في كوكبة من أصحابه، فأخرجوهم من المدينة[1].

أيها الإخوة المؤمنون؛ هنا نقف بكم وقفات علمية وعملية لنستفيد ونتعلم:

الوقفة الأولى: لنتعلم من هذه الخديعة اليهودية التي كشفوا بها عورة المسلمة حقيقة شعور اليهود تجاه المسلم، ذلك الشعور الذي سجله عنهم القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[2]، ولقد أثبت التاريخ هذه الحقيقة، لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى إلى اليوم، ولقد صدق من قال: "وراء كل مشكلة لدى المسلمين صهيوني يهودي".

الوقفة الثانية: لنتعلم أن خروج المرأة للعمل وذهابَها إلى الأسواق لقضاء أغراضها، أمر جائز لا غبار عليه، ولكن بشرط أن تتمسك بحجابها، والحجاب ليس مجرد غطاء يوضع على الرأس والجسد؛ بل حجاب المرأة المسلمة عبادة لها شروطها ولها أركانها، كما لها جزاؤها وثوابها، فالمرأة المتمسكة بحجابها تكون في الأجر والثواب كالمتلبسة بالصلاة والصيام، والحجاب الشرعي مبني على شروط أربعة: لا يصف، ولا يكشف، ولا يشف، ولا يزف.

أما كونه لا يصف فمعناه ألا يكون ضيقا يصف ما تحته مثل سراويل الدجين.

أما كونه لا يكشف فمعناه أن يغطي جمع الجسد ما عدا الوجه والكفين.

أما كونه لا يشف فمعناه أن لا يكون شفافا منفتحا يرى ما تحته.

أما كونه لا يزف فمعناه أن لا يكون جذابا بذاته كلباس الزفاف.

الوقفة الثالثة: نقف فيها أمام هذا الحجاب الصامد من تلك المرأة الصامدة، فنتساءل: أين نساءنا اليوم من تلك المرأة التي رفضت كشف وجهها؟ فقد كشفن اليوم بطيب خاطرهن كل ما يمت بصلة للجمال في أجسادهن، مع استعمال كل ما هو مثير، من لباس ورائحة وتبرج، فكن بذلك مستغلات في العروض التجارية، وفي الاشهارات لمصالح الصهيونية العالمية، فكل من يريد أن يروج لسلعة يرسم

---

(1) قصة هذه المرأة وما وقع لها في سوق بني قينقاع أوردها ابن هشام في السيرة النبوية: 3/ 314.

(2) المائدة: 82.

فوقها صورة امرأة أو يعرضها بامرأة، فصوروها في اللافتات، وأغلفة المجلات، وواجهات المحلات، ويسمونها عارضة الأزياء، وهي في الحقيقة عارضة العرى والجسد، يختارون للعرض أجمل الفتيات بشروط جسدية معينة، قوام رشيق، وجسد أنيق، فهل رأيتم قط امرأة عجوزا تصبح عارضة أزياء؟ أليست المرأة العجوز تشتري الألبسة أيضا، لو كانوا فعلا يريدون الترويج للأزياء، ولكنه ترويج للأجساد لا للأزياء، وإذا كان يهودي بني قينقاع قد كشف بمكره عورة مسلمة، فإن يهود العالم اليوم يكشفون عورات النساء المسلمات بالخديعة اليهودية الكبرى في عصرنا، وهي "الموضة"، ففي كل شهر إن لم يكن في كل يوم يُخرجون في اللباس آخرَ صيحات الموضى، وكل صيحة أشد فتكا بحياء المرأة وعرضها من التي قبلها، والمرأة تائهة وراءها، تلهث وراء كل جديد لتبتز مالها ومال زوجها، كما تستنزف عرضها وعرض من حولها.

الوقفة الرابعة: لنتعلم -ياعباد الله- أن الصهاينة اليوم لئن انتصروا، وسلبوا منا القدس وعاثوا فيها فسادا، وإن استوطنوا اليوم القدس كما استوطنوا قبلُ المدينة، فإنه سيأتي يوم -متى شاء الله- ينتصر فيه المسلمون على اليهود، وهذا غير بعيد لو اتحد المسلمون على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، لو ملكوا سيادتهم وثروتهم، لو تمسكوا بشريعة ربهم، لو نصروا الله في معاملاتهم لنصرهم الله على أعدائهم، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1].

إن انهزام الصهاينة اليوم ليس بمستحيل، وليست الصهيونية بالجيش الذي لا يقهر، والتاريخ أوثق شاهد، فاسألوا التاريخ أيها الاخوة في الله؟

إن تاريخ اليهود دائما هكذا: في صعود وهبوط، يَظْلِمون ويُظْلَمون، فمرة يَغلِبون ومرات يُغلَبون، تماما كما قال عنهم القرءان الكريم : ﴿وإن عدتم عدنا﴾[2] فكلما انتعشوا وانتفشوا، وكلما طغوا وبغوا، جاءتهم الضربة من حيث لا يعلمون، ممن يسلط الله عليهم في كل جولة؛ فقد سلط الله تعالى عليهم فرعون في عصر موسى عليه السلام فقتل أبناءهم واستحيا نساءهم، ثم جالوت في عصر داوود -عليه السلام-، ثم بعد سليمان عليه السلام سلط عليهم البابليين بقيادة [بختنصر] سنة 587 ق م فمزقهم وشتت شملهم، ثم نصارى الروم بعد عيســى عليه السلام سنة 70م، ثم الفرس

(1) محمد: 7.
(2) الإسراء: 8.

قبيل الإسلام، ثم سلط عليهم المسلمين بقيادة النبيﷺ فطردوهم من المدينة كما رأينا في غزوة بني قينقاع، ثم سلط عليهم المسيحيين في أوربا في العصور الوسطى، ثم أخيرا وليس آخرا سلط الله عليهم الألمان بقيادة هتلير في العصر الحديث.

فلئن ظلمت الصهيونية اليوم واستطالت بعنادها، ولئن استغلت اليوم للإعتداء على المسلمين مأساة تاريخها، ولئن هودت المؤسسات العالمية بدسائسها، ولئن أحكمت على الاقتصاد والإعلام في العالم سيطرتها، ولئن جثمت على صدور زعماء العالم فكتمت أنفاسها، فما هي إلا فترة من فترات التاريخ، وحلقة من حلقات هذا المسلسل التاريخي، ولا يدري إلا الله من ذا سيسلط عليهم في الجولة القادمة إلى يوم القيامة؟ تماما كما في قول الله عز وجل فيهم: ﴿وإن عدتم عدنا﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾[2]، وقد كتب الله عليه الجلاء واللجوء إلى يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾[3].

صدق الله العظيم، وغفر لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

(1) الإسراء: 8.
(2) الأعراف: 167.
(3) الحشر: 3.

الحمد لله رب العالمين....

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

إن للصهاينة مع الأمة المسلمة جولةً أخرى، سوف تنتصر عليهم فيها إن شاء الله، وليس هذا نشوة عابرة، ولا أقول هذا من تلقاء نفسي؛ بل الرسولﷺ الذي لا ينطق عن الهوي، هو الذي أخبرنا بذلك إذ يقول فيما روى البخاري ومسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود؛ فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله»[1].

فلا تستغربُنَّ -يا عباد الله- من كلام الحجر والشجر، فبأيديكم اليوم جمادات من وسائل الاتصال والإعلام تتكلم، من الهاتف المحمول وغيره من العدسات والمسجلات المتناهية في الصغر، فهي منتجات من المعادن، وهل المعدن إلا شجر وحجر؟

ثم إن كلام الحجر والشجر -إن كنا مؤمنين- ليس بمستحيل على الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ولكن ينبغي أن يتحقق فينا معنى هذا المنادى: «يا مسلم يا عبد الله»؛ لقد أصبح الإسلام الصحيح فينا قليلا، وأصبحت العبودية السليمة فينا نادرة، حتى لو نادى الحجر والشجر: «يا مسلم يا عبد الله» لن يجد الجواب إلا عند القليل، فالمشكل إذن فينا، وليس في نطق الحجر والشجر، فلو رجع المسمون إلى الإسلام الصحيح، إلى العبودية لله الحقة، لناداهم الحجر والشجر، كما أخبرنا بذلك من لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وها هي حلقات هذه الجولة المباركة تتشكل؛ فالإسلام ينتشـر في الغرب بشكل يبشـر بالخير، وهذه المرأة الفرنسية التي أعلنت هذا الأسبوع إسلامها دليل على ذلك، والصحوة الإسلامية -رغم العراقيل- في زيادة. والمسلمون يعودن إلى دينهم أفواجا. والقرآن الكريم يدفع الناس بإعجازه العلمي إلى الإعجاب به، فيجد طريقه دوما إلى القلوب فتتمسك به. والإسلام ينفض عن نفسه شبهات التضليل وغيوم التعتيم، فيكشف عن حقائق علمية ثابتة، أخبر بها منذ أربعة عشر قرنا.

(1) - صحيح البخاري: 3/ 1070، كتاب الجهاد والسير/ باب قتال اليهود، - صحيح مسلم: 4/ 2239، كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

وكبرى المشاكل العالمية اليوم لم يجدوا لها إلا الحل الإسلامي يفرض نفسه، مثل السيدا، والديون الربوية. وقد وعد الله سبحانه المؤمنين بوعد سوف يتحقق؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، قال سبحانه: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1]. ولكن هذا الوعد لن يأتي والأمة نائمة عن طموحها وآمالها، راضية بهزيمتها وآلامها.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

(1) النور: 55.

22) الخطبة [10] دروس وعبر من غزوة أحد(1)

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابا كالشمس وضحاها، وأرسل إلينا رسولا كالقمر إذا تلاها، فمن اقتدى بهما عاش في ضوء النهار إذا جلاها، ومن أعرض عنهما تخبط في ظلمة الليل إذا يغساها، وأشهد أن لا إله إلا الله رفع السماء وبناها، وبسط الأرض وطحاها، وخلق النفس وسواها، فألهمها فجورها وتقواها، فأفلح من زكاها، وخاب من دساها، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أخبره ربه أنه أهلك ثمودا بطغواها، وأنه سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه من أمته أولاها وأخراها.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته،

إن السيرة النبوية هي مصدر قدوتنا في السراء والضراء، فهي شرع وشريعة، وهي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام؛ لأنهﷺ المثل الأعلى والقدوة الحسنة في كل شيء، فكن من شئت وابن من شئت فستجد في المصطفىﷺ مثلك الأعلى، فهوﷺ نموذج عملي لجوانب الحياة كلها، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين: مرة بالبيان النظري، ومرة بالبيان العملي.

دعونا نرجع بكم إلى هذه السيرة العطرة، دعونا نسلط الأضواء الكاشفة على هذا الشهر الذي نحن فيه شهر شوال، الشهر العاشر من الشهور الهجرية الإسلامية، لنجده قد حمل إلينا في طياته أحداثا عظيمة من السيرة النبوية.

فإذا قدمنا لكم في رمضان أنه شهر يذكرنا بغزوة بدر وغزوة فتح مكة، فإن شهر شوال فيه تزوج الرسولﷺ بعائشة، وفيه وقعت أربع غزوات كبرى من غزوات النبيﷺ هي: غزوة بني قينقاع ضد اليهود في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة أحد ضد كفار مكة في السنة الثالثة، وغزوة الخندق ضد كفار مكة أيضا في السنة الرابعة وقيل الخامسة، وغزوة حنين ضد كفار الطائف في السنة الثامنة.

وقد منا لكم في الجمعة الماضية وقفات في غزوة بني قينقاع، تلك الغزوة التي أجلى بها النبيﷺ مستوطنة من مستوطنات اليهود المدنسة من المدينة المقدسة.

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 10 شوال 1424 هـ 4/ 12/ 2003م.

فتعالوا بنا اليوم نقف بكم وقفات في غزوة أحد، نستلهم منها دروسا وعبرا ننتفع بذكراها، ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾(1)، ونكتفي اليوم بوقفات أربعة أمام الأحداث التي سبقتها، فكانت بمثابة المقدمة لها.

الوقفة الأولى: لا بد فيها من التعريف بـ"أحد" وهو: جبل بالمدينة المنورة يبعد عن المسجد النبوي بحوالي أربع كلمترات يقول فيه النبيﷺ في الحديث المتفق عليه: «جبل يحبنا ونحبه»(2). أما الغزوة التي أضيفت إليها فهي تلك المعركة التي هاجم فيها ثلاثة آلاف من المشركين على المدينة، مجهزين بأحدث الأسلحة آنذاك ليثأروا لقتلاهم السبعين في غزوة بدر كما قدمنا لكم في رمضان، فتقدموا حتى لم يفصل بينهم وبين المدينة إلا بضع كلمترات.

الوقفة الثانية: لما علم الرسولﷺ بذلك شكل على الفور مجلسا للشورى، فأشار إليه الشيوخ بالبقاء في المدينة، فإذا ما دخل العدو إليها قاتله الناس جميعا، الرجال والنساء من فوق السطوح وحتى الأطفال، فمال الرسولﷺ لهذا الرأي الإستراتيجي الذي يجعل العدو مكشوفا فيهاجمه المسلمون من حيث لا يدري، وهو ما يسمى اليوم بحرب الشوارع.

ولكن الشباب -وهم الأغلبية-، بحرارتهم الإيمانية، وفي ثقة بالنفس عالية، رفضوا هذا الرأي واعتبروه ذلا وانهزاما، لم يرضوا بالبقاء حتى يعقر العدو أبناءهم في عقر دارهم كحال المسلمين اليوم، فقالوا: يا رسول الله؛ ما رضينا قط بعدو يدخل علينا المدينة ونحن في ذل الجاهلية، أفنرضى به اليوم ونحن في عزة الإسلام؟! كلا يا رسول الله؛ يجب أن نخرج لمواجهة العدو قبل أن يدخل المدينة. ورغم أنهﷺ يميل إلى الرأي الأول، البقاء والمواجهة داخل المدينة، تنازل عن رأيه وأخذ برأي الأغلبية، فخرج لمواجهة العدو بسفح جبل أحد.

وهنا -يا عباد الله- نتعلم أن الشورى والأخذ برأي الأغلبية ليس وليد اليوم؛ بل الشورى شُرعت منذ فجر الإسلام، والمسلمون ما زالوا في مكة أفرادا مضطهدين، حيث أنزل في القرآن سورة جعل عنوانها سورة الشورى، وفيها قوله تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾(3)، ثم

---

(1) الذاريات: 55.

(2) - صحيح البخاري: 2/ 539، كتاب الزكاة/ باب خرص التمر، - صحيح مسلم ج: 2 ص: 1011، كتاب الحج/ باب أحد جبل يحبنا ونحبه.

(3) الشورى: 38.

بعد أن هاجرﷺ فكانت له في المدينة دولة وحكومة، نزل عليه قوله سبحانه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾[1].

والرسولﷺ لا يستبد برأيه أبدا؛ بل كثيرا ما يستشير الرجال والنساء، ويتنازل عن رأيه لرأي غيره لمصلحة ظاهرة، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال: «ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللهﷺ»[2]، لقد كانت حياة النبيﷺ حافلة بالشورى، فقد استشار في غزوة بدر، واستشار في غزوة أحد كما رأينا اليوم، واستشار في غزوة الأحزاب فأخذ برأي سلمان الفارسي في حفر الخندق، واستشار يوم الحديبية زوجه أم سلمة فأخذ برأيها. وإذا كان الرسولﷺ هكذا وهو الذي يستقبل وحي القرآن والسنة، وهو مصدر شرع خالق الأرض والسماء، فكيف يستبد الحكام اليوم بآرائهم وينفرون من الشورى؟!

ومن هذه الاستشارة النبوية نتعلم –يا عباد الله– أن أساس الحكم هو العدل، وأن أساس العدل هو الشورى؛ بل هي أساس النصر، وعماد الحق، ومصدر السعادة، بها يتحصن المسلم ضد الاستبداد الباطل والشقاوة المجحفة، وتطبيقها في المجتمع دليل على عدالة اجتماعية مستبصرة، وحوار اجتماعي بناء، يهدف إلى تأسيس مجتمع مدني مرجعيته الشورى الإسلامية، وقبول الرأي الآخر، والأخذ برأي الأكثرية.

أما انعدامها فهو يعني أن يسود الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، وتعطيل الحقوق، وتخريب المجتمع، فيحكم عليه بالفشل والتلاشي والاضمحلال، والشورى هي علاج للمجتمع من أمراض الاستبداد والطغيان، ومن الأنظمة الدكتاتورية التي تستبد بالأمور، وتكمم الأفواه، ولا تفسح المجال لتداول الآراء وإبدائها. وما تعاني الأمة اليوم إلا من الاستبداد بالآراء الباطلة بكل المقاييس، وما تعاني إلا من غياب مبدإ الشورى في كثير من الأصعدة، ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم إذ يقول في عمر بن الخطاب:

رأي الجماعة لا يشقى البلاد به   رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

---

(1) آل عمران: 159.

(2) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 4/ 328، والترمذي في السنن: 4/ 213، ح: 1714، قال الحافظ ابن حجر: "رجاله ثقات الا انه منقطع"، فتح الباري: 13/ 340.

الوقفة الثالثة: بعد هذه الاستشارة أخذ النبي ﷺ برأي الأغلبية فعزم على الخروج، ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[1] فخرج بجيش قوامه ألف مقاتل، وقبل الوصول إلى موقع المعركة، جاء جماعة من اليهود لمساعدة المسلمين.

ومن المعلوم أن اليهود أصحاب مكر وخديعة على مر الأزمان، لا يؤمن لهم جانب، قد يكونون معك صباحا ومع عدوك مساء، فهم أبناء المصالح، يدورون مع مصالحهم حيث دارت، فردهم النبي ﷺ قائلا: «إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»[2]. وبهذا بين لنا الرسول ﷺ أن الأمة المسلمة لن تنتصر بجيش عقائده شتى وإيمانه مشتت، وإنما تنتصر بوحدة العقيدة، إنما تنتصر بجيش دافعه الإيمان، وهدفه تحقيق الأمن والأمان.

ومن هنا نتعلم أن الاستعانة بالكافر ضد الكافر لا تجوز؛ فكيف بالاستعانة بالكافر ضد المسلم كما يقع اليوم في كثير من الحدود الجغرافية المصطنعة بين المسلمين؟!

هذا إذا كانت الاستعانة بالقوة البشرية، أي مشاركة الجنود في المعركة أو إدارتها مشاركة عملية، أما القوة المادية مثل العتاد والأسلحة فلا بأس بذلك، وقد استعان النبي ﷺ بعد فتح مكة ضد كفار الطائف بسلاح صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك.

وإنما لا يجوز الاستعانة بالكافر عمليا؛ لأنه لا يؤمن له جانب، وقد عاشت الأمة المسلمة في تاريخها الطويل فترات نالت منها هذه الاستعانة فأحقرتها وأذلتها. ومشكلتنا نحن أننا لم نقرأ تاريخنا كما يجب؛ بل لا نكاد ندرس منه إلا ما سمح به أعداءنا، والأمة التي تجهل تاريخها، لا يمكن أن تتجنب أخطاء ماضيها، لتبني على أساس صحيح مستقبلها، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

ففي العصر العباسي الثاني في القرن الخامس الهجري 12 الميلادي حينما ضعفت الخلافة العباسية في العراق، وانحسرت سلطاتها في بغداد ونواحيها، وشتت السلاطين وحدة الأمة، فاستفرد كل سلطان بناحية أو مدينة، وتوجس الخيفة من سلاطين المدن الأخرى، فحينئذ استعان بعض السلاطين بالصليبيين، فكانت القدس ضحية هذه الاستعانة، فاحتلها الصليبيون زهاء قرن كامل.

(1) آل عمران: 159.

(2) صحيح، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 5/ 221، ح: 5142، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 455، ح: 2292.

وفي القرن السابع الهجري 13 الميلادي زحف جيش المغول والتتار بقيادة هولاكو فحطموا بغداد وأذلوا أهلها، واغتصبوا النساء فيها، وقتلوا شبابها ورجالها، وبعد هذا كله عقد آخر الخلفاء العباسيين معهم معاهدات الصلح والسلام، فغدر المغول به وقتلوه، فكانت الخلافة العباسية في بغداد ضحية الاستعانة بالكافر فانتهت إلى الأبد.

وفي القرن التاسع الهجري 15 الميلادي بعد أن شتت الإمارات المتناحرة الأندلس، وسقطت مدنه العريقة في يدي الصليبيين، (قرطبة، وجيان، وشاطبة، وإشبيلية) بقي المسلمون في غرناطة أكثر من 250 سنة حتى جاء آخر حاكم لها، وهو أبو عبد الله محمد بن علي فاستعان بالصليبيين ضد أهلها المسلمين، فسقطت غرناطة وهي آخر معقل للمسلمين في الأندلس، وانتهت فيه الحضارة الإسلامية بعد أن ازدهرت في مدنه ثمانية قرون، مدن العلم والعرفان، لازلنا ندرس ونقرأ كتبا ألفها أبناؤها، تفسير القرطبي، الشاطبية في القراءات، ألفية النحو لابن مالك الجياني، مؤلفات ابن عصفور الإشبيلي؛ فكان الأندلسُ فردوسُ الأمة المفقود ضحيةَ الاستعانة بالكافر.

وها نحن في هذا القرن قد عشنا فصولا من نتائج هذه الاستعانة المضلة، ووقعنا في مستنقعاتها المضرة، في أبشع صورها وأقبح أشكالها؛ فبها تشتت شمل المسلمين، وضعفت شوكتهم، وضاعت هيبتهم، وأكبرها فظاعة، وأعمقها جرحا الاستعانة باليهود الصهاينة اليوم، الذين سلبوا منا أقدس الأرض، وانتهكوا فينا أشرف العرض، ولوثوا الأرض المقدسة بالمستوطنات المدنسة، وقتلوا الأطفال والشيوخ والنساء، وهدموا البيوت وهودوا الأقصى. وحكام الأمة يقدمون التنازلات تلو الأخرى، ليس عن الحقوق فحسب؛ بل حتى عن المطالبة بالحقوق المشروعة بكل المقاييس، دينيا وتاريخيا ودوليا وواقعيا.

أين كل هذا من رفض النبيﷺ في غزوة أحد الاستعانة باليهود.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

الوقفة الرابعة: لقد كان عدد جيوش المسلمين في غزوة أحد ألف مقاتل، مقابل ثلاثة آلاف من المشركين؛ ولكن قبيل بداية المعركة خذل المنافقون -وهم ثلاثمائة- الرسولﷺ فرجعوا، ظنا منهم أن المسلمين سينتهي أمرهم في هذه المعركة وهم قلة لا يتجاوزون سبعمائة، رجع المنافقون يقودهم رئيسهم عبد الله بن أبي وهو يقول معرضا بالنبيﷺ: عصاني وأطاع الولدان، علام نقتل أنفسنا، يقصد بذلك حين قبلﷺ رأي الشباب لأنهم الأغلبية.

وهذه هي حالة المنافقين وأدعياء الإسلام، دائما يتحينون الفرص ليضربوا ضربتهم القاضية المتخاذلة الجبانة، ولا يوجد داء أخطر على الأمة من المنافقين الأدعياء، الذين يدعون الإسلام وهو منهم براء، والأمة المسلمة ما تعاني إلا من أمثال هؤلاء، لأنهم يحاربون الإسلام باسم الإسلام، ونحن اليوم لا نخاف على الإسلام من أعدائه بالقدر الذي نخاف عليه من أدعيائه. ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[1]، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[2].

أما بقية غزوة أحد فذلكم هو موضوع الخطبة في الجمعة المقبلة إن شاء الله...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على الرسولﷺ ...

---

(1) النساء: 142.

(2) التوبة: 32.

23) الخطبة [11] دروس وعبر من غزوة أحد (تتمة)[1]

الحمد لله الواحد الديان، خلق الإنسان علمه البيان، فطوبى لمن أحسن وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وويل لمن أساء فكان أسير الشهوة والشيطان، ونشهد أن لا إله إلا الله عرض الصحابة في غزوة أحد للابتلاء والامتحان، ففازوا بالصبر فاستحقوا التقدير والامتنان، وفشل غيرهم فباء بالخيبة والخسران، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيد بالمعجزات والبرهان، المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق فكان خلقه القرآن، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أهل الصدق والإيمان، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم القسط والميزان.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية أن غزوة أحد وقعت في هذا الشهر شهر شوال، وكشفنا لكم الستار عن الأحداث التي سبقتها، حيث وقفنا بكم حين استشارة النبيﷺ أصحابه فأخذ برأي الأغلبية، فتعلمنا أن أساس الحكم هو العدل، وأن أساس العدل هو الشورى. ووقفنا بكم حين رفضﷺ الاستعانة باليهود ضد المشركين، فتعلمنا أن الاستعانة بالكافر ضد الكافر لا يجوز؛ فكيف بالاستعانة بالكافر ضد المسلم؟! ووقفنا بكم حين غدر المنافقون وأدعياء الإسلام بالرسولﷺ فغادروا موقع المعركة، فتعلمنا أن أدعياء الإسلام أشد خطرا على الإسلام من أعدائه.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن بقية أحداث غزوة أحد؛

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن غزوة أحد وقعت عبر مرحلتين:

المرحلة الأولى هي: مرحلة وحدة الصف، وامتثال الأوامر التي بدأت حينما اختار الرسولﷺ خمسين من الذين يجيدون الرمي بالسهام والنبال، وحدد لهم مكانا يسمى إلى الآن جبل الرماة، يحمون ظهر جيش الإسلام لئلا يباغته العدو من حيث لا يشعر، ثم أمرهم بأوامر صارمة؛ ألا يبرحوا مكانهم حتى يأذن لهم، وألا ينزلوا منه على أية حال؛ سواء انتصر المسلمون أم انهزموا. ثم بدأت المعركة وعدد جيش الإسلام سبعمائة مقاتل، بينما فاق عدد جيش المشركين ثلاثةَ آلاف مقاتل، ورغم

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 17 شوال 1424 هـ 11/ 12/ 2003م.

هذا التفوق الكبير لجيش المشركين انتصر عليهم المسلمون في الشوط الأول من المعركة.

المرحلة الثانية هي: مرحلة الاختلاف وعصيان الأوامر التي بدأت بمخالفة الرماة الخمسين، الذين أمرهم الرسولﷺ بعدم مغادرة مكانهم على أية حال، حتى تأتيهم منهﷺ أوامر جديدة؛ فقد خالفوا أوامرهﷺ فنزلوا حين رأوا أن المشركين قد فروا وانهزموا، وأن المسلمين يجمعون الغنائم فيستأثرون بها دونهم، فذكَّرهم رئيسهم بأوامرهﷺ فلم يسمعوا، ونصحهم فلم ينتصحوا، فأخلوا المكان الإستراتيجي الذي حدده لهم النبيﷺ! فماذا كانت النتيجة؟ لقد دارت المعركة ضد المسلمين بعد أن كانت لصالحهم، حيث هاجمهم المشركون من الخلف، من ذلك الموقع الإستراتيجي؛ فاختلط أمرهم، واستشهد منهم سبعون، من بينهم أسد الله حمزة عم النبيﷺ، وكسرت أسنانهﷺ، وجرح في رأسه ووجهه بضربات العدو، وأصيب بنزيف دموي حتى فقد القدرة على القيام، كل ذلك بسبب مخالفة الخمسين أوامر الرسولﷺ . ونقف بكم هنا وقفات أربعة:

الوقفة الأولى: نتعلم منها درسا مهما، وهو أن ما يصيب المسلمين سببه هو مخالفة أوامر الله ورسولهﷺ؛ فها هم الخمسون من الصحابة حين خالفوا أوامرهﷺ فتحوا على أنفسهم باب المصائب، والله تعالى يقول: ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[1]، والرسولﷺ يبين لنا أن خمسا من المخالفات إذا تعاطاها الناس تفرز خمسا من المصائب، فيقولﷺ: «خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولا طففوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس القطر، ولولا البهائم لم يمطروا»[2].

وعلى هذا فما يعاني منه المسلمون اليوم من الحروب الظالمة، إلى الفتن المظلمة، إلى المصائب المجحفة، في كثير من الأصعدة، سببه إعلانهم الحرب ضد القرآن الكريم، ودعواتهم الصريحة قولا وفعلا لتعطيل أحكامه، لقد بلغت الرذائل

---

(1) الشورى: 30.

(2) حسن، رواه الطبراني في المعجم الكبير: 11/ 45، ح: 10992، وحسنه الألباني في: - صحيح الترغيب والترهيب: 1/ 187، ح: 765، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 616، ح: 3240.

بمجتمعنا دركا يرثى له، لقد اختلط الحابل بالنابل، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس؛ فسبب ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم، ومخالفاتهم لنصوص صريحة في القرآن، أصبحت دماءهم مهدرة، وحقوقهم مهضومة، وأعراضهم منتهكة، واقتصادهم منهوكا، والمسلم لا عزة له إلا بالإسلام، ولا قوة له إلا بالإسلام، ولا نصر إلا في ظل شجرة الإسلام، وسيدنا عمر بن الخطابﷺ يبين ذلك إذ قال: «كنتم أقل الناس، وأحقر الناس، وأذل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمها تطلبوا العز من غيره أذلكم الله»[1].

الوقفة الثانية: نتعلم منها أن المسلم عندما يرتكب مخالفة لا يضر بنفسه فقط؛ بل يضر بمجتمعه وبمن حوله؛ فها هم الصحابة قد خالف أمر رسول اللهﷺ منهم خمسون، فلما جاءت المصيبة لم تتصيد الخمسين فحسب، بل أصابت الجيش بأكمله، بما فيهم رسول اللهﷺ، والله عز وجل يقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[2]، والأمثلة في ذلك من الواقع أكثر من أ ن تحصى؛ فكم من مساجد انهدمت بالزلازل والفتن، وانهدمت معها مناراتها التي تنادي كل يوم: "الله أكبر"، بسبب مراقص ودور الدعارة والانحلال، التي تنادي كل ليل: "يا ليل يا عين"؟ وكم من نساء أصبن بمرض السيدا بسبب زنا أزواجهن؟ وكم من رجال أصيبوا بهذا المرض من جراء خيانة نسائهم؟ وما ذنب الجنين في بطن أمه الذي يولد حاملا جرثومة هذا المرض الخطير؟ لقد كنا منذ سنوات نحذر ونخاف من هذا المرض، ونحن نراه يكتسح الدول الغربية، عواصم الفسق والمجون، وهاهو اليوم يحصد أجساد المنهمكين في الفسق بين ظهرانينا، ويهتك بحياة الشباب المنحل في مجتمعنا، ويجرون معهم أبرياء قد تكون لهم بهم صلات في الحلال.

الوقفة الثالثة: بها نزيل وهم من قد يتوهم، أن الله عز وجل قد غضب على الرسولﷺ وعلى الصحابة، حين أصيبوا في أحد، بالكيفية التي لم يغضب بها على مجتمعنا، رغم البون الشاسع بين نوعية مخالفاتنا، ومخالفة الصحابة في أحد، كلا! فالمصيبة علامة على محبة الله للعبد، ترفع من درجاته وتمحو خطاياه، فالقضية كما قال البوصيري في همزيته:

(1) سبق تخريجه في خطبة حالة العرب يوم ولد المصطفىﷺ رقم: 2.
(2) الأنفال: 25.

لا تخل جانب النبي مضاما حين مسته منهم الأسواء
كل أمر ناب النبيئين فالشـ ـدة فيه محمودة والرخاء
لو يمس النضار هون من النـ ـار لما اختير للنضار الصلاء

والأحاديث في ذلك كثيرة؛ يقول الرسولﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»[1].

ويقولﷺ فيما روى الشيخان: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[2]، وفي رواية: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»[3].

ويقولﷺ فيما روى الترمذي ومالك: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[4].

ولهذا فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأفضل فالأفضل، يقولﷺ فيما روى الترمذي والنسائي: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة»[5].

وقد تحمل النبيﷺ الشدائد وهو في مكة، وتحملها وهو في المدينة من عدوه الثلاثي (اليهود، والمنافقون، والمشركون)، وغزوة أحد أوضح مثال لذلك، كما عانى قبله الأنبياء وبعده العلماء في سبيل دعوتهم إلى الله، فلا تكاد تخلو ترجمة عالم من محنة عذب بها في سبيل الله، ولكن العلماء الذين ورثوا ميراث الأنبياء؛ لأن

---

(1) حسن، رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2396، وابن ماجه في السنن: 2/ 1338، ح: 4031، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 276، ح: 146.

(2) – صحيح البخاري: 5/ 2137، كتاب المرضى/ باب ما جاء في كفارة المرض، – صحيح مسلم: 4/ 1992 كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.

(3) صحيح مسلم: 4/ 1991 كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.

(4) حسن صحيح، رواه الترمذي في السنن: 4/ 602، ح: 2399، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وكذلك قال فيه الألباني في: – صحيح الترغيب والترهيب: 3/ 183، ح: 3414، – السلسلة الصحيحة: 5/ 349–350، ح: 2280.

(5) صحيح رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2398، والنسائي في السنن الكبرى: 4/ 352، ح: 7481، وصححه الألباني في: – صحيح الترغيب والترهيب: 3/ 179، – السلسلة الصحيحة: ح: 3402، 1/ 273، ح: 143.

العلماء أنواع؛ فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، فمنهم دواجن يلعقون فتات موائد الظالمين، ومنهم أحرار لا يخافون في الله لومة اللائمين؛ فها هم الأئمة الأربعة (مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد)؛ كل واحد منهم امتحن وعذب وسجن، كما امتحن عبر التاريخ غيرهم من العلماء، والله تعالى يقول: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1].

اقرؤوا حياة الأنبياء، ارجعوا إلى سير العلماء النبلاء، لتتعلموا أن مصائب الدنيا ليست عيبا ونقصا في الدين، فمشكلتنا اليوم أننا بعيدون كل البعد عن حياة العلماء وسير النبلاء، لقد أصبحت عقولنا محشوة بحياة أبطال أفلام الفسوق، وسير نجوم الهوى والطرب، وسادات الألعاب، من الممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، واللاعبين واللاعبات، الأحياء منهم والأموات، يموت أحد هؤلاء فتقوم دنيا وسائل الإعلام ولا تقعد، في حين إذا مات عالم من العلماء لا نكاد نسمع له ذكرا.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

(1) العنكبوت: 2-3.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

الوقفة الرابعة: منها ندرك رحمة الله بنا إذ لم يهلكنا بذنوبنا؛ لأن الصحابة عندما أصيبوا في هذه الغزوة، لم تكن نسائهم كاسيات عاريات متبرجات، ولم يكن لديهم الزنا شيئا لا بأس به إذا كان برضا الطرفين، ولم يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، ولم تنتشر الرشوة في معاملاتهم، ولم يحابوا الله تعالى بالربا، ولم يتخذوا لأنفسهم مراقص ودور الدعارة، كل ذلك لم يكن في مجتمع الصحابة، فكل خطئهم في هذه الغزوة أنهم اجتهدوا فأخطأوا، والمجتهد مأجور على كل حال، ورغم ذلك أخذوا بسبب هذا الخطأ، وعندما نقارن أنفسنا بالصحابة في هذا ندرك رحمة الله بنا، حين نرى النعم يُعْصَى بها اللهُ تعالى، وعندما تخرج إلى الشوارع فترى المستوى الذي بلغته المناكير، وبجانبها خيرات تباع وتشترى، لولا رحمة الله بنا لما وجدنا خبزا ولا شربة ماء، لأصبحنا حفاة عراة جياعا عطشى، «لولا شباب خشع وبهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا»[1]

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

(1) ضعيف، رواه البيهقي في الكبرى: 3/ 345، ح: 6183، وضعفه الألباني في الضعيفة: 9/ 351-352، ح: 4362.

24) الخطبة [12] الرجوع إلى السيرة من خلال سرية الرجيع[1]

الحمد لله نصر الضعفاء بدماء الشهداء، وأرسى دعائم الإسلام بالتضحية والفداء، وأشهد أن لا إله إلا الله نصر بسيرة المصطفىﷺ الحق وهزم العداء، ورد عمن تتمسك بها -رغم المعاناة- العدوان والاعتداء، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله حارب الضلال بالاهتداء، ففاز من تتبع خطوات سيرته أسوة واقتداء، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه السعداء، وعلى التابعين لهم بإحسان ما استجاب الله تعالى الدعاء ولبى النداء.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون، أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

دعونا اليوم نرجع إلى سيرة رسول اللهﷺ، نستطلع أسرارها، نستكشف مكامنها، دعونا اليوم نطل من خلال هذا الشهر شهر صفر الخير، على حدث من سيرة المصطفىﷺ وقع فيه، هذا الحدث يسمى بـ"سرية الرجيع".

أتدرون لماذا نريد أن نعود لسيرة المصطفىﷺ؟

أولا: لنعلم أننا في شهر صفر الشهر الثاني من الشهور الإسلامية، حتى نربط الناس بها وهي شهور السنة الهجرية النبوية، التي جهلها الكثير منا، وهي التي الله بها مواقيت عباداتنا، من عدة وحج وزكاة وصيام.

ثانيا: لأن سيرة المصطفىﷺ هي المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم؛ بل هي المذكرة التطبيقية لأحكام القرآن، أو قل إن شئت: هي القرآن العملي؛ لأنهﷺ لم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، أوالذين يسطرون القانون ثم يكونون أول من يخالفه؛ بل الرسولﷺ هو أول من يطبق القرآن، وهو أول المسلمين بنص القرآن، قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2]، فلا غرابة إن كان خلقه القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها.

ورغم كل هذا فإننا قد جهلنا من هذه السيرة العطرة الكثير، قد جهلنا من هذا القرآن العملي الكثير، والدليل على ذلك هو سرية الرجيع نفسها، هل سمعتم قط بهذا الاسم؟ فما هي سرية الرجيع؟ لو توجهنا بهذا السؤال اليوم إلى الناس، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، رغم أن الأمة تملك اليوم وسائل الإعلام المتطورة،

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 5 صفر الخير 1420 هـ 21 / 5/ 1999م.
(2) الأنعام: 62.

ومواقع في الأقمار الصناعية، ولكن مع الأسف الشديد، لا تنشر إلا ما يهدم هذه السيرة العطرة من أساسها في مجتمعنا.

تعالوا بنا اليوم إذن لنرفع الستار عن هذا الحدث "سرية الرجيع"، لنقترب من سيرة الحبيب المصطفىﷺ، علنا نتعلم وقد ساد جهلنا، علنا نستفيد وقد طالت غفلتنا، علنا نستيقظ وقد تعمق سباتنا.

فالسرية هي: المعركة التي لم يشترك فيها النبيﷺ، أما التي اشترك فيها فتسمى بالغزوة، والرجيع: هو المكان الذي شهد هذا الحدث المؤلم في حياة الرسولﷺ.

نعم -أيها الإخوة المؤمنون-؛ إن سرية الرجيع حدث مؤلم، فكيف ذلك؟

ففي شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة، جاء إلى النبيﷺ قوم من قبيلتي "عَضَل، والقَارَة"، فادَّعوا الإسلام، وأن في بلادهم مسلمين هم في حاجة للتوعية والإرشاد، في حاجة لمن يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، وكل ذلك في الحقيقة إنما هو مكر وخديعة، فهم لم يسلموا، ولم يوجد في بلادهم الإسلام كما يدعون.

والمكر ضد الإسلام -يا عباد الله- ليس وليد اليوم؛ بل جذوره قد تعمقت في أرضية التاريخ، فقد ولد بولادة الإسلام نفسه، فإن اتخذ المكر اليوم ألوانا وأشكالا، وإن نجح اليوم في إبعاد المسلم عن دينه وتشويه إسلامه، فإن المسلمين لو رجعوا إلى دينهم، لو تمسكوا بشريعتهم، لكفتهم الآية الكريمة مكر الماكرين، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1]، والصحابةﭫ نصرهم الله على أعدائهم، رغم مكر الماكرين، أتدرون لماذا؟ لأنهم نصروا الله فنصرهم الله، ونحن ننتظر أن ينصرنا الله دون أن ننصر شرعه في معاملاتنا ومجتمعنا.

ويشتد المكر على الأمة المسلمة، حين يكون أبطاله من المنافقين، الذين يدعون الإسلام وهو منهم براء، الذين يحملون أسماء إسلامية وقلوبا غلفا بأغلفة الكفر، أمثال هؤلاء الذين جاءوا إلى النبيﷺ في سرية الرجيع، فادعوا الإسلام وليس في قلوبهم إلا الكفر؛ فأحفاد هؤلاء اليوم أشد خطرا على الإسلام من الكفار؛ لأنهم يحاربون الإسلام باسم الإسلام، ونحن اليوم لا نخاف على الإسلام من أعدائه بالقدر الذي نخاف عليه من أدعيائه.

فأدعياء الإسلام اليوم، هم الذين باعوا القدس باسم السلام، إن هو في الحقيقة إلا الاستسلام! وأدعياء الإسلام اليوم، هم الذين شتتوا الأمة المسلمة، فقادوها إلى متاهات من النزاعات على الحدود المصطنعة! وأدعياء الإسلام اليوم، هم الذين

---

(1) الأنفال: 30.

يبيعون المخدرات في شوارعنا! وأدعياء الإسلام اليوم، هم الذين أغرقوا الأمة المسلمة في ديون ربوية لا أول لها ولا آخر! وأدعياء الإسلام اليوم، هم الذين رفضوا حجاب المرأة المسلمة الصامدة[1] في برلمانهم بتركيا! وأدعياء الإسلام، هم الذين ألفوا الكتب تشويها وتحريفا لأحكام الإسلام!

أيها الإخوة المؤمنون؛ إن الرسولﷺ عندما جاءه هؤلاء الأدعياء المنافقون، عاملهم حسب أقوالهم ومظهرهم، وما نبش عن قلوبهم ونواياهم؛ لأنهﷺ يريد أن يعلمنا أن الله وحده سبحانه هو الذي يتولى السرائر، هو وحده سبحانه يعلم ما تخفي الصدور، وما توسوس به النفوس، وكل همهﷺ توعية الناس وإرشادهم وهدايتهم، وقد قال فيه القرآن الكريم: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[2]، ولذلك استجابﷺ لهؤلاء، فأرسل معهم عشرة من الصحابة، وجعل أميرهم عاصم بن ثابت ليعلموا لهؤلاء القرآن في بلادهم، و«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[3]، وكان من عادتهﷺ، ألا يرسل جماعة: ثلاثة فما فوقها، إلا جعل واحدا منهم أميرا، يأمر فيطاع في غير معصية، تفاديا للآراء المتناقضة، روى أبو داوود عن أبي هريرة أنهﷺ قال: «إذا كان ثلاثةٌ في سفر فليؤمِّروا أحدهم»[4]، وروى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه أنهﷺ قال: «لا يحل لثلاثة نفر، يكونون بأرض فلاة، إلا أمَّروا عليهم أحدهم»[5].

فلما وصل هؤلاء الصحابة الدعاة العشرة، إلى مكان اسمه "الرجيع"، غدر بهم هؤلاء الأدعياء المنافقون، فاستنفروا ضدهم قبيلة اسمها بنو لحيان، فهجموا عليهم بمائة رجل مشرك قد أكل الحقد قلوبهم، ولم يستسلم الصحابة العشرة في البداية؛ لأن الاستسلام الذليل ليس من أخلاق الصحابة، فهم إما أن يعيشوا شرفاء، أو يموتوا شهداء، فقاوموا هذا العدد الذي تجاوز عددهم عشر مرات، فتسلقوا جبلا

---

(1) المراد هنا: مروة القَوُقْجي المرأة المسلمة المتحجبة بتركيا التي نجحت في انتخابات سنة 1420 هـ 1999م، فرفضت الحكومة العلمانية دخولها البرلمان، وسلبت منها جنسيتها بالظلم والعدوان؛ ولكن ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ رفضوا يومها دخول متحجبة واحدة البرلمان، واليوم دخل عشرات المتحجبات البرلمان والحكومة وقصر الرئاسة، ولله الحمد الذي قال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

(2) الشورى: 52.

(3) رواه البخاري في صحيحه: 4/ 1919، كتاب فضائل القرآن/ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

(4) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 3/ 36، ح: 2609. 1/ 193، وصححه الألباني في: - صحيح سنن أبي داود: 7/ 364-365، ح: 2348، - إرواء الغليل: 8/ 106، ح: 2454، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: ح: 760.

(5) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 2/ 176، وفي سنده ابن لهيعة، وبه ضعَّفه الألباني في الضعيفة: 2/ 56، ح: 589.

وهم يقولون: «اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ»، ولكن الكفار رموهم بالنبال، حتى استشهد منهم ثمانية، وبقي اثنان، فباعوهما لكفار قريش أعداء الرسول ﷺ في مكة، وفي مصيرهم عبر وعظات، وهما: خبيب بن عدي، وزيد بن الدثِنَّة...[1]

فهل سمعتم -يا عباد الله- قط بهذه الأسماء، لو كانوا يلعبون كرة القدم، لو كانوا من أبطال الأفلام المدبلجة، لو كانوا من المطربين والمطربات، والفنانين والفنانات، والممثلين والممثلات، واللاعبين واللاعبات، الأحياء منهم والأموات، لو كانوا من هؤلاء لعلمنا منهم كل شيء، ولما بخلت علينا وسائل الإعلام بتراجمهم، وتفاصيل حياتهم؛ ولكن خبيبا وزيدا -رضي الله عنهما- كانا من الذين باعوا أنفسهم لله سبحانه وتعالى.

فأما خبيب بن عدي فقد أخذه كفار قريش، واتفقوا على قتله وصلبه على جذع نخلة، بعد أن خيروه بين الحياة مع الكفر، أو الموت على الإسلام، فاختار الموت على الإسلام. فلما خرجوا به من الحرم إلى التنعيم، لينفذوا فيه الحكم بالإعدام، طلب منهم أن يصلي ركعتين، فلما صلى توجه إليهم فقال بكل شجاعة: لولا أن تظنوا أن بي خوفا من الموت لزدت في الصلاة، ثم تقدم إلى الجذع وعيناه تذرفان دموعا ليس أسفا على حياته، ولكنه خوفا من الله سبحانه وتعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾[2]. سبحان الله يخاف من الله وهو يُقَدَّم -رغما عنه- للشهادة! فلم لا نخاف الله تعالى ونحن نتقدم -طوعا منا- للفساد ونضيع العبادة.

ثم أنشد رضي الله عنه وهو يصف هذا المشهد الرهيب الذي يقدم فيه للموت:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألَّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مدمعِ
وما بي حذار الموت إني لميت ... ولكن حذاري جحيم نار ملفَّع
ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[3]

ثم صلب رضي الله عنه حتى فاضت روحه إلى بارئها؛ فكان أول من سن الركعتين عند القتل؛ لأن الصلاة عند الصحابة راحة وطمأنينة، وقد كان الرسول ﷺ إذا حزبه أمر واشتد عليه فزع إلى الصلاة، وكان ﷺ يقول لمؤذنه الرسمي بلال، عندما يرى العياء

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1108، كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة...
(2) النازعات: 40.
(3) السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 130.

يتسرب إلى أصحابه في السفر: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[(1)] فالصلاة هي ملجأ المؤمن على كل حال، عند الأفراح والأتراح، فقد شرع لأفراحه صلاة العيد والجمعة، كما شرع لأتراحه وأحزانه صلاة الجنازة والاستسقاء، وها هو خبيب قد سن الصلاة عند مفارقة الدنيا، فكان آخر أعماله في الدنيا الصلاة، «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[(2)]

أما نحن اليوم، فأثقل شيء علينا هو الصلاة، ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[(3)]، لا يعرف الكثير منا جماعتها إلا في الجمعة ورمضان، وخصوصا صلاة الفجر، وخصوصا عندما يقترب الفجر من الرابعة صباحا، كهذه الأيام، حيث يزداد النوم ثباتا وعمقا، وتزداد اليقظة بعدا وسحقا، فإذا كانﷺ يقول: أرحنا بها يا بلال[(4)]، فإن منا من يقول، تارة بلسان الحال، وأخرى بلسان المقال: أرحنا عنها يا إمام.

أما زيد بن الدثِنَّة، فقد برهن هو الآخر على إيمانه الكامل، وعلى محبته الصادقة للمصطفىﷺ، بصورة أبهرت المشركين وسلبت منهم الألباب، وفتحت عليهم للحيرة ألف باب وباب، وأوقعتهم في بحار من العجب العجاب، فعندما قدموه للقتل، قال له أبو سفيان: أتحب أن يُقتَل محمد مكانك وأن تكون أنت في أهلك، فقالرضي الله عنه: والله ما أحب وأنا في هذا المكان، وأنا أقدم للإعدام، أن يصاب محمدﷺ بشوكة وهو في أهله، فقال أبو سفيان -وقد فغر فاه منبهرا-: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[(5)]، والحق ما شهدت به الأعداء.

فرضي الله عن الصحابة الكرام وأرضاهم أجمعين، وجعلنا بسنتهم متمسكين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

---

(1) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 4/ 296، ح: 4985، وصححه الألباني في: - تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 393، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1307، ح: 7892.

(2) صحيح مسلم: 2/ 705، كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.

(3) البقرة: 45.

(4) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 4/ 296، ح: 4985، وصححه الألباني في: - تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 393، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 1307، ح: 7892.

(5) من المصادر من نسب هذه القصة لخبيب بن عدي أيضا، ولا يبعد أن يقع ذلك من كليهما؛ لأن محبة الرسولﷺ في قلوب كل الصحابة واحدة.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

لما استشهد هؤلاء الصحابة استغل المنافقون في المدينة الحدث للنيل من الإسلام، فقالوا مستهزئين: "يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا!! لا هم أقاموا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم"، فأنزل الله القرآن فيهم، ففضح أمرهم، وكشف عن شرهم.

قال سبحانه: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1].

ثم أنزل سبحانه في هؤلاء الشهداء مدحا لهم وثناء عليهم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾[2]...

ألا فاتقوا الله عباد الله؛ وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) البقرة: 204-206.

(2) البقرة: 207.

25) الخطبة [13] عودة إلى السيرة من خلال سرية بئر معونة(1)

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه، ومذل من خالف أمره وعصاه، وفق من شاء من عباده لما يحب ويرضاه، وفضل المجاهد على القاعد واجتباه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نعبد إلا إياه، حث المؤمن على نشر القرآن ودين الله، لأنه به يحمي عرضه وحماه، وحذره من الخذلان والجبن والوهن ونهاه، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ومصطفاه، طوبى لمن اقتدى به ووالاه، وويل لمن أعرض عن شرعه وعاداه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا فكان هواهم تبعا لهواه، فنالوا محبة الله ورضاه، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى أن نلقاه.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية، من سيرة الرسولﷺ سرية الرجيع، لأنها وقعت في هذا الشهر شهر صفر، وذلك حتى نرتبط بالشهور العربية الإسلامية التي تغافلنا عنها، وحتى نحارب ذلك الجهل المطبق الذي ساد الكثير منا تجاه سيرة الحبيب المحبوبﷺ، إذ كيف يدعي حب الرسولﷺ من لا يعلم من سيرته إلا أنه رسول اللهﷺ وكفى!؟

ولهذا رجعنا بكم في الجمعة الماضية إلى السيرة النبوية، فوقفنا عند محطة سرية الرجيع، ذلكم الحدث المؤلم الذي استشهد فيه كل أفراد السرية من الصحابة وهم عشرة، نتيجة مكر الماكرين، وخديعة أهل النفاق والشقاق وسوء الأخلاق. والسرية هي المعركة التي لم يشترك فيها الرسولﷺ والتي اشترك فيها تسمى غزوة.

وفي إطار محاربة الجهل بهذه السيرة العطرة، نعود بكم مرة أخرى إلى أحضانها المباركة، نسلط الأضواء الكاشفة على أحداثها، علنا نأخذ منها وصفة نصلح بها ما أفسد فينا الجهل بأخلاق المصطفىﷺ أو مصباحا ننير به الطريق في هذا الجهل الدامس الذي نتخبط فيه في حياتنا ومعاملاتنا، نتيجة ابتعادنا عن سيرة الرسولﷺ .

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 12 صفر الخير 1420 هـ 28 / 5/ 1999م، وهي السنة التي هاجم فيها الوحش الصربي على المسلمين الألبان في "كسوفا" وفي الأسبوع الذي ضربت طائرات الحلف الأطلسي (أو الجلف الأطلسي بالجيم) اللاجئين المسلمين خطأ كما يقولون وقد أشارت الخطبة لذلك.

تعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن سرية أخرى، عن حادثة مؤلمة أخرى، في هذا الشهر شهر صفر، وفي نفس السنة التي وقعت فيها سرية الرجيع، السنة الرابعة من الهجرة، ألا وهي سرية بئر معونة.

فما هي سرية بئر معونة؟ وما الذي حدث فيها؟

وهنا يلاحظ ذلك الجهل الذي يكتنف هذه الحادثة مرة أخرى، جهلنا بالسيرة العطرة المسيطر على أذهاننا، حيث كانت خالية الوفاض عن تفاصيل هذه السيرة؛ بل لا نعلم حتى موجزا عنها؛ بل لا نكاد نسمع حتى بهذا الاسم؛ سرية بئر معونة.

أيها الإخوة في الله؛ إذا استشهد عشرة من الصحابة في سرية الرجيع التي قدمنا لكم تفاصيلها في الجمعة الماضية، فإن سرية بئر معونة، قد استشهد فيها سبعون من خيار الصحابة، قد مات فيها سبعون من القراء، كيف حدث ذلك؟

لقد جاء ناس من العرب من قبائل "رعل، وذكوان، وعصية"، فطلبوا من النبيﷺ أن يبعث معهم رجالا يعلمونهم القرآن والسنة، فبعث معهم سبعين رجلا من الأنصار، يقال لهم القراء؛ لأنهم يعملون بالنهار، وبالليل يقرءون القرآن.

هل تدرون من هم القراء؟ إنهم حملة القرآن، وحملة القرآن موجودون في الصحابةرضي الله عنهم، فهؤلاء منهم سبعون، أرسلهم الرسولﷺ ليعلموا الناس القرآن، وفي هذا تشجيع من الرسولﷺ لأمته على حفظ القرآن وتعليمه وتعلمه، وفي هذا أيضا الرد المفحم على أولئك الذين يستهزئون بحملة القرآن، الذين يسمون أنفسهم السلفيين والسلفية منهم براء، الذين لا يتورع أحدهم أن يقول بأن حفظ القرآن كله بدعة، وأن يقول: نحن –السلفيين- تكفينا الفاتحة، وقل هو الله أحد، فليحفظ من شاء البقرة وآل عمران والنساء! وكيف يكون حفظ القرآن بدعة والرسولﷺ يقول: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[1]؟ وكيف يكون بدعة وهؤلاء سبعون من القراء، أرسلهم الرسولﷺ لنشر القرآن وتعليمه؟.

أيها الإخوة المؤمنون؛ لما وصل هؤلاء السبعون، إلى مكان اسمه بئر معونة، غدرت بهم القبائل التي جاءوا ليعلموهم القرآن، فقتلوهم جميعا بعد أن استماتوا في الدفاع عن أنفسهم، فاستشهدوارضي الله عنهم في سبيل نشر القرآن، وكان أول من استشهد

(1) رواه الشيخان، ولفظه لمسلم، - صحيح البخاري: 4/ 1882، كتاب التفسير/ باب تفسير سورة عبس، - صحيح مسلم: 1/ 549، كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه.

منهم صحابي اسمه: حرام بن ملحان، فلما أصيب بالطعنة التي استشهد بها، قالرضي الله عنه: «فزت ورب الكعبة»[1]!!!

أتدرون -يا عباد الله- بماذا فاز؟ إنه فاز بالشهادة التي عاش من أجلها وقاتل من أجلها؛ لأنه من القراء يقرأ في القرآن قوله سبحانه: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[2].

تأملوا معي -بربكم- هذه الكلمة التي واجه بها هذا الصحابي الجليل الضربة التي أنهت حياته، إنه يموت ويفارق الدنيا وهو يقول: «فزت ورب الكعبة»! ولن ينتصر المسلمون اليوم، إلا إذا كان فيهم أمثال هؤلاء الذين يقولون في وجه الموت: «فزت ورب الكعبة»، ولن ينتصروا اليوم ما دام يتحكم في مصيرهم ناس جبناء، يخافون حتى من ظلهم، ويشكون في كل شيء، خوفا على حياتهم وكراسيهم، ولن ينتصروا اليوم ما دام فيهم ناس يكرهون الموت ويحبون الدنيا.

وقد كان خالد بن الوليد، الذي فتح العراق والشام، والذي رد كيد المرتدين في نحورهم، وقتل مسيلمة الكذاب، فهزم جيوشه، والذي سماه الرسولصلى الله عليه وسلم سيفا من سيوف الله المسلول، لقد كانرضي الله عنه أول شيء يقوم به في الجهاد، أنه يدعو أعداءه إلى الإسلام، فإذا رفضوا أخبرهم بأنه جاء إليهم برجال، يحبون الموت ويكرهون الحياة[3]، بجيش كل فرد من أفراده لا يبالي أن يقول في وجه الموت: «فزت ورب الكعبة»، كل فرد همه إحدى الحسنيين؛ إما النصر، وإما الشهادة، إما أن يعيش شريفا، أو يموت شهيدا، فتكون هذه الكلمات من خالدرضي الله عنه، أشدَّ فتكا بقلوب الأعداء من ضربات السيوف، فغالبا ما تنهزم الجيوش نفسيا، فتنسحب قبل أن يصل خالد فعليا، ومن الحروب النفسية، التي تساعد أي جيش على الانتصار، هو إذا استطاع أن يجعل عدوه يعتقد فيه أنه جيش لا يقهر، وقد كان آخر كلام خالدرضي الله عنه وهو في فراش الموت: «فلا نامت أعين الجبناء»[4].

نعم يا سيدي يا سيف الله المسلول! فلا نامت أعين الجبناء، فما انهزم المسلمون اليوم، فضاعت منهم القدس، إلا بعد أن تجذر الوهن في قلوبهم، وساد الخوف على

---

(1) – صحيح البخاري: 3/ 1031، كتاب الجهاد والسير/ باب من ينكب في سبيل الله، – صحيح مسلم: 3/ 1511، كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد.

(2) آل عمران: 170.

(3) تاريخ الطبري: 2/ 308.

(4) تاريخ دمشق لابن عساكر: 16/ 273.

مشاعرهم، وقاد الجبناء أمورهم، وإذا كان أفراد الأمة اليوم يفوق المليار مسلم، فهم ليسوا إلا غثاء كغثاء السيل، يقول الرسولﷺ في الحديث الحسن: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعـن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفـن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»(1).

فها هو قول الرسولﷺ يتحقق فينا مرة أخرى، فالأمة تكالبت عليها الأمم الكافرة من كل وجه، يستغلون خيراتها، رغم كثرة عددها، مليار مسلم، ولكنه لا يفيد، فهم مثل الغثاء، فأعداء الأمة لم يعودوا يخافون منها، لأن أفرادها يحبون الدنيا، ويكرهون الموت، لأن أفرادها لا يوجد فيهم أمثال هذا الصحابي الذي يقول في وجه الموت: «فزت ورب الكعبة»(2).

أيها الإخوة في الله! عند ما أحاط الأعداء بهؤلاء السبعين من القراء، وعندما رأوا أنهم يتساقطون تحت ضربات السيوف الغادرة، والتي تحصد أرواحهم واحدا تلو الآخر، لم ينسوا دعاء ربهم، فاستشهدوا جميعا ولسانهم رطب بذكر الله، وهم يرددون: اللهم بلغ عنا نبينا، أنا قد لقينا ربنا، فرضينا عنه، ورضي عنا(3)؛ وذلك لأن الدعاء هو رباط المسلم بينه وبين ربه على كل حال، إذا فرح دعا، وإذا حزن دعا، فهو مخ العبادة الذي يعطي القيمة للإنسان، والمسلم لا قمية له عندالله تعالى بدون الدعاء، وقد قال الله سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾(4) فاستجاب الله دعاءهم، فبلغ النبيﷺ خبرهم بواسطة جبريلعليه السلام.

أيها الإخوة في الله؛ ألسنا نحن اليوم ندعو أيضا؛ بل ونلح في الدعاء؟ أتدرون لماذا لم يستجب الله لنا؟ لأن الله سبحانه لا يستجيب دعاء من يتغذى بالمحرمات،

---

(1) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 4/ 111، ح: 4297، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 647، ح: 958.

(2) – صحيح البخاري: 3/ 1031، كتاب الجهاد والسير/ باب من ينكب في سبيل الله، – صحيح مسلم: 3/ 1511، كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد.

(3) – صحيح البخاري: 3/ 1031، كتاب الجهاد والسير/ باب من ينكب في سبيل الله، – صحيح مسلم: 1/ 468، كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

(4) الفرقان: 77.

وقد قالﷺ: «أطب مطعمك تكون مستجاب الدعاء»[1]، فقد اكتسبنا المال بوسائل حرمها الإسلام؛ الربا، الرشوة، الغش، الكذب، السرقات الصغرى والكبرى: سرقة الدريهمات، وسرقة الملايارات.

ولكن القراء السبعين استجاب الله دعاءهم، فبلَّغ سبحانه النبيﷺ خبرهم، فحزنﷺ عليهم حزنا شديدا، وقيل: إنهﷺ، وصله في يوم واحد، خبر مأساة سرية الرجيع، التي كشفنا لكم الستار عنها في الجمعة الماضية التي استشهد فيها عشرة من خيار الصحابة، وخبر مأساة سرية بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من القراء.

ولكم الآن أن تتصوروا وقع الصدمة على النبيﷺ وهو يستقبل خبرين مؤلمين إلى هذا الحد في يوم واحد، ولهذا دعا على القبائل التي ارتكبت هذه المجازر الشنيعة، في قنوت الصبح شهرا كاملا، فشرعﷺ لنا بذلك استحباب القنوت في صلاة الصبح، وهذا مذهب الإمام مالك، وخصوصا إذا نزلت بالمسلمين مصيبة، وهذا مذهب أحمد.

فما أحوجنا -يا عباد الله- اليوم للقنوت ونحن نرى ما نزل بالمسلمين في كسوفا، على يد الوحش الصربي الحاقد، من قتل وتشريد، واغتصاب وتشتيت.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان في القلب إسلام وإيمان[2]

أقول ما تسمعون، واستغفر الله لي ولكم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

---

(1) ضعيف جدا، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 6/ 311، ح: 6495، وضعفه الألباني في: - السلسلة الضعيفة: 4/ 292، ح: 1812، - ضعيف الترغيب والترهيب: 1/ 268، ح: 1071.

(2) اليت للشاعر الأندلسي أبي البقاء صالح بن يزيد الرُّنْدي (601هـ -684هـ) في نونيته المشهورة التي يبكي فيها سقوط الأندلس، ومطلعها:

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تمَّ نُقْصَانُ * فَلاَ يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إنْسَانُ

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

لم ينج من القراء السبعين في هذه السرية المؤلمة إلا صحابي واحد، اسمه عمرو بن أمية الضمري، تركه المشركون ليكون شاهد عيان، فينقل إلى النبيﷺ خبر هذا التنكيل المؤلم الذي نزل بأصحابه، وهذا أسلوب من أساليب الحرب النفسية، التي يستعملها أعداء الإسلام اليوم، ضد المسلمين في كل مكان، ففي "كسوفا" يبيد الصرب القرية بأكملها، ثم يتركون بعضا من أفرادها، لينقلوا هذا التنكيل إلى غيرها من القرى فيرتحلون أو يستسلمون دون مقاومة، وهو نفسه الأسلوب الذي استعمله عصابات الصهاينة اليهود قبلهم، في إفراغ فلسطين من أهلها.

فلما رجع الناجي الوحيد عمرو بن أمية الضمري، وفي الطريق إلى المدينة التقى برجلين، فظنهما من القبيلة التي قتلت أصحابه فقتلهما خطأ، فوجد عندهما عهدا من الرسولﷺ، فلما وصل إلى المدينة دفعﷺ ديتهما، أو ما يمكن أن يسمى اليوم بالتعويضات، والدية في الإسلام هي مائة ناقة لكل واحد، وبهذا أصلحﷺ الخطأ، ولم يكتف بمجرد الأسف كما يفعل أصحاب الحضارة اليوم، يقصفون المدنيين الأبرياء، بطائرات الحلف (أو الجلف) الأطلسي، ثم يقول المتحدث باسمهم: نأسف لهذا الخطأ، لقد قصفوا المسلمين اللاجئين الهاربين من جحيم الصرب في "كسوفا" فوقعوا في جحيم الغرب، والكفر ملة واحدة، ثم قدموا مجرد الاعتذار، هكذا وانتهى الأمر فلا متابعة ولا تعويضات، وهل يساوي ذلك القتل الجماعي الهمجي مجرد الأسف؟ وهل يكفي في قتل الأبرياء مجرد الاعتذار؟ والكل جائز في عقلية الحضارة الغربية اليوم.

سموك يا عصر الظلام سفاهة عصر الضياء وأنت شر الأعصر
وتقدمت فيك الحضارة حسبما قالوا فيا وحشية المتحضر

ألا فاتقوا الله عباد الله؛ وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ ...

26) الخطبة [14] دروس وعبر من سريتي الرجيع وبئر معونة[1]

الحمد لله الذي جعل محبة المصطفىﷺ إلى رضوانه سبيلا، وجعل طاعته على صدق محبته دليلا، وجعل الاقتداء به شرطا حتى يكون عمل المسلم مقبولا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له صفة وأفعالا، شهادة لا نتخذ بها من دون الله وليا ولا وكيلا، شهادة نكون بها من الذاكرين الله بكرة وأصيلا، وأشهد أن سيدنا محمدا بعثه الله نبي رحمة ورسولا، فكان أفضل من سبح الله ليلا طويلا، وكانت سيرته في كل خير معينا سلسبيلا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله جهادا جليلا، ورفضوا حياة الذل وإن كانوا في المعركة قليلا، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى أن يلقى الإنسان يوما ثقيلا.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

دعونا اليوم نرجع بكم مرة أخرى إلى هذه السيرة العطرة، نستطلع مزيدا من أسرارها، نستكشف مزيدا من مكامنها، دعونا اليوم نطل من خلال هذا الشهر؛ الشهر الثاني من السنة الهجرية، شهر صفر، على حدثين من السيرة النبوية وقعا فيه، الحدث الأول يسمى بسرية الرجيع، والحدث الثاني يسمى بسرية بئر معونة.

فما أحوجنا –يا عباد الله- للعودة إلى السيرة العطرة ونحن نرى المأساة التي يعيشها المسلمون اليوم في فلسطين! فقد حول الصهاينة أرض الإسراء والمعراج إلى معركة ومحرقة ومقبرة، ففي هذا الأسبوع قتلوا الشيخ الشهيد، الشيخ أحمد ياسين، شيخا قد اشتعل رأسه شيبا وبلغ من الكبر عتيا، في عمره 67 عاما، شيخا نالت من صحته سنوات السجن والحرمان، شيخا مقعدا لا يمشي إلا بكرسي متحرك، لا يسمع إلا بصعوبة، ولا يرى إلا بصعوبة، أي جريمة هذه؟ وأي جبن هذا؟

ولكن استشهاد الشيخ الشهيد ليس غريبا لا من جهته، ولا من جهة أعدائه، ليس غريبا من جهته لأنه يا أخي نال ما تمنى؛ فلا يكاد يطلع علينا في أية قناة إلا وتمنى على الله تعالى أن يرزقه الشهادة، فلا غرابة أن يحقق الله أمنيته، وأن يستجيب الله دعاءه، فهو في الحقيقة لا يستحق التعزية ولكن التهنئة. وليس غريبا أيضا من

---

(1) هذه الخطبة لخصت الخطبتين السابقتين، وألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 17 شوال 1424 هـ 11/ 12/ 2003م، وفي: 4 صفر الخير 1425هـ 25/ 3/ 2004م، وفي: 03 صفر الخير 1430هـ 30/ 01/ 2009م، كما يظهر من الأحداث التي أشارت إليها.

جهة المجرم الصهيوني الجبان "شارون" الذي لا يعرف جرمه حدودا، فصبرا وشاتيلا شاهدة تاريخية على نوعية هذا المجرم الظالم الوقح الجبان.

فما أحوجنا لمدارسة السيرة نسلط الأضواء الكاشفة على أحداثها، لنأخذ منها وصفة نداوي بها معاناة هذا الظلم البائس، أو مصباحا ننير به الطريق في هذا الظلام الدامس!

أيها الاخوة المؤمنون؛ ما هي سرية الرجيع؟ وما هي سرية بئر معونة؟ لو توجهنا بهذا السؤال اليوم إلى الناس، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل.

إذا كان أهل فلسطين يعيشون اليوم أحداثا مؤلمة فإن سريتي الرجيع وبئر معونة هما أيضا عبارة عن أحداث مؤلمة، ذهب ضحيتها عشرة من كبار الصحابة في سرية الرجيع، وسبعون من القراء في سرية بئر معونة، والقراء هم حفظة القرآن الكريم.

كيف حدث ذلك؟

يجب أن نعلم أولا أن السرية هي المعركة التي لم يشترك فيها النبيﷺ، والتي اشترك فيها فتسمى بالغزوة.

أما سرية الرجيع فقد وقعت في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة، حيث جاء إلى النبيﷺ قوم من قبيلتي "عَضَلَ، والقَارَة"، فادَّعوا الإسلام، وادَّعوا أن في بلادهم مسلمين هم في حاجة للتوعية والإرشاد، في حاجة لمن يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، وكل ذلك في الحقيقة إنما هو مكر وخديعة، فهم لم يسلموا، ولم يوجد في بلادهم الإسلام كما يدعون، فأرسلﷺ معهم عشرة من الصحابة، فلما وصلوا إلى مكان اسمه [الرجيع]، غدر بهم هؤلاء الأدعياء المنافقون، فاستنفروا ضدهم قبيلة اسمها: "بنو لحيان"، فهجموا عليهم بمائة رجل مشرك، حتى استشهد منهم ثمانية، وبقي اثنان، فباعوهما لكفار قريش في مكة، وهما زيد بن الدثِنَّة، وخبيب بن عدي، فقتلوا زيدَ الدثنة على الفور.

وأما خبيب بن عدي فأمهلوه أياما، ولما أرادوا قتله طلب منهم أن يصلي ركعتين، فكان أول من سن ركعتين عند الاستشهاد، ثم أنشد يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقد برهنرضي الله عنه لكفار مكة على شجاعة منقطعة النظير، وعلى محبته الصادقة للمصطفىﷺ، بصورة أبهرت المشركين وسلبت منهم الألباب، وفتحت عليهم

للحيرة ألف باب وباب، وأوقعتهم في بحار من العجب العجاب، فعندما قدموه لضرب عنقه بالسيف، قال له أبو سفيان: أتحب أن يُقتَل محمد مكانك وأن تكون أنت في أهلك، فقالﷺ: والله ما أحب وأنا في هذا المكان أن يصاب محمد بشوكة وهو في أهله، فقال أبو سفيان وقد فغر فاه منبهرا: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[1].

أما سرية بئر معونة فوقعت أيضا في نفس الشهر وفي نفس السنة حيث جاء ناس من العرب من قبائل "رعل، وذكوان، وعصية"، فطلبوا من النبيﷺ أن يبعث معهم رجالا يعلمونهم القرآن والسنة، فبعث معهم سبعين رجلا من الأنصار، يقال لهم القراء لكثرة ما حفظوا من القرآن الكريم، فلما وصلوا إلى مكان اسمه بئر معونة، غدرت بهم القبائل التي جاءوا ليعلموهم القرآن، فقتلوهم جميعا، بعد أن استماتوا في الدفاع عن أنفسهم، وكان أول من استشهد منهم صحابي اسمه "حرام بن ملحان"، فلما أصيب بالطعنة التي استشهد بها، قالﷺ: «فزت ورب الكعبة»![2] فاستشهدوا جميعاﷺ، ولسانهم رطب بذكر الله وهم يرددون: اللهم بلغ عنا نبينا، أنا قد لقينا ربنا، فرضينا عنه، ورضي عنا[3].

وقد وصل أخبار السريتين رسول اللهﷺ وأخبار استشهاد ثمانين من الصحابة في يوم واحد، فحزن لذلك حزنا شديدا، ولكم الآن أن تتصوروا، وقع الصدمة على النبيﷺ وهو يستقبل خبرين مؤلمين إلى هذا الحد في يوم واحد.

من أجل ذلك دعاﷺ على القبائل التي ارتكبت هذه المجازر الشنيعة، في قنوت الصبح شهرا كاملا، فكان القنوتُ من مستحبات صلاة الصبح في مذهب الإمام مالك، وخصوصا إذا نزلت بالمسلمين مصيبة، والأفضل القنوت بما كان عمر بن الخطابﷺ يقنت به ويدعو وهو: «اللَّهُـمَّ إِنَّـا نَـسْتَعِينُكَ وَنَـسْتَغْفِرُكَ وَلاَ نَكْفُرُكَ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَخْلَعُ مَنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إِيَّـاكَ نَعْبُـد، ولَـكَ نُـصَلِّي وَنَـسْجُد، وَإِلَيْـكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ، إنَّ عَـذَابَكَ الجِـدَّ بالكُفَّـارِ مُلْحِـقٌ. اللَّهُمَّ عَذِّبِ الكَفَرَةَ الَّـذِينَ يَـصُدُّونَ عَـنْ سَـبِيلِكَ، ويُكَـذِّبُونَ رُسُـلَكَ، وَيُقَـاتِلُونَ

(1) من المصادر من نسب هذه القصة لزيد بن الدثنة أيضا، ولا يبعد أن يقع ذلك من كليهما؛ لأن محبة الرسولﷺ في قلوب كل الصحابة واحدة.

(2) – سبق تخريجه في الخطبة السابقة.

(3) – صحيح البخاري: 3/ 1031، كتاب الجهاد والسير/ باب من ينكب في سبيل الله، – صحيح مسلم: 1/ 468، كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

أَوْلِيَاءَكَ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ والْمُسْلِمِينَ والْمُسْلِمَاتِ، وأَصْلِحِ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلْ فِي قُلُوبِهِم الإِيمَانَ وَالحِكْمَةَ، وَثَبِّتْهُمْ عَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَوْزِعْهُمْ أَنْ يُوفُوا بِعَهْدِكَ الَّذِي عَاهَدْتَهُمْ عَلَيْهِ، وَانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِمْ إِلَهَ الحَقِّ وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ».

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

من هذين الحدثين المؤلمين سرية الرجيع، وسرية بئر معونة نتعلم الدروس العملية التالية:

الدرس الأول: به نزيل وهم من قد يتوهم، أن الله عز وجل غضب على المسلمين المطظهدين اليوم في أكثر من مكان؛ كلا يا عباد الله لو كان الأمر كذلك لما أصيب هؤلاء من خيرة الصحابة، فالمصيبة علامة على محبة الله للعبد، ترفع من درجاته وتمحو خطاياه، والأحاديث في ذلك كثيرة منها قول الرسولﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»[(1)].

الدرس الثاني: نتعلم منه أن المكر ضد الإسلام ليس وليد اليوم؛ بل جذوره قد تعمقت في أرضية التاريخ، بل ولد بولادة الإسلام نفسه، ويشتد هذا المكر حين يكون أبطاله من المنافقين، الذين يدعون الإسلام وهو منهم براء، الذين يحملون أسماء إسلامية وقلوبا غلفا بأغلفة الكفر، أمثال هؤلاء الذين جاءوا إلى النبيﷺ في سريتي الرجيع وبئر معونة، فادَّعوا الإسلام وليس في قلوبهم إلا الكفر والنفاق، فأحفاد هؤلاء اليوم أشد خطرا على الإسلام من الكفار؛ لأنهم يحاربون الإسلام باسم الإسلام، ونحن اليوم لا نخاف على الإسلام من أعدائه بالقدر الذي نخاف عليه من أدعيائه. فأدعياء الإسلام، دائما يتحينون الفرص ليضربوا ضربتهم القاضية المتخاذلة الجبانة، ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[(2)].

الدرس الثالث: نتعلم منه أن المسلم يجب عليه رغم المأساة أن يتشجع، متمسكا برباطة الجأش، بعيدا عن القنوط واليأس، صابرا محتسبا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[(3)]؛ فإن كان اليوم المسلم ضعيفا حسيا وماديا فلا ينبغي له أن يكون ضعيفا نفسيا ومعنويا، فها أنتم قد رأيتم شجاعة هذا الصحابي الجليل خبيب بن عدي، الذي قدم للإعدام ومعنوياته مرتفعة جدا، ما نسي الله تعالى، فتقدم أولا

---

(1) حسن، رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2396، وابن ماجه في السنن: 2/ 1338، ح: 4031، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 276، ح: 146.

(2) النساء: 142.

(3) النحل: 127.

لصلاة ركعتين وكله طمأنينة وإيمان، كما رأيتم الصحابي الجليل حرام بن ملحان الذي صرخ بأعلى صوته في وجه الضربة التي أنهت حياته قائلا: «فزت ورب الكعبة»![1] أتدرون بماذا فاز؟ إنه فاز بالشهادة التي عاش من أجلها!

الدرس الرابع: نتعلم منه أن المسلم لا ينبغي له أن ينسى الدعاء على كل حال، لا ينبغي له أن ينسى العبادة مهما كانت الظروف؛ فالنبيﷺ دعا على هؤلاء المعتدين الظالمين في قنوت الصبح شهرا كاملا، والصحابة الذين استشهدوا لم ينسوا الصلاة والدعاء وأرواحهم تفيض إلى الله تعالى، والدعاء هو مخ العبادة، وهو سلاح المؤمن. فما أحوجنا اليوم للقنوت والدعاء ونحن نرى، ما نزل بالمسلمين على يد الوحش الصهيوني في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير.

ألا فاتقوا الله عباد الله؛ وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) – صحيح البخاري: 3/ 1031، كتاب الجهاد والسير/ باب من ينكب في سبيل الله، – صحيح مسلم: 3/ 1511، كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد.

27) الخطبة [15] غزوة بني النضير(1)

الحمد لله الذي نصر المصطفىﷺ في غزوة بني النضير، وأجلى بها من المدينة اليهود ومكرهم الخطير، وأشهد أن لا إله إلا الله السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير، السراج المنير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم المصير.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن سيرة الرسولﷺ منبع سيال لا ينضب، ومدرسة عظيمة متعددة الأبحاث والشعب، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها، فهي سيرة تكشف لنا عن قرآن يمشي على وجه الأرض، وهو الرسولﷺ.

دعونا اليوم لنعود بكم مرة أخرى إلى أحضانها، نستكشف أسرارها، نصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها، نحارب بالوقوف على أحداثها جهلنا بها، نسمد لمواجهة أعدائنا الشجاعة منها، دعونا لنختار لكم غزوة من غزوات الرسولﷺ ضد اليهود، وهي غزوة بني النضير.

وبنو النضير هم: قبيلة من قبائل اليهود الثلاثة، التي استوطنت المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسولﷺ وهي: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة.

أتدرون لماذا استوطن هؤلاء اليهود المدينة؟ فهم ليسوا أصلا من الجزيرة العربية، استوطنوها لأنهم يقرءون في التوراة أن خاتم الأنبياء وأعظمهم سوف يهاجر إليها، ولكنهم يظنون أنه سوف يبعث فيهم ،ولهذا كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي المنتظر، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به! فلما أصبح النبي المنتظر منظورا بأعينهم وأبصارهم كفرت به قلوبهم وبصائرهم!

وغزوة بني النضير -يا عباد الله- وقعت في الشهر القادم ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وإنما كشفت لكم الستار عنها في أواخر صفر؛ لأن سببها مرتبط بسرية بئر معونة التي وقعت في صفر، والتي قدمنا لكم تفاصيلها في الجمعة الماضية، والتي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة.

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 26 صفر 1420هـ 11/ 6/ 1999م.

وسبب هذه الغزوة: أن النبيﷺ طلب من يهود بني النضير، أن يساعدوه بقرض حتى يدفع دية رجلين قتلهما الصحابي الجليل عمرو بن أمية الضمري خطأ، بعد ما نجا من سرية بئر معونة، ودية شخص واحد في الإسلام هي مائة ناقة.

ولعلكم تستغربون أن يطلب النبيﷺ من اليهود المساعدة! وإنما فعل ذلك لأن بينه وبينهم معاهدة الشراكة الاقتصادية والتعاون المتبادل، والاتفاق على مساعدة كل واحد منهم الآخر إذا ما احتاج لذلك، فقبلوا في البداية، ولكن قبولهم هذا إنما جعلوه طُعْما يستدرجون بها الرسولﷺ حتى يقع في الفخ الذي نصبوا له؛ لأنهم اتفقوا على اغتياله بصخرة يسقطونها على رأسه وهو جالس ينتظر المساعدة، فينتهي أمره وإسلامه، ولكن قبل أن ينفذوا خطتهم المشئومة، أخبر جبريل المصطفيﷺ بتفاصيلها، فغادر المكان قبل أن يغدروا به في عصمة الله تعالى، وأنى لهم ذلك وقد قال الله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[1].

أيها الاخوة المؤمنون؛ إن بعض العلماء اليوم يحلو لهم أن يستدلوا بهذا الاتفاق الموقع بين النبيﷺ واليهود، على جواز الاتفاق الذي وقع اليوم بين الصهاينة وبعض الدول الإسلامية، ناسين أن بين القضيتين فرقا كبيرا؛ فالنبيﷺ اتفق مع يهود لم يغتصبوا أرض المسلمين، ولم يهتكوا عرضهم، ولم يشردوا أسرهم، ولم يستعمروا أيا من مقدساتهم .

أما الخطر الصهيوني اليوم، فكيف يجوز الاتفاق معه، وهو الذي بيت أمره، وحدد هدفه، وأحكم خطته لابتلاع القدس وتهويدها، وسلخها من جلدها العربي والإسلامي، وقد أصدر قراره علنا، وتحدى وتصدى وتعدى!؟

وكيف تحلو المعاهدة معه، وجرافاته تهدم كل يوم منازل للمسلمين، ليبنوا على أنقاضها مستوطنات الغرباء؟

وكيف تحلو هذه المعاهدة وكل دلائل الواقع تشهد، على أن صراعنا مع اليهود، ليس صراع أرض وحدود، ولا صراع مواثيق وعهود، وإنما هو صراع حياة ووجود؟

وكيف يحلو الاتفاق مع الصهاينة، وقد مر بنا في هذا الأسبوع ذكرى الهزيمة النكراء؛ هزيمة سبع وستين التي ضاعت بها القدس وسينا والجولان ، تلك الذكرى التي نسيناها نحن اليوم وهي في الحقيقة لا تنسى، والأمة التي تنسى هزائمها، لا يرجى منها أن تحقق النصر على أعدائها؟

---

(1) المائدة: 67.

وكيف يحلو السلام مع الصهاينة، وقد أعلنوا الحرب ضد مقدسات المسلمين بلاآتهم الجائرة المعهودة؟ (لا لتقسيم القدس، لا لعودة اللاجئين، لا للدولة الفلسطينية...).

وكيف يحلو السلام مع الصهاينة، وكل فريق منهم يشطب على معاهدات فريق سابق، تماما كما قال الله عز وجل فيهم: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾[1]؟ ولقد ضل من ظن أن للصهاينة يوما عهدا وميثاقا!

كان الأولى بنا بدل هذا السلام الذليل أن نطلب السلام العزيز: السلام بين المسلمين أنفسهم، أن نزيل العراقيل ضد وحدة الأمة اقتصاديا وسياسيا وإعلاميا.

وهاهم الصحابة تحت قيادة النبيﷺ رفضوا كل تلك العهود، وقطعوا كل تلك الاتفاقيات، حين كشفوا أن يهود بني النضير نقضوا العهد بالاعتداء على رمز الإسلام، وأقدس مقدساته، وهو النبيﷺ، ولم يسكت الرسولﷺ بدوره على خيانة اليهود خائفا ذليلا، كما يفعل حكام المسلمين اليوم؛ بل جزاهم عليها بما يستحقون من الطرد والإجلاء، فأراهم قوة المسلمين أعزاء، فغادروا المدينة إلى غير رجعة أذلاء. وما تعاني الأمة المسلمة اليوم إلا من الخيانات الصهيونية، التي تمر دون جزاء، وتظل الأمة المجروحة ساكتة، أو لعلها صابرة، ولكن صبر انهزام غير محمود، صبر الحمير والبهائم.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الغزوة في سورة الحشر، وسماها أول الحشر فقال تعالى: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الارض، وهو العزيز الحكيم، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾[2].

صدق الله العظيم، وغفر لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

(1) البقرة: 100.
(2) الحشر: 1-4.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

تلكم غزوة بني النضير؛ فمنها نتعلم أن اليهود دائما هم اليهود. بأخلاقهم السيئة وعاداتهم القبيحة، فكأن التاريخ يعيد نفسه اليوم: فمن أخلاقهم السيئة الإنكار والجحود، فقد أنكروا نبوة المصطفىﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد قال الله فيهم: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾[1]، تماما كما يفعلون اليوم بحق الفلسطينيين التاريخي والديني في بلادهم ومنازلهم. ومن عاداتهم القبيحة نقض العهود، وقد نقضوا العهد المبرم بينهم وبين النبيﷺ، تماما كما يفعلون اليوم بالمعاهدات الملغومة المبرمة بينهم وبين العرب. ومن أخلاقهم السيئة المكر والخديعة، وقد خدعوا النبيﷺ، تماما كما فعلوا اليوم برموز الفكر والحرية والجهاد، أمثال جارودي وأبي جهاد. ومن أخلاقهم السيئة الحقد على أهل الإسلام والإيمان، وهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا بنص القرآن، تماما كما هو حالهم اليوم في محاربة المسلمين في كل مكان، فلا تكاد فتنة تنال من الأمة المسلمة إلا ووجدت من ورائها يهودي صهيوني. يقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[2].

إن انهزام الصهاينة ليس بمستحيل، وليست الصهيونية بالجيش الذي لا يقهر، والتاريخ أوثق شاهد، فاسألوا التاريخ؛ إن تاريخ اليهود دائما هكذا: في صعود وهبوط، يَظْلِمون ويُظْلَمون، فمرة يَغلِبون ومرات يُغلَبون، فكلما انتعشوا وانتفشوا وكلما طغوا وبغوا، جاءتهم الضربة من حيث لا يعلمون، ممن يسلط الله عليهم في كل جولة؛ ولا يدري إلا الله من ذا سيسلط عليهم في الجولة القادمة إلى يوم القيامة؟ تماما كما في قوله عز وجل فيهم: ﴿وإن عدتم عدنا﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾[4]، وقد كتب الله عليهم الجلاء واللجوء إلى يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾[5].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) البقرة: 146.
(2) المائدة: 82.
(3) الإسراء: 8.
(4) الأعراف: 167.
(5) الحشر: 3.

28) الخطبة [16] في شهر ربيع الأول حرمت الخمور(1)

الحمد لله الحليم الغفور، العليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، الخبير بأحوال عباده وإليه ترجع الأمور، جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وقليل من عباده الشكور. وأشهد أن لا إله إلا الله العليم بخبايا الدنيا وما فيها يدور، ومن غيرته حرم المسكرات والخمور، لأن من شربها يصير بهيمة ينهَق ويخور، قد يزني بأمه وبنته دون إحساس ولا شعور. وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله بالهدى والنور، فحرم المسكرات لما فيها من الهلاك والثبور، ولأنها أم الخبائث ومفتاح الشرور. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أهل النظافة والطَّهور، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم النشور.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته...

ها نحن لا زلنا في شهر ربيع الأول، وقد قدمنا لكم في بدايته أنه شهر تزاحمت فيه الذكريات المتعلقة بسيرة المصطفى ﷺ؛ ففيه ولد ﷺ، وفيه بدأ الوحي بالرؤيا المنامية، وفيه هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة، وفيه نزلت الآية التي حرمت الخمور، وفيه توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ، وفيه توفي ﷺ فالتحق بالرفيق الأعلى.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن حدث من هذه الأحداث، وهو تحريم الخمور.

أيها الإخوة المؤمنون؛ حين بُعث النبي ﷺ وجد العرب قد انتشر فيهم الخمر انتشار واسع النطاق، وأدمنوا عليها إدمانا ثابت القدم الساق، فهي عندهم مفرج الكروب وموسع الآفاق، وملهم الشعر في المنتديات بين الأصحاب والرفاق؛ فكان من الصعب انتشالهم من ذلك مرة واحدة، ولذلك حرمه الإسلام بالتدريج؛

وأول خطوة حارب بها الرسول ﷺ الخمر الامتناع الشخصي عن تناولها؛ بل إنه ﷺ لم يشرب الخمر قط قبل البعثة وبعدها، وهو القدرة الحسنة لكل مسلم، لو لم يكن في الخمور إلا هذا لكان كافيا للمؤمن الذي يترسم خطواته ﷺ في الابتعاد عنها، والوقوف على خطرها، والاطلاع على ضررها، لأن التعليم بالأحوال مقدم على التعليم بالأقوال؛ بل الأحوال أشد تأثيرا من الأقوال، وفي هذا قيل: «حال رجل في ألف رجل أنفع من قول ألف رجل في رجل».

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 25 ربيع الأول 1431 هـ 13 / 2 / 2010 م.

ثم نزل أولا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، فعَطَفَ الرزقَ الحسنَ على السكر إشارةً إلى أن السكر شيء، والرزق الحسن شيء آخر؛ لأن العطف في اللغة يقتضي المغايرة.

ثم نزل ثانيا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[2]؛ فقارن بين منافع الخمر مما يشعر به شاربها من طرب ونشوة، أو مما يحققه بائعها من ربح وثروة، وبين خطرها وضرها الأكبر من نفعها، من أمراض في الجسم، وفساد في العقل، وضياع للمال، وإثارة لبواعث الفجور والعصيان.

ثم نزل ثالثا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[3]، فكان الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها فيها إلى وقت الصلاة، ومن المعلوم أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، لا يجوز إخراجها عن وقتها بحال، وأوقاتها متقاربة، وهي موزعة على مدار النهار، وبينها فترات لا تكفي للشراب الذي يرضي المدمنين، ثم الإفاقة حتى يعلموا في الصلاة ما يقولون، فلم يبق لمن يشرب الخمر إلا الصبوح وهو شراب الصباح بعد صلاة الصبح حتى يستفيق لصلاة الظهر، أو الغبوق وهو شراب المساء بعد صلاة العشاء حتى يستفيق لصلاة الفجر، وبهذا قطع الإسلام عادة الشراب، وكسر الإدمان.

ثم نزل أخيرا -في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة والنبيﷺ يحاصر مستوطنة بني النضير- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[4]. فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر في كل الأوقات، بسبعة أمور محرمات، واحدة تكفي للابتعاد عنها: 1) كونها رجسا. 2) كونها من عمل الشيطان. 3) كون اجتنابها واجبا. 4) كونها توقع في العداوة. 5) كونها توقع في البغضاء. 6) كونها تصد عن ذكر الله. 7) كونها تصد عن الصلاة.

وأكد الرسولﷺ هذا التحريم؛ فحرم قليلها وكثيرها، فقالﷺ فيما روى الشيخان: «كل شراب أسكر فهو حرام»[5] وقال فيما روى والترمذي: «ما أسكر

(1) النحل: 67.
(2) البقرة: 219.
(3) النساء: 43.
(4) المائدة: 90-91.
(5) - صحيح البخاري: 1/ 95، كتاب الوضوء / باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر، - صحيح مسلم: 3/ 1585، كتاب الأشربة/ باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

كثيره فقليله حرام»[1]؛ وذلك لأن الخمور تُحوِّل الإنسان إلى بهيمة عجماء، قد فقد عقله وغاب وعيه، لا يعرف في معاملاته أدنى اللباقة، ويفقد كل معاني اللياقة، تصدر منه الأعمال الغريبة، والتصرفات المريبة، متلبس بكثير من القذارة، بعيد عن كل مقومات الحضارة؛ فقد يتبول ويتغوط في ثوبه، وقد يسب أباه وأمه، وقد يزني ببنته وأخته، وقد يشتم أبناءه وأعز أصدقاءه، فلا فرق بينه وبين الحيوان؛ بل إنه حيوان مفترس في صورة إنسان، قد يخرب بيته وأسرته، وقد يضيع وظيفته وثروته ، وقد يقضي على صحته وحياته، وقد يجد نفسه في دار العجزة أو مستشفى المجانين.

أيها الإخوة المؤمنون؛ من تحريم الخمور نتعلم الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: إنما كان هذا التدرج في تحريم الخمر ليعلمنا الإسلام أن «ما لا يدرك كله لا يترك جله»، وليعلمنا كيف ننتشل مجتمعاتنا شيئا فشيئا من الفتن التي تجدرت وصعب علينا استئصالها، ومن المصائب التي ضربت بأطنابها ولم نتمكن من إزالتها، وما أكثرها! فقد دخلت شتى المجالات؛ مثل الربا، والتدخين، والتبرج، والرشوة... وهلم جرا.

الفائدة الثانية: إنما كانت الخمور مُوَلدا للعداوة والبغضاء، وصدا عن ذكر الله وعن الصلاة، لأنها أم الخبائث، ومفتاح الشرور؛ بل إن شرها مقرون في كثير من الأحاديث بأفظع الخبائث وأقبح الشرور، وهو جريمة الزنا، وفي أقبح صوره وأفظع خبثه؛ يقول الرسولﷺ فيما روى الطبراني وهو صحيح: «الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، من شربها وقع (أي زنى) على أمه وخالته وعمته»[2] وفي رواية: «الخمر أم الخبائث...»، وفي رواية الحاكم: «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر»[3]، وقالﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يشرب الخمر ويفشو الزنا».

وكما خسر المدمن على الخمر الدنيا لأنه يعيش فيها كبهيمة، فقد خسر أيضا الآخرة لأن الجنة عليه محرمة، روى الإمام أحمد عن ابن عمر أن الرسولﷺ قال: «ثلاثة قد حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر والعاق والديوث الذي يقر في أهله الخُبْث»[4].

---

(1) صحيح، رواه الترمذي في السنن: 4/ 292، ح: 1865، وصححه الألباني في: - إرواء الغليل: 8/ 42، ح: 2375، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 970، ح: 5530.

(2) حسن، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 3/ 276، ح: 3134، والكبير: 11/ 164، ح: 11372، قال الهيثمي: "وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف"، مجمع الزوائد: 5/ 67، وحسنه الألباني في: - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 631، ح: 3345، - السلسلة الصحيحة: 4/ 468-469، ح: 1853.

(3) المستدرك على الصحيحين: 4/ 162، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 6/ 707، ح: 2798.

(4) صحيح، رواه أحمد في المسند:2/ 128، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:1/ 585،ح: 3046.

وكما ارتبط شاربها بالزنا في الدنيا، فإنه يعذب في جهنم بالزنا أيضا؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما يقال، قال الرسولﷺ فيما روى أحمد والحاكم وصححه: «من مات مدمنا للخمر سقاه الله عز وجل من نهر الغُوطَة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات، يُؤْذِي أهلَ النار ريحُ فروجهن»[1].

الفائدة الثالثة: بما أن الخمور رجس من عمل الشيطان فإنها مع الإيمان لا يجتمعان في قلب شخص واحد، وفي ذلك قال النبيﷺ فيما روى الحاكم: «من زنى أو شرب الخمر، نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه»[2]، وقالﷺ فيما روى البخاري ومسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[3]، وقالﷺ فيما روى الطبراني: «...من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشربْ الخمر...»[4].

ومن أجل فقدان الإيمان كانت عبادات شاربها مردودةً عليه وغيرَ مقبولة، قالﷺ: «الخمر أم الخبائث، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوما، فإن مات وهي في بطنه، مات ميتة جاهلية»[5].

الفائدة الرابعة: بما أن الخمور أداة في يد إبليس الملعون، يَحُول بها بين الإنسان وأداء واجباته نحو ربه، ونحو أسرته، ونحو نفسه فهي ملعونة أيضا، وملعون أيضا كل من له صلة بها بأي شكل من الأشكال؛ يقول النبيﷺ فيما روى أحمد: «إن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وشاربها، وآكل ثمنها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، ومستقيها»[6]. واللعن هو: الطرد من رحمة الله؛ فهل يرضى مسلم على وجه الأرض أن يكون في الدنيا ملعونا وفي الآخرة معذبا؟ وهل يرضى أن يكون من زمرة الشيطان وهو أول من لعن وطرد من رحمة الله؟

وبذلك أقامﷺ حصارا خانقا على الخمور، فأوجب قطع جميع العلاقات بها؛ بل منعﷺ حتى مجرد الجلوس على مائدة تدار فيها كؤوسها على أصحابها، فقالﷺ فيما

(1) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 4/ 399، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك: 4/ 163، ح: 7234، وضعفه الألباني بأبي حريز عبد الله بن الحسين الكوفي السجستاني في الضعيفة: 3/ 658، ح: 1463.

(2) رواه الحاكم في المستدرك 1/ 73، ح: 57، وضعفه الألباني في الضعيفة: 3/ 434-436، ح: 1274.

(3) – صحيح البخاري: 2/ 875، كتاب المظالم/ باب النهبى بغير إذن صاحبه، – صحيح مسلم: 1/ 76، كتاب الإيمان/ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله.

(4) حسن، رواه الطبراني في الكبير:11/ 191، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب:1/ 41،ح:172.

(5) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 81، ح: 3667، وحسنه الألباني في: – صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 631، ح: 3344، – السلسلة الصحيحة: 4/ 469، ح: 1854.

(6) صحيح، رواه أحمد في المسند: 1/ 316، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 494، ح: 839.

روى الترمذي وأحمد: «...من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلسْ على مائدة يُشرَبُ عليها الخمر...»[1]. وبعض الغافلين المغفلين يجلسون على مائدة الخمور مجاملة، أو حياء من الأصدقاء والرفقاء، ألا بئست هذه الصداقة! ألا بئس الرفقاء الذين يجرونك إلى معصية الله! فمجرد جلوس المسلم على مائدة الخمر جريمة، فكيف ببائعها وشاربها وحاملها؟

الفائدة الخامسة: بما أن الخمور اليوم لا يشربها أغلب المسلمين، فإن النبيﷺ قد نجح نجاحا كبيرا في تحريمها ومحاربتها، بينما فشل كل من حاول ذلك في العالم عبر التاريخ، ومن ذلك دولة أمريكا في بداية القرن الماضي؛ فقد أصدرت قانونا بمنع الخمور سنة 1919 ميلادية، واستمر تطبيقه مدة أربعة عشر سنة، وجندت لذلك كل إمكانياتها الممكنة الجبارة، من قوة الشرطة بالتتبع والمراقبة، وقوة القضاء بإصدار الأحكام، منها ما وصل إلى حد الإعدام، وقوة الطب بطبع الآلاف من النشرات الطبية التي تبين أضرار الخمور، ورغم كل ذلك فشلت في المنع، وانهزمت في المواجهة، بحيث انتشرت الخمور في ظل قانون المنع وبكيفية سرية أكثر من انتشارها في ظل السماح، الشيء الذي اضطرها لسحب القانون والسماح للخمور بالتداول، بينما نجح الرسولﷺ في منعها إلى اليوم ببضع آيات من القرآن الكريم؛ فبعد نزولها امتنع الصحابةرضي الله عنهم عنها فورا، مرددين كلمتهم المشهورة: «انتهينا يا رب»، فاستمر هذا الامتناع إلى اليوم.

وهذا لا يعني أن شرب الخمر لا يوجد في المسلمين اليوم؛ بل هو موجود، ولكن الغالبة الساحقة والسواد الأعظم منهم لا يتناولون الخمور، ومن يتعاطاها هم القلة القليلة، والدليل على ذلك أنتم اليوم رواد المساجد وعمار بيوت الله؛ ألستم قد امتنعتم عن الخمور لأنها حرمها الإسلام؟ فأنتم أكثر من شرذمة بليت بشربها، وأنتم أكبر دليل على نجاح الرسولﷺ فيما فشلت فيه أمريكا من منعها.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

(1) حسن، رواه أحمد من حديث عمر بن الخطاب في المسند 3/ 339، والترمذي من حديث جابر في السنن: 5/ 113، ح: 2801، واعتبره الألباني صحيحا لغيره في صحيح الترغيب والترهيب: 1/ 40، ح: 167.

الحمد لله رب العالمين....

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

إذا كان شارب الخمر ملعونا مرة واحدة، فإن بائع الخمور ملعون مئات المرات، لأن بائعها شريك لكل من شربها في اللعنة، ولأنه عدو الله والرسول، وعدو الأمة والمجتمع، يخرب العقول، ويدمر النفوس، يتسبب في قتل الأرواح البريئة، فَيُيَتِّم الأطفال، ويُرْمِل النساء، ويخرب اقتصاد الأمة، كل هذا يفعله بائع الخمور، في الحانات والمقاهي والفنادق، فهو يكتسب مالا حراما على كل حال، والرسولﷺ قال فيما روى أبو داوود: «إن الله حرم الخمر وثمنها»[1] وفيما روى مالك في الموطأ: «... إن الذي حرم شربها حرم بيعها»[2].

وإن من الغريب أن ترى بعض من يبيعون الخمور من الذين يساهمون في بناء المساجد، ومن الذين يحجون ويعتمرون كل سنة، ويكرمون حملة القرآن كل أسبوع، فيحسبون أنهم يحسنون صنعا، قد امتلأت بطونهم حراما ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به، لا يقبل الله منهم صرفا ولا عدلا، إنهم يبيعون الخمور، حتى إذا جاء موسم الحج حجوا واعتمروا، وإذا جاء موسم الزكاة يكونون أول المتصدقين، ألا بئس ما صنعوا! لقد خابوا وخسروا، أيحجون بيت الله الحرام وبطونهم مليئة بالحرام؟ وهل يقبل الله الصدقة من الحرام؟ فهم في الحقيقة فاسقون، حجهم مأزور غير مأجور، وصلاتهم مردودة عليهم، وزكاتهم مدحوضة في النار بهم، لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا، وفي أمثالهم يقول الله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾[3].

وإن من الغريب أيضا أن يدعي بعض من لا دين لهم ولا خلاق، أن بيع الخمور يساهم في بناء الاقتصاد، ولكن الحقيقةَ في الواقع تكذبه؛ فالخمر يدمر الأخلاق، ويخرب الاقتصاد، والدليل على ذلك كثرة الحوادث بسببها، وارتفاع عدد ضحاياها، وإحصائيات رجال الأمن تقول: إن السبب الأول في كثرة الحوادث المؤلمة، في السير وفي غيره هو السكر، فهل بهذا يبنى اقتصاد الأمة؟

---

(1) رواه أبو داود في السنن:3/ 279،ح:3485، وصححه الألباني في صحيح الترغيب:2/ 297،ح:2358.

(2) الموطأ: 2/ 846، كتاب الأشربة/ باب جامع تحريم الخمر.

(3) النور: 19.

ومن فنادق الخمور ومقاهي السكر، يتخرج هؤلاء المجرمون، الذين امتلأت بهم السجون، في جرائم ارتكبوها بسبب الخمور، من حوادث السير وقتل رهيب مع سبق الإصرار والترصد، وترويع الآمنين، واعتراض المارين في الشوارع ليلا ونهارا، والتعدي على البيوت، وقطع الجيوب للسرقة في الأسواق والحافلات، والسطو على أجهزة السيارات، واغتصاب الفتيات، وحتى بناتهم والعياذ بالله!!! فهل بهذا يبنى الاقتصاد؟

إن الذين يبيعون الخمور -يا عباد الله- لا يساهمون بالاقتصاد بشيء؛ بل هم في الحقيقة شركاء في كل جريمة سببها الخمور؛ بل هم الذين يمولونها بأموالهم في الفنادق، ويهيئون أبطالها بخمورهم في المقاهي والملاهي، فلا بد من تجفيف منابع الخمور، فلو أنهم أزالوا واستأصلوا وأغلقوا وجففوا ثلاثةَ مواقع في المجتمع؛ حانات الخمور، ومقاهي الميسر والقمار، ومستنقعات دور الدعارة، لكنا قد حاربنا حوادث الشر كله؛ لأن أوكار الفساد بكل أشكاله هي هذا الثالوث الخبيث، هي هذا المثلث المتلازم الخطير (الدعارة، والخمور، والقمار)، فلا يكاد أحدها ينزل بمكان إلا ووجدت بجانبه الآخَرَيْن، فهذا المثلث هو البنية التحتية والفوقية لكل فسق وفساد، ولا يكاد رجال الأمن والمباحث يحققون في جريمة مَّا، إلا ووجدوا أن لها صلة بهذا المثلث، إلا ووجدوا بذورها وأصلها من هذا المثلث، ولا يكاد قسم المستعجلات في المستشفيات تستقبل بالليل إلا ضحايا حوادث هذا المثلث.

وإذا رأيتم -يا عباد الله- أن الخمور تباع وتشرب علنا دون خوف ولا وجل، وأن الزنا قد فشا وظهر دون حرج ولا خجل، فانتظروا الساعة، فتربصوا نهاية الدنيا، فقد روى البخاري ومسلم وأحمد أن الرسولﷺ قال: «إن من أشراط الساعة، أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُشرَب الخمر، ويفشو الزنا، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأةً قيِّمٌ واحد»[1].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) - صحيح البخاري: 1/ 43، كتاب العلم/ باب رفع العلم وظهور الجهل، - صحيح مسلم: 4/ 2056، كتاب العلم/ باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل، - مسند أحمد: 3/ 176.

الفصل الرابع: خطب السيرة بين الأحزاب وفتح مكة
وفيه إحدى عشرة خطبة

29) الخطبة [1] غزوة الأحزاب بداية اتخاذ المبادرة[1]

الحمد لله الذي علق النتائج بالأسباب، وهزم وحده سبحانه وتعالى الأوباش والأحزاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرباب، سبحانه وتعالى نصر بشرعه من تمسك به من أولي الألباب، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الأواب، ما نصره إلا من كان بجانبه من الأحباب، وما أعرض عن نصرته إلا المنافقون مسندة الأخشاب، صلى الله وسلم عليه وعلى الآل والأصحاب، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الأيام والأحقاب

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته

ها نحن لا زلنا في شهر شوال، ذلك الشهر الذي سن لنا فيه الرسولﷺ صيام ستة أيام، إشارة إلى أن عبادة الصيام ليست خاصة برمضان، وإيذانا بأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

وشوال شهر استقبل في سيرة الرسولﷺ أربع غزوات كبرى وهي: غزوة بني قينقاع ضد اليهود في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة أحد ضد كفار مكة في السنة الثالثة، وغزوة الخندق ضد كفار مكة أيضا في السنة الرابعة وقيل الخامسة، وغزوة حنين ضد كفار الطائف في السنة الثامنة.

وقد منا لكم في الجمعة الماضية وقفات في غزوة بني قينقاع، تلك الغزوة التي وقعت في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، تلك الغزوة التي أجلى بها النبيﷺ مستوطنة من مستوطنات اليهود المدنسة من المدينة المقدسة، وقد كتب الله عليهم الجلاء واللجوء إلى يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾[2]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[3].

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 17 شوال 1429هـ 17/ 10/ 2008م.
(2) الحشر: 3.
(3) الأعراف: 167.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن أحداث غزوة الخندق التي سماها القرآن الكريم بغزوة الأحزاب؛ لأن أعداء الإسلام تجمعوا بمختلف أشكالهم وأوباشهم وأحزابهم لمهاجمة المدينة، هذه الأحزاب التي تشكلت من جميع قبائل العرب المشركة، إضافة إلى قبائل اليهود الحاقدة؛ فتشكل من ذلك عشرة آلاف مقاتل، فاتفق الجميع على مهاجمة المدينة وقتل كل من ينطق: لا إله إلا الله محمد رسول اللهﷺ، والمسلمون يومئذ لم يتجاوز عددهم ألفا وخمسمائة مقاتل.

وعندما علم النبيﷺ بواسطة مخابراته بهذا الخبر عقد على الفور مجلسا للشورى، وفي هذا نتعلم أمرين مهمين:

الأول: أن المخابرات سنة من سنن الرسولﷺ، ولا يمكن لأي دولة أن تستقيم في مسيرتها وتستقيل في مخطاطاتها، إلا بجهاز مخابرت يكشف لها عن قوة أعدائها وكيد من يكيد للنيل منها.

الثاني: أن الشورى أمر أخذ به النبيﷺ في كل أموره؛ بحيث لا يقدم على أمر إلا بعد أخذ آراء من معه، وقد قال تعالى له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1] وقال سبحانه في أصحابه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2].

ولما استشارﷺ أصحابه في هذه الغزوة أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، ولذلك سميت بغزوة الخندق، فخرج رسول اللهﷺ على الفور، فحدّد حفر الخندق من ناحية جبل أُحد إلى جبل سلع، أي: ما يقارب ثلاث كيلومترات ونصف، أما الجهات الأخرى من المدينة فقد كانت مشبكة بالنخيل والبنيان، ولا يمكن لأي جيش أن يقتحم المدينة إلا من هذه الجهة التي خندقها النبيﷺ، وخطّ موضع الحفر بخط على الأرض، فوزعه على الصحابة، لكل عشرة منهم أربعون ذراعا يحفرونها، -أي عشرون مترا- فبدأﷺ العمل بنفسه، وكانﷺ يحفر وينقل التراب من الحفرة، حتى عرقﷺ وتعب، وكان يردد:

لا عيش إلا عيش الآخـــرة   اللّهم اغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحـــن الذيـــن بايعـوا محمدا   عـلى الجهاد ما بقيـــــنا أبدا[3]

---

(1) آل عمران: 159.

(2) الشورى: 38.

(3) - صحيح البخاري: 3/ 1043، كتاب الجهاد والسير/ باب التحريض على القتال، - صحيح مسلم: 3/ 1432، كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة الأحزاب.

وكانت عملية الحفر في رمضان، والصحابة في صيام؛ بل لم يجدوا من الفطور والسحور إلا التمر والماء، فجاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ لأبيها بكسرة خبز فقال: «هذا أول طعام أكله أبوك مند ثلاثة أيام»[1].

وبينما المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول شيئا، وهم في مسابقة مع الزمان، فالعدو قادم، قد يفاجئهم بعداوته وعتادته وعدده في أي لحظة، فاستنجدوا بالنبي ﷺ، وقد كانوا كلما استعصى عليهم أمر فزعوا إليه ﷺ، فجاء ﷺ بمعجزاته ونبوءاته خير منجد، ثم أخذ ﷺ المعول فتأخر عنه الجميع، فقال: بسم الله، فضرب ضربة تلألأت نورا حتى رأى الصحابة من خلاله قصور دولة الروم بالشام، ثم ضرب أُخرى فكانت كذلك حتى رأوا من خلالها قصور دولة الفرس بالمدائن بالعراق، ثم ضرب أُخرى فكانت كذلك حتى رأوا من خلالها قصور اليمن؛ فقال ﷺ أما إنه سيفتح الله عليكم هذه المواطن كلها، ثم تفتت الجبل كأنه كدية من رمل[2]، فصدَّق بذلك المؤمنون، وسجل القرآن الكريم ذلك عنهم إذ قال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[3] أما المنافقون فقالوا في سخرية واستهزاء: لا يستطع أحدنا أن يسيطر على نفسه، ومحمد يعدنا بالسيطرة على أقاصي الأرض البعيدة! فاستنكر القرآن ذلك منهم إذ قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[4].

وكانوا يتملصون من مسؤوليتهم في عملية الحفر، ويقدمون الأعذار الزائفة متسللين لواذا من غير استئذان، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[5]، وهذه عادة المنافقين على مر الأزمان؛ الكذب والخيانة والغدر والتملص.

---

(1) لم أجد دليلا على أن هذا وقع يوم الخندق، وهو حديث ضعيف، رواه أحمد في المسند: 3/ 213، والطبراني في المعجم الكبير: 1/ 258، ح: 750، وضعفه الألباني في: - ضعيف الترغيب والترهيب: 2/ 174، ح: 1899، - السلسلة الضعيفة: 10/ 480-482، ح: 4873.

(2) حسن، رواه أحمد في المسند: 4/ 303، والنسائي في السنن الكبرى: 5/ 269، ح: 8858، وقد حسَّن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري: 7/ 397.

(3) الأحزاب: 22.

(4) الأحزاب: 12.

(5) الأحزاب: 13.

وأثناء عملية الحفر اشتد الجوع بالنبيﷺ حتى ربط على بطنه أحجارا، فعلم بذلك جابر بن عبد الله فاشتد مسرعا لزوجته، يأمرها بإعداد ما لديها من الطعام، وتأمره بدورها بدعوة النبيﷺ وحده؛ لأن الطعام قليل، ما هو إلا عبارة عن شاة صغيرة مع قليل من الخبز، فجاء جابرٌ رسولَ اللهﷺ فدعاه للطعام، فقام رسول اللهﷺ على شفير الخندق ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكانوا نحو ألف رجل، فخرجوا كلّهم! فلما رأى ذلك أسرع إلى زوجته وقال لها: قد -والله- أتاك رسول اللهﷺ بما لا قبل لكِ به. فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟ قال: نعم. قالت: هو أعلم بما أتى. فدخلﷺ فنظر في القدر، ثم نظر في التنور، ثم دعى بقصعة فثرَّد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل عليّ عشرة عشرة...، فأكلوا كلهم حتى نهلوا أي شبعوا، وما يرى في القصعة إلا آثار أصابعهم، وبقي -والله- لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً[1].

وفي ظل هذه المعجزات المتوالية استمرت عملية الحفر ما يقارب أربعا وعشرين يوما؛ حتى كان طوله حوالي ثلاث كيلو مترا ونصف، وعرضه حوالي مترين، وعمقه من ثلاثة أمتار إلى خمسة أمتار، وكان تمامه قبل قدوم العدو بثلاثة أيام، فلما جاءت الأحزاب لم يستطيعوا اقتحام الخندق لطوله وعَرضه وعمقه، فكانت المناوشة بين الجيشين خمسة وعشرين يوما،

وفي هذا الظرف الصعب خان المستوطنون من يهود بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبيﷺ وهم داخل المدينة، فساعدوا الغزاة من المشركين ظنا منهم أن الإسلام قد انتهى، فاشتد ذلك على المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[2]، حتى فاوض النبيﷺ قبيلة غطفان بأن يعطيها ثلث ثمار المدينة مقابل رجوعهم، قصد بذلك شق صفوف المشركين، فرفض الأنصار ذلك بقوة قائلين: لم نرض أن يأخذوها منا ونحن مشركون؛ فكيف نرضى به ونحن في الإسلام!؟[3]

(1) صحيح البخاري: 4/ 1505، كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق.
(2) الأحزاب: 10-11.
(3) حسن، رواه البزار في مسنده: 14/ 337، ح: 8017، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: 6/ 133.

واستمر الحال هكذا يبادل الجيشان المناوشات أربعا وعشرين يوما، حتى بعث الله تعالى لنصر النبيﷺ جنودا لا تخطر في بال الإنسان ولا تخضع للمقاييس العسكرية تقودها الملائكة بقيادة جبريلعليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1]:

أولا: نصره الله تعالى بعمته صفية بنت عبد المطلب، حين أرسل يهود بني قريظة واحدا منهم يستكشف الأمر ليهاجموا المدينة من الداخل حيث الأطفال والنساء، فخرجت إليه عمة النبيﷺ صفية فاستغفلته حتى قتلته بخشبة، فظن اليهود أن بالمدينة من يحرسها[2]، وبذلك سجلت لنفسها في التاريخ: أنها المرأة التي أنقدت وحدها جيش الخندق من الهلاك، فحمت بذلك المدينة من الداخل.

ثانيا: حين خرج قائد قبيلة غطفان واسمه عمرو بن عبد ودٍّ للمبارزة، فبارزه علي بن أبي طالب فقتله، فانسحبت بذلك قبيلة غطفان حين قتل قائدهم.

ثالثا: لعب رجل واحد -أسلم أخيرا وكتم إسلامه- دورا كبيرا في هزيمة الأحزاب، واسمه نعيم بن مسعود حيث جاء للنبيﷺ فقال لهﷺ: «اذهب فخذل عنا فإن الحرب خدعة»، فأتى بني قريظة فأقنعهم بعدم التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يفروا ويتروكوهم يواجهون مصيرهم وحدهم مع من لا قبل لهم به من المسلمين، ثم أتى قريشا فأخبرهم بأن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم اتفقوا سرا مع النبيﷺ على أن يختطفوا عددا من أشراف قريش ليقتلهم دليلا على ندمهم، وبهذه المكيدة من نعيمرضي الله عنه تشتت شملهم، وتمزق جمعهم[3].

رابعا: أرسل الله عليهم عواصف من الريح الهوجاء والمطر الشديد، في ليلة مظلمة فأقلع مخيماتهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن نادى بالرحيل، فانسحبوا إلى بلدانهم تاركين وراءهم تلك المستوطنة اليهوية الخائنة لتأخذ ما تستحق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾[4].

---

(1) التوبة: 40.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 187.
(3)السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 188.
(4) الأحزاب: 9.

وحينما انهزمت هذه الجيوش أعلنها النبيﷺ نقطة تحول في مسار الجهاد واعتبرها بداية اتخاذ المبادرة، فقالﷺ فيما روى البخاري: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا؛ نحن نسير إليهم»[1]، فكان النبيﷺ بعد غزوة الأحزاب يبادر بالهجوم قبل أن يهاجم، وبذلك دشن المرحلة الرابعة من المراحل التي مرت بها دعوتهﷺ؛ وهي:

1) الدعوة سرا بدون قتال، استمرت ثلاثة سنوات.

2) الدعوة جهرا بدون قتال، استمرت عشر سنوات إلى الهجرة.

3) الدعوة جهرا مع قتال المعتدين والظالمين، استمرت إلى غزوة الأحزاب.

4) الدعوة جهرا مع قتال كل من يقف في سبيل الإسلام، استمرت إلى وفاتهﷺ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

(1) صحيح البخاري: 4/ 1508، كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

بعد انتهاء غزوة الأحزاب، وانهزام المشركين هاربين، رجع الرسولﷺ إلى بيته مستعدا لنزع لامته وسلاحه، وهنا يحضر جبريل على الفور وقت الظهر قائلا: ما ذا تفعل؟ «إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة»(1)، وذلك لأنهم خانوا العهد، ونقضوا الاتفاق في أحلك المواقف والصحابة محاصرون في الخندق، لولا شجاعة عمة النبيﷺ صفية لربما انتهى الإسلام بخيانتهم، ولا ينبغي أن يبقوا بعد هذا في المدينة بجوار المسلمين، فهم يمثلوا بالنسبة للمسلمين الجار المزعج، يجب أن يلتحقوا بمن سبقهم من يهود مستوطنتي بني قينقاع وبني النضير، ولا يجوز التخلي عن السلاح والملائكة ما زالوا في الميدان.

وهنا خرج النبيﷺ، فأمر بلالاً، فأذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»(2)، فبادر الصحابة بالخروج، ووصل جلهم مستوطنة بني قريظة في الوقت المحدد؛ إلا أن بعضهم حانت صلاة العصر وهم في الطريق؛ فأخذت طائفة منهم بفحوى النص، فصلوا مؤولين ذلك بأنهﷺ إنما قصد سرعة الوصول، لا إخراج الصلاة عن وقتها، وتمسكت طائفة أخرى بظاهر النص، فأخرت الصلاةَ حتى صلوها في بني قريظة بعد أن غابت الشمس؛ فذُكِروا لرسول اللهﷺ من عجل الصلاة ومن أخرها، فلم يعنف أي واحدة من الطائفتين(3).

ومن هنا نتعلم أن الخلاف في فهم النصوص جائز لا حرج فيه؛ بل هو رحمة جعلت الفقه الإسلامي مرنا ومتوازنا ومتجددا وصالحا لكل زمان ومكان، بشرط أن يكون الخلاف متسما بآدبه، لا متصفا بعذابه، وعذابه هو النزاع والخصام وتبادل الاتهامات المجانية بالضلال والتبديع كما هو حالنا اليوم، وقد كان الصحابة يخالف بعضهم بعضا، فيقولون: أثناء المناقشة: «رحم الله فلانا»، ثم يشرعون في الرد عليه.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 192، وأصله من صحيح البخاري: 3/ 1035 كتاب الجهاد والسير/ باب الغسل بعد الحرب والغبار.

(2) السيرة النبوية لابن هشام: 4/ 192، وأصله من صحيح البخاري: 4/ 1510، كتاب المغازي/ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.

(3) صحيح البخاري: 1/ 321، كتاب أبواب صلاة الخوف/ باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء.

والرسولﷺ يقول: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا»(1).

ثم حاصر رسول اللهﷺ بجيوشه مستوطنة بني قريظة، وأرسل إليهم الصحابي الجليل أبا لبابة، ليفاوضهم على الاستسلام دون قيد أو شرط، لما له معهم من علاقة قرابة وأسرة، وعلاقة مال وتجارة. ولكنهﷺ في لحظة ضعف، وتحت ضغط روابط القرابة والمال، كشف لهم عن سر رسول اللهﷺ وهدفه، فلما تبين له أن ما فعل هو خيانة لله ورسوله، ندم أشد الندم، فربط نفسه بسارية في المسجد النبوي لازالت إلى الآن تسمى بسارية التوبة أو سارية أبي لبابة، وحلف ألا يفك أحد وثاقه حتى يتوب الله عليه، فنزلت هذه الآية الكريمة توبيخا له على خيانته لله ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(2)،(3).

واستمر الحصار حتى استسلمت المستوطنة الخائنة، فانتقم الله منهم؛ إذ حكم عليهم سعد بن معاذ، فقُتل منهم من قُتل، وأسر من أسر،(4) وبذلك استراحت المدينة من كيد اليهود ومستوطناتهم إلى الأبد ولله الحمد، وهو سبحانه المسؤول أن يعجل بإجلاء المستوطنات الصهيونية عن القدس وأكنافها، كما أجلاهم عن المدينة وحرمها.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير: 22/ 222، والدارقطني في السنن: 4/ 184، وصحح الهيثمي سند رواية الطبراني في مجمع الزوائد: 1/ 171، وحسَّن رواية الدارقطني النووي في الأربعين الحديث الثلاثون، وابن رجب في جامع العلوم والحكم: 1/ 275، وضعفها الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 69، ح: 197.
(2) الأنفال: 27.
(3) سنن سعيد بن منصور: 5/ 204.
(4) – صحيح البخاري: 3/ 1384، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب سعد بن معاذ ﷺ، – صحيح مسلم: 3/ 1388، كتاب الجهاد والسير/ باب جواز قتال من نقض العهد.

30) الخطبة [2] وقفات في غزوة ذات الرقاع[1]

الحمد لله الذي جعل سيرة المصطفىﷺ لكل خير منبعا ومصدرا، وجعل الإقتداء به لكل عسير ميسرا، أحمده سبحانه حمدا بالشكر الجليل معطرا، وأشهد أن لا إله إلا الله فرض الصلاة على عباده فرضا للذنوب مكفرا، فكانت على المؤمنين كتابا موقوتا بالشرع مقدرا، وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله إلى الناس فبشر وأنذر، فجاء بدين هو بإسعاد الإنسان أحرى وأجدر، فأنذر من عصاه بعذاب أشد وأخطر، وبشر من أطاعه بجزاء أعظم وأوفر، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله جهادا أجل وأكبر، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى أن يلقى الناس البعث والمحشر.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

دعونا اليوم نرجع بكم إلى سيرة الرسولﷺ، نستطلع أسرارها، نستكشف مكامنها، دعونا اليوم نطل بكم من خلال هذا الشهر شهر ربيع الأخير الرابع من السنة الهجرية، على غزوة قادها النبيﷺ وقعت في هذا الشهر، من السنة الرابعة من الهجرة على الراجح، ألا وهي: غزوة ذات الرقاع.

وقد التزمنا أن نقف بكم في كل شهر عند الأحداث التي وقعت فيه من السيرة العطرة، فوقفنا بكم في شهر صفر عند سرية الرجيع، وسرية بئر معونة، وغزوة بني النضير، وفي شهر ربيع الأول وقفنا بكم عند ولادة المصطفىﷺ، وطفولته، وشبابه.

ذلكم -أيها الإخوة في الله- حتى نضرب عصفورين بحجر واحد كما يقال.

أولا: حتى يرتبط الناس بالشهور الهجرية الإسلامية التي جهلها الكثير منا، وقد ربط الله بها عباداتنا من حج وزكاة، وعدة وصيام.

ثانيا: حتى يرتبط الناس بسيرة المصطفىﷺ التي تعد بمثابة المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم؛ بل هي بمثابة المذكرة التطبيقية للقرآن، أو قل إن شئت: هي القرآن العملي، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[2]. ورغم ذلك فقد جهلنا من هذه السيرة العطرة الكثير، قد جهلنا من هذا القرآن العملي الكثير، والدليل على ذلك هو غزوة ذات الرقاع نفسها!

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 23 ربيع الأخير 1420 هـ 6/ 8/ 1999م.

(2) صحيح مسلم: 1/ 512، كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

هل سمعتم قط بهذا الاسم؟ فما هي غزوة ذات الرقاع؟ أليس هذا الاسم غريبا على أسماعكم؟ فلو توجهنا بهذا السؤال اليوم إلى المثقفين، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، فكيف بالناس العاديين؟ رغم أن الأمة المسلمة، تملك اليوم وسائل الإعلام المتطورة، ومواقع في الأقمار الصناعية، ولكن مع الأسف الشديد، لا تنشر في غالب الأحيان إلا وسائل الهدم، ومعاول التخريب، ضد أخلاق هذه السيرة العطرة في مجتمعنا، بأفلام تجارية رخيصة، تناجي الجنس، وتدغدغ الشهوة.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن غزوة ذات الرقاع، نزيل بها غبار الجهل عن هذه السيرة العطرة، فنستكشف أسرارها، ونصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها، ونحارب بالوقوف على أحداثها جهلنا بها، ونستمد لمواجهة أعدائنا الشجاعة منها.

إن غزوة ذات الرقاع -يا عباد الله- سميت بهذا الاسم؛ لأن الصحابةﷺ مشوا فيها مسافة بعيدا، من المدينة إلى قبيلة غطفان في نجد، التي حشدت قوتها للهجوم على المدينة، ولكن النبيﷺ من عادته أن يأخذ بزمام المبادرة ضد أعدائه فهاجم قبل أن يهاجم، وتلكم هي الخطة العسكرية النافذة، فما انهزم المسلمون اليوم إلا عندما أفلتت أَزِمَّة المبادرة من أيديهم، فاسألوا حرب 67 المشؤومة؟ لقد أخذ فيها العدو الصهيوني بالمبادرة، فهاجم قبل أن يهاجم، فضاعت منا القدس وسيناء والجولان، وضاعت معها مهابة الأمة، ولا زلنا نعاني إلى اليوم من مخلفاتها.

أيها الإخوة المؤمنون؛ لقد قطع الصحابةﷺ في هذه الغزوة أزيد من سبعمائة كيلو متر، وقد قلت في أيديهم المراكب، فكانوا يتناوبون على الركوب؛ كل ستة على بعير، فهذا يعني بعملية حسابية بسيطة، أن كل واحد منهم قد سار على أرجله حوالي ستمائة كيلو مترا سيرا متواصلا، حتى تقطعت نعالهم الجلدية، وآذى الحر الشديد أقدامهم الحافية، فبدءوا يرقعونها بخرق الأثواب ورقاعها، فسُجِّلت هذه الغزوة في التاريخ بهذا الاسم، تكريما لتحملهم وصبرهم، فمجرد الاسم في هذه الغزوة، يكشف لنا عن جهاد الصحابة، وعن صبرهم وتحملهم، وعن دفاعهم المستميت في نشر الإسلام، وإن بعدت عليهم الشقة، وعظمت عليهم المشقة.

أما نحن اليوم، فماذا قدمنا للإسلام؟ ماذا سيسجل عنا التاريخ؟ ماذا سوف نجد في صحائفنا يوم القيامة؟ أليس من العار أن يسجل عنا التاريخ ضياع القدس، وتشرذم الأمة، واستسلامها لأعدائها، وضياع الحكم بشرع الله في قضاياها،

وكلاما في كلام في حقول دعوتها، وأقوالا مجردة عن الأعمال في واقعها، والتقاتل على مسائل الخلاف فيها؟ فإلى الله المشتكى من أنفسنا وتقصيرنا.

ولما وصل جيش الإسلام المكان المقصود، وجد الكفار قد تهيؤوا واستعدوا للمواجهة، فلم تقع بينهم حرب، وإنما تربص كل فريق منهم بالآخر، وانتظر كل فريق الفرصة السانحة للانقضاض على عدوه، وأثناء هذا الانتظار اتفق الكفار على الهجوم على المسلمين بغتة إذا كانوا في صلاة العصر؛ لأنهم يعلمون أن المسلم لا يجوز له إخراج الصلاة عن وقتها مهما كان، فنزل جبريل فأخبر النبيﷺ بخطة الكفار الماكرة.

فما ذا فعل الرسولﷺ ؟ هل قال للصحابة: أنتم اليوم لا صلاة عليكم لأنكم في الجهاد؟ أو قال لهم أخروها إلى المساء وصلوها مجتمعة مع غيرها؟ لو كان واحد منا اليوم حدث له مثل هذا، أو أقل من هذا؛ بل مجرد خدمة وعمل؛ بل مجرد الجلوس أمام الشاشة، لضرب بالصلاة وأوقاتها عُرض الحائط!! ولكن النبيﷺ عند ما علم بخطة الكفار الغادرة، صلى بالناس صلاة الخوف.

أتدرون ما هي صلاة الخوف؟ إن النبيﷺ قسم الجيش إلى طائفتين: طائفة تصلي بالنبيﷺ، وطائفة في حراسة، فلما صلىﷺ نصف الصلاة جلس، وأتم من وراءه الصلاة فذهبوا إلى مواقعهم، وجاءت الطائفة الأخرى فصلت بالنبيﷺ بقية الصلاة، وفي هذا يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾[1]، تلكم هي صلاة الخوف إذا لم يباغت العدو المسلمين، أما إذا كثف العدو الهجوم من كل جانب، فيقول الله تعالى عندئذ: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا﴾[2]، يصليها المسلم بالإشارة أثناء القتال وهو يركب دابته، أو يقود دبابته، أو يحمل رشاشا، أو يقود طائرة، ويصليها المريض في سريره، والمسافر على مركبه، ولو كان للمسلم عذر في ترك الصلاة لكان الأولى به المجاهد في سبيل الله، الذي يضحي بنفسه وماله، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصلاة لا يجوز بحال من الأحوال إخراجها عن وقتها.

(1) النساء: 102.
(2) البقرة: 239.

هل يجوز بعد هذا إخراج الصلاة عن وقتها؟ ماذا تفيد شهادة أن لا إله إلا الله في رجل تؤخره وظيفته، أو تجارته،أو عمله، أو منصبه، أو اجتماعه عن الصلاة في وقتها؟ ثم يتبجح بعد ذلك بأنه مؤمن كامل الإيمان.

أنى له ذلك! والقرآن الكريم يقول: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾[1]، والغي هو واد في جهنم، قال العلماء في هذه الآية: إنهم ما تركوا الصلاة بالكلية، ولكن أخروها عن أوقاتها.

أنى له ذلك! والقرآن الكريم يقول: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾[2].

أنى له ذلك! والرسولﷺ يقول فيمن يؤخر صلاة العصر بالخصوص عن وقتها: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا»[3]

أيها الإخوة المؤمنون؛ إن المنافقين أيضا يصلون، ولكنهم كسالى، يصلون الظهر والعصر مع المغرب، ويصلون المغرب والعشاء بعد انتهاء برامج التلف المزيون، وصلاة الفجر مع طلوع الشمس، فيكون نصيبهم من الصلاة الويل والتبور، قال الله تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[4].

إن غزوة ذات الرقاع -يا عباد الله- تعلمنا: أن لا عذر لمسلم يؤخر الصلاة عن وقتها! وقد كانت آخر وصية للرسولﷺ وهو في سكرات الموت: «الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»[5]، وهو الذي قال فيما روى الطبراني: «لا دين لمن لا صلاة له، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد»[6].

وقد تعلم السلف الصالح من غزوة ذات الرقاع، أهمية المحافظة على الصلاة، فحملوا هموم المحافظة عليها، حتى وهم يفارقون الحياة، كما فعل الرسولﷺ في

---

(1) مريم: 59.

(2) النساء: 142.

(3) صحيح مسلم: 1/ 434، كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب التبكير بصلاة العصر.

(4) الماعون: 4-5.

(5) صحيح، رواه الحاكم وصححه، المستدرك: 3/ 59، ح: 4388، كما صححه الألباني في: - إرواء الغليل: 7/ 238، - السلسلة الصحيحة: 2/ 525.

(6) ضعيف، رواه الطبراني في: - المعجم الأوسط: 2/ 383، - المعجم الصغير: 1/ 113، وقال: تفرد به الحسين بن الحكم الحبري الكوفي، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: 1/ 54، ح: 213، وكذا: 1/ 78، ح: 302 – ضعيف الجامع الصغير وزياداته، ص: 892، ح: 6178.

وصيته الأخيرة. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعنه اللعين أبو لؤلؤة، بسيف مسموم فقطع أمعاءه، وهو راكع في صلاة الفجر، فاتته ركعة واحدة، لأن النزيف الدموي غلبه حتى خر مغشيا عليه، فلما أفاق سأل هل صليت؟ قالوا: بقيت عليك ركعة واحدة يا أمير المؤمنين، فقام يقضيها فأغمي عليه، ثم قام فأغمي عليه، وهكذا حتى أتم الركعة فقال: «الحمد لله الذي أعانني على الصلاة»، وهو الذي قال في وصيته لجيشه الفاتح: «اللهَ اللهَ في الصلاة، فإنكم إنما تهزمون بالمعاصي»[1].

نعم يا أمير المؤمنين! هاهم المسلمون اليوم ضيعوا وصيتك فانهزموا بالمعاصي.

وهذا سعيد بن المسيب، إمام التابعين، يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتبسم، وحق له رضي الله عنه أن يتبسم! أتدرون لماذا؟ لأنه لما سئل عن ذلك قال: "والله ما أذن المؤذن منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد قبل الأذان"[2]! يا سبحان الله! أربعون سنة -يا جماعة- ونحن لا نكاد نتم في هذه الفضيلة حتى أسبوعا؛ بل حتى يوما واحدا.

هكذا -يا عباد الله- كان السلف الذي تربى في أحضان غزوة ذات الرقاع وأخواتها، يعاني أحدهم من الموت والسكرات، وكل همه في المحافظة على الصلوات، ونحن اليوم نعتني بالشهوات والنزوات، وكل همنا هل من مزيد من الشهوات والنزوات؟؟

اللهَ اللهَ في الصلاة جماعة -يا جماعة- اللهَ اللهَ في أوقاتها وأركانها وشروطها. ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون﴾[3].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

(1) لم أعثر على مصدر لقول عمر وقد اشتهر على ألسنة الوعاظ أن هذه الوصية وجهها لسعد بن أبي وقاص عندما أمره على جيش فتح القادسية.
(2) حلية الأولياء: 2/ 162.
(3) العنكبوت: 45.

الحمد لله رب العالمين... [1]

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

لقد نشرت وسائل الإعلام في هذه الأيام، أن الشمس سوف تنكسف يوم الأربعاء القادم، والشمس نعمة من نعم الله تعالى، فلو منع الله علينا أشعتها لاستحالت الحياة على هذه الأرض، ولتجمد كل سائل فيها، وقد كان النبيﷺ يفزع عند كل إنذار إلى الصلاة، فكان يصلي صلاة الكسوف، التي جهلها الكثير منا، كما جهلنا الكثير من حقائق ديننا، فإذا انكسفت الشمس لا يهمنا إلا أن ننظر إليها، أما سنة الرسولﷺ في صلاة الكسوف لا أحد يفكر فيها، وهي: ركعتان بزيادة قيام وركوع في كل ركعة، وذلك بأن يكبر المصلي، ويقرأ الفاتحة وسورة طويلة، ثم يركع ويرفع منه، فيقرأ الفاتحة وسورة أقل من الأولى، ثم يركع ثانية ويرفع منه، ثم يفعل بالركعة الثانية كما فعل بالأولى، أما السجود فيها فككل النوافل، وتصلى وقت كسوف الشمس، وهي الصلاة الوحيدة التي فيها ركوعان في ركعة، روى البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها-: «أن النبيﷺ جهر في صلاة الكسوف بقراءته، فصلى أربع ركعات في ركعتين وأربع سجدات»[2].

فإذا رأيتم ذلك -أيها الإخوة في الله- فافزعوا إلى الصلاة، فصلوا كما علمنا رسول اللهﷺ، وقد قالﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما، فادعوا الله وصلوا، حتى تنكشف» متفق عليه[3]. ولا تديموا النظر إليها دون حاجز؛ لأن ذلك قد يؤذي أبصاركم، ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين﴾[4]...

أما بقية أحداث غزوة ذات الرقاع، وما تبقى فيها من الفقه والفوائد، ومن وقفات العبر والعظات، فللحديث منها بقية إلى الجمعة المقبلة إن شاء الله...

ألا فاتقوا الله عباد الله؛ وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) هذه الخطبة الثانية تناولت صلاة كسوف الشمس بمناسبة كسوفها، الذي حدث يوم الأربعاء 28 ربيع الأخير 1420 هـ 11/ 8/ 1999م.

(2) – صحيح البخاري: 1/ 361، كتاب الكسوف/ باب الجهر بالقراءة في الكسوف، – صحيح مسلم: 2/ 620، كتاب الكسوف/ باب صلاة الكسوف.

(3) – صحيح البخاري: 1/ 353، كتاب الكسوف/ باب الصلاة في كسوف الشمس، – صحيح مسلم: 2/ 630، كتاب الكسوف/ باب ذكر الكسوف الصلاة جامعة.

(4) البقرة: 195.

31) الخطبة [3] وقفات في غزوة ذات الرقاع (تتمة)[1]

الحمد لله الذي جعل للنصر أسسا وأسبابا، وجعل من أسبابه الرجوع إلى دين الله أفواجا وأسرابا، وأمر الأمة بالأخذ بها قبل أن يكون كيانها خراب يبابا، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل الناس قبائل وشعوبا، وحرم عليهم اتخاذ أهوائهم آلهة وأربابا، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله جاهد في سبيل الله جهادا مهيبا، حتى أتاه الله في النصر رضى وإعجابا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه خير الناس أحبابا وأصحابا، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الأرض أحجارا وترابا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ففي إطار محاربة الأمية في سيرة الرسولﷺ قد منا لكم في الجمعة الماضية غزوة ذات الرقاع؛ لأنها وقعت في شهر ربيع الأخير، فوقفنا بكم عند تسميتها بذات الرقاع، فتعلمنا أنها سميت بذلك لأن الصحابة مشوا فيها أزيد من سبعمائة كيلومترا، حتى تقطعت نعالهم، فرقعوها بخرق الأثواب ورقاعها، وقدمنا أن النبيﷺ صلى فيها بالناس صلاة الخوف، حتى يحافظ على الصلاة في وقتها وجماعتها، ثم عرجنا بكم على إخراج الصلاة عن وقتها، فتعلمنا أن ذلك من صفات المنافقين، ثم رفعنا لكم الستار عن نماذج من المحافظة على الصلوات عند سلفنا الصالحرضي الله عنهم.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن بقية غزوة ذات الرقاع، حتى نقترب من سيرة المصطفىﷺ وقد طال بعدنا عنها، حتى نزيل ما بنا من غبار الجهل بها، ونصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها.

أيها الإخوة في الله؛ لقد انتهت غزوة ذات الرقاع دون حرب، لأن كل محاولات الكفار للنيل من المسلمين باءت بالفشل الذريع، فانهزموا وهربوا وتفرقوا، فرجع النبيﷺ إلى المدينة بانتصار معنوي عظيم، ارتعدت له فرائص قادة العرب المشركين أينما كانوا؛ لأنهم الآن يعلمون أن الإسلام يملك جيشا يستطيع أن يضرب في الآفاق البعيدة، فيؤدب أعداءه وإن بعدت بهم الشقة، يملك جيشا يده تصل إلى أطراف الجزيرة العربية كلها، فكانت هذه الغزوة أشبه بمناورات، استعرض الرسولﷺ فيها عضلات جيشه، فأرسل به رسائل واضحة إلى أعدائه أينما كانوا؛ لأن الجيش الذي يستطيع أن يؤدب عدوه في عقر داره بسبعمائة كيلو متر، أفلا

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 30 ربيع الأخير 1420 هـ 13/ 8/ 1999م.

يستطيع أن يؤدب عدوا له في أقل من ذلك؟ الشيء الذي جعل كفار العرب يحسبون له ألف حساب وحساب، فيتخوفون وينزعجون، فيمسكون أيديهم عن إيذاء المسلمين، وقد قال الرسولﷺ في هذا: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[1]. وإن سياسة المناورات اليوم، واستعراض العضلات، أشد خطرا على العدو، وأشد إرهابا للعدو من الحروب والضربات، تتوتر من أجلها بين الدول العلاقات، وتقدم ضدها الاحتجاجات.

أيها الإخوة المؤمنون؛ عندما كان الرسولﷺ في طريقه إلى المدينة، تبعه رجل اسمه "غورث بن الحارث"، وقيل: "دعثور بن الحارث"[2]، وهدفه هو اغتيال النبيﷺ كما روى البخاري[3]، ولكن محاولته هذه كشفت لنا عن أخلاق رفيعة لهذا النبي الكريمﷺ. لقد توارى هذا الكافر عن الأعين وهو يتبع جيش الإسلام في عودته إلى المدينة، حتى وجد الفرصة مواتية، حين وقف الصحابة للاستراحة والقيلولة، فتسلل وهم نيام، حتى وقف على النبيﷺ، وسيفه معلق بالشجرة التي نام تحتها، دون أن يتخذ لنفسه حارسا شخصيا؛ لأن الله تعالى تولى حراسته بنفسه، إذ قال: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[4]، فأخذ سيف النبيﷺ، ثم أيقظه والسيف مشرع في يده فقال: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ إنه لموقف رهيب، الكافر فوق رأس النبيﷺ، والسيف صلت مسلط في يده، قد ينزل به على رقبته في أية لحظة، وهنا يتأزم الموقف على سادة الحيل والسياسة، وينتهي التفكير لدى العقلاء، لو كان غير النبيﷺ في مثل الموقف لارتعد وارتعش، لبال في ثوبه وتغوط، لتوسل وألح، ولكن النبيﷺ قال له في ثقة وطمأنينة وإيمان: الله يمنعني! الله يعصمني! فنزلت هذه الكلمة كالصاعقة على الكافر فارتعدت يده، ووقع السيف منه، فأخذه النبيﷺ فانقلبت الأمور وأصبح الذي هدد النبيﷺ بالموت مهددا به، ولم يردﷺ العدوان بالمثل؛ بل قال له: أما أنت فمن يمنعك مني الآن، فقال له الكافر مرتعدا: أنت يا محمد! فعفا عنه النبيﷺ وأطلق سراحه، ولم يحكم عليه بالإعدام، ولم يستنطقه حتى يعترف بالواقع وغير الواقع، حتى يورط كل من له به علاقة قريبة أو بعيدة، حتى

---

(1) صحيح البخاري: 1/ 128، كتاب التيمم/ قول الله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا...﴾.

(2) ذكر ابن حجر القصة منسوبة لشخصين؛ غورث بن الحارث، ودعثور بن الحارث، فقيل: هي واقعة واحدة واختلف في اسمه كما اختلف في إسلامه، وقيل: هي واقعتان، وورد في صحيح البخاري: 4/ 1515 باسم غورث بن الحارث. انظر: الإصابة لابن حجر: 2/ 387 و5/ 328. وفتح الباري: 7/ 428.

(3) صحيح البخاري: 3/ 1065، كتاب الجهاد والسير/ باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة.

(4) المائدة: 67.

يعترف من الذي أرسله، ومن الذي تعاون معه، ومن هو العقل المدبر لهذه المحاولة، أو المهندس لها، اتركوا كل هذا لحكام هذا العصر المتحضر، فإن النبيﷺ يعلم القرآن الذي نزل عليه، ويعمل به في الواقع الذي يعيشه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[1].

فما أبعد واقعنا اليوم عن هذه الآية الكريمة! فإذا كنا نقرأ هذه الآية في القرآن الكريم، فإننا في واقعنا نقرأ بكل أسف: ادفع بالتي هي أخشن، فإذا الذي بينك وبينه محبة كأنه عدو أليم، فكم من واحد منا له أصدقاء، ولكن خشونته في الدعوة صنعت له من أصدقائه أعداء.

فماذا فعل هذا الكافر بعد أن منحه عفو النبيﷺ حياة جديدة؟ إنه ذهب وقد سيطر على عقله التفكير في النبيﷺ حين رد الاعتداء الغاشم بالعفو الحليم، حين دفع التي هي أخشن بالتي هي أحسن، ثم بعد حين تحول لديه هذا التفكير إلى محبة عارمة تخنق عاطفته، بعد أن كان قلبه يتحرق غيضا ويمتلئ بغضا للنبيﷺ، ثم لم تلبث هذه المحبة أن تحولت لديه إلى إيمان صادق، فجاء إلى النبيﷺ فأعلن: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم ترجم إيمانه هذا إلى العمل بالجوارح، فرجع إلى قومه مسلما مدافعا عن الإسلام وهو يقول: لقد جئتكم من عند خير الناس.

أرأيتم -أيها الإخوة في الله- ماذا يفعل ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾[2] حين ينزل إلى واقع المعاملات؟ إنه يصنع من الأعداء أصدقاء؛ بل أتباعا وأحباء.

ومن عادة النبيﷺ أنه لا يترك أي شيء يتكرر ضده مرتين، وهو الذي قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»[3]، فعندما نزل بجيشه في مكان آخر ليستريح، اتخذ هذه المرة حراسة، لا لنفسه فقط، ولكن لجيشه كله، فكلف بها أنصاريا اسمه عباد بن بشر، ومهاجرا اسمه عمار بن ياسر كما في البخاري[4]، وأثناء الحراسة قام عباد بن بشرؓ يصلي، يحيي الليالي وهو في الجهاد؛ لأنه يعلم أن بالعبادة يتحقق الانتصار، بالاتصال مع الله يكون الفوز في الدنيا والآخرة، وما انهزم المسلمون اليوم إلا بالمعاصي، إلا بالليالي الحمراء، فبدلا أن تكون لياليهم بيضاء بنور ذكر الله،

---

(1) فصلت: 24.

(2) فصلت: 24.

(3) – صحيح البخاري: 5/ 2271، كتاب الأدب/ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، – صحيح مسلم: 4/ 2295، كتاب الزهد والرقائق/ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

(4) علقه البخاري في صحيحه: 1/ 76، كتاب الوضوء/ باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، قائلا: "ويذكر عن جابر أن النبيﷺ كان في غزوة ذات الرقاع فرمي رجل بسهم فنزفه الدم، فركع وسجد ومضى في صلاته"، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة: 3/ 378.

تحولت إلى حمراء وسوداء بأشكال الفسق وأنواع المجون، فهذا صلاح الدين الأيوبي، عندما يتأهب لفتح القدس، كان يتفقد جيشه بنفسه ليلا، فإذا وجد خيمة أهلها نائمون، يقول: أخشى أن تأتي الهزيمة من هنا، وإذا وجد خيمة أهلها يذكرون الله ويصلون، يقول: بهذا ننتصر، وإذا كان صلاح الدين يخشى الهزيمة من مجرد النوم، أفلا نخشى نحن الهزيمة من هذه الليالي الحمراء؟

أيها الإخوة في الله لقد قام هذا الأنصاري بالحراسة وهو يصلي، فشاء الله أن يكون أحد الكفار يتحين الفرص للنيل من جيش المسلمين، فوجد الأنصاري يصلي فضربه بسهم فنزع الأنصاري السهم من صدره ولم يقطع الصلاة، ثم ضربه بسهم ثان وثالث، وهو ينزعها حتى أتم صلاته فلاذ الكافر بالفرار، فلما أيقظ صاحبه المهاجري عمار قال له: هلا أيقظتني لما ضُربت للمرة الأولى، فقال له: لقد كنت أصلي وأنا في سورة، والله لو لم أخف أن أضيع مهمة كلفني بها رسول اللهﷺ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها، يا سبحان الله! أي صلاة هذه التي تجعل صاحبها لا يحس بضربات السهام في صدره؟ أي خشوع هذا؟ وأي تدبر هذا؟ وأي تركيز هذا؟

أتدرون لماذا كانت صلاته هكذا؟ لأنهرضي الله عنه لا يصلي بجسده فقط، بل يصلي بعقله وروحه أيضا، والصلاة لا تعطي هذا النتاج، ولا تفرز هذا الإفراز، إلا إذا بنيت على أسس ثلاثة: عبادة الجسد بالحركات والأقوال، وعبادة العقل بالتفكير والتدبر، وعبادة الروح بالخضوع والخشوع. والخشوع في الصلاة هو الذي يؤدي إلى الفوز والفلاح، ﴿قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[1]، وهو الذي يخفف الصلاة ويجعلها سهلة وإن كانت طويلا، قال تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[2]، وقد كان النبيﷺ يستعيذ بالله من الصلاة التي لا خشوع فيها فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع، وأعوذ بك من صلاة لا تنفع، وأعوذ بك من دعاء لا يسمع، وأعوذ بك من قلب لا يخشع»[3].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

(1) المؤمنون: 2.

(2) البقرة: 45.

(3) صحيح، رواه ابن حبان في صحيحه: 3/ 293، ح: 1015.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

فما أعظم الفرق بيننا وبين هذا الصحابي، الذي لا يلهيه عن الصلاة حتى السهام التي تشق جسده! فهل تنكرون أن صلواتنا خاليةٌ من الخشوع في أغلب الأحيان، لقد أصبحت عندنا عادة لا عبادة، نصلي بأجسامنا وأعضائنا، فنحرك ألسنتنا وشفاهنا، نرفع أيدينا مكبرين، وننحني بظهورنا راكعين، ونخر للأذقان ساجدين، فكيف لا تتحرك قلوبنا نحو رب العالمين؟ ولم لا تعرج أرواحنا نحو خالقها وبارئها؟ ولم لا تستشعر نفوسنا خوف الله وعظمته؟ نقرأ القرآن في الصلاة ولكن لا نتدبر، ونسبح ولكن لا نفقه تسبيحنا، نقف أمام الله ولكننا في الحقيقة واقفون أمام مشاريعنا ومشاغلنا، أجسامنا في بيوت الله، ولكن قلوبنا في بيوتنا ومعاملنا، نذكر الباقيات الصالحات في الصلاة، ولكن أنفسنا عند زينة الحياة الدنيا ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾[1]؛ فالأفكار الدنيوية تتزاحم أثناء الصلاة علينا، والأشرطة تمر بسرعة في أذهاننا، فنتذكر كل شيء إلا الصلاة، قلما نتذكر أننا واقفون بين يدي أحكم الحاكمين، لو أن أحدنا وقف أما م أمير من أمراء الدنيا، لخضع وخشع، ولحضر بكيانه كله، ولاستجمع قلبه لامتثال الأوامر والنواهي، بالإشارة قبل العبارة، ولكنه إذا وقف أمام ملك الملوك، أمام رب العالمين، يلهو قلبه عن الحضور والخشوع، وإنها لمفارقة غريبة.

وبعد هذا كله -أيها الإخوة في الله-؛ فهل تبين لكم الفرق بيننا وبين هذا الصحابي الذي لم تلهه عن صلاته وحسنها حتى السهام التي تقطع جسده؟

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة و السلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) الكهف: 46.

32) الخطبة [4] وقفات في غزوة ذات الرقاع (تتمة)[1]

الحمد لله الذي بعث المصطفىﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، فجعل سيرته موضع الإقتداء والوفاق، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لأنه أجدر بالمنافسة والسباق، وأشهد أن لا إله إلا الله قسم بين الناس الأعمال والأرزاق، وجعل التمسك بالسنة عصمة من النزاع والشقاق، ومصدرا للاتحاد والاتفاق، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله كريم الخصال وشريف الأذواق، أشفق الناس على المساكين واليتامى بالإحسان والإنفاق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين حاربوا الشرك والنفاق، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم تلتف فيه الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق. اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن سيرة الرسولﷺ منبع سيال لا ينضب، ومدرسة عظيمة متعددة الأبحاث والشعب، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها، فهي تكشف لنا عن قرآن يمشي على وجه الأرض.

وقد قدمنا لكم في الجمعتين الماضيتين في إطار محاربة الأمية بهذه السيرة وقفات في غزوة ذات الرقاع؛ فمنها تعلمنا وجوب أداء الصلاة في وقتها؛ لأن النبيﷺ لم يسمح للصحابة بإخراج الصلاة عن وقتها، وإن كانوا في حرب لإعلاء كلمة الله، فصلى بهم صلاة الخوف. ومنها تعلمنا سمو أخلاق الرسولﷺ حين عفا عن الكافر الذي حاول اغتياله، فكان هذا العفو سببا في إسلامه. ومنها تعلمنا قيمة الصلاة، وقيمة تدبر القرآن الكريم عند الصحابة، حين شاهدنا الصحابي الجليل عباد بن بشرؓ لم يصرفه عن الصلاة وتدبر القرآن فيها حتى السهام التي تشق صدره.

فتعالوا بنا اليوم لنختم مشاهد هذه الغزوة فنرفع الستار عن المشهد الأخير منها.

أيها الإخوة في الله؛ نشاهد الآن على شاشة الإيمان، الرسولﷺ يقترب من المدينة، في رجوعه من هذه الغزوة التي مشى فيها الصحابة أزيد من سبعمائة كيلو مترا. وكان من بين أفراد الجيش جابر بن عبد الله الصحابي الشاب الفقير، الذي استشهد أبوه في غزوة أحد فتركه يتيما، والنبيﷺ من عادته أن يعتني بالضعفاء واليتامى من أتباعه، فيتفقدهم ويواسيهم ويقضي أغراضهم، روى البخاري ومسلم[2] أنهﷺ

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 7 جمادى الأولى 1420 هـ 20/ 8/ 1999م.

(2) – صحيح البخاري: 5/ 1954، كتاب / باب تزويج الثيبات، – صحيح مسلم: 3/ 1223، كتاب المساقاة / باب بيع البعير واستثناء ركوبه.

سأل عن جابر بن عبد الله فوجده قد تأخر عن الجيش؛ لأن له جملا قد تعب من كثرة المسير، وإن سفرا يتعب الجمال لهو أشد إتعابا للرجال، ولكن إيمان الصحابةﷺ وارتياح نفوسهم للجهاد، أنساهم معاناة أجسادهم، ثم دعا النبيﷺ لجمل جابر كما في رواية مسلم وأحمد، فاستجاب الله دعاءه في الحين فكان أسبق الناس، حتى إن جابرا ليمنعه ويكفه حتى لا يسبق رسول اللهﷺ[1].

أيها الإخوة في الله؛ لنا في هذا المشهد وقفة أمام دعاء النبيﷺ المستجاب في الحين، دون تأخير ولا تعطيل، فنتساءل لماذا لم يستجب الله لنا دعاء؟ وهل سُد بابه على أكفنا في السماء؟

فكثيرا ما نرفع أكف الضراعة إلى الله بتحرير القدس فازدادت أسرا وتهويدا!

وكثيرا ما ندعو بالوحدة للمسلمين، وبإصلاح ولاة أمورهم، فلم نزدد إلا تشتتا وتشرذما وفساد الأمور!

وكثيرا ما ندعو بالنصر للمسلمين فلم نر إلا انهزاما في انهزام؛ من فلسطين، إلى العراق، إلى البوسنة والشيشان، إلى كشمير وأفغنستان!

وكثيرا ما نرى شبابنا قد أفسده التهور، فوقع في مستنقعات الرذائل، فندعو: اللهم احفظ الشباب فلم نر للاستجابة أثرا!

وكثيرا ما نرى النساء متبرجات، قد أفسدتهن موضة الأسواق والشوارع والإعلام، فندعو لهن بالحفظ والستر، فلم نر إلا هتكا للأستار، وكشفا للأعراض!

وكثيرا ما ندعو بالهلاك والدمار للصهاينة والصليبيين، ولكننا لا نرى الدمار والهلاك إلا في صفوف المسلمين، فتارة بالجفاف الماحق، وتارة بالأزمات الاقتصادية، وتارة بالحروب المهلكة، وتارة بالزلازل المدمرة!

أتدرون لماذا تعطلت الاستجابة في دعواتنا بينما الرسو لﷺ يدعو لجمل جابر فيستجيب الله دعاءه في الحين؟ لأن للدعاء شروطا قد ضيعناها، وأسسا قد حطمناها، ومن هذه الأسس وهذه الشروط أكل الحلال، المال الحلال، ونحن كل همنا جمع الأموال، غير مبالين بمصدره؛ أمن الحلال أم من الحرام؟ وأصبح الحلال عندنا ما حل بأيدينا، لقد صدق فينا قول الرسولﷺ فيما روى البخاري: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»[2].

فالمشاريع عندنا تقام وتمول بالربا، والأغراض والمناصب تقضى وتنال بالارتشاء، والمسؤولية تعني مشروعا يدر الأموال بأنواع الاختلاسات، لقد أصبح

---

(1) – صحيح مسلم: 3/ 1221، كتاب المساقاة / باب بيع البعير واستثناء ركوبه، – مسند أحمد: 3/ 299.

(2) صحيح البخاري: 2/ 733، كتاب البيوع/ باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا...﴾.

الغش عندنا مهارة في التجارة، وأصبحت الخيانة نجاحا في المشاريع، وأصبح الكذب مع يمين الغموس مروجا للسلع والبضائع، الشيء الذي جعل كل من وقع في هذه المستنقعات يعيش في الحرام، والرسولﷺ يخبرنا أن دعاء من بطنه مليء بالحرام لا يستجاب، ودعاء من في جيبه أموال محرمة مردود عليه، إذ يقول ﷺ فيما روى الطبراني: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه، ما يتقبل منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»[1]، وقد ذكر الرسولﷺ: «الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!» رواه مسلم[2].

لقد تبين لنا بعد هذا أين الخلل في عدم استجابة دعائنا؟ لقد تبين لنا أن اللوم ليس إلا على بطوننا المليئة بالحرام.

ثم نرجع بكم -أيها الإخوة في الله- إلى الرسولﷺ وبجانبه جابر بن عبد الله على جمل استجاب الله فيه الدعاء فكان أسبق الناس، فبدأ النبيﷺ يسأله ويواسيه، فينسيه آلامه ويمد في آماله، فسألهﷺ : هل تزوجت؟ فقال: نعم يا رسول الله، تزوجت ثيبا: يعني ليست بكرا كانت تزوجت قبله، وهنا يلاحظ النبيﷺ عدم الكفاءة في هذا الزواج؛ لأن جابرا شاب دون العشرين سنة، تزوج ثيبا تكبره بسنوات، فيبدي النبيﷺ ملاحظته هذه بأسلوب فيه من المجاملة والملاطفة والمداعبة وحسن المعاشرة ما يدخل السرور إلى قلب هذا اليتيم، فيقول لهﷺ: «هلا بكرا تلاعبك وتلاعبها»[3]! ولكن جابراﷺ كشف للنبيﷺ عن نفسية تربت في أحضان النبوة، لا تعرف الأنانية، ولا حب الذات، ولا الدوران على النفس، كشف له عن نفسية كل همها الإحسان للغير، وإن كان على حساب التمتع الشخصي، فقال: يا رسول الله تعلم أن أبي قد استشهد في غزوة أحد، وقد ترك لي تسع أخوات هن في حاجة لمن يقوم بتربيتهن، فرأيت إن تزوجت بكرا لا تستطيع لهذا، فتزوجت

(1) ضعيف جدا، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 6/ 311، ح: 6495، وضعفه الألباني في: - السلسلة الضعيفة: 4/ 292، ح: 1812، - ضعيف الترغيب والترهيب: 1/ 268، ح: 1071.

(2) صحيح مسلم: 2/ 703، كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(3) - صحيح البخاري: 5/ 2009، كتاب النكاح/ باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، - صحيح مسلم: 2/ 1087، كتاب الرضاع/ باب استحباب نكاح ذات الدين.

ثيبا إيثارا لهن على متعة نفسي[1]، فازداد النبيﷺ القرب منه؛ لأنهﷺ يحب المعدن الطيب، ويحب الإيثار، ويكره الأنانية، فأراد أن يحسن إليه بكيفية فيه من اللطافة واللباقة الشيء الكثير، بأسلوب فيه المفاجأة الباعثة على الفرح والسرور، فيقولﷺ له: بعني جملك هذا، ولم يملك جابر غيره، فرفض البيع في البداية وقال: بل أقدمه لك هدية يا رسول الله! فلما رأى أن النبيﷺ قد ألح قبل البيع، فلما وصل المدينة دفع له النبيﷺ ثمن الجمل وزيادة ثم رد عليه جملهﷺ[2].

انظروا رعاكم الله كيف يحسن الرسولﷺ لليتامى والمساكين بملاطفة عظيمة، ومداعبة جليلة! فالنبيﷺ في الحقيقة لم يرد شراء الجمل، ولكن أراد الإحسان لجابر، لما رأى فيه من حالة الفقر واليتم، وأراد أن يكون له هذا الإحسان مفاجأة، وما أحسن المفاجآت حين تدخل للقلب الفرح والسرور! ولا شك أن الإحسان بالمفاجأة أشد راحة للنفس من الإحسان بالوعود والتسويفات، فلو قال لهﷺ سوف أحسن إليك إذا وصلنا المدينة، لفقد هذا الإحسان روح المداعبة ونكهة المفاجأة، والرجل اليوم إذا أراد أن يكرم زوجته الإكرام الذي يدل على الحب، أو يكرم أبناءه إكراما يحسون فيه بعطف الأب، لا يجد إلا أسلوب المفاجأة، لما فيه من المداعبة والملاطفة، فيفاجئ زوجته بخاتم من ذهب مثلا، أو يفاجئ أبناءه بلعب جميلة، وقد كان النبيﷺ أسبق إلى هذا النوع من الإحسان، ولكنهﷺ يستعمله أيضا لصالح الفقراء والمساكين، أما نحن فقليلا ما يتصدق أحدنا على يتيم أو فقير بأسلوب المفاجأة! فهذا الأسلوب عندنا خاص بالزوجة والأبناء، ولكن عند النبيﷺ عام لأمته كلها؛ فلا غرابة في هذا -يا عباد الله- إذا علمنا أن النبيﷺ هو الذي قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»[3]، وهو الذي خطبه القرآن الكريم إذ قال: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث﴾[4].

صدق الله العظيم، وغفر لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

(1) ملاحظة: إذا حدثت قصة جابر هذه في غزوة ذات الرقاع فذلك يفيدنا أنها متقدمة عن غزوة الخندق، لأن جابرا أمر امرأته في أثناء حفر الخندق أن تصنع طعاما لأصحاب رسول اللهﷺ العاملين كما تقدم، وهنا قال جابر للنبيﷺ: أنا حديث عهد بعرس، مما يفيد أنها وقعت بعد أحد بزمن قصير.
(2) – صحيح مسلم: 3/ 1221، كتاب المساقاة / باب بيع البعير واستثناء ركوبه، – مسند أحمد: 3/ 299.
(3) رواه البخاري: 5/ 2032، كتاب الطلاق/ بَاب اللِّعَانِ، والترمذي في سننه: 4/ 320، ح: 1318.
(4) الضحى: 6–11.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

حدث اليوم في تركيا زلازال ودمار شامل، قَلَبَ كل الحسابات دون سابق إنذار، لقد تألمت الأمة الإسلامية، وعمها الأسى والحزن لهذا المصاب الجلل، الذي حل بالشعب التركي المسلم «والمسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(1)]، ذلك الشعب الذي سطر في تاريخ الإسلام فيما مضى، مآثر حميدة، ومفاخر عجيبة، ذلك الشعب الذي حمل الخلافة الإسلامية على عاتقه لقرون، حتى أزالها يهود الدونمة وتلامذتهم، فقادوا تركيا المسلمة، إلى علمانية متعصبة، تدمر كل شيء بإذن سادتها الأحياء والمقبورين، والله تعالى يقول: ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾[(2)].

ما ذا تنتظرون لشعب تركيا المسكين سادته في الأمس القريب حاربوا حرية الحجاب علنا، ومنعوا تعليم القرآن وتعلمه ظلما وعدوانا، واتفقوا ضد المسلمين مع الصهاينة؟

ماذا تنظرون لشعب تركيا المسكين سادته أزالوا الحجاب عن المرأة فغطوْا به مدارس تعليم القرآن؟والله تعالى يقول: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[(3)].

ألا فاعتبروا يا أولي الألباب، ألا فاعلموا أن الدمار إذا جاء لا يتصيد الذي تسبب له فقط؛ بل يضرب المساجد وبيوت الرحمن، كما يضرب البارات وأوكار الشيطان، والله تعالى يقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[(4)].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة و السلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) متفق عليه ولفظه للبخاري في صحيحه: 5/ 2238، ح: باب رحمة الناس والبهائم.

(2) الشورى: 30.

(3) الإسراء: 16.

(4) الأنفال: 25.

33) الخطبة [5] دروس وعبر من غزوة بني المصطلق[1]

الحمد لله الذي أعز من امتثل أمره وسار على درب الصالحين، وأذل من زاغ عن طريق الرشد ومال إلى سبيل الطالحين، وعد المؤمنين الذين عملوا الصالحات خيرا كثيرا، وأوعد المنافقين مروجي الخبال وتجار الفتنة شرا مستطيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله ينصر من المؤمنين من تآخى واتحد، واجتنب النفاق والبغضاء والحسد، ويخذل من اعتدى وظلم ونازع وفسد، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، وليحارب الكفر والنفاق، وليزيل النزاع والشقاق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما دامت الشمس تستطع في الأفاق. اللهم إنا نعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها نحن لا زلنا في شهر شعبان، وهو شهر مبارك لأنه الجار القريب من رمضان، وقد دعا له النبيﷺ بالبركة فقال: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»[2]، وهو شهر يربطنا بسيرة المصطفىﷺ في أكثر من حدث، فقد كان النبيﷺ يكثر فيه الصيام، لأنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وفيه وقعت معجزة انشقاق القمر التي يقول الله تعالى فيها: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[3]، وفيه تحولت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وفيه ولد حفيد الرسولﷺ سيدنا الحسين، وفيه وقعت غزوة بني المصطلق وما فيها من أحداث عظيمة.

دعونا اليوم نرجع بكم إلى السيرة النبوية العطرة، دعونا نطل بكم من خلال هذا الشهر على غزوة بني المصطلق، فما هي غزوة بني المصطلق؟ أليس هذا الاسم غريبا على أسماعكم؟ فلو توجهنا بهذا السؤال اليوم إلى المثقفين، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، فكيف بالناس العاديين؟وكلنا ندعي حب النبيﷺ، ولكن حينما تسأل عن سيرة هذا النبي المحبوبﷺ تجد الجهل المطبق، لا نعرف حتى أسماء الأحداث فيها، فكيف بمضمونها؟ فكيف بمغزاها وفوائدها؟ والإنسانُ عادةً حينما يحب

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 20 شعبان 1421هـ 17/ 11/ 2000م، وفي: 3 شعبان 1423 هـ 11/ 10/ 2002م، وفي: 18 شعبان 1426هـ 23/ 09/ 2005م، وفي: 17 شعبان 1428هـ 31/ 08/ 2007 م، وفي 20 شعبان 1432 هـ 22 / 07/ 2011 م.

(2) ضعيف، رواه الطبراني في الأوسط: 4/ 189، ح: 3939، بسنده عن زائدة بن أبي الرقاد الباهلي عن زياد بن عبد الله النميري البصري، وكلاهما ضعيفان، ولذلك ضعفه الذهبي في ميزان الإعتدال: 3/ 95-96.

(3) القمر: 1.

يعرف عن محبوبه كل صغيرة وكبيرة، وكيف يحب الإنسان شخصا يجهله، لقد أصبح عندنا هذا الحب ضمن ما وجدنا عليه آباءنا فقط!

أيها الإخوة المؤمنون؛ لقد وقعت غزوة بني المصطلق في شهر شعبان من السنة السادسة من الهجرة، وتسمى أيضا بغزوة المريسيع. والغزوة: هي المعركة التي قادها النبيﷺ بنفسه. وبنو المصطلق: اسم قبيلة من قبائل العرب. والمريسيع: اسم المكان الذي وقعت فيه هذه المعركة، وهو قريب من ساحل البحر الأحمر بـ80 كيلو مترا، شرقي مدينة "ينبع" اليوم.

وسببها أن النبيﷺ بلغته إشاعة مفادها: أن رئيس هذه القبيلة واسمه الحارث بن أبي ضرار جمع الجموع لمحاربة الرسولﷺ، ولم يكنﷺ ليصدق الإشاعات دون التأكد، ولم يكن ليعتدي على أحد لمجرد القيل والقال، فأرسلﷺ قائد مخابراته الصحابي الجليل بريدة بن الخصيب ليتأكد من الخبر، فرجع إليه بالخبر اليقين، وأن ما بلغه فعلا صحيح، والنبيﷺ لم يكن أيضا يتغافل حتى يباغته عدوه في عقر داره، كما هو حال الأمة اليوم؛ بل إنهﷺ يتخذ المبادرة والحيطة والحذر، فيهاجم قبل أن يهاجم، وهو الذي نزل عليه قوله سبحانه: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1].

أيها الإخوة المؤمنون؛ عندما تأكد النبيﷺ أن قبيلة بني المصطلق قد جمعت الجموع فعلا، وتهيأت لمحاربة الإسلام، توجه إليها على جناح السرعة بجيش من الصحابة، فهجموا عليها فانتصروا، ووقع في الأسر عدد كبير من المشركين، من بينهم بنت قائد القبيلة، واسمها جويرية بنت الحارث، والنبيﷺ لم يكن هدفه الاستيلاء على الأرض، أو هتك العرض، كما هو حال حروب الصليبين والصهاينة اليوم، ولم يصادر الأراضي، ولم يطوق القبيلة بالاستيطان، ولم يجعل من رؤسائها مجرمي حرب، ولم يهدم المنازل، ولم يحرق الأشجار، ولم يخلف وراءه مشردين ولاجئين، كما فعل الصليبيون والصهاينة ولا زالوا في فلسطين والعراق وأفغانستان؛ لأنهﷺ في الحرب رسول السلام، وفي السلم منبع الحب والوئام، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2] وقالﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[3]، والإسلام دين العفو والسماح، ودين يدعو إلى الأمن والسلام، ولكن حينما ينتصر في أرض المعركة، ويحرر مقدساته، ويستخلص حقوقه، فبعد الانتصار أطلق

(1) النساء: 71.
(2) الأنبياء: 107.
(3) صحيح، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 3/ 223، ح: 2981، والحاكم في المستدرك: 1/ 91، ح: 100، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 882، ح: 490.

النبيﷺ سراح الأسرى وسامح وعفا؛ لأن هدفهﷺ هو فتح القلوب للتحلي بالإسلام، لا فتح الجيوب لاستلاب الأموال، ولا يمكن للقلب أن ينفتح قهرا وقسرا. وتتميز هذه الغزوة بأمرين؛ أولهما فعل خير نتج عنه خيران، وثانيهما فعل شر نتج عنه شران:

أما فعل الخير الذي نتج عنه خيران؛ فهو زواج النبيﷺ بجويرية بنت القائد المصطلقي بعد إسلامها، فتبوأت بذلك منصبا ما من امرأة من المسلمات إلا وكان هذا المنصب أمنيتها، حين أصبحت من أمهات المؤمنين، كانت أسيرة فحولها هذا الزواج إلى أميرة، فنتج عن هذا الزواج المبارك خيران مهمان:

الخير الأول: هو إطلاق الصحابة جميع الأسرى، وردهم الغنائم لأهلها، قائلين: هؤلاء أصهار رسول اللهﷺ وهذا خير.

الخير الثاني: إسلام القبيلة على بَكرة أبيها، فلم يبق فيها بيت إلا ودخله الإسلام، فكان هذا الزواج فاتحة خير وبركة على القبيلة بأجمعها، حتى قالت أمنا عائشة –رضي الله عنها–: «ما رأيت امرأة أَمَنَّ على قومها من جويرية»[1]، والنبيﷺ يستغل كل شيء في سبيل نشر الإسلام حتى الزواج، فقد تزوج من بنات رؤساء العرب ليقربهم إلى الإسلام، وليخلق روابط المصاهرة بينه وبينهم، يؤلف بها قلوبهم؛ لأن من عادة العرب أن يحموا أصهارهم وأزواج بناتهم، ولهذا يسمون في اللغة بالحمو والأحماء، لأن القبيلة تحميهم، وهكذا تزوجﷺ بأم حبيبة وهي بنت قائد مكة أبي سفيان، وبصفية وهي بنت ملك اليهود حيي بن أخطب.

أما فعل الشر الذي نتج عنه شران؛ فهو المشاركة المكثفة من المنافقين في هذه الغزوة، وعلى رأسهم رئيسهم عبد الله بن أبي بن سلول، لقد أحدث المنافقون في هذه الغزوة بلبلة عظيمة، واضطرابا أليما، كادت تعصف بوحدة المسلمين لولا أن عالجها النبيﷺ بحكمته البالغة، لقد كانوا كما قال الله تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾[2]، لقد استغل المنافقون وهم مروجوا الخبال وتجار الفتنة في هذه الغزوة شرين خطيرين:

أما الشر الأول: فهو نزاعٌ شب بين مهاجر وأنصاري، فاستصرخ الأنصاري بأهله فقال: يا معشر الأنصار، واستنجد المهاجر: يا معشر المهاجرين، فهرع بعض

(1) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، وقد ورد بلفظ: «ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها» وهو حسن، رواه أحمد في المسند: 6/ 277، وأبو داود في السنن: 4/ 22، ح: 3931 وابن حبان في الصحيح: 9/ 361، ح: 4054، والحاكم في المستدرك: 4/ 28، ح: 6781، وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل: 5/ 37–38، ح: 1212.
(2) التوبة: 47.

من كان حديث العهد بالجاهلية إلى السلاح، فقام النبيﷺ وفض النزاع فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة»، فوجد المنافقون في هذا الخصام الذي حدث فرصة لنفث السموم، وتعميق الجروح، فقال رئيسهم: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[1]، وحتى لا يستفحل أمر هذا النزاع، وحتى يقطع النبيﷺ الطريق على المنافقين، أمر بالرحيل؛ فسار بالناس النهار كله، والليل كله، ونصف اليوم التالي، ما يقارب ستا وثلاثين ساعة من السير المتواصل دون توقف، حتى نسي الجميع هذا النزاع فركنوا إلى لراحة.

أيها الإخوة المؤمنون؛ يجب أن نقول نحن لهذه الفتنة التي تغلي في البلاد: «ما بال دعوى الجاهلية؟... دعوها فإنها منتنة»[2]؛ فالفبرايريون[3]يتظاهرون ولا يريدون التوقف، والطائفة المضادة تُسَيِّر المظاهرات أيضا ضد السابقين، والأئمة بدورهم تركوا المحاضرات إلى المظاهرات مرغمين، فجاء في هذا الأسبوع من يغرر بهم – حسب ما قالوا إذا كان صحيحا- ليتظاهروا ضد إخوانهم السابقين، فضاعت الحقيقة بين "مع وضد"! فما هذا؟ وما هذا الهرْج والمرْج؟ إنه فعل في الفتنة ورد فعل بالفتنة، إنها فتنة كقطع الليل المظلم، ﴿لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[4]؟! ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5]، دعوا كل هذه الأمور فإنها من دعوى الجاهلية منتنة، ابحثوا عن مقاول البناء لا عن معاول الهدم، رحم الله من يخدم هذه الأمة وهو ساكت ساكن، فكلنا مغاربة وكلنا مسلمون؛ فعلى ما هذا الظلم الاجتماعي الخطير؟ فعلى ما هذه الفتنة المنتنة؟ فلم هذه الطبقية المفتنة؟ انظروا لما يحدث في ليبيا وسوريا واليمن نتيجة كل هذا؛ كأن قادة هذه الدول في سباق محموم: "من سيقتل المليون من شعوبهم"! وهل تظنون أن الثورة قد نجحت في مصر وتونس؟ إنها لما تنجح بعد، إنهم يعيشون فوضى؛ أمواج بعضها فوق بعض، لا يستطيعون تكوين حكومة، ولا الاتفاق على وزير، واختلفوا ما السابق: هل الدستور أو البرلمان؟ كمن يختلف ما السابق: هل البيضة أو الدجاجة؟! إنهم في ظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[6]، أتدرون لماذا؟ لأنهم

---

(1) المنافقون: 8.
(2) صحيح مسلم: 4/ 1998، كتاب البر والصلة والآداب/ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما
(3) هم المعروفون بـ20 فبراير، يوم انطلق بوادر الثورة بالمغرب في إطار ربيع الثورات العربية.
(4) الجن: 10.
(5) النور: 11.
(6) النور: 40.

يفتقدون المرجع الرمز الذي يوحدهم ويفصل بينهم، والملكية في المغرب مرجع ورمز تاريخي موحِّد، لولا الملكية لبقينا مختلفين في كل شيء إلى أبد الآبدين، هل تذكرتم ما وقع في مدونة الأسرة قبل عشر سنوات، من المسيرات والمسيرات المضادة، من الفعل ورد الفعل، والله لو هذا الرمز الملكي لكنا مختلفين فيها ولبقينا على تلك الحالة إلى اليوم؛ لأننا لا نعرف أن نختلف، فإذا اختلفنا يسب بعضنا بعضا، ويلعن بعضنا بعضا، ويكيد بعضنا بعضا، ويُضْرب بعضنا ضد بعض، إلى أن يَضْرب بعضنا بعضا، ويُسْتَغَلَّ في هذا حتى الأئمة، وهنا الفتنة والمصيبة، يقول الله تعالَى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[2]؛ نحن نفتقد آداب الخلاف وأخلاق الاختلاف، وحينما أختلف مع أحدهم أستعمل لإيذائه والنيل منه وسائل ربما لا تخطر حتى ببال الشيطان، ولا بد هنا للرمز أن يتدخل.

إن ثورة مصر وتونس في حاجة اليوم لشيء واحد، قبل البرلمان، وقبل الدستور، وقبل أي شيء؛ إنه: أن ينتخبوا بينهم شخصا يكون مرجعا يفصل بينهم، فليسموه رئيسا، أو ملكا، أو أي شيء آخر، ولكن يجب أن يكون مرجعا لفض المنازعات الكبرى، وإلا فالفتنة هي المصير؛ اتفق الناس ألا يتفقوا، ورضى الناس غاية لا تدرك؛ لا بد لعقلاء الأمة في هذه البلاد أن يشغلوا الناس عن هذه الوضعية المنتنة بكل المقاييس، التي قال النبيﷺ في مثلها: «ما بال دعوى الجاهلية؟... دعوها فإنها منتنة»[3]؛ أعطوا لكل ذي حق حقه، عالجوا أسباب الفتنة، لا نريد للفتنة أن تنام ثم نلعنَ من يوقظها، ولكن نريد لها أن تموت لنشكر من قتلها، اشغلوا الناس بالمسير إلى الخير قبل أن يشغلهم الشر، تعلموا من النبيﷺ في سيرته في غزوة بني الصطلق ودعوا كل هذه الفتن فإنها منتنة. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[4].

صدق الله العظيم وغفر لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العلمين.

---

(1) البقرة: 191.
(2) البقرة: 217.
(3) صحيح مسلم: 4/ 1998، كتاب البر والصلة والآداب/ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما.
(4) هود: 88.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

أما الشر الثاني: فهو ما سماه القرآن الكريم بحديث الإفك، والحديث عنه اعتبره بعض العلماء إفكا أيضا، والإشارة فيه تكفي، لقد اتهم المنافقون في هذه الغزوة طهارة عائشة بما هي بريئة منه، فبرأها القرآن الكريم، فكان ذلك لها شرفا عظيما، إذ كانت تبرئتها قرآنا يتلى على مر العصور والأزمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]، حتى قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[2].

هذا ديدان المنافقين على مر الأزمان والعصور، لا يستطيع المنافق أن يكون في مواجهة النبيﷺ بخباله، أتدرون لماذا؟ لأنه جبان ونذل وحقير، يستعمل في محاربة النبيﷺ أسلوب الشيطان، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[3] وهذا ما يحدث لنا اليوم في "الفيسبوك" وغيره حين يتبادل الشيب والشباب الشتائم والسباب، من حيث لا يعرف بعضنا بعضا، فأصبحنا كلنا شياطين "الفيسبوك"؛ فكل من يسبك من وراء الستار، ومن حيث لا تتمكن من رؤيته ومعرفته فهو شيطان منافق جبان، فالمنافقون من حيث لا يراهم النبيﷺ يطلقون عليه التهم المجانية جزافا هكذا، فليخسأ المنافقون الأفاكون الآثمون على مر العصور والأزمان، الذين اتهموا عائشة الطاهرة البريئة ولا زالوا من خبثاء الشيعة، فإن أعمال الصالحين والصالحات سوف تسير سفينتها، فلا ضير من كلاب المنافقين حين تنبحها.

لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا   لأصبح الصخر مثقالا بدينار[4]

فشرف عائشة -رضي الله عنها- ومن حذا حذوها هو جبل شامخ، فأنى تهتز الجبال بالرياح التي تهب من أفواه المنافقين المنتنة.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) النور: 11.
(2) النور: 26.
(3) الأعراف: 27.
(4) هذا البيت أورده اليوسي في محاضراته: ولم ينسبه لقائل معين.

34) الخطبة [6] فوائد من صلح الحديبية(1)

الحمد لله نحمده أن جعل سيرة الرسولﷺ أساسَ العمل والعبادة، ونشكره سبحانه وهو المنعم علينا بدأ وإعادة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الشهادة، أمر بالاقتداء بالسيرة النبوية حتى نحقق لأنفسنا في الدارين السعادة، فننالوا من الله تعالى حسن الذكر والإشادة، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الكريم الرفادة، أفضل من عبد فكان له حسنُ الإدارة وصدقُ الإرادة. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين حققوا باتباعهﷺ الاستفادة والإفادة، فكانت لهم في التاريخ الريادةُ والقيادةُ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم يكون فيه نصيب هذه الدنيا النهايةَ والإبادةَ

أما بعد؛ فيا أيها الاخوة المؤمنون أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته

دعونا اليوم نرجع بكم إلى السيرة النبوية العطرة، نستكشف أسرارها، نصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها، نحارب بالوقوف على أحداثها جهلنا بها، نستمد لمواجهة أعدائنا الشجاعة منها، فهي منبع سيال لا ينضب معينها، ومدرسة عظيمة تنوعت أبحاثها وشعبها، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها.

فإذا ما سلطنا الأضواء الكاشفة على هذا الشهر الذي نحن فيه: شهر ذي القعدة الشهر الحادي عشر من الشهور الهجرية الإسلامية، نجده قد حمل إلينا في طياته أحداثا عظيمة من السيرة النبوية: ففيه اعتمر النبيﷺ ثلاث عمر: عمرة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، التي حقق فيها مع قريش صلحا يسمى بصلح الحديبية، ثم عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ثم عمرة الجعرانة في السنة الثامنة بعد فتح مكة والطائف؛ فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن عمرة الحديبية.

أيها الإخوة المؤمنون؛ إن عمرة الحديبية ليست مجرد حدث وقع ومضى، ومجرد أمر جاء وانقضى؛ بل هي مدرسة خلفت لنا أحكاما شرعية مهمة، وأخلاقا حسنة عظيمة. وإذا كان لكل حدث عظيم سبب جليل؛ فإن سبب عمرة الحديبية هو أن النبيﷺ رأى في منامه أنهﷺ قد دخل مكة مع أصحابه معتمرين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: في: 25 ذي القعدة 1430هـ 13/ 11/ 2009م.

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وهنا نتعلم أن الرؤيا المنامية نوع من الوحي؛ فإذا كانت من غير النبيﷺ لا بد من تفسيرها حسب قواعدها وضوابطها، يعلمها من له العناية والدراية بها، وهي ما تبقى لنا من الوحي والنبوة بعد موت النبيﷺ، قالﷺ: «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت، ولا تحدثوا بها الا عالما أو ناصحا أو لبيبا، والرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزأ من النبوة»[2].

أما إذا كانت من النبيﷺ فهي شرع وشريعة، وجب الأخذ بها، وامتثال أمرها، ولذلك بادر النبيﷺ بالاستجابة لها فورا، فتهيأ للعمرة والظروف لم تكن مواتية؛ فكفار قريش لا زالوا يسيطرون على مكة المكرمة، ويتحكمون في مناسك الحج والعمرة، وبينهم وبين النبيﷺ حرب طاحنة؛ باردة وساخنة، شهدت معارك كبيرة؛ منها غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، فكيف السبيل إذن إلى العمرة وتحقيق الرغبة، ولا يتم ذلك إلا بدخول مكة والطواف بالكعبة؟! ورغم ذلك فما كان للنبيﷺ إلا أن يأمر بالمسير لمكة، لابسا إحرامه ملبيا لأداء العمرة.

ومن هنا نتعلم أن المسلم يجب عليه أن يبادر بتنفيذ وتطبيق شرع الله كلما تجدد لديه حال، وألا يتردد في ذلك، فالتردد ضعف في إسلامه، وخلل في إيمانه، لكن بعد التأكد من أحكام الشريعة، عن طريق سؤال العلماء.

فلما قطعﷺ مسافة تزيد عن 400 كيلومترا، وصل إلى مكان اسمه "الحديبية"، لا يبعد عن مكة إلا بحوالي 25 كيلومترا، فهناك بركت ناقتهﷺ المسماة بالقصواء فرفضت المسير، فقال بعض الصحابة: خلأت القصواء، أي: تعبت من السفر، فقالﷺ: «لا والله، ما خلأت وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[3] إشارة إلى قصة أصحاب الفيل الذي امتنع هو أيضا من المسير تعظيما لحرمة مكة، التي ذكرها الله تعالى: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[4].

---

(1) الفتح: 27.
(2) مسند أحمد: 4/ 10، والمعجم الكبير للطبراني: 19/ 205.
(3) صحيح البخاري: 2/ 974،كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.
(4) صحيح البخاري: 3/ 1352، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب عثمان بن عفان.

وهنا نتعلم أنه إذا كان الحيوان الأعجم مثل الفيل والناقة، قد ألهمه الله عظمة حرمة البيت، فكيف تتحجر قلوب بعض الناس، وتحجب بصائرهم، فلا يرون لمكة حرمة، فيخترقونها وينتهكونها؟! أرأيتم مقارنة مثل هذه؟!

ثم وقع ما كان متوقعا فقد منع كفار قريش النبيﷺ من الدخول إلى مكة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وبعد ذلك بدأت المفاوضات بينهم وبين النبيﷺ، فأرسل من أجل ذلك عثمان بن عفانرضي الله عنه، فعرض عليه الكفار الطواف بالكعبة فرفض؛ لأن النبيﷺ منع منها، تقديما للآداب على الأوامر، ثم جاءت رياح الإشاعات الكاذبة، فانتشر بين الصحابة أن قريشا قد قتلت سيدنا عثمان، فعزم النبيﷺ على الحرب والقتال إلى الموت، وبايعه الصحابة على ذلك تحت الشجرة بيعة الرضوان، ووضعﷺ يده على الأخرى فقال: «هذه لعثمان»[2]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3]، فتحول الصحابة من حمائم الإحرام والعمرة إلى أسود الحرب والوغى، ولكن ما لبث أن أطل عليهم عثمان ناجيا مسلَّما، لم يقتله أحد، ولم يعتد عليه أحد.

ومن هنا نتعلم أن الإشاعات الكاذبة خطرها على المجتمع كبير، وأثرها عليه خطير؛ فيا ما هتكت من الأعراض! ويا ما شتتت من الأسر ودمرت من العائلات! من يتعاطاها هم شرار الناس، ينشرون في المجتمع بسمومهم البؤس والبأس، والخوف واليأس، فقد كادت أن تكون سببا في مكة المكرمة لحرب لو بدأت لا يعلم إلا الله كم من أرواح طاهرة ستزهق، ودماء بريئة ستهرق؟! ولكن الله سلم.

وبعد ذلك أسفرت هذه المفاوضات عن صلح يسمى في السيرة بـ"صلح الحديبية"، فأمرﷺ عليا أن يكتب: «هذا ما اتفقت عليه قريش مع رسول اللهﷺ» فرفضت قريش وصف الرسولﷺ بالنبوة قائلين: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما خالفناك ولا حاربناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فأمر رسول اللهﷺ عليا أن

(1) البقرة: 114.
(2) الفتح: 18.
(3) الفتح: 18.

يمحو كلمة "رسول الله" فلم يستطع تقديما للآداب على الأوامر كما فعل عثمان في الطواف، فمحاهاﷺ بيده[1]، ثم كتب البنود الآتية:

1) يرجع الرسولﷺ هذا العام فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القادم دخلها المسلمون فأقاموا فيها ثلاثة أيام.

2) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

3) من أحب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

4) من أتى محمداً من قريش هاربا وجب عليه أن يرده عليهم، ومن جاء قريشاً من أتباع محمد هارباً منه لم يجب عليهم رده عليه.

فأثارت هذه البنود غضب الصحابة وعلى رأسهم عمر، وما استطاعوا قبولها ولا تحملها، وخصوصا البند الأخير، ولكن الرسولﷺ قبل بذلك فقال قبل توقيع المعاهدة: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[2]

ثم أمر الرسولﷺ بالتحلل من العمرة؛ بالحلق، وذبح الهدي، وإزالة لباس الإحرام، فرفض الصحابة الاستجابة لهول ما نزل بهم من جراء قبولهﷺ بهذه البنود التي ظنوها ذلا وإهانة، بينما الرسولﷺ يراها فتحا ونصرا، وهنا دخل على زوجته أم سلمة فزعا مستغربا ليستشيرها، وهو يردد: «هلك الناس، هلك الناس»، فأشارت عليها بأن يحلق ويذبح هديه ولا يكلم أحدا، فعمل بمشورتها، فتبعه الصحابة فورا، فابتدروا الحلق والذبح كما فعلﷺ.

وهنا نتعلم أمرين:

الأول: نتعلم أنهﷺ يأخذ بالشورى في كل أحواله؛ بل لا يكاد حدث ينزل به إلا واستشار أصحابه، وهنا يستشير المرأة ويأخذ بمشورتها، ومن الذي قال بأن المرأة لا تصلح أن تكون مستشارة؟ وقد نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[3]، كما نزل في أصحابه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[4].

---

(1) – صحيح البخاري: 2/ 977، كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، – صحيح مسلم: 3/ 1409، كتاب الجهاد والسير/ باب صلح الحديبية في الحديبية.
(2) – صحيح البخاري: 2/ 977، كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب...
(3) آل عمران: 159.
(4) الشورى: 38.

الثاني: نتعلم من قولهﷺ: «هلك الناس، هلك الناس» أن مخالفة أوامرهﷺ دمار وهلاك، فلا نستغرب إذن من هذه الفتن المدمرة التي تجتاح العالم الإسلامي اليوم، فقد ارتكبنا فضائع وفضائح لا تخطر حتى ببال الشيطان! فقد انتهكت الأعراض بالتبرج والسفور، وفسدت العقول بأم الخبائث الخمر والمخدرات والتدخين، وفسد الاقتصاد بالقمار والرشوة والربا، وفسدت العقائد بالخرافات والأوهام والشعوذة، وسبب كل ذلك إنما هو في مخالفة أوامر رسول اللهﷺ فهلك الناس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

بهذا التحلل من العمرة في الحديبية كانت عمرتها عمرة مستقلة كاملة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، والرسولﷺ يوم الحديبية غاية ما يستطيع هو التحلل من العمرة بالحلق وذبح الهدي، فكتب الله له ولأصحابه أجر العمرة وإن لم يصلوا مكة؛ لأن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة.

وهنا أزف البشرى لأولئك الذين يحاولون اليوم التسجيل في الحج عن طريق القرعة لسنوات فلم يسعفهم الحظ، ولم يأت دورهم بعدُ، ليتعلموا أنهم في كل مرة تقدموا فيها للقرعة، فإن الله تعالى يكتب لكل واحد منهم أجر الحج وإن لم يسافر ولم يزر مكة، فلا تيأسوا ولا تقنطوا من رحمة الله، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) التغابن: 16.

(2) الحديد: 21.

35) الخطبة [7] غزوة خيبر رمز الصراع مع اليهود(1)

الحمد لله الحليم الغفور، العليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، الخبير بأحوال عباده وإليه ترجع الأمور. وأشهد أن لا إله إلا الله، العليم بخبايا الدنيا وما فيها يدور، جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وقليل من عباده الشكور. وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله بالهدى والنور، ففتح بجيشه "خيبر" وهو من أهم الثغور، وازال ما زرع به اليهود من المفاسد والشرور، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أهل النظافة والطَّهور، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم النشور.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن سيرة الرسولﷺ منبع سيال لا ينضب، ومدرسة عظيمة متعددة الأبحاث والشعب، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها، فهي سيرة تكشف لنا عن قمة في مكارم الأخلاق وتزكية النفوس، قمة في الحكم والعدل بين الناس، قمة في حقوق الإنسان والمساواة بين الاجناس، قمة في الطهارة ومحاربة الأنجاس، قمة في التضحية في سبيل الله بالغالي والنفيس. فكان حقا على المسلمين أن يرتبطوا فيها بالأحداث والذكريات، وأن يقفوا عند الجهاد فيها والغزوات، ولكن ليس ارتباط السرد في المناسبات، ولا وقفة المعجب بالمعجزات؛ بل وقفة ارتباط بفقهها علما ومعاملات.

فدعونا اليوم نعود بكم إلى أحضان هذه السيرة العطرة، لنختار لكم منها غزوة وقعت في هذا الشهر شهر محرم، وانتهت أحداثها في شهر صفر، من السنة السابعة، وهذه المرة ضد المستوطنين من اليهود في خيبر، تلكم هي غزوة خيبر.

فما هي غزوة خيبر؟ وما الذي حدث فيها؟ وما هي الفوائد التي نستفيد منها؟ فلو توجهنا بهذه الأسئلة اليوم إلى الناس لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، وهذه أمية عار في جبين الأمة، رغم أن الأمة المسلمة، تملك اليوم وسائل الإعلام المتطورة، ومواقع في شبكات الإنترنيت، ولكن مع الأسف الشديد، لا تنشر إلا أفلام الغرام والحرام، لا تنشر إلا وسائل الهدم، ومعاول التخريب، ضد أخلاق هذه السيرة العطرة في مجتمعنا، بأفلام تجارية رخيصة، وأقلام تجارية مشبوهة،

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 3 صفر 1422 هـ 27 / 4/ 2001م، وفي: 23محرم الحرام 1429 هـ 01/ 02/ 2008م.

تناجي الجنس، وتدغدغ الشهوة، فيلوثون بها الهواء في فضائيات الهوى، ويجردون بها الأخلاق في جرائد الفساق. وكيف تنتصر أمة تجهل حياة قائدها ومؤسسها؟

إننا نتذكر غزوة خيبر ضد اليهود، ونحن نعيش ما يحدث في فلسطين والعراق، والأمة المسلمة تعيش اقتصاديا وإعلاميا وسياسيا وعسكريا تحت سيطرة الصهاينة؛ يوجهونها ويتحكمون فيها بأيديهم الخفية، فيجنحون للسلم حين يكون في صالحهم، ويشعلونـها حربا وتدميرا على من يقول: لا لظلمهم واحتلالهم. فما هدموا في فلسطين والعراق البيوت والطرقات إلا حين فرقت الأمة النزاعات، وما قلعوا منها الأشجار إلا حين شت شمل الأمة الشجار، وما قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال إلا حين غاب عن الأمة الرجال.

أيها الإخوة المؤمنون؛ أتدرون لماذا استوطن هؤلاء اليهود خيبر كما استوطنوا المدينة؟ فهم ليسوا أصلا من الجزيرة العربية، استوطنوها لأنهم يقرءون في التوراة أن خاتم الأنبياء وأعظمهم سوف يهاجر إليها، ولكنهم يظنون أنه سوف يبعث فيهم، ولهذا كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي المنتظر. ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾[1]! فلما أصبح النبي المنتظر منظورا بأعينهم وأبصارهم، كفرت به قلوبهم وبصائرهم!

ورغم ذلك فقد تعاهد معهم النبيﷺ في البداية، وعاملهم حسن المعاملة قبل أن يغدروا، وعلى هذا فإن غير المسلمين الموجودين في بلاد المسلمين يجب أن يعاملوا هكذا بحسن المعاملة، لا يجوز بحال من الأحوال التعرض لهم بالأذى، فمن سماحة الإسلام التأدب مع الكافر المعاهد أيا كان، قال سبحانه وتعالى: ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾[2]، ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾[3]، ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح﴾[4]، ﴿إذ قال لهم أخوهم هود﴾[5]؛ فالأنبياء كل واحد منهم أخ لقومه رغم كفرهم وشركهم وعدم شكرهم.

والأخوة في الإسلام أنواع: أخوة النسب واللحمة، وأخوة الدين والعقيدة، وأخوة البلاد والوطنية، وأخوة آدم والإنسانية، وكل من في البلاد إخوة في البلاد والوطن، قبل أن يكونوا إخوة في الدين والنسب؛ ولكن الصهاينة الذين احتلوا

---

(1) البقرة: 89.
(2) الشعراء: 106.
(3) الشعراء: 161.
(4)الشعراء: 142.
(5)الشعراء: 124.

فلسطين هم أعداء الأمة، وصراع الأمة معهم ليس صراع أرض وحدود، ولا صراع مواثيق وعهود، وإنما هو صراع حياة ووجود.

لقد كان يهود خيبر كالصهاينة اليوم، أهل مكر وخديعة، ما تركوا حيلة إلا واستعملوها للقضاء على الدعوة النبوية في المدينة، فهم الذين جمعوا الأحزاب في غزوة الخندق، كما جمع أحفادهم اليوم الأحزاب في تدمير فلسطين والعراق، وأخذوا يتصلون بالعدو الداخلي للإسلام المنافقين، وأثاروا أعراب البادية ضد المسلمين، وخططوا عدة مرات لاغتيال الرسولﷺ، فلما غدروا بالنبيﷺ هكذا، كان لابد أن يحاربهم حتى يغادروا خيبر، لا بد من تأديبهم والضرب على أيديهم قبل أن يستفحل أمرهم، فتوجه إليهم الرسولﷺ في كوكبة إيمانية من أصحابه، لا يتجاوز عددها ألفا وستمائة مقاتل، وخيبر قرية ذات حصون منيعة، ومجهزة بأحدث الأسلحة آنذاك، وعدد المقاتلين فيها عشرة آلاف، ولكن الرسولﷺ أخذ المبادرة، فاستغل أسلوب المفاجأة، وأخذهم على حين غرة وهم لا يشعرون.

فلما وصلﷺ إلى أسوار خيبر، دخلها بعد الفجر، وكان من عادتهﷺ في غزواته أنه لا يهاجم إلا بعد الفجر، فإن سمع الآذان أمسك، وإن لم يسمعه هاجم؛ لأن الآذان علامة الصلاة، والصلاة علامة الإيمان، والله عز وجل يقول: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[1]، والعلماء استنبطوا من هذا أن كل من ضيع صلاة الفجر فقد ضيع الدين كله، فكيف بمن ضيع الصلاة كلها!

فلما أصبح الصباح ولم يسمعﷺ آذان الصبح، دشنﷺ هجومه بقولة فيها عزة المؤمن وقوته وشجاعته وارتباطه بخالقه، حيث قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين»[2] إنه دشن هجومه بكلمة «الله أكبر»، تلك الكلمة التي تفعل في قلوب الأعداء حين تطرق أسماعهم، مالا تفعله القنابل المسيلة للدموع والأرواح، ولكن حين يقولها المسلم بقلبه ولسانه وعمله، فالصحابة ينادي أحدهم في معركة غير متكافأة: الله أكبر! فتنهزم الجيوش الجرارة أمامه، فبها فتحوا أقصى الشرق وأقصى الغرب، قالوها في السلم فاعتزوا، وقالوها في الحرب فانتصروا، فرددها صلاح الدين فرد بها كيد الصليبين في معركة حطين، ورددها

---

(1) التوبة: 18.

(2) – صحيح البخاري: 1/ 221، كتاب الأذان/ باب ما يحقن بالأذان من الدماء، – صحيح مسلم: 2/ 1043، كتاب النكاح/ باب فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها.

القائد المسلم قطز فرد بها كيد التتار في معركة عين جالوت، ورددها المجاهدون على مر التاريخ فامتد بها الإسلام عبر القارات. وقد جاء التكبير في أول تكليف يحمله القرآن الكريم للرسول ﷺ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].

صدق الله العظيم وغفر لي ولكم وسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(1) المدثر: 1-4.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون!

ما بالنا نحن اليوم لا تفعل فينا «الله أكبر» فعلها؟ فهيهات أن تفعل ونحن إنما نلوكها بألسنتنا، فلا تنبعث من قلوبنا، ولا تنزل إلى معاملاتنا، فهي لا تنفع إذا كانت قولا مجردا عن العمل، ومظهرا مجردا عن المخبر، فهي بذور صالحة، ولكنها لا تجدي إذا لم تكن في مزرعة خصبة، وأرضية صالحة، فماذا عسى أن تفعل «الله أكبر» في مجتمع لا يتورع عن المفاسد والمنكرات، مجتمع لا يبالي المرء فيه من أين أخذ المال من الحلال أمن المحرمات، مجتمع الحلال عنده هو ما حل بيده، والحرام ما حُرم منه، مجتمع لسان حاله يقول: اللهم اغننا بحلالك وحرامك، مجتمع بالرشوة تُقْضَى فيه الحاجات، واقتصاده من الربويات، ورياضته اختلاط مشين في الصالات، مجتمع نساءه كاسيات عاريات، مجتمع تظهر فيه علنا علامات الزناة والزانيات، مجتمع الظلم فيه أصبح من العادات، مجتمع يتعاطى أبناؤه الخمر والمخدرات، فماذا يجدي بعد هذا التهليلات والتكبيرات، ولو قلناها بالعشرات والمئات.

أما بقية أحداث غزوة خيبر فسوف تأتي تتمتها في الجمعة المقبلة إن شاء الله

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ...

36) الخطبة [8] غزوة خيبر رمز الصراع مع اليهود (تابع)[1]

الحمد لله الواحد الديان، فتح خيبر وواجلى منه كيد اليهود من الخديعة والخذلان، وأشهد أن لا إله إلا الله خلق الإنسان فعلمه البيان، وحذره من المعاصي المؤدية للخيبة والخسران، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله جاهد في سبيل الله باللسان والسنان، حتى طهر الجزيرة العربية من أرجاس اليهود والأوثان، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه على مر الدهور والأزمان، ومن تبعهم بالإحسانإلى يوم القسط والميزان.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته، فما أفلح من فسق، ولا خسر من اتقى.

إن سيرة الرسولﷺ هي سيرة عطرة، فيها للمسلم العظة والعبرة، تمنح له في حسن القدوة وقوة القدرة، وفي اتباعها عند الله تعالى عظيم الأجر والأجرة، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، فكان حقا علينا أن نرتبط فيها بالأحداث والذكريات، وأن نقف عند الجهاد فيها والغزوات، ولكن ليس ارتباط السرد في المناسبات، ولا وقفة المعجب بالمعجزات؛ بل وقفة ارتباط بفقهها علما ومعاملات.

من أجل هذا وقفنا بكم في الجمعة الماضية عند الجزء الأول من غزوة خيبر، وهي غزوة من غزوات الرسولﷺ، وقعت في هذا الشهر شهر محرم، من السنة السابعة من الهجرة، وخيبر قرية ذات حصون منيعة، استوطنها اليهود كما استوطنوا المدينة؛ لأنهم يقرءون في التوراة أن خاتم الأنبياء وأعظمهم سوف يهاجر إلى مدينة ذات نخل وماء، فوجدوا خيبر كذلك فاستوطنوها.

ففي الجمعة الماضية تعلمنا أن يهود خيبر ديدنهم عداوة المسلمين سرا وجهرا، قولا وفعلا، والنبيﷺ لم تسمح له عزة الإيمان أن يتركهم هكذا، دون أن يوقفهم عند حدهم، فتوجه إليهم بمجموعة من أصحابه، فاتخذ المبادرة، وأخذهم على حين غرة، فهاجمهم في عقر دارهم مناديا "الله أكبر".

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 3 صفر 1422 هـ 27 / 4/ 2001م، وفي: 30 محرم الحرام 1429 هـ 08/ 02/ 2008م.

(2) آل عمران: 31.

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن الجزء الثاني من هذه الغزوة، ما الذي حدث فيها؟ وكيف انتهت حلقاتها؟ وما هي الفوائد التي يجب أن نقف اليوم عندها؟

أيها الاخوة المؤمنون؛ بعد أن أعلن الرسولﷺ ابتداء معركة خيبر، بكلمة «الله أكبر»، رددها من ورائه الصحابة، فانتصروا، لأنهم أرضية صالحة لبذورها، تعطي فيها « الله أكبر » أكلها. ففي بداية المعركة أعطى الرسولﷺ قيادة الجيش لأبي بكر فلم تفتح خيبر، ثم أعطاها لعمر فلم تفتح خيبر، ثم قال: «لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسولَه، ويحبه الله ورسوله»[1]، فتمنى كل واحد من الصحابة أن تكون من نصيبه، فقال عمر: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فتساورت لها، (أي: تطاولت) رجاء أن أدعي إليها»[2]، وقال سعد بن أبي وقاص: «لأن تكون لي أحب إلى من حمر النعم»[3]، وحمر النعم هي أنفس الإبل عند العرب.

فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول اللهﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، تمنوا القيادة لا لمتاع الدنيا، ولا لمنصب كرسي في مجلس ما، ولكن لأن فيها شهادة الرسولﷺ على الحب المتبادل بين من سيتولى القيادة في خيبر، وبين الله ورسوله؛ فقالﷺ: أين على بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، إنه مريض بعينيه. فأرسل إليهﷺ فأتي به، فتفلﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»، رواه الشيخان[4]، وفي رواية «خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[5].

ومن هذا نتعلم أن الحروب في الإسلام ليس الهدف منها قتل الإنسان، وتشريد الإنسان، وقتل المدنيين الآمنين، كالحروب التي تشنها الصهاينة والصليبيون اليوم في العراق وفلسطين، وليس الهدف منها هدم الاقتصاد والبنيات التحية، كحروب التكنلوجية اليوم؛ بل هدف الإسلام في الحرب هو هداية الإنسان، هو جعل الإنسان يتمتع برضا خالقه، بإدخال الإسلام إلى قلبه ومعاملاته.

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 1096، كتاب الجهاد والسير/ باب فضل من أسلم على يديه رجل.
(2) صحيح مسلم: 4/ 1871، كتاب فضائل الصحابةﷺ/ باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.
(3) نفس المصدر.
(4) سبق تخريجه في خطبة غزوة الأبواء أول غزوات الرسولﷺ، رقم: 16.
(5) سبق تخريجه في نفس المصدر.

ولا بد من وقفة تأمل أمام هذا الحديث العظيم؛ هداية رجل واحد خير من الدنيا وما فيها، فعلى كل واحد منا أي يسأل نفسه: هل كان يوما ما سببا في هداية إنسان؟ كم واحد هداه الله على يديه؟

أتدرون بماذا يحقق المسلم لنفسه هداية الغير؟ إنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهما يكون المسلم عاملا إيجابيا في أسرته وأصدقائه، وعنصرا فعالا للخير في مجتمعه، بهما يواجه فسق المنكرات، فالإسلام لا يريد للمسلم أن يعمل العمل الصالح فحسب؛ بل يريد له علاوة على ذلك أن يأمر به غيره، ولا يريد له أن ينتهي عن المنكر فحسب؛ بل يريد أن ينتهي وينهى، لا يريد له أن يعيش لنفسه وذاته؛ بل يريد له أن يعيش بمجتمعه ولمجتمعه، «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1]. ولكن ليس المقصود بهداية الغير مجرد وعظ وخطاب؛ بل هو حرية مشروعة في التعبير، وتوعية وإرشاد من أجل التغيير، ومساهمة إعلامية في التنوير، وممارسة عملية من أجل التحرير.

أيها الإخوة المؤمنون؛ بهذه الوصية النبوية: قاد سيدنا علي رضي الله عنه الهجوم، ففُتحت خيبر على يديه، فأذعن اليهود للإسلام، فأسلم فيهم من أسلم أعزة مؤمنين، وبقي فيهم من بقي على الكفر أذلة صاغرين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: 4/ 1919، كتاب فضائل القرآن/ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون!

إن اليهود دائما مكرهم لا ينتهي بهزيمتهم وذلتهم، فبعد الفراغ من غزوة خيبر حاولوا قتل الرسولﷺ بالسم، فقد أهدت إليه امرأة منهم شاه مشوية مسمومة، وأكثرت السم في الذراع عندما علمت أنهﷺ يحب أكلها، فلما أراد أن يأكل أخبرته الذراع أنها مسمومة، فاستجوب المرأة فاعترفت بجريمتها، فقالت: «إن كنت نبيا فسيعصمك الله تعالى، وإن كنت جبارا استرحنا منك بموتك»[1]، وكان صحابي اسمه بشر بن البراء بن معرور قد ابتلع لقمة منها فمات مكانه، فكان كلام الذراع المشوية معجزة أخرى واضحة وبرهانا آخر ساطعا على نبوة النبيﷺ، ولكن أعمى الحقد أبصارهم. قال البوصيري رحمه الله:

ثم سمت له اليهودية الشا ... ة وكم سام الشقوة الاشقياء

فأذاع الذراع ما فيه من ســـ ... ـــم بنـطـق إخفــاؤه إبداء

هكذا -يا عباد الله- بدأ الصراع مع اليهود في المدينة وخيبر، فامتد عبر الزمان والمكان، ووراء كل فتنة في الإسلام يهودي، يقول الله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[2].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) الطبقات الكبرى: 2/ 116.

(2) المائدة: 82.

37) الخطبة [9] زواج النبيﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان(1)

الحمد لله الذي أحل الزواج والنكاح، وحرم البغاء والسفاح، نحمده سبحانه أن جعل لنا سيرة المصطفى مصدر الفوز والفلاح، إذ هي ضد كل قبيح مناعة ودفاع وسلاح؛ ونشهد أن لا إلـه إلا الله، شهادة نتقي بها الشرك الخفي والكفر البواح، شهادة نداوي بها عن أنفسنا الأمراض والجراح. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله تعطر الكون بسيرته وفاح، فكان الاقتداء به في الدنيا مصحوبا بالنجاح، وفي الآخرة مقرونا بالثواب ومضاعفة الأرباح. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما بزغ النهار في الأفق ولاح.

أما بعد، فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

هانحن في شهر جمادى الأولى، الشهر الخامس من الشهور الهجرية الإسلامية، وقد حمل إلينا هـذا الشـهر من عبق التاريخ، ومن عطر السيرة النبوية، ذكرى زواج النبيﷺ بأم حبيبة(2)، ونحن في عطلة يختارها الكثير مناسبة لحفلات الزواج، وقد صادف ذلك زواج النبيﷺ مصادفة يرجى منها كل خير وبركة، ورب مصادفة خير من ألف ميعاد.

فتعالوا بنا اليوم في إطار محاربة الأمية بسيرة الرسولﷺ نستكشف هذه الذكرى، نستطلع فوائدها، نستنطق فقهها، علنا نستخلص منها مَرْهَما شافيا، ودواء ناجعا، نداوي به ما تعفن من القضايا في مجتمعنا، عبر المسائل الآتية:

المسألة الأولى: من هي أم حبيبة؟ لو توجهنا بهذا السؤال اليوم، لما وجدنا الجواب إلا عند القليل، رغم أنها زوجة النبيﷺ رغم أنها أم المؤمنين، لعمري لقد ضاعت أمة تجهل حياة أمها، ولا تعرف إلا القليل عن أسرة نبيها، ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾(3)، لو كانت تضرب الأرقام القياسية في ألعاب

(1) ألقيت في مسجد الإمـام البخـاري بأكـادير في: 15 جمـادى الأولى 1420هـ 27/ 8/ 1999م، ثـم أعيـدت أخيرا في 14 جمادى الأولى 1433 هـ 06/ 04/ 2012م.

(2) ذكره محمد رضا في كتابه "محمـد رسـول اللهﷺ" (ص: 274)، ولكـن الـذي يفهـم مـن كتـب الـسيرة، أن النبيﷺ تزوج بأم حبيبة بعد رجوعها من الحبشة، وأن المهاجرين إلى الحبشة قدموا على النبيﷺ وهو في خيبر، ومن بينهم جعفر بن أبي أبي طالب حيث قالﷺ: «ما أدري بأيهما أفرح بقدوم جعفر، أو بفـتح خيـبر»، ومـن المعلوم أن غزوة خيبر وقعت في شهر محرم.

(3) الأحزاب: 6.

العري والقوى، لو كانت تشارك في مسابقات "ستر أكادمي" أو "أرب أيضل" أو "ستديو دوزيم" أو غير ذلك من مستنقعات الرذائل لضجت بها وسائل الإعلام، ولاستقبلناها في الواقع والأحلام، إذا غلبت، ولبكينا من أجلها إذا انهزمت؛ بل منا من يدعو للمشاركات المغربيات العاريات في تلك المسابقات: "اللهم انصرهن"، كأنهن ذهبن لتحرير القدس من نَبِّيحة الصهاينة، أو لإنقاذ أطفال سوريا من شبيحة الشيعة؛ ولكن أم المؤمنين -رضي الله عنها-، إنما ضربت الأرقام القياسية في الثبات على الإيمان، وتحمُّل المصاعب في سبيل الإسلام.

كيف ذلك أيها الاخوة في الله؟ إن أم حبيبة هي بنت أبي سفيان، وأبو سفيان قبل إسلامه هو عدو الرسولﷺ اللدود، فهو الذي قاد عدة حروب ضد الرسولﷺ في أحد، والخندق، وغيرهما، ولكن أم حبيبة -رضي الله عنها-، أسلمت لما تبين لها الحق رغم أنف أبيها، فقامت في أسرتها معتزة بدينها في وجه تيارات الكفر العاتية، فلما حاول أبوها سلخ الإسلام منها بالقوة، هاجرت مع زوجها المسلم إلى الحبشة، أي ما يسمى الآن بإثيوبيا وأرتيريا، قبل أن يهاجر الرسولﷺ إلى المدينة، لأن في الحبشة آنذاك ملكا يسمى النجاشي لا يُظْلَم عنده أحد؛ ولكن زوجها بعد أن وصل إلى الحبشة، غرر به بعض الصليبيين فتنصر، وارتد عن الإسلام، وأم حبيبة -رضي الله عنها- مرة أخرى، ثبتت على الإسلام، ورفضت اتباع زوجها في ضلاله، فلما رأى منها ذلك طلقها وفارقها.

ولكم أيها الاخوة في الله، أن تتصوروا الآن، مدى محنتها وعذابها، والصعوبات التي تحملتها في سبيل تمسكها بدينها، لقد أسلمت فحاربها أبوها، فهاجرت إلى ديار الغربة، وما أدراك ما الغربة ومعاناتها؟ فاشتدت عليها مأساة غربتها أكثر، حين تنكر لها زوجها الذي كان ملجأها الوحيد، فارتد عن الإسلام، ووقع في ضلالات النصارى فطلقها، لقد كان بإمكانها أن تعيش في حضن أبيها عيشا رغيدا لو كفرت بمحمدﷺ، ولكنها في سبيل الإسلام بقيت وحيدة، لا أب يعطف عليها، ولا زوج يحميها، فأين المفر لها؟ أتفر من ضلال زوجها إلى طغيان أبيها ليفتنها في دينها؟

وهنا تمتد يد الرحمة المهداةﷺ فتمسح عن قلبها معاناة الغربة ومأساتها، فترفعها إلى مكانة تتمناها كل مسلمة، وتحلم بها كل مؤمنة، لقد تزوج بها الرسولﷺ وعمرها آنذاك بضع وثلاثون سنة، إنها قد اقتربت من الأربعين.

المسألة الثانية: فيما سبق -يا عباد الله- يتبين لنا أن النبيﷺ لم يتزوج بها حبا في جسدها كما يدعي المستشرقون وأبواقهم من أدعياء الإسلام، وإنما حبا في ثباتها وإيمانها، وحماية لها ضد شماتة أعدائها، ومواساة لها في مصيبتها في أبيها وزوجها وغربتها؛ إذ لو شاءﷺ لتزوج من أراد من الأبكار، ما الذي يمنعه وهو حبيب القلوب؟ ولكنهﷺ فوق متعة الجسد، إلى أفق متعة الإيمان، فلقد كانﷺ يستغل كل شيء في سبيل نشر الإسلام حتى زواجه، فقد تزوج من بنات رؤساء العرب ليقربهم إلى الإسلام، وليخلق روابط المصاهرة بينه وبينهم، يؤلف بها قلوب القبائل لنشر الإسلام، خصوصا إذ كان من عادة العرب أن يحموا أصهارهم وأزواج بناتهم، ولهذا يسمون في اللغة بالحمو والأحماء؛ لأن القبيلة تحميهم وتدافع عنهم، ولهذا تزوجﷺ بعائشة وهي بنت أبي بكر، وبحفصة وهي بنت عمر بن الخطاب، وبصفية وهي بنت حيي بن أخطب، ملك من ملوك اليهود، وبجويرة وهي بنت قائد بني المصطلق، وبأم حبيبة وهي بنت أبي سفيان.

المسألة الثالثة: من موقف أم حبيبة الصامد، ومن تمسكها بدينها، أمام ظلام أبيها، وضلال زوجها، نتعلم أن أية رغبة تتعارض مع أحكام الله تعالى، يضرب بها عرض الحائط؛ إذ لا عبرة لرغبة تعارض شرع الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد جاءتني عدة رسائل في هذه المسألة بالذات؛ فمن الآباء من يرغم بنته على ترك الحجاب، قائلا لها: إذا غطيت رأسك فلن يتقدم إليك الخطاب، ومن الأزواج من يحتج على زوجته، ويهددها بالطلاق، إذا وضعت الخمار على رأسها.

يا سبحان الله! كيف تصل الوقاحة بهؤلاء، إلى أن يعتبروا بناتهم ونساءهم سلعة معروضة؟ هلا اعتبر هؤلاء بما وقع في هذه الأيام لإخواننا المسلمين بتركيا، واللهَ نسأل أن يشفي مرضاهم، ويرحم شهداءهم، ويكشف معاناتهم، عاجلا غير آجل آمين، لقد ضربها زلزال دمر كل شيء، حطم المساجد كما حطم الفنادق، وقتل الصالحين كما قتل الفساق، إنه زلزال لم يستغرق خمسا وأربعين ثانية، فضرب أزيد من سبع درجات على مقياس "رختر" ذهب ضحيته آلاف القتلى والجرحى، فما بالكم لو استمر دقيقة، أو دقيقتين، أو عشرا؟ فما بالكم لو فات عشر درجات، أو عشرين، أو ثلاثين؟ فما بالكم لو عم الأرض كلها؟ إنها لتذكرة فهل من مدكر؟، ثم ثَنَّى الله عليهم بحرارة شديدة، اشتعلت بسببها الحرائق في البترول، فلوثت الأجواء والأرجاء، وتعفنت بسببها الجثث فتخمرت، فتكونت فيها بوادر أمراض خطيرة

مثل "الكولرا"، ثم ثَلَّثَ عليهم بأمطار حمضية ملوثة وغزيرة، فوزعت المياهُ الجاريةُ جراثيم الجثث المتحللة على ما تبقى من الأحياء، فزادت المنكوبين بؤسا على بؤس.

أتدرون لماذا كل هذا؟ لأن سادتها رفضوا في الأمس القريب حجاب المرأة المسلمة[1] في برلمانهم ومدارسهم، وأغلقوا مدارس القرآن الكريم، وبذلك أزالوا الحجاب عن المرأة فغطوا به القرآن، والله تعالى يقول: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[2]. ألا فاعتبر يا من يمنع الحجاب عن بنته وزوجته! ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[3].

أما التي أرغمها زوجها أو أبوها على ترك حجابها فأقول لها: إن لك في أم حبيبة -رضي الله عنها- لقدوة حسنة؛ لأنها ثبتت على إسلامها رغم أنف أبيها وأمها وزوجها، -نسأل الله لنا ولك الثبات والتقوى-، والله تعالى يقول: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾[4].فقد رأيت الْـمَخْرَج المبارك، الذي جعله الله لأم حبيبة، فكانت زوجة للنبيﷺ وأما لكل المؤمنين.

المسألة الرابعة: لقد تزوج الرسولﷺ إذن من أم حبيبة، فضمها إلى زوجاته إعزازا لشأنها، وتقديرا لصنيعها، فدخلت بزواجه في دائرة تعدد الزوجات، ولقد أثار بعض المغرضين الغبار حول هذه المسألة في هذه الأيام، فأنكروا تعدد الزوجات.

وفي الحقيقة أن تعدد الزوجات ليس بمشكل في مجتمعنا نهائيا؛ لأن وجوده في الواقع قليل، فكم من رجال عندنا تزوج بأكثر من واحدة؟! إنهم لا يتجاوزون الواحد من الألف، فالرجال عندنا في هذا المجال جبناء، يخافون ألا يعدلوا في الواحدة، فكيف بثانية وثالثة ورابعة؟ إذن فتعدد الزوجات ليس بمشكل في الواقع لأنه غير موجود؛ ولكنه مشكل عند هؤلاء الذين في قلوبهم مرض النفاق والإلحاد، أتدرون لماذا؟ لوجوده في القرآن، أرادوا أن يشطبوا عليه في القرآن والسنة، لقد هالهم أن يكون قانونا ولو معطلا في مدونة الأحوال الشخصية.

---

(1) المقصود بها مروة القوقجي، التي سبقت الإشارة إليها في خطبة سرية الرجيع، رقم: 24.
(2) الإسراء: 16.
(3) الأنفال: 25.
(4) الطلاق: 2-3.

ثم إن الإحصائيات دائما تكشف لنا عن كثرة النساء وقلة الرجال، وإذا كان الأمر كذلك، فالنساء بين ثلاث أمور، إما أن يبقى بعضهن على الحرمان إلى الموت، وإما أن يكن خليلات راضيات بالزنا، وإما أن يرضين بتعدد الزوجات، فهل يريد أحد لبنته حياة الحرمان؟ وهل يرضى أحد لبنته فراش الزنا؟ فلم يبق إلا تعدد الزوجات وهو في الإسلام مباح، بشرط العدل، وإلا فهو حرام ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾[1]، وقال الرسولﷺ: «إذا كان عند الرجل امرأتان، فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط»[2]، أي ونصفه مشلول.

ومن أغرب ما نسمع!هذا التساؤل الفسقي: لماذا لا تعدد المرأة الأزواج أيضا!؟ ولا شك أن من يتساءل هكذا، ليس إلا داعرا وديوثا وفاسقا، يعيش في عالم الزنا، كل همه استباحة أعراض الأسر، هلا سأل نفسه لو تزوجت أمه بأكثر من أربع؛ ابن من سيكون منهم؟ ولم يكتفوا بذلك؛ بل قد استكثروا على المرأة أن تتزوج وعمرها خمس عشرة سنة، فاقترحوا منع الزواج إلى سن الثامنة عشر، والذي يظهر في الواقع أن المشكل ليس مشكل الخمسة عشر ولا مشكل الثامنة عشر، بل هو مشكل العشرين والثلاثين سنة فما فوق، فعلينا أن نبحث عن حل لمشكل البنت التي تجاوزت الثلاثين ولم تتزوج، علينا أن نبحث عن الحل لظاهرة العنوسة التي لا تكاد أسرة تخلو منها، لا تكاد أسرة تخلو من فتاة أو اثنتين أو ثلاث فاتها قطار الزواج أو كاد، وبار حظها في الاقتران أو قرب، فتكون عرضة للزمن الذي لا يرحم، فمن أين تكبح المسكينة شهوتها إذا جمحت بها؟ ومن أين تشبع المسكينة غريزتها إذا جرفتها أمام مناظر مثيرة؟ وما أكثرها في مجتمعنا! في الشوارع وفي المدارس، وفي وسائل الإعلام الفضائحية، أما عن شواطئ بحرنا فحدث عن البحر ولا حرج، فمن لم تذهب إلى الشواطئ، فإن وسائل الإعلام تنقل إليها زبدة فسادها، وخلاصة فسقها، وهي قابعة في منزلها، الشيء الذي يحرك غرائز الشهوة في الفتاة قبل البلوغ؛ الأولى بنا أن ننزل عن الخمسة عشر إذا وجدت زوجا لها، لأن الأفلام جعلتها تحلم بفارس الأحلام قبل الأوان...

---

(1) النساء: 3.

(2) صحيح، رواه أبو داود في السنن: 2/ 242، ح: 2133، والترمذي في السنن: 3/ 447، ح: 1141، والحاكم في المستدرك: 2/ 203، ح: 2759، وصححه ووافقه الذهبي، كما صححه الألباني في: - إرواء الغليل: 7/ 80-81، ح: 2017، - صحيح سنن أبي داود: 6/ 351-352، ح: 1851، - صحيح الترغيب والترهيب: 2/ 199، ح: 1949، - صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/ 193، ح: 761.

المسألة الخامسة: من قصة أم حبيبة نتعلم، أن محاولات تنصير المسلمين ليس وليدة اليوم؛ بل إنها قد تجدرت في التاريخ، لقد ولدت بولادة الإسلام نفسه، فهي التي غررت بزوج أم حبيبة حتى ارتد عن الإسلام.

وهل تعلمون أن حملات صليبية شرسة، تشن على بلادنا حربا لا هوادة فيها لتنصير أبنائكم، وبوسائل ربما لا تخطر حتى على بال الشيطان؟ وهل تعلمون أن دائرتها تتسع يوما بعد يوم؟ فهي تعمل كثيرا في الخفاء، ومن وراء الأضواء، مدعمة من منظمات ومؤسسات مشبوهة، فيجب علينا أن نقف بشدة في وجهها، حماية لشبابنا ودينننا، والله تعالى يقول: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾[1].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

(1) البقرة: 120.

الحمد لله رب العالمين ...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنين؛

بهذه المناسبة أزف لكل امرأة متزوجة، وصية قدمتها امرأة عربية اسمها أمامة بنت الحارث لا بنتها أم إياس عند زفافها، وهي وصية جديرة أن تكتب بماء الذهب، وأن تتخذها كل زوجة صالحة دستورا لها لتحافظ على زوجها وأسرتها.

تقول هذه المرأة لابنتها: «أي بنتي، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت من أجل ذلك منك، ولكنها تذكرة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنيتي إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وتركت العش الذي فيه درجت، إلى بيت لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح عليك رقيبا ومليكا، فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا، وكوني له أرضا ذليلة، يكن لك سماء ظليلة، وكوني له مهادا، يكن لك عمادا، ولا تكثري عليه من الإلحاح فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، فإن من بعد عن العين، بعد عن القلب، واحفظي له خصالا عشرا، تكن لك ذخرا وذكرا.

أما الأولى والثانية: فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن الطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواضع عينه وأنفه، فلا يقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالاعتناء بوقت طعامه وشرابه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالمحافظة على ماله وتربية عياله، وأصل الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصي له أمرا، ولا تفشي له سرا، فإن من أفشى سرا، لم يأمن غدرا، ومن عصى أمرا فقد أوغر صدرا.

ثم إياك والفرح إن كان ترحا، والاكتئاب إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، واعلمي أن طول المرافقة، تكون بكثرة الموافقة»[1].

إنها لعمري وصية عظيمة، لو اتخذتها المرأة قانونا داخليا تسير في أسرتها على مقتضاها، لجعلت من نفسها سيدة بيتها المطاعة...

ألا فاتقوا الله عباد الله، وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) مجمع الأمثال للميداني: 2/ 263.

38) الخطبة [10] مشاهد من غزوة مؤتة(1)

الحمد لله الذي بارك من بلاد الشام العمق والأحوال، فكانت إليه من الصحابة الغزوات والفتوحات في العاجل من أمرهم والمآل، وحققت فيه غزوة تبوك وغزوة مؤتة الهدف والمنال، ثم داول الله فيه الأيام والأجيال، فكم من دول فيه أدلَّ(2) عليها ثم أدال(3)، وكم من زمرة تسلطت عليه فظنت خلود سلطانها فزلَّتْ ثم زالت وملكها زال، وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعال، يُـمْهل من غير إهمال، ويحاسب من غير إغفال، وهو شديد المحال عظيم النكال، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أكرم الرسل وأتم الرجال، صلى الله وسلم عليه وعلى الصحب والآل، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الحساب على الأقوال والأفعال.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أو صيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية، أننا في شهر جمادى الأولى الشهر الخامس من الشهور الهجرية الإسلامية، وفيها وقفنا على زواج النبيﷺ بأم حبيبة، فاستكشفنا ما في هذا الحدث المبارك من فقه وفوائد.

فتعالوا بنا اليوم نرجع بكم إلى أحضان تلك السيرة العطرة مرة أخرى، تلك السيرة التي جهلنا كثيرا من كنوزها، تلك السيرة التي لا نعرف منها حتى أسماء أحداثها، فكيف بمغزاها وفقهها؟ تلك السيرة التي تجسد لنا التطبيق العملي لكتاب الله تعالى، منها نتعلم أخلاق من بعث ليتم مكارم الأخلاق، بها نقف على مواقف من بعث رحمة للعالمين، منها نتعلم كيف نعالج مشاكلنا في ظل شرع الله تعالى.

تعالوا بنا إذن في إطار التعريف بهذه السيرة النيرة، وفي إطار التذكير بهذه السيرة العطرة، نرفع الستار عن غزوة من غزواتها، كان ظرفها الزماني شهر جمادى الأولى في السنة الثامنة من الهجرة، آلا وهي غزوة مؤتة.

فمؤتة هي: قرية على مشارف الشام، قرب مدينة الكرك بالأردن، أما الغزوة في الاصطلاح علماء السيرة فهي: المعركة التي اشترك فيها رسول اللهﷺ، فإن لم يشترك

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 22 جمادى الأولى 1420 هـ 3/ 9/ 1999م، ثم أعيدت أخيرا في إبان أحداث سوريا المؤلمة في إطار الربيع العربي: 07 جمادى الأولى 1433 هـ 30/ 03/ 2012م.

(2) أدلَّ، أي: أخذها على حين غرة. المعجم الوسيط مادة (دلل).

(3) أدال؛ أي: جعل أمرها متداولا بين الناس. المعجم الوسيط مادة (دول).

فيها فتسمى بالسرية؛ ولكن معركة مؤتة نظرا لأهميتها، ولعدد الجيوش المشاركة فيها، سماها بعض علماء السيرة بالغزوة وإن لم يشترك فيها النبيﷺ، وأهميتها تكمن في أنها أول معركة بين المسلمين ودولة الروم الصليبية، وهي في ذلك الوقت أقوى دولة في العالم، رغم ذلك لم يتردد الصحابةرضي الله عنهم في الوقوف في وجه طغيانها، كما تردد أحفادهم اليوم في الوقوف في طغيان أحفاد الروم من الغرب الصليبي.

أيها الاخوة المؤمنون؛ بعد أن عقد النبيﷺ صلح الحديبية مع كفار قريش في السنة السادسة من الهجرة، وجد الفرصة مواتية، ليمد ظلال الدعوة خارج الجزيرة العربية، مؤكدا بذلك أن الإسلام ليس دعوة إقليمية ولا عرقية، لا يحده حدود جغرافية ولا لونية ولا لغوية، وإنما هو دعوة عالمية: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[1]. ولهذا أرسلﷺ رسائل إلى ملوك الأرض آنذاك، يدعوهم إلى الإسلام، ويقول لكل واحد منهم: «أسلم تسلم، يؤتيك الله أجرك مرتين»[2]، ولكن أحد حملة هذه الرسائل، وهو الصحابي الجليل الحارث بن عمير، تعرض له أحد عملاء الصليبيين، واسمه شرحبيل، فقتله دون جنح أو جريمة، وما نعاني نحن اليوم إلا من جرائم عملاء الصليبيين، وحامل الرسائل لا يقتل في أي نظام، ولا في أي قانون، ولا في أي عصر، وكم من حملة الرسائل قتلهم أحفاد الصليبيين اليوم ظلما وعدوانا؟ من الصحفيين والعلماء والأطباء وغيرهم، وكل واحد من هؤلاء حامل رسالة في تخصصه؛ وأمثلة ذلك في العراق وفلسطين أكبر من أن تحصى. ولم يكن النبيﷺ ليسكت على هذه الجريمة النكراء دون جزاء، فأسفر ذلك عن غزوة مؤتة، وسوف أقدمها لكم عبر مشاهد.

المشهد الأول: نشاهد فيه الرسولﷺ وهو يقوم بالتعبئة العامة للجيوش، وعدده ثلاثة آلاف مقاتل، فيعين الأمراء، ويقدم الوصايا، فيؤمِّر عليهمﷺ مولاه الذي تربى في حضنه زيد بن حارثة، فإن قتل فابن عمهﷺ، جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فشاعرهﷺ عبد الله بن رواحة، فإن قتل فليختاروا من بينهم أميرا، ثم قدم لهمﷺ وصية تحمل آداب الجهاد، وقوانين الحرب في الإسلام، تلك الآداب التي تجعل الحرب في الإسلام رحمة، تلك القوانين التي لم يعرفها العالم المتحضر اليوم، لقد أوصاهمﷺ أن يدْعوا أعداءهم أولا إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعينوا بالله

---

(1) سبأ: 28.
(2) صحيح البخاري: 1/ 9، كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

عليهم، وقاتلوهم، وقال لهمﷺ: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»(1).

انظروا رعاكم الله كيف كان الإسلام رحمة حتى في حربه؟! ممنوع في الإسلام قتل الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين، ممنوع في الإسلام إتلاف الثروات الفلاحية، ممنوع في الإسلام هدم البنايات التحتية والفوقية، وكل من يفعل ذلك فالإسلام منه براء.

ونقف هنا وقفة إجلال وتعظيم، أمام هذه الوصية النبوية لهذا الجيش المتوجه لقتال الصليبيين، لنقارنها بما فعل الصليبيون على مر التاريخ بالمسلمين وغير المسلمين؛ بل بالبشرية كلها، لقد انتشرت الصليبية على بحر من الدماء، وعلى هرم من جثت القتلى، وأشلاء الضحايا الأبرياء، فالحروب التي أداروها قديما وحديثا، جاوزت كل الحدود في البغي والظلم والتعدي، لقد أبادوا السكان الآمنين، وخربوا مدنا بمن فيها، لم يحسبوا للأطفال ولا للنساء ولا للشيوخ ولا لرجال الدين أي حساب، وهدموا المستشفيات على مرضاها، وأحرقوا المحاصيل الفلاحية وحيواناتها، فاسألوا الأندلس والقدس، واسألوا البوسنة وكوسوفا والعراق، وسألوا قبل ذلك هيروشيما ونكازاكي وبرلين، لتخبركم عن الحروب المدمرة التي شهدتها ساحاتها، باسم الحضارة، وفي عصر التقدم وحقوق الإنسان.

سموك يا عصر الظلام سفاهة ... عصر الضياء وأنت شر الاعصر
وتقدمت فيك الحضارة حسبما ... قالوا فيا وحشية المتحضر
وتنورت فيك العقول وإنما ... يقع الخراب بزلة المتنور
فالعلم قد يأتي بكل بلية ... ويصير نحو الموت بالمستبصر

فاسألوا حروب الحضارة اليوم، لتدركوا كيف كان النبيﷺ رحمة مهداة، ولتدركوا معنى قول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(2).

أيها الاخوة المؤمنون؛ عند ما تجهز الجيش للخروج، بكى عبد الله بن رواحة، فسألوه عن السبب، فقال: «أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني

---

(1) ضعيف، رواه أبي داود في السنن:3/ 37، ح:2614، عن أنسﷺ، وفي سنده خالد بن الفِزْرِ مجهول، ضعّفه به الألباني في: -ضعيف سنن أبي داود:2/ 325، ح:450، -ضعيف الجامع الصغير، ص:194، ح:1346.
(2) الأنبياء: 107.

سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾[1]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟»[2] أي فلست أدري كيف أخلص نفسي من النار بعد ورودها؟ الله الله يا ابن رواحة! يا شاعر رسول الله ﷺ كيف تخاف من النار وأنت مقبل على الشهادة في الجهاد، ولا نخاف منها ونحن مقبلون على الحياة في الفساد!؟ فنحن والله أولى بالخوف من النار، وقد بلغت ذنوبنا عنان السماء.

المشهد الثاني: جيش الإسلام يصل إلى مؤتة فيفاجأ بالعدو الصليبي وقد جمع له مائتي ألف مقاتل، وما ذا بإمكان ثلاثة آلاف أن تفعل أمام مائتي ألف؟ ولكن الصحابة -رضوان الله عليهم- رغم ذلك تقدموا، لأنهم يعلمون أن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، بقدر ما يكون بقوة الإرادة والإيمان، فخاضوا المعركة غير المتكافئة، فقاتل الأمير الأول زيد حتى استشهد، ثم قاتل جعفر حتى نال الشهادة، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردا شرابها[3]

روى ابن هشام: «أن جعفرا أخذ الراية بيمينه حتى قطعت، فأخذها بشماله حتى قطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأبدله الله ذلك بجناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء»[4]، كما قال النبي ﷺ فيما روى الطبراني بإسناد حسن[5]، ولذلك سمي بجعفر الطيار، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل رضي الله عنه حتى مات شهيدا.

ثم أخذها الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني أداء منه للواجب بعد استشهاد آخر الأمراء؛ لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، وفي رواية أن ثابتًا مشى باللواء إلى خالد، فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ما أخذته إلا لك.

---

(1) مريم: 71.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 22-23.
(3) السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 28.
(4) السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 28.
(5) - المعجم الأوسط: 7/ 88، - مجمع الزوائد: 9/ 273.

وبذلك أعطى ثابت القوس باريها، ولم يقبل قول الناس: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتاًﷺ لم يكن عاجزًا عن قيادة المسلمين، وهو ممن حضر بدرًا، ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين خالد بن الوليد وهو أجدر به منه، حتى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل.

إن كثيرًا ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة، خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحينما رضي الجيش بخالد قائدا وأميرا قاتلﷺ حتى تكسرت في يده سبعة أسياف، ولكنه نظر بثاقب فكره العسكري، فرأى أن استمرار الحرب في ظروف غير متكافئة، سيؤدي إلى استنزاف المسلمين دون مقابل، فقرر الانسحاب بتكتيك وطريقة ظن العدو منها أنه إنما يجره إلى وسط الصحراء، وأن الإمداد تتوالى على المسلمين، وذلك حينما غير خالد ترتيب العسكر فقدم وأخر، فتراجع العدو الصليبي من أجل ذلك، ويسمى الانسحاب على هذا النحو في الفن العسكري اليوم بالانسحاب الاستراتيجي، وعلى الرغم من ضراوة هذه المعركة، لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلا، في حين أوقعوا في العدو كثيرا من القتلى، والله تعالى يقول: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1].

المشهد الثالث: الرسولﷺ في المدينة، يكشف له جبريل عن نتيجة المعركة قبل أن يصل الجيش، فأخبر الناس باستشهاد زيد وجعفر وابن رواحة، وبأن القيادة تسلمها خالد بن الوليد وهو سيف من سيوف الله المسلول، ففتح الله على يديه، فكان ذلك معجزة من معجزاتهﷺ حين أخبر الناس بتفاصيل المعركة قبل أن يصل أحد[2]، ثم دعا أبناء جعفر وقد أصبحوا يتامى، فواساهم وسد حاجاتهم وأدخل

---

(1) البقرة: 249.

(2) صحيح البخاري: 3/ 1115، كتاب الجهاد والسير/ باب من تأمر في الحرب إمرة إذا خاف العدو.

الفرح إلى قلوبهم، فقال للناس: «اصنعوا لآل جعفر طعاما، فقد أتاهم ما يشغلهم»[1]، هذه هي السنة إذا مات أحد، أن نصنع لأهله طعاما، أن نواسيهم ماديا ومعنويا، ونحن قد انقلبت لدينا الموازين، فأصبحنا ننتظر ممن مات أن يصنع لنا أهله طعاما، كأن مصيبتهم لا تكفي عندنا.

المشهد الرابع: الجيش يصل إلى المدينة يقوده خالد ابن الوليد، وقد تلقاه أطفال الصحابة بمظاهرات سلمية، مستنكرين رجوعهم دون تحقيق النصر على الأعداء، ولم يقولوا لهم: الحمد على السلامة؛ بل يحثون على وجوههم التراب مرددين: «يا فرار يا فرار! فررتم في سبيل الله»، ولكن الرسولﷺ الذي أدرك معنى ما فعل خالد تلقى الجيش بالترحاب، ونهى المتظاهرين ضدهم قائلا: «ليسوا بالفرار؛ بل الكرار إن شاء الله»، أي سيعيدون الكرة مرة أخرى.

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التي صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً، يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فراراً من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة وإلى هذه القمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوي الكريم.

وما فعل هؤلاء الأطفال هو أصل المظاهرات والاحتجاجات السلمية التي تحدث اليوم في العالم، كما يستدل لها أيضا بخروج عمر وهو يقود الصحابة بعد إسلامه في مكة بمعية أسد الله حمزة، وهم يرددون شعار: «الله أكبر».

أيها الاخوة المؤمنون، إن سيرة الرسولﷺ ليست قصصا تتلى، ولا تراثا يزار، وليست لافتخار الأبناء بالآباء، ولا لمباهاة الخلف بأعمال السلف، وليست تاريخا نقف عند أحداثه فحسب؛ بل هي للاقتداء والاتباع، بل هي لإصلاح ما فسد منا، وتقوية ما ضعف فينا، نقوي بها إرادتنا، ونعزز بها كرامتنا، ونزيد بها من إيماننا، بأن النصر من عند الله، وبأن النصر مع الصبر، وبأن مع العسر يسرا، وبأن طريق النصر مرتبط بمدى نصرنا لدين الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾[3]، هكذا كان السلف

---

(1) أخرجه أبو داود: 3/ 497، ح: 3132، والترمذي: 3/ 323، ح: 998، وابن ماجة: 1/ 514، ح: 1610.
(2) محمد: 7.
(3) الحج: 40.

الصالحﷺ فانتصروا، وفتح الله عليهم وهم قلة، أما نحن فنسمع السيرة كأننا نشاهد فيلما في الشاشة، نتفرج ونتعجب، فإن سلمت الأحوال افتخرنا بها مضى من إسلامنا، أما الاقتداء والاتباع فلا أحد يبحث عنه، فما أصدق فينا قول القائل:

بلينا بأقوال الذين إذا رأوا فعال كرام الناس قالوا لنا سلف
وآباؤنا كانوا ملوكا على الورى وكانوا رجال العز والمجد والشرف
نعم إنهم كانوا ملوكا وسادة ولكننا يا صاح من أقبح الخلف

إن القيمة العسكرية –يا عباد الله– لهذه المعركة، تكمن في أنها جاءت ردا على العدوان، وكانت أول صدام بين المسلمين والصليبيين، ولديهم أقوى جيش آنذاك، ولم يتردد المسلمون في قتاله، فكانت المعركة درسا للمسلمين، وقفوا فيه على التكتيك العسكري للروم، وطريقة تعبئتهم للجيوش، وأساليبهم في القتال، ولم يمض عام واحد حتى كان المسلمون يتحَدَّون جيوش الروم بقيادة النبيﷺ في غزوة تبوك، كما لم يمض عقد واحد، بعد وفاة النبيﷺ حتى كان هذا السيف المسلول، خالد بن الوليدﷺ يعيد الكرة ويحقق للنبيﷺ الرغبة: «بل الكرار»، فيسحق الإمبراطورية الصليبية بسنابك الخيول تحت صوت «الله أكبر»...

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله رب العالمين...
أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنين؛
من هذه الغزوة نتعلم أن مؤتة من بلاد الشام، وبلاد الشام يجمع اليوم أربع دول: الأردن، وسوريا، ولبنان، وفلسطين المحتلة، وهو مهبط الرسالات ومأوى الأنبياء، وما زار الرسولﷺ بلادا خارج الجزيرة العربية غير الشام، دخل إليه أزيد من عشرة آلاف صحابي، منهم خالد بن الوليد، الذي نسمع بالحي الذي يحمل اسمه يقصف ويدمر على من فيه وهو حي الخالدية بمدينة حمص.
وقد دعا النبيﷺ للشام فقال: «اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا»[1]، ومدحهﷺ فقال: «طوبى للشام...؛ لأن ملائكة الرحمن باسطة عليها أجنحتها»، واختارهﷺ لأصحابه فقال: «إنكم ستجندون أجنادا: جندا بالشام، وجندا بالعراق، وجندا باليمن» فقال الصحابي الجليل عبد الله بن حوالة: يا رسول الله خِرْ لي؟ قالﷺ: «عليك بالشام... فإن الله تكفل لي بالشام وأهله»[2]. وبينﷺ أن من علامات الساعة معركة بالشام يكون: «فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة، في مدينة يقال لها: دمشق خير منازل المسلمين يومئذ»[3]، وقالﷺ: «ينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»[4]. وعلى صخرة الشام تكسرت الحملات الصليبية التي تقاطرت عليه أكثر من مأتي عام.
وهكذا فماضي الشام في التاريخ ملهم، ولكن حاضره اليوم مؤلم؛ ففيه جرحان غائران تألم جسد الأمة بسببهما: جرح القدس وما حولها على يد نَبِّيحة الصهيونية، وجرح دمشق وما حولها على يد شَبِّيحة الشيعة.
ألا فاتقوا الله عباد الله، وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) صحيح البخاري: 1/ 351، ح: 990.
(2) سنن أبي داود: 2/ 313، ح: 2485.
(3) سنن أبي داود: 4/ 185، ح: 4300.
(4) صحيح مسلم: 8/ 197، ح: 7559.

39) الخطبة [11] من أحداث السيرة سرية ذات السلاسل[1]

الحمد لله الذي أكرمنا بسيرة من ختمت رسالته كل الرسائل، وجعل الاقتداء بهﷺ منبع المكارم والفضائل، ووقاية من المفاسد والرذائل، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل المجاهدين في الدنيا والآخرة من الأفاضل، وأركس الملحدين في النار مقرنين في الأصفاد والسلاسل، وأهلك المفسدين في الدنيا بالأعاصير والزلازل، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيد بالبراهين والدلائل، الذي وحد الأمة بالتوحيد بعد كانت شتى الفرق والفصائل، فبين لنا أن الوحدة أفضل الطرق إلى النصر وأنجع الوسائل، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا في كل خير من الأوائل، وعلى التابعين لهم في التمسك بها في دين الله من الأحكام والمسائل.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون! أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

دعونا اليوم نرجع بكم إلى السيرة النبوية العطرة، نستكشف أسرارها، نصلح مشاكل مجتمعنا بفقهها، نحارب بالوقوف على أحداثها جهلنا بها، نستمد لمواجهة أعدائنا الشجاعة منها، فهي منبع سيال لا ينضب معينها، ومدرسة عظيمة تنوعت أبحاثها وشعبها، لا يشبع منها الباحث مهما غاص في بحارها، ولا يمل منها الدارس مهما سار في فجاجها.

فتعالوا بنا اليوم نسلط الأضواء الكاشفة على هذا الشهر الذي نحن فيه، شهر جمادى الأخيرة، الشهر السادس من الشهور الهجرية الإسلامية، لنستخرج منه حدثا مهما من أحداث السيرة النبوية، ألا وهو: سرية ذات السلاسل، التي وقعت في مثل هذا الشهر من السنة الثامنة من الهجرة. لقد اخترنا لكم اليوم هذا الحدث المرتبط بهذا الشهر حتى نعلم أولا أننا في شهر جمادى الأخيرة، وقد نسي الكثير منا هذه الشهور تماما، وحتى نتعلم ثانيا من السيرة العطرة ما نعطر به أخلاقنا ومعاملاتنا...

أيها الإخوة المؤمنون؛ المعركة التي اشترك فيها رسول اللهﷺ، تسمى عند علماء السيرة بالغزوة، وإذا لم يشترك فيها فتسمى بالسرية؛ ومن ذلك سرية ذات السلاسل، ومضمون الأحداث فيها ما يلي:

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 20جمادى الأخيرة 1420هـ 1/ 10/ 1999م.

لقد بلغ الرسولﷺ أن بعض القبائل العربية، المتنكرة لهويتها العربية، الموالية لدولة الروم الصليبية، بدأت تعد العدة لمهاجمة المدينة، إرضاء لأسيادهم في دولة الروم، تماما كما يفعل بعض العرب اليوم، في ضرب المجاهدين في الإسلام، إرضاء لأسيادهم الصهاينة وأحفاد الروم في الغرب، وخصوصا المجاهدين ضد الصهاينة، وكأن التاريخ يعيد نفسه.

ومن عادة النبيﷺ أنه لا يترك أي أزمة حتى يستفحل أمرها؛ بل يضربها في جذورها، ويستأصل شوكتها، قبل أن يستعصي حلها، فاختارﷺ لمواجهة هؤلاء الأعداء، ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وجعل قائدهم عمرو بن العاص.

أتدرون من هو عمرو بن العاص؟ إنه الجندي المقدام، إنه القائد المحنك، إنه الملقب بداهية العرب، إنه الذي فتح مصر بدهائه، إنه الذي ساعد معاوية على إقامة دولة الأمويين بذكائه، إنه الذي يختار للمسائل الكبرى، وللمهمات الصعبة، أسلمرضي الله عنه في السنة السابعة من الهجرة، مع قائد آخر اسمه خالد بن الوليد، ففرح النبيﷺ بإسلامهما فرحا كبيرا، حتى قال: «إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها»[1].

لقد اختاره النبيﷺ ليدعو هذه القبائل المتمردة إلى الإسلام، لأن أخواله من هذه القبائل، لعلهم إذا ما رأوا أحد أبناء بناتهم قائدا يدعوهم إلى الإسلام أن يستجيبوا، لعمري إنها لدبلوماسية نبوية رفيعة، قد جرى العمل بها اليوم في القضايا الكبرى، حيث تختار كل دولة لأية قضية أقرب الناس إليها، وأعرف الناس بها، فكانﷺ سباقا إلى ذلك.

ثم قال لهﷺ وهو يعينه قائدا: «إني أريد أن تصيب لنفسك مالا»؛ لأنهﷺ يعلم أن عمرا قد هاجر إلى المدينة لله ورسوله، تاركا في مكة ثروته وأمواله، وهوﷺ الرحمة المهداة، فقال له عمرورضي الله عنه: «ما أسلمت يا رسول الله من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون معك يا رسول الله!» فقالﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[2] رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح.

وبهذا -أيها الإخوة في الله- يعلمنا النبيﷺ أن الدنيا لابد منها لإقامة الدين، وأن التدين لا يعني ترك الدنيا أبدا؛ بل أي عمل يقوم به المسلم في نطاق الحلال، يعتبره

---

(1) الاستيعاب: 2/ 428.

(2) صحيح، رواه أحمد في المسند: 4/ 197، والبخاري في الأدب المفرد: 1/ 112، ح: 299، وصححه الألباني في: - صحيح الأدب المفرد، ص: 126، - السلسلة الصحيحة: 5/ 62.

الشرع عبادة، حتى الاتصال بالزوجة في الحلال، وقد قال ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»[1]، ولا رهبانية في الإسلام، ولكن المال لا يكون صالحا إلا بشروط أربعة: أن يكتسبه من الحلال، أن ينفقه في الحلال، أن يؤدي منه واجباته من الزكاة والنفقة، وألا يصده ماله عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من الواجبات، والرجل الصالح هو المسلم الذي يعلم أن في ماله حقا للمساكين فيساعدهم، هو الجواد الكريم، البعيد عن الأنانية والشره والطمع وحب الذات.

وبعد أن تسلم عمرو رضي الله عنه القيادة من النبي ﷺ خرج حتى وصل إلى قرية في أطراف الشام تسمى بـ"ذات السلاسل"، ولهذا سميت هذه السرية بهذا الاسم، فعلم أن تلك القبائل قد جمعت لمواجهتهم جموعا لا قبل لهم بها، فأرسل إلى النبي ﷺ يطلب منه المدد، فزوده النبي ﷺ بمائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، فاختار لهم ﷺ أبا عبيدة بن الجراح قائدا، وأمره ﷺ ألا يختلف مع القائد الأول عمرو بن العاص؛ لأنه ﷺ يعلم مدى خطورة الاختلاف حين يشتت شمل قادة الأمة، والأمة المسلمة اليوم ما تعاني إلا من اختلاف قادتها، فباختلافهم ضاعت القدس في متاهات التهويد، وباختلافهم التهمت المستوطنات المدنسة، أرض القدس المقدسة، وحين اختلف قادة الأمة قدمت القدس في المعارض الصهيونية، على أنها العاصمة الأبدية للصهاينة، كما يحدث اليوم في "ديزني"، وحين اختلف القادة قصف الأعداء الشيشان، وحطموا اقتصاد أكبر دولة مسلمة: إندونيسيا، فبتروا أطرافها، وفي ظل اختلاف قادة الأمة دفع العراق بسبب الحصار الظالم مليون ونصف مليون شهيد جلهم من الأطفال، هذا الحصار الذي يشير إليه الحديث الذي رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه حين قال: «يوشك أهل العراق ألا يجبى إليهم قفيز ولا درهم، فقيل: من أين ذاك؟ (يعني من الذي يمنع ذلك) قال: من العجم يمنعون ذلك»[2]، وما كان هذا ليحدث لو اتحد قادة الأمة فكانوا يدا واحدة على أعدائها، وقد سئل أحد العلماء: لماذا انتصرت إسرائيل بجيش واحد سنة سبع وستين على العرب وهم عدة جيوش؟ فأجاب بكل بساطة: لأن لإسرائيل جيشا واحدا وللعرب عدة جيوش!

---

(1) صحيح مسلم: 2/ 697، كتاب الزكاة/ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(2) صحيح مسلم: 4/ 2234، كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

إي والله -يا عباد الله- لازالت الصهاينة تحقق الانتصارات بجيش قائده واحد، وقوته متحدة، على العرب وقادتهم شتى، وقواتهم مبعثرة، فإلى الله المشتكى والمفزع!

فلما وصل المدد إلى عمرو قال لأبي عبيدة: يجب أن تسلم لي القيادة؛ لأن النبيﷺ إنما بعثك مددا، ولم يبعثك قائدا، فما ذا فعل أبو عبيدة؟ إنه تنازل لعمرو فورا دون مناقشة ولا تردد، فقال له: دونك إذن فصل بالناس؛ لأن النبيﷺ أمرهما بعدم الاختلاف، فلو أن الأمة المسلمة اليوم استطاع قادتها، أن يتنازلوا عن المناصب لمن يستحقها، لو استطاعوا أن يتنازلوا عن المناصب لمن يكون أهلا لها، لو استطاعوا أن يؤثروا على أنانيتهم وحدة الأمة المسلمة، لشقت الأمة طريقها إلى النصر على أعدائها، ولكن مشكل الأمة المسلمة اليوم، أن كل هم قادتها الكراسي، فإذا حصل عليه فلتذهب وحدة الأمة بعد ذلك إلى الجحيم.

ثم قاد عمرو الجيش الموحد، فدوخ به أعداء الإسلام هناك، فأدى مهمته كاملة، وعندما رجعوا في الطريق، احتلم عمرو بالليل فأصبح وعليه جنابة فرأى بثاقب فكره أنه إذا اغتسل سيؤدي به ذلك إلى المرض، فتذكر قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾[1]، فصلى بالناس إماما وهو على جنابة بالتيمم، فاختلف معه الصحابة واستنكروا عليه ذلك، وما كانوا يومئذ يعلمون أن التيمم ينوب عن الغسل كما ينوب عن الوضوء، فلما رجعوا أخبروا النبيﷺ، فأقرﷺ هذا الاجتهاد من عمرو وصوَّبه[2]، فكان ذلك فتحا لباب الاجتهاد في الإسلام، لكن لمن يملك مؤهلات الاجتهاد، ولولا الاجتهاد لما استطاع الإسلام أن يساير تطورات العصور والدهور، لما استطاع أن يكون صالحا لكل زمان ومكان، ورحم الله عمر بن عبد العزيز إذ قال: «وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»[3]، وقد حوله أحد العلماء إلى نظم فقال:

وتحدث للناس أقضية   بقدر الذي أحدثوا من فجور

---

(1) النساء: 29.

(2) حديث عمرو بن العاصي في صلاته بالناس متيمما من الجنابة أورده البخاري معلقا في صحيحه: 1/ 132، كتاب التيمم/ باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، ووصله أبو داود في السنن: 1/ 92، ح: 334، والحاكم في المستدرك: 1/ 285، ح: 629.

(3) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: 6/ 264، ونسبه ابن حجر في الفتح : 13/ 144 للإمام مالك.

ومن هذا نتعلم أيضا أن القائد في الدنيا عند السلف الصالح، هـو الـذي يكـون القائد في الدين، هو الـذي يـصلي بالنـاس إمامـا؛ إذ لا فـصل عنـدهم بـين الـدين والدولة، وعلى هذا الأساس اختاروا أبا بكر خليفة بعد رسول اللهﷺ؛ لأنـهﷺ كـان قد اختاره إماما للصلاة، في مرضه الذي مات منهﷺ، ولهذا قـالوا: «رضـيه رسـول اللهﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟»[1]، فبايعوه خليفة للمسلمين...

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

(1) الإحكام للآمدي: 1/ 326.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

من هذه السرية "سرية ذات السلاسل" نتعلم الفوائد التالية:

1) نتعلم أن النبيﷺ يختار لكل مهمة أقرب الناس إليها وأعرفهم بها، وهذه فائدة دبلوماسية.

2) نتعلم أن المبادرة لرد العدوان أمر واجب قبل فوات الأوان، فقد كانﷺ يهاجِم عدوه قبل أن يهاجَم، وهذه فائدة عسكرية.

3) نتعلم أن دنيا المال لابد منها لإقامة الدين؛ فالدنيا بدون الدين طغيان، والدين بدون الدنيا رهابانية الرهبان، وهذه فائدة اقتصادية.

4) نتعلم أن الاختلاف في الأحكام الشرعية أمر فيه منافع للناس، ولكن الاختلاف في الحكم والسلطة أمر فيه بأس شديد، وهذه فائدة اجتماعية.

5) نتعلم أن التيمم كما ينوب عن الوضوء ينوب عن الغسل، فمن كان مريضا لا يستطيع الغسل وكانت عليه جنابة يجوز له أن يتيمم بمسح الوجه واليدين ثم يصلي، فإذا برئ اغتسل وهذه فائدة فقهية.

6) نتعلم أن القائد في الدنيا هو الذي يكون القائد في الدين أيضا، ولا فصل بين الدين والدولة وهذه فائدة سياسية.

ألا فاتقوا الله عباد الله؛ وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

الفصل الخامس: خطب السيرة بين فتح مكة والوفاة
وفيه سبع خطب

40) الخطبة [1] غزوة فتح مكة المكرمة[1]

الحمد لله الولي الحميد، مالك الملك فعال لما يريد، بيده أمر الخلائق فمنهم شقي وسعيد، وأشهد أن لا إله إلا الله فتح في مثل هذا الشهر للإسلام أبوابا، وهزم الشرك وأهله فصب عليهم من الهوان عذابا، فأذلهم وكانت أعمالهم سرابا، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صاحب الأمن والأمان، جاهد في سبيل الله باللسان والسنان، وطهر الكعبة من الأرجاس والأوثان، ورد لها ما ضيع منها أهل الشرك والكفران، فكانت ناصعة الصفاء والإيمان، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما دائمين على مر الدهور والأزمان، ومن تبعهم إلى يوم الدين بالإحسان.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ اتقوا الله العلي الكريم، واعلموا أن تقوى الله مفتاح الخير العميم، وأفضل الطريق إلى النصر والفتح المبين، ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[2].

لقد قدمنا لكم أن شهر رمضان هو شهر الذكريات، شهر الجهاد والانتصارات، فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن ذكرى من ذكريات رمضان، نقف عند أحداثها، نستلهم مواقفها، لنصلح بها ما فسد منا، ألا وهي غزوة فتح مكة المكرمة، نعيش مع مكة وفضلها وأحداث فتحها لحظات مباركة.

إن فضل مكة -يا عباد الله- لا يخفى على أحد، فهي التي احتضنت أول بيت وضع للناس، وفيها ولد الرسولﷺ، وهي التي استقبلت نيابة عن كوكبنا الأرضي أول آية تنزل من القرآن الكريم، فاستمرت فيها دعوة الرسولﷺ ثلاث عشر سنة، لم يسلم من كفار مكة إلا القليل، فتعرضت هذه القلة في سبيل عقيدتهم لأنواع التعذيب وأشكال التنكيل، وتفنن في تعذيبهم قساة القلوب من المشركين، حتى

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 29 رمضان 1420 هـ 7/ 1/ 2000م، ثم أعيدت في: 21 رمضان 1422هـ 7/ 12/ 2001م.
(2) الطلاق: 2-3.

امتدت أياديهم الأثيمة بالإهانة إلى قائد الأمة ورسولهاﷺ فآذوه وضربوه، وعقدوا ضده الاتفاقيات، فهاجر من مكة فارا بدينه لا ببدنه، وحيدا ليس معه في الطريق إلا أبو بكر الصديق، خرج من مكة لا ليغادرها إلى الأبد، ولكن ليعد لفتحها العدة والعدد، فهاجر إلى المدينة، فاستقبله أهلها بالحفاوة والحب العميق، وبالاقتداء والإيمان الصادق، فجاهدوا وراءه وحموه بالغالي من أموالهم، والنفيس من أنفسهم، فكانت الحرب بينه وبين أهل مكة سجالا؛ يوم له ويوم عليه، فانتصر في غزوة بدر، وامتحن في غزوة أحد والخندق، ثم كان الصلح بينهما في الحديبية، فوضعت الحرب أوزارها، وفي السنة الثامنة من الهجرة، نقض كفار قريش العهد، فبدءوا يسبحون ضد تيار السلم، فخانوا الصلح والاتفاق، إذ هاجموا قبيلة خزاعة، وقد كان بينها وبين الرسولﷺ معاهد الشراكة في الدفاع والتعاون العسكري، فكان ذلك كافيا لوقف الصلح الذي أبرم معهم، فكانت غزوة فتح مكة وتمت عبر مشاهد:

المشهد الأول: الرسولﷺ يستشير أصحابه المقربين، أصحاب الرأي النافذ البناء كأبي بكر وعمر، ثم أعد العدة فأرسل الرسل إلى القبائل التي أسلمت فحسن إسلامها، يأمر الجميع بالحضور إلى المدينة عاصمة الإسلام الأولى، فتجمع لديه عشرة آلاف مقاتل.

يا سبحان الله! الرسولﷺ الذي خرج من مكة فارا بدينه وحيدا، يعود إليها بعد ثمان سنوات فقط بعشرة آلاف من أتباعه، ومن بينهم من كانت له اليد الطولى في عداوته وفي إخراجه من مكة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص! إنها فعلة الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب، وهكذا الإسلام ينتشر في كل عصر بسرعة كبيرة، ولا ينتشر بالسيف والعنف كما يدعي أعداء الإسلام وأدعياءه، وإنما ينتشر بشيئين: القدوة الحسنة، والحجة الدامغة، وهذا العصر أوضح دليل على ذلك، فالإسلام ينتشر الآن في الغرب والشرق بوثيرة تبشر بالخير دون غزوة ولا سيف ولا سنان، رغم العراقيل التي ما لبث الأعداء يضعونها في الطريق، إنه ينتشر عندما تنقشع عن وجهه الناصع غيوم التشويه والتعتيم، التي تكونت في سمائه من بخار بحر وسائل الإعلام، فحين تبدو نصاعته الأصيلة تراه يتسرب إلى القلوب، فيلمس شغافها ويستكن في حناياها، فإذا الذي بينه وبين الإسلام عداوة كأنه ولي حميم.

لقد جمع الرسولﷺ هذه الجموع لفتح مكة، ولم يبين لأحد وجهته، ولم يطلع أحدا على هدفه ومقصوده، إلا الذين استشارهم مثل أبي بكر وعمر، لأنه لا يريد

أن تتسرب الأخبار إلى مكة، فيستعد أهلها للحرب والمواجهة وسفك الدماء، والرسولﷺ لا يحبذ وقوع ذلك في مكة المكرمة بلد الأمن والأمان، فبث العيون والحراس على كل الطرق المودية إليها، ليحول بينها وبين وصول الأخبار إليها، ولم ينسﷺ أن يربط هذه الأسباب بالله تعالى، فكانﷺ يكثر من الدعاء ويقول: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»[1].

ولكن الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة صدر منه ما يشبه الخيانة في لحظة ضعف، والتي قد تعتري أي إنسان، لأن له مصالح في مكة يخاف عليها، وهذه المصالح هي أهله وأبناؤه وأسرته، يخاف أن ينتقم منهم أهل مكة قبل وصول جيش الإسلام، فأرسل رسالة يتودد إليهم فيها وينذرهم بهذا الجيش الجرار، الذي قاده النبيﷺ إليهم، ولم يفعل ذلك لأنه خائن ومنافق؛ ولكنها لحظة ضعف قد تصدر من أي إنسان، ولكل جواد كبوة كما يقال، ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾[2]، وكانت تلك الرسالة تحملها امرأة، فلما وصلت إلى مكان اسمه "روضة خاخ"، استجاب الله دعاء النبيﷺ «اللهم خذ العيون عن أهل مكة»[3]، فينزل جبريل ويخبر الرسولَﷺ بالرسالة ومكانها وحاملتها، فأرسلﷺ إلى عين المكان وعلى جناح السرعة قوة التدخل السريع؛ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، فأتوا بالمرأة ورسالتها، فلما فتحها رسول اللهﷺ فاحت منها رائحة لحظات الضعف، فهي من حاطب، وحاطب من أفراده جيشه المخلصين، الذين أبلوا بلاء حسنا في غزوة بدر وغيرها.

فما ذا تظنون بالرسولﷺ يفعل به وهو الرحمة المهداة للعالمين؟ لو كان حدث هذا اليوم في أنظمة هذا العصر لاتهم بالعمالة والخيانة، وبأنه مخبر سري وجاسوس خطير، يعمل لصالح العدو إلى ما هنالك من الاتهامات والصفات، ولحكم عليه بالإعدام، أو السجن المؤبد إن رحموه، فلا يموت فيه ولا يحيا، ولن يشفع له ما قدم من صالح الأعمال؛ ولكن الرسولﷺ ما كان ليحكم على شخص بزلة دون أن يتذكر تاريخه، وما قدم لصالح الإسلام، فلما قال عمر بن الخطاب: إئذن لي يا رسول الله أن أضرب عنقه فإنه منافق، قالﷺ: «لا يا عمر؛ أما تعلم أنه شهد بدرا،

---

(1) السيرة النبوية: 5/ 52.
(2) النجم: 32.
(3)السيرة النبوية: 5/ 52.

لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1]، إذا بالقرآن ينزل ويصحح المسار فيقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾[2]، فكانت الآية أوضح دليل وأجل برهان على إيمان حاطب رضي الله عنه، يتلى على مر العصور والأزمان، وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب فبكى على ما صدر منه تجاهه[3]، وكانت الآية قانونا يتعامل على أساسه المسلمون مع الكافر الذي يُكِنُّ العداوة ضد الإسلام، والمسلمون اليوم ما أذلهم إلا لأنهم يتخذون أعداء الإسلام أولياء، يلقون إليهم برسائل المودة والمحبة، ضاربين عرض الحائط بالقرآن وهو يقرع أسماعهم صباح مساء: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾[4].

المشهد الثاني: الرسول ﷺ على أبواب مكة، لقد استجاب الله دعاءه فأخذ العيون حتى فاجأها ليلا، فكان لا بد من وسيلة يرسل بها رسالة واضحة إلى أهل مكة، يعلمهم فيها بأنه ﷺ باغتهم بجيوش لا قبل لهم بها، إذا بفكرة تلمع في دهنه، ثم بلورها إلى الواقع، فأمر كل فرد من أفراد الجيش بإيقاد النار، تصوروا عشرة آلاف نار في مكان واحد، وفي ليل بهيم مظلم، ماذا يظن بها الظانون، وبهذه الخطة العسكرية استسلم أهل مكة دون قيد ولا شرط؛ ولكنه ﷺ حتى يطمئن أهل مكة، وحتى لا تسفك الدماء في الحرم المكي، فتح ﷺ باب الأمن والأمان والسلام، فأرسل من ينادي في قريش: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[5].

فالرسول ﷺ لم يأت ليشفي الغليل ممن قاتلوه وأخرجوه وحاربوه، ولكنه ﷺ جاء ليشفي أمراض القلوب والنفوس، ولم يأت لقتل البشر وقطع الرقاب، ولكنه جاء ليفتح القلوب ويثلج الصدور، والحروب التي تدور اليوم في عصر الحضارة والتقدم وعصر حقوق الإنسان، إذا ما ظفرت فيها دولة بأخرى أول شيء يقومون

(1) – صحيح البخاري: 3/ 1095، كتاب الجهاد والسير/ باب الجاسوس وقول الله تعالى: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾، – صحيح مسلم: 4/ 1941، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم / باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم...

(2) المتحنة: 1.

(3) صحيح البخاري: 4/ 1463، كتاب المغازي/ باب فضل من شهد بدرا.

(4) المتحنة: 1.

(5) رواه أبو داود في السنن: 3/ 162، ح: 3022، وأصله في صحيح مسلم: 3/ 1407، كتاب الجهاد والسير/ باب فتح مكة.

به هو إعدام قائدها، ومحاكمة أعيانها، على أنهم مجرمو حرب، والرسولﷺ أول شيء يقوم به عندما ظفر، هو إكرام قائد أعدائه ليطمئنوا.

المشهد الثالث: ها هو الرسولﷺ الآن نشاهده في شاشة الإيمان، يدخل مكة دون سفك الدماء، دون اغتصاب النساء، دون إقامة المهرجانات على الجماجم والأشلاء، إلى ما هنالك مما يفعل الفاتحون المتغطرسون، يدخلهاﷺ وهو على ناقته شاكرا الله تعالى، تاليا سورة الفتح: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[1]، مطأطأ رأسه حتى كاد يمس مقدمة راحلته، وجيشه كله هدوء، كله ذكر وابتهال، تخرق كلمة: «الله أكبر» صمت الجو وخشوعه بين حين وآخر، فوجد في بيت الله الحرام ثلاثمائة وستين صنما، فيمد إليها عصى كانت بيده، فيلقيها أرضا تاليا قوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[2]، فلا يكاد صنم يلقى على الأرض من فوق الكعبة، حتى يلقى على الأرض من حنايا قلوب المشركين، فتتجلى نصاعة الإيمان على وجوههم، ثم جمع الرسولﷺ أهل مكة، فخطب عليهم، ولم يذكر لهم ما فعلوا به، وإنما ذكرهم بأصلهم ومصيرهم، فتلا عليهم الآية الكريمة: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[3]، هذا هو الأصل ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4] هذا هو المصير، ثم قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقالﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[5].

الله أكبر! هل سجل تاريخ القرن العشرين اليوم قرن التشدق بالديمقراطية وحقوق الإنسان عفوا جماعيا عاما كهذا العفو النبوي؟ فاسألوا الحروب التي أدارها اليوم الإنسان في جميع أنحاء الأرض؛ الحرب العالمية الأولى والثانية، وحرب الفتنام، وحرب فلسطين، وحرب العراق، وحرب الشيشان وأفغانستان، هل قال قائد يوما لأعدائه: اذهبوا فأنتم الطلقاء؟ فإذا كان الرسولﷺ قد سجل للتاريخ العفو الجماعي العام، فدعاة حقوق الإنسان اليوم سجلوا للتاريخ الإبادة الجماعية العامة، التي لا حدود لإبادتها، تبيد الإنسان والحيوان والأجنة والمنازل والثروات، فاسألوا هوريشما وناكازكي، فاسألوا سريفو وگروزني فاسألوا بيروت وبرلين،

---

(1) الفتح: 1-2.
(2) الإسراء: 81.
(3) الحجرات: 13.
(4)الحجرات: 13.
(5)السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 74.

فاسألوا في هذا اللحظات فلسطين وأفغانستان، لتتراءا لكم عظمة الإسلام في أفق الإنسانية، وظلم الكفر في حضيض الأنانية.

فبمجرد أن شنف الرسولﷺ أسماع الناس، الذين كانوا أعداء الأمس، بهذه الكلمات الطيبة، «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، إذا بالوجوه تتلألأ، والصدور تنشرح، فتحولت الألسنة من عداوة الله، إلى الدعوة إلى الله، وانتقلت القلوب من بغض الرسولﷺ والحقد عليه، إلى الاستماتة في محبته والدفاع عنه، فارتفع عدد جيوش المسلمين في لحظة واحدة من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفا. يقول الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

صدق الله العظيم، وغفر لي لكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

(1) فصلت: 24.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

بعد هذه القفزة النوعية في عدد جيوش المسلمين، تسلم الرسولﷺ مفتاح الكعبة من حاملها عثمان بن طلحة فدخلها وأزال ما بها من الأصنام بيد من كان يعبدها البارحة، فركع ركعتين شكرا لله تعالى دون طقوس ولا مراسيم، فلما خرج من الكعبة اعترضه حامل المفتاح قائلا: أتنزعها مني يا رسول الله؟ فقالﷺ: «لا. خذها تالدة خالدة لا ينزعها منك إلا هالك»[1]، فكانت في أحفاده إلى اليوم، فلم يستطع أحد مهما بلغ من الظلم أن يمد إليها يده، أو أن يفكر في ذلك مجرد تفكير، إنها أوثق وأقوى محافظة قامت على وجه الأرض، فدخل الناس دين الله أفواجا، فنزل قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا﴾[2].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) الطبقات الكبرى: 2/ 137.

(2) النصر: 1-3.

41) الخطبة [2] غزوة حنين درس في الاتكال على الله مع اتخاذ الأسباب(1)

الحمد لله الذي نصر نبيهﷺ بعد الامتحان والابتلاء في غزوة حنين، وجعله سيد الأولين والآخرين في الدارين، وأشهد أن لا إله إلا الله خلق الإنسان فجعل له عينين ولسانا وشفتين، وهداه بفضله سبحانه وتعالى النجدين، وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله بالوحيين، وحي الكتاب ووحي السنة فكان رسول الثقلين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه صلاة وسلاما إلى يوم الدين دائمين متلازمين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها نحن لا زلنا في شهر شوال، وقد قدمنا لكم أنه شهر استقبل في سيرة الرسولﷺ أربع غزوات كبرى، وهي: غزوة بني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة أحد في السنة الثالثة، وغزوة الخندق في السنة الرابعة وقيل الخامسة، وغزوة حنين في السنة الثامنة.

وقد منا لكم في الجمعة الماضية وقفات في غزوة الخندق، فرأينا كيف انتصر المسلمون فيها رغم قلة عددهم (ألف وخمسمائة)، على جيش المشركين وعددهم عشرة آلاف مقاتل

فتعالوا بنا اليوم نكشف الستار عن أحداث غزوة حنين؛ تلك الغزوة التي جاءت في بدايتها على عكس غزوة الخندق تماما، حيث انتصر المشركون في شوطها الأول رغم قلة عددهم (ثلاثة آلاف مقاتل)، على جيش المسلمين وعددهم اثنا عشر ألفا؛ فأين السر في ذلك حين انتصر المسلمون وهم قلة قليلة بينما انهزموا وهم كثرة كثيرة؟!

وقبل أن نكشف عن ذلكم السر العظيم دعونا نقدم لكم صورة مصغرة للأحداث التي تشكلت منها غزوة حنين.

لقد وقعت هذه الغزوة في السابع من شهر شوال، من السنة الثامنة من الهجرة، ودارت رحاها في واد اسمه وادي حنين، بينه وبين مكة سبعة وعشرون كيلو مترًا تقريبًا من جهة عرفات، ولها ارتباط وثيق بالفتح الأعظم الذي فتح الله تعالى به مكة بلده الأمين، وأعز به الملة والدين، وأنقذ به بيته الذي جعله هدي للعالمين، من

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 24 شوال 1429 هـ 24 / 09/ 2008م.

أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي دخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا، ولكن كان لهذا الفتح الأعظم رد فعل معاكس لدى القبائل العربية المشركة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا "هوزان" و"ثقيف"؛ فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم، إلى رجل اسمه مالك بن عوف سيد هوزان، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم؛ فخرج بقومه أجمعين، نساء ورجالاً، شيوخا وأطفالاً، بهائهم وأموالاً؛ ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وماله وحُرمته وأهله وراءه فيستميت في الدفاع عنها، ويهاجم لحمايتها، ولا يخطر في باله الفرار عنها. وقد اعترضه في خطته هذه رجل اسمه دريد بن الصمة وقد كان فارساً مجرباً محنكاً، قائلاً له: وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه، وإن كانت عليك: فُضحْتَ في أهلك ومالك، فركب رأسه وأبى الرجوع عن خطته.

أما رسول اللهﷺ فقد رفعت إليه مخابراته تقارير ما يجري فأخذ يجهز جيشه، ويعد لمواجهة هذا الموقف عدته، فأعد جيشا عرمرما قوامه اثنا عشر ألف مقاتل، حتى ساد الشعور لدى بعض الصحابة أنهم لن يُهزَموا بعد اليوم، معتمدين على الأسباب، داهلين عن الاتكال على رب الأرباب، والقاعدة في العقيدة هي: ترك الأسباب معصية والاتكال عليه كفر.

وكان قائد جيش المشركين قد استبق زمام المبادرة، وأرصد للمسلمين بجيشه كمينا في مضايق وادي حنين، وأصدر إليهم أوامره، بأن يهاجموا على المسلمين فجأة هجمة رجل واحد. وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليل. وبينما هم كذلك إذا بالنبال تمطر عليهم من كل جانب، وإذا بكتائب العدو قد هجمتهم هجمة رجل واحد من كل حدب وصوب، فانهزم المسلمون في الشوط الأول من المعركة أمام هذا النفير، فكانت هزيمة منكرة لذلك الجمع الكبير، ولم يبق معهﷺ في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار؛ ولكنهﷺ يعرف كيف يثبت في مثل هذه المواقف، وكيف ينقذ الموقف في أحرج اللحظات، فانحاز ذات اليمين، وهو يقول:

«أنـا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[1] وقـال لعمـه العبـاس وكـان جهـوري الصوت: ناد أصحاب بيعة العقبة، ناد أصـحاب بـدر وأحـد، نـاد أصـحاب بيعـة الرضوان، فأجـاب الـصحابة مـسرعين قـائلين: لبيـك وسـعديك يـا رسـول الله، فاصطدموا مع المشركين بقوة إيمانهم المعهودة، وحين رأى النبيﷺ ذلك قال: «الآن حمي الوطيس»[2]، فانهزم المشركون في الشوط الثاني من هـذه المقابلـة والتجئـوا إلى الطائف، فتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغـانم كثـيرة؛ بهـائم ونـساء وأطفـالا، فأرسل رسول اللهﷺ على أثرهم فريقًا من الصحابة، حـاصروهم، وقـاتلوهم حتـى حسموا الأمر معهم ففتحت الطائف ودخـل أهلهـا الإسـلام، وفي هـذا يقـول الله تعـالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾[3].

وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة في هذه المعركة فقسمها رسول اللهﷺ على المؤلفة قلوبهم من قريش، وترك الأنصار، فأُطْلِقتْ ألسنة شتى بالاعتراض والقيل والقال، حتى قال بعـضهم: لقـي –والله– رسـول اللهﷺ قومـه، فجمعهـمﷺ فقـال: «أفـلا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول اللهﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ مـن الأنـصار، ولـو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شِعب الأنـصار؛ اللّهـم ارحـم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكي القوم حتى أخضلوا لحـاهم، وقالوا: رضينا برسول اللهﷺ قَسْماً وحظاً[4].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المـسلمين أجمعـين والحمـد لله رب العالمين.

(1) – صحيح البخاري: 3/ 1051، كتاب الجهاد والسير/ باب من قاد دابة غيره في الحرب، – صحيح مسلم: 3/ 1400، كتاب الجهاد والسير/ باب في غزوة حنين.

(2) المعجم الكبير: 7/ 298، ح: 7191.

(3) التوبة: 25–26.

(4) مسند أحمد: 3/ 76.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

لقد قدم الله تعالى في غزوة حنين للأمة دروسا عظيمة منها:

أولا: لقد كان موقف رسول اللهﷺ وثباته في هذه المعركة مع قلة من الصحابة دليلاً ناصعاً، وبرهاناً ساطعاً على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنهﷺ الجموع، وولوا الأدبار، وبقي وحدهﷺ وسط ساحات الوغى، تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتاً عجيباً، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارين، فعادت إليهم من ذلك المشهد عزيمتهم فعادوا لمهمتهم.

ثانيا: لقد كانت غزوة حنين هذه درساً عظيماً في العقيدة الإسلامية وفي التوكل على الله، وممارسة عملية لفهم قانون الأسباب والمسببات؛ فإذا كانت وقعة الخندق قد علَّمتنا أن القلة إذا كانت مؤمنة بالله حق الإيمان، وأخذت بأسباب النصر، سوف تنتصر أمام كثرة الأعداء؛ فإن غزوة حنين قد علمتنا درساً جديداً، حاصله أن الكثرة الكاثرة لا تغني شيئاً، ولا تجدي نفعاً في ساحات المعركة، إذا لم تكن قد تسلحت بسلاح العقيدة والإيمان، وإذا لم تكن قد أخذت بأسباب النصر وقوانينه. فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلة فقط، وإنما ثمة أمور أخر أعظم شأناً وأهمية واعتباراً لتقرير نتيجة أي معركة، والواقع اليوم يشهد على هذا؛ فقد بلغ عدد المسلمين مليارا ونصفا، ورغم ذلك انهزموا أمام شرمذمة من الصهاينة لا يتجاوزن ستة ملايين.

ثالثا: يستفاد من هذه الغزوة، أن الدافع الأول وراء مشروعية الجهاد، هو دعوة الناس إلى دين الإسلام، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى الدين القويم، ولم يكن الهدف من مشروعيته تحقيق أهداف اقتصادية، ولا تحصيل مكاسب سياسية. يشهد لهذا المعنى موقفهﷺ من مالك بن عوف –وقد كان المحرك الأساس، والموجه الأول لمعركة حنين– فقد سألﷺ أصحابه عنه فقالوا: إنه بالطائف مع ثقيف، فقال لهم: أخبروه، أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فأُخبر مالك بذلك، فجاء يلحق برسول اللهﷺ حتى أدركه،

فرد عليه أهله وماله، وأعطاه ما وعد، فأسلم وحسن إسلامه[1]، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الجهاد في أصله ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الوظيفة الأساس والهدف المرام من تشريعه، هو دعوة الناس إلى الحق المبين، وضمان حريتهم في اعتناق هذا الدين.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

(1) – السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 166–167، – المعجم الكبير: 19/ 302.

42) الخطبة [3] غزوة تبوك أو غزوة العسرة[1]

الحمد لله الذي جعل في سيرة المصطفىﷺ أحداثا رائعة، فكانت في جبين التاريخ معلمة ناصعة، تستوجب منا وقفات نصلح بها ما فسد من أحداثنا الواقعة، ونشهد أن لا إله إلا الله يجازي النفوس الخاضعة الخاشعة، شهادة تكون لنا إلى كل خير دافعة، شهادة تكون لنا من كل شر مانعة، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أيده الله بحجج مانعة جامعة، فكانت رسالته لرسائل الأنبياء خاتمة وناسخة وقاطعة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ذوي النفوس الزاهدة القانعة، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم القارعة.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

ها هو شهر رجب قد حل بساحتنا، وهو شهر من الشهور الأربعة الحرم، المذكورة في القرآن الكريم، والتي تستوجب منا المزيد من الاحترام، لأنها شهور مباركة، واحترامها إنما يكون بزيادة الطاعة، واجتناب المعاصي، يقول الله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم﴾[2]، والأربعة الحرم جمعها من قال:

ذو قعدة ذو حجة محرم ورجب الفرد شهور حرم[3].

وشهر رجب -يا عباد الله- يحمل في طياته ذكريات عظيمة، من السيرة النبوية العطرة، هذه السيرة التي نحن اليوم في حاجة ماسة لدراستها، في حاجة للوقوف على أحداثها، في حاجة للتعلم من فقهها، في حاجة للسير على منوالها، حتى نكون على بصيرة من أمرنا، لأنها التطبيق العملي للقرآن الكريم.

أيها الإخوة في الله! ففي شهر رجب، من السنة التاسعة من الهجرة، وقعت غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبيﷺ، وهي التي سماها القرآن الكريم ﴿ساعة العسرة﴾[4]. أتدرون لماذا؟

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 5 رجب الفرد 1420 هـ 15/ 10/ 1999م، ثم أعيدت في: 16رجب الحرام 1429هـ 18/ 07/ 2008م، وفي: 10 رجب 1430هـ 03/ 07/ 2009م.

(2) التوبة: 36.

(3) البيت لمحمد بن سعيد المرغيتي السوسي(1007هـ - 1089هـ) في نظمه: (المقنع، في علم أبي مقرع).

(4) التوبة: 117.

أولا: لأنها جاءت في سنة الجفاف والقحط، وفي فصل الصيف أيضا، مع بعد المسافة والشقة، من المدينة إلى تبوك في حدود الأردن، حوالي سبعمائة وثمانية وسبعين (ك م) حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر.

ثانيا: لأن المعركة كانت في مواجهة أعتى جيش في ذلك الوقت، وهو جيش دولة الروم الصليبية، وقتال الروم ليس صداما مع قبيلة محدودة العدة والعدد؛ بل هو كفاح مرير، مع دولة تبسط سلطانها ونفوذها على القارات، وقد كان العرب يومئذ، ينظرون إليها، نظرة أهل إفريقية اليوم إلى أوربا وأميركا؛ بل كانت تقوم بالدور الذي تقوم به أميركا في عصرنا الراهن، فهي قوة ضارية، تحشر بأنفها في كل صغيرة وكبيرة، والقرآن الكريم يخبرنا أنها انتصرت على أكبر دولة آنذاك وهي دولة الفرس: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[1].

ولكن الرسولﷺ لم يرهبه كل ذلك؛ بل كل همه تثبيت الإيمان في قلوب أصحابه، وتقوية روح الجهاد والسخاء في نفوسهم، حتى يستشعروا الخطر المحدق الذي يهدد دينهم، والصحابة -رضوان الله عليهم- ما كانوا لينكُصوا على أعقابهم ويتخاذلوا، خوفا من القحط والصيف وبعد الشقة، ما كانوا ليتهربوا من التحمل ضد أي عدو مهما كانت الصعوبة والمشقة، إذا ما دعاهم النبيﷺ إلى البذل والعطاء والتضحية، وقد كان عليرضي الله عنه يقول: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الضرب بالسيف، والصوم بالصيف، وإكرام الضيف»[2]، وكل الصحابة في هذا الحب سواء، وقد قال تعالى فيهم: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[3].

وإليكم اليوم -يا عباد الله- المشهد الأول من هذه الغزوة، وهو الاستعداد لها:

المشهد الأول: لقد نقلت الأخبار إلى النبيﷺ بأن دولة الروم تعد العدة لضرب المسلمين في المدينة، لأن الصليبين دائما يريدون الاستفراد بالعالم، لا يريدون أبدا أن يُسمَع مع رنين نواقيسهم، صوت المؤذن: الله أكبر، وحي على الصلاة والفلاح، وإن الحروب الصليبية التي سمعنا الكثير عنها عبر التاريخ، بل وعشنا في هذا العصر حلقة من حلقاتها الكالحة، كان مبدأها حياة النبيﷺ، وغزوة تبوك أكبر دليل ذلك؛ ولكن النبيﷺ ما كان ليسكت حتى يباغته العدو في عقر داره؛ بل إنهﷺ من

---

(1) الروم: 1-4.

(2) كشف الخفاء: 1/ 407.

(3) الفتح: 29.

عادته أن يأخذ المبادرة ضد أعدائه، فيهاجِم قبل أن يهاجَم، وتلكم هي الخطة العسكرية النافذة، فما انهزم المسلمون اليوم، إلا عندما أفلتت المبادرة من أيديهم.

أيها الإخوة في الله؛ لقد فتح النبيﷺ باب المساهمة، ودعا الصحابة إلى المشاركة المكثفة، إلى الإنفاق السخي، وكان من عادة النبيﷺ في غزواته: ألا يكشف لأحد عن وجهته، وإنما يأمر المجاهدين بالاستعداد فيستعدون، حتى يباغت بهم العدو في عقر داره، ولكن هذه المرة كشف عن مراده للجميع، فأصبح الجميع يعلم أن النبيﷺ يريد مواجهة الروم، فاستجاب الصحابة -رضوان الله عليهم-، فسجلوا في الواقع للتاريخ، صورا رائعة من البذل والعطاء، تبهر الألباب، وفي نشوة عارمة، وفي فرح كبير بإحدى الحسنيين، لا ينتظرون إلا الشهادة أو النصر المبين.

وهنا بدأت المسابقة، ولكن ليس في تحطيم الأرقام القياسية في استعراض العضلات، وإنما هي في تحطيم الأرقام القياسية في بذل الصدقات، إنها مسابقة عنوانها: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[1].

فكان أسبقَهم في هذه المسابقة الربانية، عثمان بن عفانرضي الله عنه، حتى قال فيه الرسولﷺ: «ما ضر عثمانَ ما عمل بعد اليوم»[2]، ثم جاء بعده عبد الرحمن بن عوف بمال كثير، وأبو بكر بكل ماله، وعمر بنصف ماله، وهكذا تتابع الصحابة في البذل والعطاء، بالكثير والقليل، حتى كان منهم من أنفق مدا أو مدين، ولم يكن يستطيع غير ذلك، ولم يقتصر الأمر على الرجال فحسب؛ بل شارك النساء في المسابقة مشاركة فعالة، لأنهن كما قالﷺ: «شقائق الرجال»[3]، فتصدقن بما قدرن عليه، من حلي وذهب، وخلاخل وخواتم، حتى جهز الجميع بهذه المشاركة الجماعية، جيشا قوامه ثلاثون ألف مقاتل.

هكذا كان أغنياء الصحابة -رضوان الله عليهم-، أما أغنياء المسلمين اليوم، فهناك أرقام، تدل أيضا على أنهم أنفقوا أكثر من ذلك، ولكن في النزوات والشهوات، وفي كزنـهات القمار والخمور، التي أقامها أحفاد الروم ليستنزفوا بها

(1) آل عمران: 133-134.

(2) صحيح، رواه الترمذي في السنن: 5/ 626، ح: 3701، والحاكم في المستدرك: 3/ 110، ح: 4553، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح: 3/ 1713، ح: 6073.

(3) صحيح، رواه الترمذي: 1/ 189، ح: 114، - وأبو داود: 1/ 61، ح: 236، وصححه الألباني في: - صحيح سنن أبي داود: 1/ 431، - السلسلة الصحيحة: 6/ 860، ح: 2863.

ثروات الأمة، وفي مهرجانات وحفلات الفسق والمجون، وفي وقت جثم فيه الشبح الثلاثي المخيف، على الأغلبية الساحقة من المسلمين: الفقر، والمرض، والجهل.

أيها الإخوة في الله؛ هذا هو دور الأغنياء من الصحابة، أما فقراءهم فقد تزاحموا على النبيﷺ ليجهزهم بالمراكب والمؤن، حتى تتسنى لهم المشاركة، ولكن الثروة المادية التي قدمها الأغنياء قد نفِدت، والثروة البشرية والإيمانية لم تنفَد بعد، حيث جاء نفر من فقراء الصحابة إلى النبيﷺ يطلبون المدد، فقالﷺ لهم: لا أجد ما أحملكم عليه، عندئذ بكوا -رضوان الله عليهم-، ظانين أن الفرصة سوف تفوتهم، فجهزهم بعض أغنياء الصحابة، فسموا هؤلاء في تاريخ الإسلام بالبكاءين، وقد سجل عنهم القرآن الكريم هذا البكاء الإيماني المبارك إذ يقول: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت: لا أجد ما أحملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾[1]. ترى -يا عباد الله-؛ هل بكى أحدنا يوما على فرصة فيها رضوان الله فاتته، هل بكينا يوما على ذنوب ارتكبناها، ولا زلنا نرتكبها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(1) التوبة: 92.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

إن لكل عمل خيري أعداء، وإن لكل ذي نعمة حسودا، ففي هذه الغزوة، لعب المنافقون –كعادتهم– دورهم المتخاذل بكل المقاييس.

ومن المعلوم –أيها الإخوة في الله– أن المكر يزداد خبثا حين يكون أبطاله من المنافقين، الذين يدعون الإسلام وهو منهم براء، الذين يحملون أسماء مغلفة بالإسلام، وقلوبا غلفا بالكفر والإلحاد.

فأحفاد هؤلاء المنافقين اليوم أشد خطرا على الإسلام من أي عدو آخر؛ لأنهم يحاربون الإسلام باسم الإسلام، ونحن اليوم لا نخشى على الإسلام من أعدائه، بالقدر الذي نخشى عليه من أدعيائه.

لقد قام المنافقون في هذه الغزوة، بعدة محاولات ضد الرسولﷺ منها:

أولا: لقد تخلفوا عن المشاركة، واختلقوا لأنفسهم الأعذار الكاذبة، حتى لا يتهموا بالنفاق، ولكن الله تعالى فضحهم، فكشف في القرآن عن خبث نواياهم، ومن أسخف الأعذار التي تمحلها هؤلاء المنافقون، ما قال أحدهم[1] حين عرض عليه النبيﷺ الجهاد؛ إنه قال: يا رسول الله، ائذن لي ولا تفتني، فإني أشد الناس عجبا بالنساء، فأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر[2].

انظروا –رعاكم الله– إلى هذه الوقاحة، فيرد عليه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[3].

ثانيا: لقد أخذوا في تثبيط همم الناس، وقاموا بمحاولات قذرة، لزرع الخوف في قلوب الناس، حتى لا يخرجوا مع النبيﷺ، وقالوا: لا تنفروا في الحر، فباءت كل محاولاتهم بالفشل الذريع.

ثالثا: لقد استبشروا وفرحوا، لأنهم يظنون أن هذه المعركة هي نهاية الإسلام، يحسبون أن المسلمين بمواجهة الروم، إنما يحفِرون قبورهم بأيديهم، فيقول بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال العرب، والله لكأننا بكم غدا مقرنين في

---

(1) هو الجد بن قيس.

(2) ضعيف، رواه الطبراني في: – المعجم الأوسط: 5/ 375، ح: 5604، – المعجم الكبير: 12/ 122، ح: 12654، وضعفه الهيثمي بيحيى بن عبد الحميد الحماني العجلاني الكوفي في مجمع الزوائد: 7/ 30.

(3) التوبة: 49.

الحبال[1]، فيرد عليهم القرآن الكريم إذ يقول: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا: لا تنفروا في الحر، قل: نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾[2].

رابعا: لقد شنوا حملة من السخرية والاستهزاء، ضد الصحابة، وخصوصا الذين ساهموا بأموالهم وأنفسهم في هذه الغزوة، فلم ينج من سخريتهم من أنفق الكثير، ولا من أنفق القليل؛ فحين رأوا صحابيا[3] جاء بصاع من تمر، ولم يملك غيره، قالوا في سخرية واستهزاء: ألم يكن الله غنيا عن صاع هذا؟ وحين رأوا عبد الرحمن بن عوف جاء بأموال طائلة، قالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء[4]، ما نجى من ألسنتهم اللامزة الغامزة، لا الأغنياء ولا الفقراء، فيرد عليهم القرآن الكريم إذ يقول: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾[5].

خامسا: لقد قاموا بناء مسجد الضرار، قرب مسجد قباء، ليفرقوا به شمل الصحابة، فيرد عليهم القرآن الكريم إذ يقول: ﴿الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون﴾[6]، فهدم النبي ﷺ هذا المسجد، بعد عودته الظافرة من تبوك في رمضان.

أما بقية الغزوة، فستأتي تفاصيلها في الجمعة المقبلة إن شاء الله...

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) السيرة النبوية: 5/ 205.
(2) التوبة: 81.
(3) هو أبو عَقِيل الأنصاري مشهور بكنيته، واختلف في اسمه، انظر: - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 4/ 1717، ت: 3097، - الروض الأنف: 5/ 186، - الإصابة في تمييز الصحابة: 7/ 279، ت: 10260، - فتح الباري: 8/ 331.
(4) مسند البزار: 15/ 234، ح: 8672، وأصله في الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري: - صحيح البخاري: 4/ 1714، كتاب التفسير/ باب قوله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين﴾، - صحيح مسلم: 2/ 706، كتاب الزكاة/ باب الحمل أجرة يتصدق بها، والنهى الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل.
(5) التوبة: 79.
(6) التوبة: 107.

43) الخطبة [4] غزوة تبوك أو غزوة العسرة (تتمة)(1)

الحمد لله الذي أيد المصطفىﷺ بالمعجزات الباهرة، فأسلمت له بسببها القلوب الكافرة، ووجدت فيها ضالتها النفوس الحائرة، وأشهد أن لا إله إلا الله كسر بالجهاد رقاب الجبابرة، الذين مازلت نفوسهم عن الإيمان نافرة، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ذو الأخلاق الرفيعة الوافرة، شهادة ننال بها شفاعته يوم الساهرة، ويغفر الله لنا بها الذنوب الراهنة والغابرة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين نالوا رضوان الله في الدنيا والآخرة، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الحياة في هذه الدنيا عابرة.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قد قدمنا لكم في الجمعة الماضية، أننا في شهر رجب، وهو من الشهور الحرم الأربعة، وقدمنا أنه قد حمل إلينا من ذكريات السيرة النبوية العطرة غزوة تبوك، وقد كشفنا لكم الستار عن ***المشهد الأول*** من هذه الغزوة: ألا وهو استعداد النبيﷺ لها، حيث تعلمنا أن القرآن الكريم سماها ساعة العسرة، لأنها في مواجهة دولة الروم، وهي في ذلك الوقت بمثابة دولة أمريكا في هذا الوقت، ولأنها جاءت في فصل الصيف، وفي سنة القحط والجفاف، وبعد المسافة.

وهناك رفعنا لكم الستار عن تلكم الصور الرائعة من البذل والعطاء، حين تسابق أغنياء الصحابة في الإنفاق في سبيل الله، عثمان، وأبو بكر، وعمر، وابن عوف، وغيرهم، وحين بكى فقراء الصحابة، الذين لا يجدون المراكب والزاد، للمشاركة في هذه الغزوة رضي الله عنهم أجمعين. وفي هذا المشهد وقفنا بكم، عند تلك المحاولات القذرة، التي قام بها المنافقون لإفشال هذه الغزوة، وما أشد ما تعاني الأمة من أذى المنافقين على مر التاريخ.

فتعالوا بنا اليوم نرفع الستار عن بقية مشاهد هذه الغزوة!

المشهد الثاني: الرسولﷺ في الطريق إلى تبوك، وهو يقود جيشا مترامي الأطراف، قوامه ثلاثون ألف مقاتل، كل واحد منهم بإيمانه الصامد الجليل، وبصبره القوي الجميل، يزن في قوته عشرة من مقاتلي الأعداء؛ لأن الله تعالى يقول:

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 12 رجب الفرد 1420 هـ 22/ 10/ 1999م، ثم أعيدت في: 23رجب الحرام 1429هـ 25/ 07/ 2008م، وفي: 17 رجب 1430هـ 10/ 07/ 2009م.

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾[1].

لقد عانى الصحابة في هذه الرحلة جهودا شاقة، وأتعابا جسيمة، حتى كان الثلاثة يتعاقبون على بعير واحد، مع بعد المسافة، فأصابهم عطش شديد، حتى نحروا بعض إبلهم ليشربوا ما في بطونها من الماء، و أكلوا أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم، فاستدعى ذلك أن يكرمهم الله عز وجل بمعجزات على يد المصطفىﷺ في الطعام والماء.

أما في الطعام: فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرةﷺ قال: «لما كانت غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فاشتكوا إلى النبيﷺ فدعاﷺ بنطع -أي بجلد- فبسطه، ثم أمر كل واحد أن يأتي بما لديه من الطعام، فجاء هذا بمد من الدقيق، وذاك بكف من تمر، وذلك بالكسرة من الخبز، حتى اجتمع من ذلك شيء يسير من الطعام، ثم دعا لهﷺ بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملئوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول اللهﷺ لما رأى ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك إلا دخل الجنة[2].

أما في الماء: فقد روى الطبراني والبزار بسند رجاله ثقات عن عمرﷺ قال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فأصابنا عطش حتى ظننا أن رقابنا سوف تتقطع، فاشتكوا إلى النبيﷺ، فرفع يديه إلى السماء، فلم يردهما حتى أمطرت السماء، فملئوا ما معهم، قال عمر: ثم ذهبنا ننظر فلم نجد هذا المطر جاوز العسكر»[3].

المشهد الثالث: النبيﷺ يصل إلى تبوك، ولكنه لم يلق حربا؛ بل وجد الروم قد انسحبوا وتفرقوا خوفا وفزعا، وقد قالﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[4]، فصالحﷺ القبائل التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الرومي، فرفع عنها تلك الضرائب الثقيلة، التي فرضت عليها من دولة الروم، فصاروا أحرارا، ودخلوا في

---

(1) الأنفال: 65.
(2) رواه أحمد في المسند بلفظ قريب منه: 3/ 11.
(3) صحيح، رواه البزار في المسند: 1/ 331، ح: 214، والطبراني في المعجم الأوسط: 3/ 323-324، والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي: 1/ 263، ح: 566، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: 6/ 195، "رجال البزار ثقاة"، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: 6/ 93: إسناده جيد قوي.
(4) صحيح البخاري: 1/ 128، كتاب التيمم/ قول الله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا...﴾.

الإسلام أفواجا، فتوطدت هناك دعائم الإسلام، وقد بلغت بهذه الغزوة حدود دولة الإسلام الوليدة إلى أطراف الشام، فبقيﷺ في تبوك عشرين ليلة، يدعو أهلها إلى الإسلام.

وفي تبوك التحق بالنبيﷺ الصحابي الجليل أبو خيثمة وقد كان من الذين تخلفوا عن المشاركة في المدينة دون عذر مقبول، ولكنه عندما انطلق الرسولﷺ أحس بخطر التخلف على إيمانه، حين دخل بيته وقد أعد له أهله الطعام الشهي، والماء البارد الروي، إذا بضميره يستيقظ، فيفاجئ أهله بالرفض لهذه الوضعية، فيقول: أيكون رسول اللهﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام شهي، وامرأة حسناء، والله ما هذا بالإنصاف والله لا أدخل المنزل حتى ألتحق برسول اللهﷺ[1].

وهكذا -يا عباد الله- ينبغي أن يفعل من لعبت به نفسه الأمارة بالسوء، وساقته وساوس الشيطان، حتى هم بارتكاب ما لا تحمد عقباه، أن يبادر بالتوبة وإصلاح الخطأ قبل فوات الأوان، والرسولﷺ يقول: «من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة»[2] والله تعلى يقول: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾[3].

المشهد الرابع: النبيﷺ في طريق العودة إلى المدينة، وقد اشترك جماعة من المنافقين في هذه الغزوة، ولكن لا ليحاربوا في صفوف المسلمين؛ بل لأنهم يظنون أن جيش الروم سوف يبيد المسلمين عن آخرهم، فجاءوا للكيد والفرجة، وليحاربوا المسلمين من الداخل، وأنتم تعلمون: أن أدعياء الإسلام، أشد خطرا على الإسلام من أعدائه، وقد صدق من قال:

أي شـيء يكون أقبح مَـرْأى من صديق يكون ذا وجهين
من وراءي يكون مثل عـدوي وهـو إذ نلتقي يقبل عـيني

ومن قال:

لاخير فـي ود امـرء متـمـلـق حـلـو اللسـان وقـلبـه يتلهب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويـروغ منك كما يروغ الثعلب

(1) السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 200.
(2) صحيح البخاري: 5/ 2380، كتاب الرقاق/ باب من هم بحسنة أو بسيئة.
(3) الفرقان: 70.

يلقــاك يحلــف أنــه بك واثــق فــإذا توارى عنك فهو العقرب[1]

فلما رأى هؤلاء المنافقون أن ظنهم قد خاب، ومرادهم قد خسر، والنبيﷺ يعود إلى المدينة مظفرا، أردوا اغتياله في الطريق، ناسين أن الله عز وجل قال: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2]، فاقتربوا منهﷺ وهم ملثمون حتى لا يعرفوا، فحاولوا تنفير دابته في إحدى العقبات لتطرحه فينتهي أمره، ولكن النبيﷺ فطن لهم، وكل ما فعلﷺ أنه أمر بإبعادهم، روى ذلك الإمام أحمد بإسناد حسن[3]، ولم يقم باستجوابهم ولا سجنهم ولا أمر بإعدامهم، لو حدث هذا لأحد حكام هذا العصر اليوم، لأعدموا كل ما له صلة بالمحاولة من قريب أو من بعيد، ولكنهﷺ رحمة للعالمين، وقد قال: «إنما أنا رحمة مهداة»[4].

وفي الطريق أيضا مرﷺ بالديار التي كانت ثمود تسكنها، وهي أطلال هامدة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا نبي الله سيدنا صالحا -عليه السلام-، إذ قتلوا ناقته ورفضوا دعوته، يقول الله تعالى فيهم: ﴿كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها فلا يخاف عقباها﴾[5]، فقال لهمﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكون باكين أن يصيبكم ما أصابهم»[6].

والنبيﷺ يريد بهذا ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة والعبرة، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من المثلات، فإن المرء لو قيض الله له أن يزور مثلا السجون، أو يشهد مناطق فيها آثار حرب طاحنة، أو بقايا زلزال مدمر، فلا يليق به أن ينظر إليها وهو شارد أو ضاحك؛ بل أخلاق الإسلام تفرض عليه أن يرى العبر في آثار من غبر، أن يتذكر عقاب الله فتنفعه الذكرى، ومن هنا نتعلم أن الإسلام لا يريد أن تكون

---

(1) الأبيات للشاعر العباسي، صالح بن عبد القدوس (ت 160هـ) في بائية المشهورة بالقصيدة الزينبية، ومطلعها:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ * وَالدَّهْرُ فِيهِ تَغَيُّرٌ وَتَقَلُّبُ

(2) المائدة: 67.

(3) مسند أحمد: 5/ 453.

(4) صحيح، رواه الطبراني في المعجم الأوسط: 3/ 223، ح: 2981، والحاكم في المستدرك: 1/ 91، ح: 100، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 882، ح: 490.

(5) الشمس: 11-15.

(6) - صحيح البخاري: 4/ 1609، كتاب المغازي/ باب نزول النبي ﷺ الحجر، - صحيح مسلم: 4/ 2286، كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

السياحة لمجرد التسلية بمشاهدة الآثار، أو الانبهار بالذي مضى؛ بل أراد لنا أن نربط المواقع التاريخية بعبرها، ونتذكر عمق الأحداث التي مرت بها، فنعرف أسباب الهلاك فتتجنبها، فنرى في آثار من مضى فناءهم الماضي لنهيئ أنفسنا لفناءنا الآتي، والله عز وجل يقول: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[1]، فبذلك تكون لنا قلوب نعقل بها الحقيقة الجلية، وآذان نسمع بها الحق المبين، يقول الله سبحانه: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[2].

__المشهد الخامس__: النبيﷺ يصل المدينة، وحين لاحت له معالمها قال: «هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه» أخرجه الشيخان[3]، فيستقبله النساء والولدان بحفاوة بالغة، وهم يقولون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ولما دخلﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، فبهذا كان من السنة في حق كل من رجع من السفر أن يبدأ بالمسجد ليصلي فيه ركعتين، ثم جلسﷺ للناس، فجاء الذين تخلفوا من المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، ويختلقون الأعذار الكاذبة، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهمﷺ علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، إلا ثلاثة من الصحابة تخلفوا دون عذر وليسوا من المنافقين، ولم يكذبوا على رسول اللهﷺ، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فهجرهم النبيﷺ عقوبة لهم، ولم يكلمهم أحد من الصحابة حتى أزواجهم وأبنائهم خمسين يوما[4] وفي هذه الفترة أرسلت دولة الروم الصليبية رسالة إلى كعب بن مالك يستميلونه إليهم بالمادة حتى يرتد عن دينه؛ لأن الصليبية دائما عادتها أن تتصيد في الماء العكر، كما يفعلون اليوم تماما، ولكن كعباً رضي الله عنه رغم كل شيء ما كان ليستبدل بالإسلام الدنيا وما فيها، ثم تاب الله عليهم فنزل قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا

---

(1) الأنعام: 11.

(2) الحج: 46.

(3) - صحيح البخاري: 4/ 1610، كتاب المغازي/ باب نزول النبي ﷺ الحجر، - صحيح مسلم: 4/ 1785، كتاب الفضائل/ باب في معجزات النبي ﷺ.

(4) صحيح البخاري: 4/ 1603-1608، كتاب المغازي/ باب حديث كعب بن مالك.

ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[1].

وإذا كان النبيﷺ يعاقب ثلاثة من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فإن الذي تخلف اليوم ليس ثلاثة فحسب؛ بل مليار مسلم وازدادوا نصفه، كلهم تخلفوا إلا من رحم الله، لو كان النبيﷺ حيا لهجرَنا جميعا؛ فها هي الشيشان اليوم، وفي هذه اللحظات بالذات، تدكها الحرب الروسية الظالمة، فتخلف فيها موتا ودمارا، ودموعا ودماء، في صفوف من يحمل شهادة أن لا إله إلا الله، وما قتلوهم إلا لأنهم قالوا: ربنا الله، وهاهي القدس لازالت تعاني من وطأة التهويد المعلن، وها هو العالم يتحد في تكتلات اقتصادية وعسكرية كبيرة، ولكن العالم الإسلامي لازال يتشتت، لازالت أطرافه تتمزق، بنعرات جاهلية، وعنصرية إقليمية منتنة، فكيف تحلو الحياة لمن يضيع دياره، ويهتك بخذلانه شرفه، ويغتصب الأعداء عرضه وأرضه؟ والرسولﷺ يقول فيما روى أبو داوود وأحمد: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلما، في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»[2]، ويقولﷺ في الحديث المتفق عليه: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3]، ويقولﷺ في الحديث المتفق عليه أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك أصابعه»[4]، ويقولﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم...»[5].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) التوبة: 118.

(2) حسن، رواه أحمد في مسنده: 4/ 30، وأبو داود في سننه: 4/ 271، ح: 4884، والطبراني في معجميه؛ الأوسط: 8/ 282، ح: 8642، والكبير: 5/ 105، ح: 4735، وقد حسن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد: 7/ 267، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته: 2/ 292-293، ح: 5690.

(3) متفق عليه ولفظه للبخاري في صحيحه: 5/ 2238، ح: باب رحمة الناس والبهائم.

(4) - صحيح البخاري: 1/ 182، كتاب الصلاة/ أبواب المساجد/ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره،
- صحيح مسلم: 4/ 1999، كتاب البر والصلة والآداب/ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

(5) ضعيف، رواه الطبراني في الأوسط: 7/ 270، ح: 7473، عن حذيفة ﷺ وفي سنده عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه وكلاهما ضعيف، ولذلك ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: 1/ 483، ح: 312.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

تلكم هي غزوة تبوك، والعبر فيها كثيرة، والدروس منها عظيمة، والدرس الجامع فيها -والمسلمون يمرون بالظروف المعاصرة، والمتغيرات المتسارعة- يكون من محراب الجهاد؛ والجهاد أربعة أنواع بالترتيب: يبدأ بجهاد النفس والشيطان، إلى الجهاد بالدعوة واللسان، إلى الجهاد بالمال وما يملك الإنسان، إلى الجهاد بالنفس والسنان، وهي مرتبة هكذا؛ كل نوع منها لا يتحقق إلا بعد الذي قبله، وكل نوع منها شرع له الإسلام من يتحمل مسئوليته خاصة، واحترام التخصص فيه واجب، وإلا كان فوضى يجني على المسلمين ما لا يستطيعون تحمله من الفتن والمصائب؛ فجهاد النفس والشيطان هو طبعا مسئولية الجميع، وضمن صلاحيات الكل، أما الجهاد باللسان فهو من صلاحيات ومسئوليات العلماء، أما الجهاد بالمال فهو من مسئوليات الأغنياء، وأما الجهاد بالنفس فهو من مسئوليات وصلاحيات السلطة والدولة.

وكيف يكون أهل الإسلام حين يرضى بالقعود المتخاذل أهل القوة والطول، وحين يتخلف عن الجهاد الذين يملكون وسائل العطاء والبذل، لا يذودون عن حرمة، ولا ينتصرون لكرامة، ولا يحسون بصغار ولا ذلة؟! فيصبح الجميع كما قالﷺ: «غثاء كغثاء السيل»[1].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) صحيح، رواه أبو داود في السنن:4/ 111،ح:4297، وصححه الألباني في الصحيحة:2/ 647،ح:958.

44) الخطبة [5] فوائد وعبر من حجة الوداع[1]

الحمد لله الذي شرع لنا الحج إلى البيت العتيق، فقصده الحجاج على كل ضامر ومن كل فج عميق، وهوت إليه الأفئدة من كل أوب سحيق، وأشهد أن لا إله إلا الله أنقذ المسلم بالحج من بحر ذنوبه العميق، وجعل فيه زاد التقوى سفينة كل غريق، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بالمؤمنين رحيم وشفيق، بين لنا أن الحج المبرور بمكارم الأخلاق جدير وحقيق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه مادام من يتمسك بالعروة الوثقى والعهد الوثيق.

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

هاهم الحجاج يستعدون للمشاركة في ضيافة الرحمن، في موسم البر والإحسان، في موسم ينخرطون فيه ضمن وفد الكريم المنان، في موسم التجرد من شهوات الحيوان، في موسم يولد فيه من جديد الإنسان.

فتعالوا بنا اليوم بهذه المناسبة نرفع الستار عن حجة النبيﷺ، نصاحبهﷺ في مناسكه، ونترسم خطواته، وهو الذي قال: «خذوا عني مناسككم»[2].

ومن المعلوم في السيرة أن النبيﷺ اعتمر أربع مرات وحج مرة واحدة، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع، وحجة الإسلام؛ لأنهﷺ ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، كما تسمى حجة البلاغ، وحجة التمام؛ لأنهﷺ بلغ فيها الناس شرع الله قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه وأتمه، حتى أنزل الله عليه وهو واقف بعرفة آخر آية في التشريع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[3].

أيها الإخوة المؤمنون؛ لما دخل على رسول اللهﷺ شهر ذي القعدة من السنة العاشرة من الهجرة، تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير أزيد من مائة ألف، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «نظرت إلى مد بصري بين يديهﷺ من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك»[4]، كلهم يلتمس أن يأتم برسول اللهﷺ ويعمل مثل عمله. وعبادة الحج

---

(1) ألقيت باختصار في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 5 ذي القعدة 1412هـ 7/ 5/ 1992م، ثم زيد فيها ونقحت يوم الجمعة 25 ربيع الأول 1431 هـ 13/ 2/ 2010 م.

(2) صحيح، رواه البيهقي في السنن الكبرى: 5/ 125، ح: 9307، وأصله عند مسلم بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»، صحيح مسلم: 2/ 943، كتاب الحج/ باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر.

(3) المائدة: 3.

(4) صحيح مسلم: 2/ 887، كتاب الحج/ باب حجة النبي ﷺ.

ليست أن يفعل المسلم ما يظهر له؛ بل لا بد من الإئتمام بهﷺ، وكل فعل خالف هذا الإئتمام فليس بمنسك ولا شعيرة ولا شريعة؛ بل هو منكر وضلال وبدعة. والخطبة لاتسمح بتتبع خطواتهﷺ في حجه خطوة خطوة، ولهذا سنقدم ملخصا عنها، لنخلص للدروس العملية المستفادة منها.

أيها الإخوة المؤمنون؛ لقد أحرمﷺ بالحج من ميقات المدينة ذي الحليفة، بعد أن اغتسل وتجرد من المخيط والمحيط ملبيا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وعلى نغمات التلبية قاد هذه الجموع الهائلة إلى مكة فطاف بهم طواف القدوم، وسعى بين الصفا والمروة، ثم نزل خارج مكة بمكان اسمه المحصب وهو الأبطح بين مكة ومنى، قرب مقبرة مكة، ولم يقرب المسجد الحرام بصلاة ولا بطواف حتى رجع من عرفة يوم العيد.

وفي يوم التروية اليوم الثامن من ذي الحجة، توجه بهم إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم توجه إلى عرفة حيث صلى بهم الظهر والعصر جمع تقديم وقصر، فخطب خطبته المشهورة، ثم أفاض بهذه الجموع تظلهم السكينة ويسودهم الوقار إلى مزدلفة، فصلى بهم المغرب والعشاء جمع تقديم وقصر للعشاء، ثم أذن للنساء والضعفة بالذهاب إلى منى، فبات هو بمزدلفة حتى صلى الصبح، ثم رمى الجميع يوم العيد جمرة العقبة، وطافوا طواف الإفاضة. ثم رجعﷺ إلى منى فبات فيها ثلاث ليالي، ورمي الجمرات الثلاث ثلاثة أيام.

تلكم -يا عباد الله- بطاقة تعريف موجزة عن حجة الوداع، وحجة الوداع جاءت والأمة المسلمة في السنة العاشرة في مرحلة متقدمة من النضج الفكري والعملي، وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فقد وسعﷺ في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته، وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحى الإسلام دائرة إلى الأبد، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية المجتمع، وفي طياتها دروس كثيرة وعبر وفيرة منها:

أولا : الدعوة لقطع الصلة بالجاهلية والابتعاد عن الذنوب؛

فقد أشارﷺ إلى أهمية قطع المسلم علاقته بالجاهلية؛ أوثانها وثَأْراتها ورباها وغير ذلك، ولم يكن هذا مجرد توصية؛ بل كان قراراً أعلن عنه للملأ كله، لمن حوله، وللأمم التي ستأتي بعده، وهذه هي صيغة القرار الذي أعلنه في خطبته بعرفة: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، دماء الجاهلية موضوعة، وربا

الجاهلية موضوع»[1]؛ لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لاصلة لها برجس الماضي وأدرانه.

أما الدعوة للابتعاد عن الذنوب؛ فقد حذرﷺ من الخطايا والآثام، وبين في عرفة أنهﷺ لا يقصد بذلك العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن الشيطان قد أيس أن يعبد في الجزيرة العربية، فالعقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب، حتى تردى صاحبها في المهاوي والمخازي، فقالﷺ في عرفة: «أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم»[2].

ثانيا: تربية المجتمع المسلم على مبادئ أساسية لا قوة له إلا بها:

منها مبدأ الأخوة في الله؛ إذ هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين؛ فقد بينﷺ في خطبته بعرفة أن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه المسلم إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فقالﷺ: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

منها مبدأ الوقوف بجانب الضعيف حتى لايكون ثغرة في البناء الاجتماعي الإسلامي، فأوصىﷺ في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان من الضعفاء، فقد أكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية فقالﷺ: «إن لكم علي نسائكم حقا ولهن عليكم حقا»[4].

منها مبدأ التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بها، ولو كان الحاكم عبداً حبشياً؛ فقد بينﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأنها تعتمد على السمع والطاعة مادام الرئيس يحكم بالكتاب والسنة، فإذا مال عنهما فلا سمع ولاطاعة، فعلى الحاكم العدلُ وهو أساس حكمه، مقابل السمع والطاعة من الرعية، فإذا وقع خلال في العدل تأثرت بذلك الطاعة، فكان الظلم والفوضى.

---

(1) صحيح مسلم: 2/ 889، كتاب الحج/ باب حجة النبي ﷺ.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 6/ 9.
(3) – صحيح البخاري: 4/ 1599، كتاب المغازي/ باب حجة الوداع، – صحيح مسلم: 3/ 1305، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات/ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال.
(4) السيرة النبوية لابن هشام: 6/ 9، وأصله في صحيح مسلم: 2/ 888، كتاب الحج/ باب حجة النبيﷺ.

منها مبدأ المساواة بين البشر؛ ففي عرفة أعلنﷺ أنه: «لافضل لعربي على عجمي، ولالعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب»[1] فبهذا حدد أن أساس التفاضل لاعبرة فيه لجنس، ولالون، ولاوطن، ولاقومية، وإنما أساسه قيم خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة.

منها مبدأ تحديد مصدر التلقي؛ فقد حددﷺ الطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم، وذلك بالرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: الكتاب والسنة، فتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لاينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أوعرف زمني أي سلطان عليهما.

لقد وصفﷺ الداء وبين الدواء، ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بهما، حيث قال في عرفة: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي»[2]؛ هذا هو العلاج الدائم، وقد كررﷺ نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة والأمكنة، بوجوب الاهتداء بهما في حل جميع المشكلات، فالإعتصام بهما يجنب الناس الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل، فاجتازت تعاليمهﷺ حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن وأسوار القرون، وظل صداها يتردد حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكنﷺ يخاطب سامعيه فقط "أيها المؤمنون، أيها المسلمون ،أيها الحجاج؛ بل كانﷺ يقول: «أيها الناس»، وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة، دون أن يخصصه بجنس أو زمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين.

ثالثا: قد بُعثﷺ معلما؛ بل هوﷺ معلم الأمة الأول، ففي حجة الوداع كشف لنا عن الأساليب التعليمية المؤثرة:

منها التعليم بمباشرة مايراد تعليمه؛ فقد علّمﷺ صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك

---

(1) لم أعثر عليه هكذا، ورواه أحمد في المسند: 5/ 411 بلفظ: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى» وهو صحيح، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح"، مجمع الزوائد: 3/ 266.

(2) لم أجده بهذا اللفظ، وقد ورد في موطإ مالك مرسلا بلفظ: «أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنة نبيه»: 2/ 899، كتاب القدر/ باب النهى عن القول بالقدر.

قال لهم: «خذوا عني مناسككم»[1]، كما علمهم الصلاة كذلك فقالﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[2]، وبهذا يعطينا قاعدة تعليمية مهمة وهي: أن التعليم التطبيقي أوقع في النفس من التعليم النظري، وأن التعليم النظري دون التطبيقي مجرد خيال لا واقع له، وعلى هذا يجب على كل معلم أن يعلم بصورة عملية، فالفرق كبير حين تتعلم من العمل وحين تتعلم من الكلام، ، فتعليم الوضوء مثلا، أو الصلاة، أو قراءة القرآن بصورة عملية أسلم وأثبت من تعليمها بصورة نظرية، «فما راء كمن سمع»، و«حال رجل في ألف رجل أنفع من قول ألف رجل في رجل».

منها التعليم بالتكرار؛ فقد كررﷺ خطبه في حجة الوداع، فخطب في عرفة، وفي منى مرتين، كما كرر معاني بعض هذه الخطب حتى تترسخ في الأذهان، فعلى المعلمين والدعاة أن يقتدوا بهﷺ، فيكرروا دروسهم وخطبهم، ويكرروا بعض معانيها التي يرون حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظها المتعلمون؛ لأن القصد من التعليم هو إفادة المتعلم، فإذا كانت الفائدة لاتحصل أو لاتتم إلا بتكرارها، فليكررها المعلم أو الداعية، ولايكون حرصه على أن يأتي بجديد مادام يرى الحاجة في ترسيخ معاني معينة في الأذهان؛ لأن الملقن -معلما كان أو داعية- همه أن يفيد المتلقي، لا أن يظهر براعته في الخطابة والإلقاء، وفي تنوع المعاني والأساليب، دون نظر ولا اعتبار إلى مايحتاجه المتلقي.

منها تبليغ الشاهد الغائب، وهذه عملية لا بد منها حتى تستمر التجارب تنساب من السلف للخلف، وهي الضمان لاستمرار العلوم تنتقل عبر العصور، وبها تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس عبر الزمان والمكان، وفي ذلك يقولﷺ في عرفة بعد إلقاء خطبته: «فليبلغ الشاهد الغائب»[3]، وقد يكون الغائب أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضر الذي سمع، يقولﷺ: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع»[4].

منها استعمال وسائل لجلب انتباه المتلقي، ويستفاد ذلك من سؤال النبيﷺ الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر والبلد وهم يعرفونها،

---

(1) صحيح، رواه البيهقي في السنن الكبرى: 5/ 125، ح: 9307، وأصله عند مسلم بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»، صحيح مسلم: 2/ 943، كتاب الحج/ باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر.

(2) صحيح البخاري: 1/ 226، كتاب الأذان/ باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة.

(3) – صحيح البخاري: 2/ 619، كتاب الحج/ باب الخطبة أيام منى، – صحيح مسلم: 3/ 1306، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات/ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض.

(4) صحيح، رواه الترمذي في السنن: 5/ 34، 2657، وقال: "صحيح حسن"، وصححه الألباني في: – صحيح الترغيب والترهيب: 1/ 21، ح: 89 ، – تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 78، ح: 230.

وهذا جعلهم يتساءلون وينتبهون إلى ماقد عسى أن يراد بطرح مثل هذه الأسئلة فيصغون إليه إصغاءً تاماً، قال الحافظ القرطبي: «سؤال النبيﷺ عن الثلاثة: عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة مايخبرهم عنه...»(1)؛ فعلى كل داعية وكل معلم أن يقدم بين يدي درسه مايدعو إلى جلب انتباه السامعين إليه، ويشدهم إلى كلامه، وذلك مثل سؤال غريب، أو نكتة مليحة، أو قصة مثيرة.

رابعا: جاءت حجة الوداع حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة الأحكام التي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتم العلماء بها اهتماماً كبيراً واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها، مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث؛ بل وخصص بعضهم مؤلفات مستقلة في أحكام حجة الوداع، وهذه بعضها:

منها إفطار الحاج يوم عرفة؛ قالت ميمونة بنت الحارث زوج النبيﷺ: «إن الناس شَكُّوا في صيام رسول اللهﷺ يوم عرفة، فأرسلت إليه بحلاب اللبن، وهو واقف في الموقف فشرب منه، والناس ينظرون إليه»(2). منها تكفين من توفي محرما في إحرامه؛ قال ابن عباس: «بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فمات، فقالﷺ: اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين، ولاتحنطوه، ولاتخمِّروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً»(3).

منها جواز النيابة في الحج؛ قال ابن عباس: «جاءت امرأة من خثعم وضيئة، فقالت: يارسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لايثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع»(4).

منها منهج التيسير لاحرج لاحرج؛ قال عبدالله بن عمرو: «وقف رسول اللهﷺ على راحلته، فطفق ناس يسألونه... فما سمعته يُسْأَل يومئذ عن أمر...، إلا قالﷺ: افعل ولاحرج»(5).

(1) فتح الباري لابن حجر: 1/ 159.
(2) – صحيح البخاري: 2/ 701، كتاب الصوم/ باب صوم يوم عرفة، – صحيح مسلم: 2/ 791، كتاب الصيام/ باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة.
(3) – صحيح البخاري: 1/ 425، كتاب الجنائز/ باب الكفن في ثوبين، – صحيح مسلم: 2/ 865، كتاب الحج/ باب ما يفعل بالمحرم إذا مات.
(4) – صحيح البخاري: 2/ 551، كتاب الحج/ باب وجوب الحج وفضله، – صحيح مسلم: 2/ 973، كتاب الحج/ باب الحج عن العاجز لزمانه وهرم ونحوهما أو للموت.
(5) – صحيح البخاري: 1/ 43، كتاب العلم/ باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، – صحيح مسلم: 2/ 948، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي.

ويتجلى هذا التيسير أيضا في نهييهﷺ عن الازدحام المخل برونق عبادة الحج وجمالها، وعن التدافع المنقص من عظمتها وجلالها؛ فقالﷺ: « وقفت هاهنا وكل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر»(1)، وقالﷺ فيما روى البيهقي: «أيها الناس، لا تقتلوا أنفسكم عند جمرة العقبة»(2)، ولما رأى عبد الله بن عمر﵁ أن الناس كانوا يحبون أن يقف الرجل قريبا من الإمام فيتزاحمون قال: «يا أيها الناس، لا تقتلوا أنفسكم، فإن كل ما ههنا موقف»(3). تصوروا –يا عباد الله- لو قالﷺ وقفت هاهنا ويجب على كل مسلم الوقوف هنا! إنه الموت بعينه، قل من ينجو منه.

وقد سبق أيضا أن النبيﷺ غادر مكة بعد طواف القدوم إلى مكان اسمه المحصب بين مكة ومنى، ولم يقرب المسجد الحرام بصلاة ولا بطواف حتى رجع من عرفة يوم العيد، ولا يخفى ما هذه السنة اليوم من التيسير ورفع الحرج عن الناس، خصوصا إذا علمنا أن الازدحام المعهود في طواف القدوم وفي الصلاة إنما سببه من يقوم بطواف النافلة من الحجاج الذين ينتظرون الصعود إلى منى، فقد روى البخاري عن ابن عباس قال: «قدم النبيﷺ مكة، فطاف وسعى بين الصفا والمروة، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها حتى رجع من عرفة»(4).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(1) لم أجده بهذا اللفظ، وورد عند مسلم بلفظ: «نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف، ووقفت ههنا وجمع كلها موقف»، وعند أبي داود بلفظ: «كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر» وليس فيه "وقفت ههنا". انظر: صحيح مسلم: 2/ 893، كتاب الحج/ باب ما جاء أن عرفة كلها موقف. سنن أبي داود: 2/ 193، ح: 1937.
(2) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 6/ 376، والبيهقي في السنن الكبرى: 5/ 128، ح: 9324، وفي سنده الحجاج بن أرطاة النخعي الكوفي، وهو ضعيف ولا يحتج بحديثه.
(3) مصنف ابن أبي شيبة: 3/ 246، ح: 13882.
(4) صحيح البخاري: 2/ 587، كتاب الحج/ باب من لم يقرب الكعبة ولم يطف حتى يخرج إلى عرفة ويرجع بعد الطواف الأول.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الإخوة المؤمنون؛

لأيام الحج أسماء خاصة وهي:

1) ***يوم الزينة*** هو: اليوم السابع من ذي الحجة سُمِّي بذلك؛ لأنه تُزين فيه البُدن التي تهدى بالتقليد والجلال وغيرها.

2) ***يوم التروية*** هو: اليوم الثامن سُمِّي بذلك؛ لأنهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ويحملون منه مايحتاجون إليه حال الوقوف ومابعده، لأن هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذ آبار ولا عيون، أما الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله.

3) ***يوم عرفة*** هو: اليوم التاسع سُمِّي بذلك؛ لأن الناس يتعارفون به، وقيل: لأن جبريل طاف بإبراهيم -عليهما السلام- كان يُريه المشاهد فيقول له: أَعَرَفْتَ؟ أَعَرَفْتَ؟ فيقول إبراهيم: عَرَفْتُ، عَرَفْتُ. وقيل: لأن آدم -عليه السلام- لما هبط من الجنة وكان من فراقه حواء ما كان، فلقيها في ذلك الموضع؛ فعرفها وعرفته.

4) ***يوم النحر*** هو: اليوم العاشر، وهو يوم عيد الأضحى ويوم الحج الأكبر.

5) ***يوم القَرّ*** -بفتح القاف وشدّ الراء- وهو: اليوم الحادي عشر سُمِّي بذلك؛ لأنهم يَقِرّون فيه ويستريحون مما تَعِبوا في الأيام الثلاثة، وهو أول أيام التشريق.

6) ***يوم النَّفْر الأول*** هو: ثاني أيام التشريق سُمِّي بذلك؛ لأن الحجاج المتعجلين ينفرون فيه إلى مكة، وذلك جائز لمن يريد التعجيل.

7) ***يوم النَّفْر الثاني*** هو: ثالث أيام التشريق سُمِّي بذلك؛ لأن الحجاج المتأخرين ينفرون فيه إلى مكة.

قال الله عز شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ...

---

(1) البقرة: 203.

45) الخطبة [6] الأيام العشرة الأخيرة من حياتهﷺ[1]

الحمد لله الذي جعل لكل شيء بداية، فجعل لكل بداية نهاية، فطوبى لمن ختم دنياه بالهداية، وويل لمن لوثها حتى النهاية بالغواية، وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا في الدنيا صبغة وهواية، وفي الآخرة هدفا وغاية، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أصح الناس رواية، وأصدقهم دراية، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم لا يجد فيه الإنسان غير عمله حصانة وحماية.

أما بعد فأيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

لقد طفنا بكم بمناسبة شهر ربيع الأول شهر ولادة الرسولﷺ في عدة مواقع من السيرة العطرة، عبر سلسلة من الخطب، نستجلي بها جمال السيرة وجلالها، نستخلص منها جرعات نبوية ناجعة، ووصفات طبية شافية، نداوي بها ما تعفن من معاملاتنا، ونصلح بها ما بسريرتنا وسيرتنا وصورتنا من الاعوجاج والانزعاج.

فتعالوا بنا اليوم بعد هذه الجولة في السيرة العطرة نرفع الستار عن الأيام العشرة الأخيرة من حياة المصطفىﷺ.

تعالوا بنا اليوم نقف عند وقائع وأحداث أيامه الأخيرةﷺ؛ كيف اشتد بهﷺ مرضه؟ وكيف حافظﷺ وهو يعاني من مرضه على صلاته؟ وكيف يدعوﷺ إلى توحيد أمته إلى آخر رمق من حياته؟ وكيف يُحزنهﷺ اختلافُ أتباعه وأمته؟

أيها الاخوة المؤمنون؛ كما كانت لكل بداية مهمة إرهاصات، فإن لكل نهاية مهمة أيضا إشارات، لقد بدأت الإشارات الأولى لنهاية حياة الرسولﷺ تتوالى:

وأولى هذه الإشارات التي شعر فيها النبيﷺ بدنو أجله هي سورة النصر التي نزلت بالمدينة بعد فتح مكة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[2] فعرف أنّه الوداع، فقالﷺ: «لقد نُعيتْ إليّ نفسي كأني مقبوض في تلك السنة»[3]. فكانﷺ يكثر بعدها من «سبحانك

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 14 ربيع الأخير 1427هـ 12/ 05/ 2006م.

(2) النصر: 1-3.

(3) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 1/ 217، قال الهيثمي: وفي سنده عطاء بن السائب الثقفي وقد اختلط، مجمع الزوائد: 7/ 144، وكذا: 9/ 22.

اللهم وبحمدك رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[1]. حتى إنه ليردد ذلك في المجلس الواحد مائة مرة[2].

فقد روى الطبري عن أم سلمة قالت: «كان رسول اللهﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده فلما سألته لماذا قال: إني أمرت بها فقال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح...﴾ إلى آخر السورة»[3].

ومن هذه الإشارات: أنهﷺ كان من عادته الاعتكافُ كل رمضان عشرة أيام، ولكن في رمضان السنة العاشرة اعتكف عشرين يوما[4]، كما كان جبريلعليه السلام يعارضه القرآن الكريم مرة واحدة في كل رمضان، ولكن في رمضان السنة العاشرة عارضه إياه مرتين[5].

ومن هذه الإشارات: أنهﷺ في خطبة حجة الوداع قالﷺ: «إني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامكم هذا بهذا الموقف أبدا»[6]، وقال وهو عند جمرة العقبة: «خذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي»[7]

ومن هذه الإشارات: أنهﷺ حين وقف بعرفة في حجة الوداع نزل عليه قول الله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾[8] ففرح الصحابة بتمام الدين إلا أبو بكر الصديقرضي الله عنه، فقد فهم منها نعي رسول اللهﷺ فبكى فقالﷺ: ما يبكيك في الآية ؟فقال: هذا نعيك يا رسول الله، فعاشﷺ بعدها ثمانين يوما[9].

---

(1) صحيح، رواه أحمد في المسند: 1/ 392، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك مع التلخيص: 2/ 587، ح: 3983، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 5/ 120-121، ح: 2084.

(2) سنن الترمذي: 5/ 494، ولم يرد فيه ما يفيد أنه يفعل ذلك بعد نزول سورة النصر.

(3) تفسير الطبري: 30/ 335، قال ابن كثير في تفسيره: 4/ 564، "غريب".

(4) صحيح البخاري: 2/ 719، كتاب الاعتكاف/ باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان.

(5) - صحيح البخاري: 4/ 1911، كتاب فضائل القرآن/ باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ، -صحيح مسلم:4/ 1904، كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام.

(6) السيرة النبوية لابن هشام: 6/ 8.

(7) السنن الكبرى للنسائي: 2/ 436، ح: 4068.

(8) المائدة: 3.

(9) لم أجده وإنما وجدت حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر وقال فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به. انظر: -صحيح البخاري: 3/ 1417، كتاب فضائل الصحابة/ باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، -صحيح مسلم: 4/ 1854، كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي بكر الصديق.

ومن هذه الإشارات: أنهﷺ نحر بيده ثلاثا وستين بدنة في حجته[1] بمقدار سنوات عمرهﷺ.

أيها الاخوة المؤمنون؛ بعد هذه الإشارات المعبرة بدأ أثرها يظهر على المصطفىﷺ فبعد رجوعه من حجة الوداع أصيبﷺ بمرض كان في البداية عبارةً عن الحمى وارتفاع الحرارة، وأحيانا تشتد عليه الحرارة فيوعك ويتألمﷺ، فقال أحد الصحابة إنك توعك يا رسول الله! فقالﷺ: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»[2] أي أتألم كما يتألم رجلان رواه الإمام مسلم.

ثم بدأ العد التنازلي في حياتهﷺ، فاستمر مرضه عشـرة أيام كما روى البيهقي بإسناد صحيح[3].

ففي الأيام الأولى من مرضهﷺ خرج إلى أُحُد، فوقف على قبور الشهداء وصلّى عليهم، وقال: «السلام عليكم يا شهداء أحد أنتم السابقون، ونحن إن شاء الله بكم لاحقون، وإني بكم إن شاء الله لاحق»، وفي رجوعه من أحد بكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «وددت أني لقيت إخواني، قال: فقال أصحاب النبيﷺ: أوليس نحن إخوانك قال: أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني»[4].

ثم خرج إلى مقبرة البقيع أيضا، وودّع أمواتها واستغفر لهم[5].

---

(1) صحيح مسلم: 2/ 891، كتاب الحج/ باب حجة النبي ﷺ.

(2) – صحيح البخاري: 5/ 2139، كتاب المرضى / باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول، – صحيح مسلم: 4/ 1991، كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك.

(3) الذي وجدته في السنن الكبرى للبيهقي (8/ 152): «اشتكى رسول الله ﷺ ثلاثة عشر يوما فكان إذا وجد خفة صلى وإذا ثقل صلى أبو بكر... » ووجدت تحديد مدة مرضه بعشرة أيام في سنن الدارقطني (1/ 402) هكذا: «مرض رسول الله ﷺ عشرة أيام فكان أبو بكر يصلي بالناس تسعة أيام فلما كان يوم العاشر وجد النبي ﷺ خفة فخرج النبي ﷺ ... ».

(4) رواه أحمد في المسند: 3/ 155، وفي سنده جسـر ابن فرقد القصاب البصري ضعفه غير واحد، ميزان الإعتدال، في نقد الرجال: 2/ 124، ت: 1482، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة مقويا له بشواهد أخرى: 6/ 904–907، ح: 2888. وأصله في صحيح مسلم عن أبي هريرة «أن رسول اللهﷺ أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد...». صحيح مسلم: 1/ 218، كتاب الطهارة/ باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

(5) ضعيف، رواه أحمد في المسند: 3/ 488، والطبراني في المعجـم الكبـير: 22/ 346، والحـاكم في المستدرك: 3/ 57، ح: 4383، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: 13/ 1006–1011، ح: 6447.

كل ذلك ليعلمنا أن زيارة القبور بشروطها، بعيدا عن التمسح بها وتزيينها والبكاء عليها، إنما هي وسيلة لإصلاح النفس من شهواتها، وإصلاح المعاملات من سوء الممارسة فيها، لأنها تذكير عملي فيها يشهد المسلم مقره الأخير، والإنسان في حياته يملك فرصة بإمكانه أن يجعل قبره بصالح الأعمال روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، وقد قالﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»[1].

ثم استمر العد التنازلي، فقبل الوفاة بتسعة أيام نزلت عليه آخر آية من القرآن، أتدرون ما هي؟ إنها أية تتحدث عن النهاية، إنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2].

ثم استمر العد التنازلي، فقبل أن يموتﷺ بخمسة أيام ارتفعت حرارته، فطلب أن يصبوا عليه سبع قرب من الماء، حتى وجد في نفسه خفة فقال: حسبكم حسبكم، فخرج إلى الناس وهو معصوب الرأس بخرقة حتى جلس على المنبر فخطب آخر خطبة قال فيهاﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...»[3] وقالﷺ: «لا تتخذوا قبري وثنا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا»[4]، وفي رواية: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[5]، وقالﷺ أيضا: «أيها الناس إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله»، ثم سكت. والصحابة لا يتحركون كأنما على رؤوسهم الطير، فأدرك أبو بكر أنهﷺ إنما يقصد بالعبد نفسه، فلم يستطع لرقة قلبه، وحساسية وجدانه، وإفراط إحساسه أن يتماسك عن البكاء،

---

(1) رواه أحمد في المسند: 1/ 145، من حديث عليرضي الله عنه، من طريق علي بن زيد ابن جدعان عن ربيعة بن النابغة عن أبيه، وابن جدعان ضعيف، وربيعة وأبوه مجهولان، ولذلك حكم البخاري بعدم صحة حديثه هذا، التاريخ الكبير: 3/ 289، ح: 983، وضعفه الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 545-546، ح: 886، وله شواهد أخرى يتقوى بها مثل حديث بريدة عند الترمذي: "قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة"، سنن الترمذي: 3/ 370، ح: 1054. وأصله عند مسلم بلفظ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»: 2/ 672، كتاب الجنائز/ باب استئذان النبيﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه.

(2) البقرة: 281.

(3) - صحيح البخاري: 1/ 168، كتاب الصلاة/ أبواب المساجد/ باب الصلاة في البيعة، - صحيح مسلم: 1/ 377، مساجدكتاب المساجد ومواضع الصلاة / باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور.

(4) مسند البزار: 16/ 48، ح: 9086.

(5) الموطأ: 1/ 172. كتاب الصلاة/ باب جامع الصلاة.

فأجهش يبكي، فعجب الناس من بكائه، فقال لهﷺ: على رسلك يا أبا بكر؛ ثم قالﷺ: «إن من أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سد إلا باب أبي بكر»[(1)] وفي رواية: «لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»[(2)]. وبقيت خوخة أبي بكر مفتوحة إلى اليوم موجودة بجانب باب السلام فقد زرتها ولله الحمد. فكان هذا إشارة وترشيحا منهﷺ لخلافة أبي بكر.

ثم قالﷺ: «استوصوا بالأنصار خيرا...»[(3)] .فلم ينسﷺ إحسانهم، ووقوفهم بجانب دعوتهﷺ. ثم أوصىﷺ الناس بحسن الظن بالله عز وجل كما روى ابن ماجه بسند صحيح[(4)]، وذلك حتى يعلمنا أن سوء الظن مزرعة الشرور، ومقتل السرور، ومفتاح الفتن والإفساد، وسبب الضغينة والأحقاد، ولهذا كان من أخلاقهﷺ حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»[(5)].

ثم استمر العد التنازلي، فقبل أن يموتﷺ بأربعة أيام، وبالذات يوم الخميس، روى البخاري أنهﷺ قال: «هلموا أكتب إليكم كتابا لن تضلوا بعده»، فاختلف الصحابة؛ فقال عمر وهو يريد أن يخفف وطأة الناس على رسول اللهﷺ: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، وقال بعضهم: قربوا يكتب لكم رسول اللهﷺ، فلما كثروا اللغط والاختلاف قال رسول اللهﷺ: قوموا عني[(6)]، فقد كان أبغض شيء إليهﷺ أن يرى الاختلاف والفرقة في أمته، حتى إنهﷺ لا يكاد يتمالك نفسه، حتى إن ما في قلبه من الوحي يزول إذا ما فاجأه مشهد من

---

(1) صحيح البخاري: 1/ 177، كتاب الصلاة/ أبواب المساجد/ باب الخوخة والممر في المسجد.

(2) – صحيح البخاري: 3/ 1417، / باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، – صحيح مسلم: 4/ 1854، كتاب فضائل الصحابة ﷺ/ باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ.

(3) رواه أحمد في المسند: 3/ 240، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: 2/ 587، "فيه ضعف لكن حديثه جيد في الشواهد، وله في مسند البزار شاهد من حديث أبي بكر الصديق"، والحديث الذي أشار إليه الألباني هو ما رواه البزار في مسنده: 1/ 86، ح: 30، عن عَبْدِ اللهِّ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَنْهُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَرَفْتُ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِّ ﷺ بِالأَنْصَارِ عِنْدَ مَوْتِهِ: «اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ».

(4) سنن ابن ماجه: 2/ 1395.

(5) –صحيح البخاري: 6/ 2694، كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، –صحيح مسلم: 4/ 2061، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله تعالى.

(6) صحيح البخاري: 6/ 2680، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب كراهية الاختلاف، – صحيح مسلم: 3/ 1259 كتاب الوصية/ باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصى فيه.

مشاهد النزاع والخصام، فقد روى البخاري أنهﷺ أوحى الله إليه ذات يوم بليلة القدر، فخرج ليخبر بها الناس، فوجد رجلين يختصمان فرفعت من قلبهﷺ[1]، وكان دوما يحث الناس على الجماعة، ويحذر من التفرقة حتى آخر رمق من حياتهﷺ.

فإذا كانﷺ قد طرد الصحابة وهم خير القرون حين رآهم اختلفوا قائلا: «قوموا عني» فليت شعري ماذا سيفعل بنا لوا اطلع على ما عليه اليوم حالنا ؛ من التشرذم والنزاع والخصام والتنابز بالألقاب، ومع الأسف بين من يزعم الإسلام والالتزام، فهذا سلفي وهذا صوفي وهذا حزبي وكل يغني لليلاه، وكل حزب بما لديهم فرحون، فذهبت أخوة الإسلام أدراج الرياح.

أرأيتم أيها الاخوة في الله كيف حال الاختلاف والنزاع بيننا وبين هذه الأمنية الغالية، لو وصلت إلينا، لو كتبها لنا رسول اللهﷺ لن نضل بعدها، ولكنهﷺ مات وماتت معه، فتركت لنا الحسرة والندامة، وتركت العلماء في ذهول وحيرة، كل واحد يجتهد ويقول: ربما يقصد كذا وكذا، كل ذلك بسبب نزاع بسيط وخصام طفيف. فلا يكاد مسلم على مر التاريخ يسمع بهذه الحادثة إلا ندم، ليتهم لم يختلفوا، ليتهم قدموا لرسول اللهﷺ كتابا يكتب ما لن نضل بعده.

ثم استمر العد التنازلي، فقبل الوفاة بثلاث أيام جمع نساءه فاستأذنهن أن يُمَرَّض في بيت عائشة فأذنَّ له؛ استأذنهن لأنهﷺ لا يريد أن يضيع حقوقهن حتى وهو في أيامه الأخيرة، فقد كانﷺ يدور على نسائه ويعطي كل واحدة حقها حتى اشتد به المرض، فاحتاج إلى مكان قارٍّ يُمَرَّض فيه، فقد تعبﷺ من الانتقال كل يوم، فبعد الإذن خرج من بيت ميمونة إلى يبت عائشة معتمدا على العباس وعلى بن أبي طالب ورجلاه تخطان الأرض لا تستطيع المشيﷺ[2]، ثم ارتفعت حرارته وهو في بيت عائشة، وزادت به الحمى حتى إنهﷺ ليشعر أن ما به نار ولهب، وكان أزواجهﷺ يضعن عليه قطعة من الثوب فإذا ما وضعن أيديهن على الثوب شعرن بتلك الحرارة المفرطة، ولكن كل ذلك لم يمنعه أن يصلي بالناس في جماعة، ونحن اليوم نُخِلّ بالصلاة في الجماعة لمجرد زكام طفيف، فخوفا من ضربة البرد المظنونة نضرب بعرض الحائط ثواب الصلاة المضمونة، فقد روى البخاري أنهﷺ في المرض الذي

---

(1) صحيح البخاري: 2/ 711، كتاب صلاة التراويح/ باب رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس.

(2) – صحيح البخاري: 1/ 83، كتاب الوضوء/ باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح والخشب والحجارة، – صحيح مسلم: 1/ 312، كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر...

مات منه قام فاغتسل ليصلي بالناس، فأغمي عليه، ثم أفاق فقام فأغمي عليه، حتى وقع له ذلك مرارا، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فرفضت عائشة مرارا، فصاح بها والمرض يهزه قائلا: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»[1]، فكان هذا إشارة وترشيحا آخر لأبي بكر للخلافة، وعليه استند الصحابة في بيعته إذ قالوا: «رضيه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟!»[2].

ثم استمر العد التنازلي، ففي اليومين الأخيرين اشتد به المرض حتى لا يستطيع أن يتكلم فدعا لأسامة بن زيد بالإشارة، وكان قد أرسله ﷺ قائدا في آخر معركة من حياته ﷺ ضد العدو الصليبي في فلسطين، ولكن أسامة لما علم بمرضه ﷺ رجع في الطريق فقال -فيما في الترمذي وهو صحيح-: «دخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلم يتكلم، فجعل ﷺ يضع يديه عليَّ ويرفعهما، فأعرف أنه يدعو لي»[3].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

---

(1) -صحيح البخاري: 1/ 236، كتاب الجماعة والإمامة/ باب حد المريض أن يشهد الجماعة، -صحيح مسلم: 1/ 313، كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر.
(2) الإحكام للآمدي: 1/ 326.
(3) حسن، رواه الترمذي في السنن: 5/ 677،ح: 3817، وحسنه الألباني في تحقيق المشكاة: 3/ 1739.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

تلكم هي أحداث عشرة أيام كاملة من آخر حياتهﷺ، وكلها هموم الأمة، وكلها تربية وتعليم، وكلها ترغيب وترهيب، وكلها حث على الخير وتحذير من الشرور، وكلها وصايا غالية ونفيسة، تحفظ إيمان المؤمن، ووحدة المؤمنين، من درس عملي في زيارة القبور، إلى درس عملي في التمسك بتوحيد الكلمة وكلمة التوحيد، إلى درس عملي آخر في المحافظة على الصلاة وجماعتها، إلى درس عملي آخر في الالتزام بوحدة الأمة وجماعتها، وهكذا كانﷺ معلم الأمة حتى آخر رمق من حياتهﷺ.

فسيرتهﷺ ليس سيرة المناسبات، ليست سيرة السرد والاستماع، وإنما هي للإصلاح والانتفاع، ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1].

وفي الجمعة المقبلة -إن شاء الله- سوف يستمر العد التنازلي حتى نقف معكم عند آخر يوم من حياتهﷺ عند اللحظات الأخيرة لهﷺ في هذه الدنيا.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) الذاريات: 55.

46) الخطبة [7] آخر يوم من حياة المصطفىﷺ[1]

الحمد لله الذي جعل الموت للمؤمن نعمة وراحة، وللكافر نقمة وجراحة، سبحانه وتعالى وهو اللطيف الخبير، سوى في الموت بين الكبير والصغير، والغني والفقير، وبين العظيم والحقير، والمأمور والأمير، وأشهد أن لا إله إلا الله رحم بالموت الأرواح التي كانت على درب الأنبياء سائرة، وقصم به من كانت قلوبهم عن ذكر الله نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الأغر، كان يقول في دعاءه: «اللهم.... اجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[2] صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الأبرار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم النشور.

أما بعد فأيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

لقد قدمنا بكم بمناسبة ذكرى ولادة الرسولﷺ ملخصا عن سيرته العطرة، عبر سلسلة من الخطب، فعشنا معكم لحظات مع جمال السيرة وجلالها، فرأينا الإرهاصات التي سبقت ولادتهﷺ، فعشنا مع طفولته وشبابهﷺ، ثم سايرنا مراحل دعوته الأربعة بعد البعثة: مرحلة الدعوة سرا، ثم مرحلة الدعوة جهرا، ثم مرحلة الدعوة جهرا مع قتال الدفاع، ثم مرحلة الدعوة جهرا مع قتال الهجوم ،أو ما يسمى اليوم بالحرب الاستباقية.

وفي الخطبة الأخيرة كشفنا لكم الستار عن الأيام العشرة الأخيرة من حياتهﷺ، فوجدناها تشتمل على ما يدل على قرب نهاية حياتهﷺ من إشارات، وعلى زيارة القبور والترحم على أهلها بصالح الدعوات، وعلى وصايا تتعلق بالمرأة والأنصار والصلوات، وعلى ما يشعر بهﷺ بسبب المرض والحمى من الآلام والمعاناة.

واليوم تعالوا بنا لننهي هذه الرحلة المباركة، من هذه السيرة العطرة، تعالوا بنا لنعيش معكم لحظات مباركة مع آخر يوم من حياتهﷺ نقف عند هذا الموت الذي لم ينج منه حتى أفضل المخلوقاتﷺ. نعظ أنفسنا به وكفى بالموت واعظا، لأنهﷺ

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 21 ربيع الأخير 1427هـ 19/ 05/ 2006م.

(2) صحيح مسلم: 4/ 2087، كتاب الذكر والدعاء.../ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

يقول: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[1]، وكفى بالموت واعظا لأن كل نفس ذائقة الموت، وكفى بالموت واعظا، لأنه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[2]، وقصور محصنة، وكفى بالموت واعظا، لأنه ﴿ما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾[3].

روى الطبراني والبزار عن ابن مسعود قال: لما دنا الأجل اجتمع بعض الصحابة عنده ﷺ في بيت عائشة فنظر إليهم ﷺ فدمعت عيناه ثم قال: «مرحبا بكم، حياكم الله، حفظكم الله، آواكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم...»، ثم قال ﷺ: «قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله، وإلى جنة المأوى، والكأس الأوفى، والرفيق الأعلى...»[4] ثم أمر أن يغسله رجال أهل بيته ﷺ الأدنى فالأدنى، فقال: «إذا غسلتموني ووضعتموني على سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذَا عَلَى شفير قبري فاخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي خليلي وجليسي جبريل عليه السلام، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده، ثم الملائكة صلى الله عليهم، ثم ادخلوا علي فوجا فوجا فصلوا علي»[5].

وإذا سألتم -يا أحبة المصطفى ﷺ- عن آخر ابتسامة له ﷺ؟ وعن آخر إرشاد له ﷺ؟ وعن آخر لقاء له مع أصحابه؟ ففي الحديث الصحيح أنه ﷺ يوم وفاته خف من مرضه وأحس بشيء من القوة تسري في جسمه الشريف، فقام وهو معصوب الرأس، فكشف عن أصحابه فنظر إليهم وهم يصلون صلاة الصبح، ثم تبسم[6]، إنه ﷺ تبسم -ولم يكن ضحكه إلا التبسم- لأنه رأى نتاج أعماله وحصاد حياته، تبسم لأنه ﷺ رأى أصحابه في آخر لقاء له وهم في الصلاة، والصلاة هي عماد الدين، تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا كانت صحيحة، فرأى أنه ﷺ قد بلغ دعوته، وأدى أمانته، ونصح أمته، فقال وهو ينظر إلى الصفوف: «اللهم هل بلغت....؟ ثلاث

---

(1) رواه الترمذي في السنن: 4/ 553، ح: 2307، والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه عليه الذهبي، المستدرك مع التلخيص: 4/ 357، ح: 7909، كما صححه الألباني في: - تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 504، ح: 1607، - صحيح الجامع الصغير وزياداته 1/ 264، ح: 1210.
(2) النساء: 78.
(3) لقمان: 34.
(4) رواه البزار في المسند: 5/ 395، ح: 2028، والطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 208-209.
(5) رواه البزار في المسند: 5/ 395، ح: 2028، والطبراني في المعجم الأوسط: 4/ 208-209.
(6) - صحيح البخاري: 1/ 240، كتاب الجماعة والإمامة/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، - صحيح مسلم: 1/ 315، كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر.

مرات» ثم قال: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، ألا وأني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا؛ فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»(1) رواه الإمام مسلم وغيره، وفرح الصحابة برؤيته متبسما ظنا منهم أنه خرج للصلاة فهم أبو بكر وهو إمام بالرجوع إلى الصف، فأشارﷺ بيده: أن أتموا صلاتكم، فكانت هذه آخر إطلالة لهﷺ على أصحابه وهم يصلون ولم يخرج بعدهاﷺ(2).

وإذا سألتم -يا أحبة المصطفىﷺ- عن آخر وصية له ﷺ فقد روى أبو داود وابن ماجه والإمام أحمد وهو حديث صحيح عن علي بن أبي طالبرضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول اللهﷺ «الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(3). أي اتقوا الله في خدمكم وعمالكم.

بأبي وأمي أنت يا حبيب الله لقد كان آخر إرشاد لك في موضوع الصلاة، وكان آخرُ ابتسامة لك سببها الجماعة على الصلاة، وكان آخر لقاء لك مع أصحابك وهم في الصلاة، وآخر وصية لك: «الصلاةَ الصلاةَ»؛ فكيف يحلو لمسلم يحمل في قلبه إحساسا بمحبتهﷺ أن يضيع الصلاة بعد هذا؟! وكيف يحلو لمؤمن في قلبه مثقال حبة من إيمان أن يخرج الصلاة عن أوقاتها؟! وكيف يطيب لنا -أحبة المصطفىﷺ- أن نضيع ركوعها وسجودها وخشوعها وخضوعها؟! إنها ليست صدفة أن يودّع النبيﷺ صحابته متبسما وهم في صلاة الفجر، وتحديدا في صلاة الفجر، فما ودعهم مثلا في ساحات الجهاد، إنما في المسجد وهم صفوف، وكأنّي بهﷺ يقول للأمّة: الصلاة ... الصلاة، فهي الانطلاقة، وهي صمّام الأمان، وكأنّي بهﷺ يقول لكل أبناء هذه الأمة وبناتها: هذا هو الذي يسعدني، وهذا هو الذي يفرحني، وهذا هو الذي يجعلني أتبسم، أستودعكم الله في صلاة الجماعة، أستودعكم الله في صلاة الفجر!!.

ولكن تلك الخفة التي أحس بها النبيﷺ من مرضه حين أطل على أصحابه ليست إلا الصحو الذي يسبق النهاية، والهدوء الذي يسبق العاصفة، فبعد هذه

---

(1) صحيح مسلم: 1/ 348، كتاب الصلاة/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

(2) – صحيح البخاري: 1/ 240، كتاب الجماعة والإمامة/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، – صحيح مسلم: 1/ 315، كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر.

(3) صحيح، رواه أحمد في المسند: 1/ 78، والبخاري في الأدب المفرد: 1/ 67، ح: 158، وأبو داود في السنن: 4/ 339، ح: 5156، وصححه الألباني في: صحيح الأدب المفرد: 1/ 81، ح: 118، – صحيح الترغيب والترهيب: 2/ 249، ح: 2285.

الوصية المتعلقة بالصلاة، والابتسامة في وجه الصحابة وهم في الصلاة، دخل رسول الله ﷺ بيته، فلما بلغ وقت الضحى دخلت عليه ابنته فاطمة فرأت ما به من الوجع الشديد والألم المديد، فقالت: واكرب أباه، فقال لهاﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[1] روى ذلك البخاري وأخبرهاﷺ سرا أنه سيموت في مرضه هذا فبكت، ثم أسر لها أنها أول أهله لحوقا به فضحكت، فتعجبت عائشة! لماذا بكت؟! ولماذا ضحكت؟! روى ذلك البخاري ومسلم[2]. إنها ضحكت لأنها من أولئك الذين يضحكون إذا بشروا بالموت، لأنها لم تأخذ من الدنيا إلا ما قدمت للآخرة، وكان بين يدي رسول اللهﷺ ماء يدخل يديه فيه ويمسح بهما وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» رواه البخاري[3].

ثم بدأت اللحظات الأخيرة من حياة المصطفىﷺ فبينما كان في حجر عائشة، ورأسه على فخدها، دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليهﷺ فعلمت عائشة من نظراته أنه يريد السواك، فتناولته ولينته، فأستاك بهﷺ[4] فكان آخر فعل قام بهﷺ هو السواك، هو تنظيف الفم والأسنان، وقد كانﷺ أول من دعا للمحافظة على نظافة الفم والأسنان، فقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[5] وعندما فرغ من السواك رفع يده وأصبعه إشارة للتوحيد، وشخص ببصره نحو السماء، فتحركت شفتاه بصوت خافت لا يكاد يفهم، فأصغت إليه عائشة إذا به يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»، كررها ثلاث مرات[6]، وكان هذا آخر ما تكلم بهﷺ، إذا برأسه تحس به عائشة يثقل شيئا فشيئا، إذا بيده تميل، إذا بروحه الطيبة الطاهرة تفيض إلى بارئها، فمات رسول اللهﷺ وذلك يوم الاثنين، في

(1) صحيح البخاري: 4/ 1619، كتاب المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته....

(2) – صحيح البخاري: 3/ 1326، كتاب المناقب / باب علامات النبوة في الإسلام، – صحيح مسلم: 4/ 1905، كتاب فضائل الصحابة ﷺ/ باب فضائل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام.

(3) صحيح البخاري: 4/ 1616، كتاب المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته....

(4) صحيح البخاري: 4/ 1613، كتاب المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته....

(5) صحيح مسلم: 1/ 220، كتاب الطهارة/ باب السواك.

(6) لم يرد في أي مصدر مجموعا هكذا، وإنما لفق من أحاديث مختلفة. انظر: –صحيح البخاري: 4/ 1614و1616، كتاب المغازي/ باب مرض النبيﷺ ووفاته، –صحيح مسلم: 4/ 1893و1894، كتاب فضائل الصحابةﷺ/ باب في فضل عائشة رضي الله عنها، –السنن الكبرى للنسائي: 4/ 260، ح: 7103.

منتصف النهار، فوضعت عائشة رأسهﷺ على وسادة تلتدم وتبكي، فجاءت ابنته فاطمة وهي تقول: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه[1]. فأسرع بقية النساء بالبكاء، وفوجئ المسلمون في المسجد بهذه الضجة، فأنفجر المسجد بالبكاء وأصيب علي ابن أبي طالب بالشلل فلم يستطع الحراك، وغاب عثمان بن عفان عن وعيه كالمجنون يأخذ بيده يميناً ويساراً، فأسرع عمر منكرا موتهﷺ فخطب في الناس كالمجنون قائلا: من قال إن محمدا قد مات فهو منافق سأضرب عنقه، فاطمأن الناس نوعا ما لكلام عمر، حتى جاء أبو بكر فدخل على رسول اللهﷺ وكشف عن وجهه، ثم أقبل عليه يقبله وهو يقول: ما أطيبك حيا، وما أطيبك ميتا بأبي أنت وأمي يا حبيب الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا، ثم غطى وجه رسول اللهﷺ فخرج إلى الناس، وأخذ الكلمة من عمر فأنصت الناس، ثم قال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2] فهدأ الناس، كأنهم لم يسمعوا هذه الآية من قبل، وقعد عمر على الأرض ما تحمله رجلاه لما أيقن بموت الرسولﷺ[3]، وفي يوم الثلاثاء غسلوهﷺ وكفنوه في ثلاث أثواب بيض من كرسف وهو القطن ليس فيها قميص ولا عمامة، ثم حفروا قبره في حجرة عائشة، وصلى الناس عليه أفواجا لا يؤمهم أحد، صلت عليه الملائكة أولا، ثم الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، ثم دفنوه ليلة الأربعاء، فإن لله وإنا إليه راجعون. إنها لأكبر مصيبة تصاب بها الأمة المسلمة، ولن يصيب المسلمين بعدها مصيبة أكبر منها، فكل مصيبة بعدهﷺ جلل، وفي الحديث الصحيح أنهﷺ قال: «إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب»[4] وفي رواية «ليُعزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبة بي»[5]. قال الشاعر أبو العتاهية:

---

(1) صحيح البخاري: 4/ 1619، كتاب المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته....
(2) آل عمران: 144.
(3) صحيح البخاري: 4/ 1618، كتاب المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته....
(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير: 7/ 167، ح: 6718، وفي سنده أبو بردة عمرو بن يزيد التميمي ضعيف، لكن له شواهد يتقوى بها ذكرها الألباني في السلسلة الصحيحة: 3/ 97-98، ح: 1106.
(5) الموطأ: 1/ 236، كتاب الجنائز/ باب جامع الحسبة في المصيبة.

اصبر لكل مصيبة وتجلد   واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمة   وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة؟!   هذا سبيل لست فيه بأوحد
فإذا ذكرت مصيبة تسلو بها   فاذكر مصابك بالنبي محمد

يا أحبة المصطفىﷺ ذلكم هو يوم وفاة النبيﷺ، أما إذا سألتم عن الحالة الاقتصادية للرسولﷺ يوم مات؟ ما هي تركته التي وزعت على أهله وورثته؟ وهل ترك ثروات الأمة باسمه؟ وكم هي أرصدته في هذه الدنيا؟ وكم من بنوك فتح فيها الحسابات؟ وأين قناطر الذهب والفضة التي مات عنها؟ وكم هي الشركات التي كان له فيها حظ ونصيب؟

فاسمعوا معي أحاديث صحيحة تكشف لنا عن إرثهﷺ؛ لقد روى البخاري أن رسول اللهﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا[1]، والدرع لباس صدره في الجهاد، والصاع هو أربعة أمداد، وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «لقد توفي رسول اللهﷺ وما في بيتي شيء يأكله إنسان إلا بعض شعير في رف لي»[2]، هذه تركتهﷺ إنها ما تبقى من الثلاثين صاعا التي أخذها رهنا من اليهودي.

وروى البخاري أيضا أن رسولﷺ لم يترك عند موته عبدا ولا أمة[3] فقد أعتقهم لأنه جاء ليعتق رقاب الناس من أنواع الشرك والضلال، لقد حررهم لأنه جاء ليحرر عبيد البشر والحجر إلى رياض عباد الرحمن، وفي اليوم الذي مات منه استعارت زوجته عائشة الزيت للمصباح من جارتها، وكانت عندهﷺ يوم وفاته سبعة دنانير فخاف أن يموت وهي ما تزال عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها، ولكن اشتغالهم بتمريضة أنساهم تنفيد أمره، فلما أفاق سأل ما فعلتم بالدنانير؟ فقالت عائشة: إنها ما تزال عندنا فطلب إحضارها ثم قال -والدنانير في كفه-: «ما ظن محمد بربه لو لقيه وعنده هذه الدنانير» ثم تصدق بها فاستراح[4]، إنه استراح لأنه لا يملك في هذه الدنيا نقيرا ولا قطميرا، ونحن لا تستريح إلا عندما تكون الدنيا في أيدينا ملايينا أو ملايير، وإذا كان المصطفىﷺ يخاف أن يسأل أمام الله عن سبعة

(1) صحيح البخاري: 3/ 1068، كتاب الجهاد والسير/ باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب.
(2)صحيح البخاري: 3/ 1129، كتاب الجهاد والسير / باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته، - صحيح مسلم: 4/ 2282، كتاب الزهد والرقائق.
(3) صحيح البخاري: 3/ 1005، كتاب الوصايا/ باب الوصاياوقول النبي ﷺ: "وصية الرجل مكتوبة عنده".
(4) صحيح، رواه أحمد في المسند: 6/ 49، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد: 10/ 270.

دنانير فما الظن بأولئك الذين يكنزون الملايين والملايير في البنوك، حسابات بعضها فوق بعض، وقد تكون لغيرهم فانتزعوها واختلسوها.

تلكم هي الحالة الاقتصادية للرسولﷺ يوم مات، وبعد هذا كله قالﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة»[1]؛ بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كانت تركتك هي العلم الرباني، هي شرع الله تعالى، بأبي أنت وأمي يا حبيب الله لقد كان ورثتك هم العلماء، وأنت الذي تقول «...إن العلماء ورثة الأنبياء...»[2].

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

---

(1) قال ابن حجر في فتح الباري: 12/ 8، "وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث... » فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن» لكن أخرجه النسائي من طريق بن عيينة عن أبي الزناد بلفظ: «إنا معاشر الأنبياء لانورث؛ ما تركنا فهو صدقة»، وهو صحيح، رواه النسائي في السنن الكبرى: 4/ 64، ح: 6309، وأصله في الصحيحين بلفظ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»، - صحيح البخاري: 3/ 1360، كتاب المناقب/ باب مناقب قرابة رسول اللهﷺ. - صحيح مسلم: 3/ 1379، كتاب الجهاد والسير/ باب قول النبيﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

(2) صحيح، رواه أحمد في المسند: 5/ 196، وأبو داود في السنن: 3/ 317، ح: 3641، والترمذي في السنن: 5/ 48، ح: 2682، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2/ 1072، ح: 6297، وحسنه لغيره في صحيح الترغيب: 1/ 17، ح: 70.

الحمد لله رب العالمين...
أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛
إن المصطفىﷺ أسوة حسنة حيا وميتا، وجميع أحواله عبرة للناظرين، وتبصرة للمستبصرين، وكيف لا وهو خليل الله وحبيبه ورسوله ونبيه، ورغم ذلك فانظر هل أمهله الموت ساعة عند انقضاء مدته؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لقد أرسل الله تعالى إليه الملائكة الكرام، فرحلوا عن جسده الطاهر روحه الطاهرة إلى الرحمة والرضوان، وإلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه، وظهر أنينه، وارتفعت حرارته، وتغير لونه، وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتصب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا؟ وهل راقب ملك الموت فيه أهلا وعشيرا؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا؟
هكذا كان حالهﷺ عند موته وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أول من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فكيف لا نعتبر ونحن عبيد الشهوات، وقرناء المعاصي والسيئات، نستملح المنكرات والنزوات؟ فكيف لا نتعظ بموت سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين؟ أنظن أننا فيها مخلدون؟ أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون؟ هيهات هيهات! أين منا من يتذكر أن الموت يدركه ولو كان في بروج مشيدة؟ أين منا من يتذكر أن للموت سكرات؟ أين فينا أثر الأموات الذين نودعهم أفواجا؟

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول[1]
الموت بابٌ وكل الناس داخلهُ ... فليت شعري بعد البابِ ما الدارُ؟[2]
الدارُ جنةُ خلدٍ إن عملت بما ... يرضي الإلهَ وإن قصرت فالنارُ[3]

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) البيت من قصيدة "بانت سعاد..." لكعب بن زهيرﷺ.
(2) ينسب هذا البيت لأبي بكر الصديقﷺ.
(3) ينسب هذا البيت لعمر بن الخطابﷺ مجيبا أبا بكر في البيت الذي قبله.

الفصل السادس: ملخص عن السيرة في أربع خطب

47) الخطبة [1] سيرة النبيﷺ من المولد إلى البعثة(1)

الحمد لله الذي أكرم المصطفىﷺ بمقامات اليقين في سريرته، وبمكارم الأخلاق في سيرته، وبمظاهر النظافة والنقاء في صورته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في أفعاله وصفاته، أكرم من تمسك بدينه وشريعته، وأشهد أن سيدنا محمدا أرسله الله فأوجب علينا اتباع سنته، حتى نقدم الحجة والبرهان على نصرته ومحبته، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحابته، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم ينتقل في الناس إلى آخرته.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون، أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

إن هذا الشهر شهر ربيع الأول يحمل في طياته الأحداث الرئيسية من السيرة النبوية العطرة؛ ففيه ولد الرسولﷺ، وفيه بدأ الوحي بالرؤيا المنامية، وفيه هاجر الرسولﷺ من مكة إلى المدينة، وفيه توفي الرسولﷺ فالتحق بالرفيق الأعلى.

فتعالوا بنا اليوم نستعرض سيرة المصطفىﷺ في شهر ذكرياته، نقف عند أحداثها لنستفيد ونتعلم، نقف عند ملخص لها ونحن أحوج ما نكون إلى تفاصيلها، نعيش لحظات مباركة مع جرد عام لحياة النبيﷺ قبل البعثة، في ولادته وطفولته وشبابه.

أيها الاخوة المؤمنون! لقد ولد الرسولﷺ من أب اسمه عبد الله بن عبد المطلب، وأم اسمها آمنة بنت وهب، فتوفي أبوه وهو في بطن أمه، فولدﷺ يتيم الأب، ووقعت في السنة التي ولد فيها أحداث جسيمة، كأن الدنيا أعلنت الطوارئ لاستقبال الحبيب المصطفيﷺ لقد تبث منها في القرآن الكريم حادثة الفيل وأصحابه، ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾(2)، ورأت أمه حين حملت بهﷺ أن نورا قد خرج منها أضاءت له الدنيا وتلألأت من أجله الأرجاء، روى الإمام أحمد والحاكم بإسناد جيد قوي أنهﷺ قال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نورا خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»(3).

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 13 ربيع الأول 1421هـ 16/ 6/ 2000م.

(2) صحيح البخاري: 3/ 1352، كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب عثمان بن عفان.

(3) – مسند أحمد: 4/ 127، – المستدرك على الصحيحين: (2/ 453، ح: 3566)، (2/ 656، ح: 4174).

فكان هذا النور إشارة إلى أن لهذا الجنين عند الله شأنا عظيما، إشارة إلى أن دعوتهﷺ ستمتد امتداد خيوط النور والظلمة على وجه الأرض، فها هو نور الإسلام اليوم يغزو قارات الدنيا بأكملها، فيفتح القلوب، ويزيل الأحقاد، ويضيء مسيرة التاريخ،كما رأت آمنة بنت وهب والرسولﷺ جنين في بطنها.

لقد كان من عادة العرب أن يرضعوا أولادهم في البادية، فجاءت من أجل ذلك إلى مكة امرأة فقيرة، نحيفة الجسم، حتى إن لبنها لا يكفي ولدها، واسمها حليمة السعدية، فتسلمت النبيﷺ رضيعا بعد أن رفضته كل المرضعات لأنه يتيم، فما يكاد الرضيع المباركﷺ يستقر في أحضانها حتى سال الحليب من ثدييها، وامتلأت بهائمها لبنا ولحما بعد عجفها، وأخصبت أراضيها بعد جذبها وجفافها، وبقي لديها الرضيع المباركﷺ أربع سنوات، وعلامات الخير والبركات تتوالى.

وفي هذه الفترة وقعت لهﷺ حادثة شق الصدر، وهي عبارة عن عملية جراحية دون سيلان دم، ولا إحساس بألم، تولى القيام بها جبريلعليه السلام، فاستخرج من قلبه حظ الشيطان، ثم غسله بماء زمزم، وبعد هذه الحادثة ردته المرضعة إلى أمه، وقلبها يتفطر أسى على فراق الطفل الحبيب، ثم توفيت أمهﷺ وعمره ست سنوات، فما لبث جده أن لحق بها وعمرهﷺ ثمان سنوات، فبقيﷺ يتيم الأب والأم والجد، حتى لا يكون لأحد دور في تربيته، وحتى لا يدعي أعداء الإسلام من بعده، أن الذي رباه على دعوة النبوة هو أبوه أو جده، فتولى الله أدبه فأحسن تأديبه، فتكفل به عمه أبو طالب فكان يبجله ويؤثره حتى على أولاده، فلازمه في مقامه وأسفاره، فسافر معه إلى الشام وعمره اثنتي عشرة سنة، وفي الطريق كشف لهم راهب اسمه بحيرا عن علامات النبوة التي قرأها في التوراة والإنجيل، وشاهدها واضحة في هذا الطفل المباركﷺ، ومنها غمامة تظله أينما حل وارتحل، الشيء الذي يدل على أن اليهود والنصارى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكن ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1].

ثم شب الرسولﷺ وتميز في شبابه بأمور ثلاثة: الأول: الكد والعمل، الثاني: العفاف والطهارة الحسية والمعنوية، الثالث: المشاركة الفعالة في المسائل المهمة.

تلكم –والله– أهداف الشباب الطموح، وعناصر الشباب المثالي الناجح.

---

(1) البقرة: 89.

أما الكد والعمل، فأنتم تعلمون أن النبيﷺ ولد يتيما: وهو في كفالة عمه أبي طالب، لم يرض أن يكون حملا ثقيلا على عمه، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، كما روى البخاري، ورعي الغنم على كل حال كد وعمل شريف. ولم يعرفﷺ في شبابه الفراغ، ولم تنل منه البطالة أي منال، فهو يعرف كيف يحول فراغه إلى كد وعمل، وإلى جد وأمل.

أما العنصر الثاني في شباب الرسولﷺ فهو عنصر العفاف والطهارة، فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، بعيدا عن مدنسات الأخلاق، وملوثات الفضائل، ومدمرات المكارم، فكانت عصمة الله تحول بينه وبين أن يسمر مع السامرين، وأن يسهر في ليالي اللهو والفسق مع الساهرين، كما روى ابن إسحاق وصححه الحاكم والذهبي وغيرهما، فلم يشربﷺ الخمر قط، ولم يسجد لصنم قط، ولم تعرف عنه الخيانة، ولا الكذب، ولا الغش، حتى التصقت به صفات الصدق والأمانة، حتى نالﷺ في مجتمعه وشبابه درجة الأمين.

ثم تزوجﷺ وعمره خمس وعشرون سنة بخديجة بنت خويلد وهي أكبر منه سنا، ولم تكن بكرا لأنها تزوجت قبله فمات عنها زوجها، فدل ذلك على أنهﷺ لم يكن يهتم في عفافه بالإلتذاذ الجسدي، لو كان كذلك لاختار غيرها من أبكار عربا أترابا، ولكنهﷺ كل همه طهارة الروح وصفاء الأخلاق، فقد كانت خديجة -رضي الله عنها- تعرف في قومها بالطاهرة العفيفة، والله تعالى يقول: ﴿والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾[1]، وكان أولادهﷺ كلهم منها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، لقد ولدت له القاسم وعبد الله والطيب الطاهر ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة، كلهم ماتوا في حياتهﷺ إلا فاطمة ماتت بعده بثلاثة أشهر، وقيل: بستة أشهر؛ وبهذا ذاقﷺ مرارة موت الأبناء كما ذاق من قبل مرارة موت الآباء.

فما أحوج شبابنا للاقتداء بعفاف المصطفىﷺ ونحن في عصر أصبحت فيه الرذيلة فضيلة، والفساد حضارة، ووسائل الإعلام تنقل إليه عجر الفسق العالمي وبجره[2]، فما على الشاب وهو قابع في منزله إلا أن يضغط على الزر لتتراء له المحطات الفضائية أو الفضائحية فتبث له الشبهات والشهوات، بشكل لا يخطر حتى ببال الشيطان.

---

(1) النور: 26.

(2) العجر والبجر: هي العيوب الظاهرة والباطنة.

أما العنصر الثالث في شباب الرسولﷺ فهو المشاركة الفعالة في القضايا المصيرية، التي تهم أهل مكة بصفة خاصة، والعرب بصفة عامة، فقد شاركﷺ في حلف الفضول، وعمره عشرون سنة. وحلف الفضول: هو عبارة عن منظمة لحقوق الإنسان، عبارة عن جمعية خيرية مهمتها نصرة المظلوم، حتى يأخذ حقه من الظالم، وقد قالﷺ عن هذا الحلف: «حضرت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكته» رواه الإمام أحمد والحاكم وهو صحيح[1].

ثم شاركﷺ في بناء الكعبة، عندما انهدمت بسبب الأمطار، وعمره خمس وثلاثون سنة، وكان ينقل الحجارة بنفسهﷺ ، وكشفت لنا مشاركتهﷺ في تجديد الكعبة عن مكانته الأدبية في الوسط القرشي، لأنه لما تم البناء تحركت العصبية الجاهلية بين قريش، فاختصموا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، وكل قبيلة تريد أن تستأثر بذلك لنفسها، حتى كادوا يتحاكمون للسيوف، ولكنهم اتفقوا في آخر الأمر على أول رجل يدخل عليهم من باب بني شيبة، وهو المسمى الآن بباب السلام، فكان الداخل هو المصطفىﷺ فهتفوا كلهم على لسان واحد: أتاكم الأمين، رضينا به!! فتولى الرسولﷺ وضع الحجر بيده الشريفة، بكيفية ترضي الجميع، إذ وضع الحجر الأسعد في ثوبه، فدعا من كل قبيلة فردا، فحمل الجميع الحجر إلى مكانه، فكانﷺ رحمة حفظ الله به دماء قريش، ومنع به حربا لو بدأت لما كانت لها نهاية، حتى يذوق ويلاتها كل بيت، ويعاني من مأساتها كل أسرة. فما أحوج الأمة اليوم لأن يقتدي شبابها بشباب المصطفىﷺ يجب أن تفتح الأمة لشبابها المشاركة في صنع القرار، المشاركة في مراكز القرار، المشاركة في قيادة المصالح والمهمات واتخاذ القرار، سواء على مستوى الأسرة الكبيرة في الأمة، أو على مستوى الأسرة الصغيرة في البيت والعائلة.

وفي مثل هذا الشهر على رأس أربعين سنة بدأ الوحي بالرؤيا المنامية فكانﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كما تقول أمنا عائشة -رضي الله عنها-، ثم حبب الله إليه الخلاء فكان يتعبد في خلوته في غار حراء، ليالي ذوات العدد، وفي إحدى ليالي رمضان المبارك، وبالضبط في ليلة القدر، نزل جبريل للمرة الأولى على المصطفىﷺ وهو في غار حراء في ذلكم اللقاء المبارك، الذي استقبل فيه كوكبنا هذا

---

(1) – مسند أحمد: 1/ 190، – المستدرك على الصحيحين: 2/ 239، ح: 2870.

أول آية تشنف أسماع أهل الأرض من القرآن الكريم، فأخذ جبريل بمجامع ثوبه أخذا شديدا حتى بلغ منه الجهد فقال له: اقرأ. فقالﷺ: ما أنا بقارئ.

وإنما قال النبيﷺ : «ما أنا بقارئ» لأنه في الحقيقة أمي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك حتى لا يشكك أعداء الإسلام من بعده في مصدر القرآن، فيقولون: لعله قرأه أو نقله من كتب الأمم الماضية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾[2]. فإذا كانت الأمية في حقنا نحن عيبا ونقصا، فإنها في حق النبيﷺ معجزة خارقة لأنهﷺ أمي جاء بحقائق علمية أبهرت العلم الحديث في شتى المجالات، ورحم الله من قال:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم[3]

ثم فعل جبريل به ذلك ثلاث مرات، ثم قدم له أول آية في طبق من الإيمان: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[4]. صدق الله العظيم وغفر لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين

---

(1) العنكبوت: 48.
(2) الأعراف: 157.
(3) البيت من قصيدة البردة للبوصيري.
(4) العلق: 1-5.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

إن أول آية تنزل من القرآن الكريم ﴿اقرأ بسم ربك الذي خلق﴾[1] نبهت الأمة إلى القراءة والكتابة، وذكرت العلم والقلم، والانسان اليوم ما وصل إلى القمة في الحضارة إلا بالعلم والقلم والقراءة والكتابة، فهذا إشارة واضحة إلى أن الأمية عيب يجب محاربته، وأن العلم حضارة وتقدم يجب السعي وراء الحصول عليه.

والأمية اليوم لا تعني من لا يعرف القراءة والكتابة فقط؛ بل الأخطر من ذلك أمية الدين والعقيدة، وأمية الضمير والإيمان، فقد يحمل الإنسان أعلى الشهادات، وهو لم يمس المصحف قط، ولم يعرف كيف يتوضأ ويصلي، وقد يكون بارعا في عدة لغات، ولكن ضميره الإيماني قد مات، فيخون ويختلس ويظلم ويعتدي على الأموال والأعراض؛ بل إن الأمي في هذا العصر أيضا من لا يستطيع أن يتعامل مع الإعلاميات وشبكات الانترنيت، لأنه بأميته هذه يكون قد وضع نفسه في مؤخرة الركب الحضاري، والرسولﷺ يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2].

وإن من العيب بمكان أن تكون أول آية تنزل من القرآن الكريم تذكرنا بالعلم والقلم والقراءة فتسجل الأمية في بلادنا حسب إحصائيات 1994م نسبة 55 ٪ هذا في أمية القراءة والكتابة، فكيف بأمية الدين والعقيدة، فكيف بأمية الضمير والإيمان، فكيف بأمية الإعلاميات وشبكات الاتصالات؟ وعلى هذا يجب على الآباء تسجيل أبنائهم وبناتهم البالغين سن التمدرس في التعليم الأولي بالكتاتيب القرآنية والأساسي بالمدارس الابتدائية، حتى نحارب جميعا الجهل باللغات ومغزى الكلمات، والجهل بالدين والعبادات، والجهل بمقومات التقدم والحضارات.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) صحيح مسلم: 4/ 2074، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(2) رواه ابن ماجه في السنن: 1/ 81، ح: 222، والطبراني في المعجم الأوسط: 1/ 8، قال البيهقي في شعب الإيمان: 2/ 253: "متنه مشهور، وإسناده ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: 1/ 13، ح: 48، وحسنه بالنظر إلى مجموع طرقه في تحقيق مشكاة المصابيح: 1/ 76، ح: 218، وصححه في صحيح الجامع الصغير: 2/ 727، ح: 3913، وقال السخاوي في المقاصد: 1/ 442، "قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث "ومسلمة" وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحا".

48) الخطبة [2] سيرة النبيﷺ من البعثة إلى الهجرة[1]

الحمد لله الذي جعل السيرة النبوية المثل الأعلى في تطبيق تعاليم الإسلام، وأزال بالالتزام بها الخطايا والآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك القدوس السلام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأنام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى نهاية الأيام والأعوام.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قدمنا لكم في الجمعة الماضية بمناسبة شهر ربيع الأول، شهر ولادة المصطفىﷺ ملخصا عن سيرة النبيﷺ في ولادته وطفولته وشبابه، وفي هذا الإطار نكشف اليوم الستار عن ملخص آخر لسيرتهﷺ من بعثته إلى الهجرته، من بداية الدعوة في مكة وعمرهﷺ أربعون سنة، إلي الهجرة إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة، هذه الفترة من حياتهﷺ تسمى بالفترة المكية، ويسمى ما نزل من القرآن فيها بالقرآن المكي، وتمتاز دعوتهﷺ فيها بالتركيز على تثبيت العقيدة والإيمان، ومحاربة الشرك وعبادة الأوثان. والفترة المكية تستوعب من دعوتهﷺ مرحلتين:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا بدون قتال، التي بدأت بقوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[2]، واستمرت ثلاثة سنوات.

والمرحلة الثانية: الدعوة جهرا بدون قتال، التي بدأت بقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[3]، واستمرت عشر سنوات إلى الهجرة.

فعلى رأس الأربعين سنة اختار الله تعالى محمدا الأمينﷺ نبيا ورسولا، ووسيطا في شرعه بينه وبين خلقه، فأنزل عليه الوحي بالقرآن، فكانت أول آية يستقبلها كوكبنا الأرضي هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4] وبهذه الآية فتح الإسلام آفاق العلم والقراءة، وطرق التعلم والمشاركة، وإن من العيب بمكان، أن تكون أول آية تنزل

---

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 22 ربيع الأول 1422 هـ 14 / 6 / 2001 م، ثم أعيدت أخيرا في: 22 ربيع الأول 1427 هـ 23/ 4/ 2006م.

(2) العلق: 1.

(3) الحجر: 94.

(4) العلق: 1-5.

من القرآن تأمر بالقراءة وتنوه بالعلم، وتنبه إلى آثار الكتابة والقلم، فيكون في الأمة أميون لا يعرفون القراءة والكتابة.

ثم بدأ الرسول ﷺ دعوته سرا فدعا أحبابه وأصدقاءه إلى الإسلام، فكان أول من أسلم على الإطلاق زوجته خديجة، وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق، ومن الأطفال علي بن أبي طالب، ومن العبيد بلال بن رباح، ومن الموالي زيد بن حارثة رضوان الله عليهم. أتدرون لماذا بدأ ﷺ دعوته سرا، لكي يعلمنا أن السرية مهمة جدا عند بداية أي أمر مهم، لأن السرية تحفظ المشروع في مهده، وتقيه من عيون الحاسدين، ومن كلام المغتابين والنمامين، وقد روى الطبراني بسند فيه مقال عن معاذ بن جبل مرفوعا: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»[1]؛ فالمسلم عندما يكون في بداية أي مشروع لا بد أن يحيطه بالسرية التامة، لا يكشفه إلا لأحبابه وأصدقائه، الذين ينتظر منهم العون والمساعدة، أو الرأي والمشورة.

ولما بدأ أمر دين الله يسطع، وبدأت القلوب بتعاليمه تقنع، نزل قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[2] فامتثل الرسول ﷺ أمر ربه دون تردد، فصدع بالحق على وجه معانديه، فبدأت مرحلة الدعوة جهرا، فعرض ﷺ الإسلام في الأسواق والطرقات، وفي النوادي والساحات، فأسلم القليل من أهل مكة، ورفض الكثير، وخصوصا منهم القادة والصناديد، الذين يخافون على مناصبهم، الذين ينظرون إلى الإسلام بأنه دين يهز مراكزهم، ويفقدهم السيطرة والسلطة.

وتلكم هي عادة الطغاة والظالمين على مر الزمان، وامتداد المكان، فكم من حقوق ضاعت بسبب خوف الطغاة على مراكزهم؟ وكم من ضحايا عانت بسبب خوف المتفرعنين على مناصبهم؟ فسبب ذلك ضاعت اليوم الوحدة بين المسلمين، وبسب ذلك أذعنت قادة الأمة لتعسفات الغرب الطامعين، وبسب ذلك سكتوا على الظلم الصهيوني والصليبي المعلن على العراق وفلسطين.

---

(1) رواه الطبراني في الصغير: 2/ 292، ح: 1186، والأوسط: 3/ 55، ح: 2455، والكبير: 20/ 94، والبيهقي في شعب الإيمان: 5/ 277، ح: 6655، وقال الهيثمي في المجمع (8/ 195): «فيه سعيد بن سلام العطار، قال العجلي: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ». وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 1/ 223-224، ح: 943، وأورده بطرقه المختلفة في السلسلة الصحيحة: 3/ 436-439، ح: 1453.

(2) الحجر: 94.

وبعد أن أعلن الرسولﷺ دعوته، اصطدم بطغيان أمثال أبي جهل وأبي لهب، وخصوصا بعد أن أسلم حمزة وعمر، فانفجرت مشاعرهم بالحقد والكراهية، فبدأت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فصاروا يصبون جم غضبهم على الرسولﷺ وأتباعه، ويستقبله بنظرات ملتهبة حقودة، وعواطف منفعلة هائجة.

أولا شنوا عليه حربا كلامية من السخرية والاستهزاء، فلما لم يفد ذلك شيئا انتقلوا إلى حرب التعتيم والتضليل، فلما لم تنفع انتقلوا إلى التشويه والتزوير، يدل عل هذا قوله تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿وقال الكافرون: هذا ساحر كذاب﴾[4].

ثم استعملوا حرب التنكيل والتعذيب وسفك الدماء، خصوصا ضد المستضعفين من المؤمنين الذين لا عصبة لهم تحميهم، ولا قبيلة تدافع عنهم، فيكون نصيبهم التعذيب والتجويع والموت.كبلال وآل ياسر، فسجلت هذه المرحلة أول شهيد في الإسلام، وهي سمية أم عمار بن ياسر. ولم يكن الرسولﷺ بمعزل عن هذا الإيذاء، فقد أوذي وضرب وناله السب والشتم، وكان أبو جهل من ألد أعدائه يمنعه من الصلاة في المسجد الحرام، ولم يكتفوا بذلك؛ بل ضربوا على الرسولﷺ وأصحابه حصارا اقتصاديا ثلاث سنوات.

فليس تشويه حقائق الإسلام اليوم بجديد، وليس حرب التنكيل من أعداء الإسلام اليوم بجديد، وليس الحصار الاقتصادي اليوم من أعداء الإسلام بجديد، فقد حاصر قريش رسول اللهﷺ وأصحابه حتى أكلوا أوراق الشجر والجلود اليابسة؛ يا من يأكل اليوم الخبز الفطير! ويا من يتغذى في إسراف وتبذير! ويا من يألف السرير والوثير! هل علمت أن الصحابة وهم خير القرون، كان بعضهم يأكل الجلد اليابس لأنه لا يجد غيره؟ وهل علمت أن إخوانا لك في الإيمان في فلسطين

---

(1) المطففين: 29.
(2) القلم: 51.
(3) الحجر: 6.
(4) سورة ص: 4.

والعراق لا يجدون الغذاء ولا الدواء ولا الغطاء؟ فما أشد جرأتنا على الله حينما نخالف شرعه، ونحن نعيش في هذه النعم الجمة! وما أوسع رحمته بنا إذ لم يهلكنا بما كسبت أيدينا!

ومن العجيب أن الوسائل التي واجه به المشركون الإسلام في عهد الرسولﷺ هي نفسها الوسائل التي يستعملها أعداء الإسلام اليوم ضد المسلمين، كأن التاريخ يعيد نفسه، فكلما بدا لهم الإسلام بجماله وجلاله بادروا بالتعتيم عليه، وكلما رأوا فيه حقيقة علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو صحية بادروا بتشويهها، أما الاعتداء على أتباع الإسلام فقد دلت عليه حروب طالت المسلمين في أكثر من مكان، حروب أبادت منهم مئات البشر في لمح البصر؛ من فلسطين إلى البوسنة إلى الشيشان، إلى أفغنستان، إلى العراق اليوم، أما الحصار الاقتصادي فلا تستغربوا إن قلت لكم إنه المضروب على كل مسلم اليوم بكيفية أو بأخرى، ترتفع حدته أحيانا وتنخفض أحيانا، ولكنه مضروب على كل حال.

ثم بعد هذه المعاناة التي نالت النبيﷺ جاء ذلك العام الشديد الذي سماه الرسولﷺ عام الحزن، حيث توفيت زوجته خديجة التي كانت الحجر الحنون الذي يواسيه، وتوفي عمه أبو طالب الذي كان الدرع الواقية التي تحميه، فكانﷺ هدفا سهلا لاعتداءات المشركين، حتى هاجرﷺ إلى الطائف، عله يجد عند أهلها قلوبا واعية، وآذانا صاغية، ولكنهﷺ رجع منها بمأساة على مأساة، حيث طرده أهلها شر طِردة، ورموه بالأحجار حتى سالت قدماه الشريفتان بالدماء، فدعا بذلك الدعاء الرقيق الأسيف، الذي يسمى في السيرة بدعاء الطائف، والمسلمون اليوم في حاجة لترديد هذا الدعاء: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم، الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

---

(1) رواه الطبراني في الكبير: 13/ 73، عن عبد الله بن جعفر، قال الهيثمي في المجمع: 6/ 35: "فيه ابن اسحق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات"، وضعفه الألباني في الصحيحة: 6/ 486-487، ح: 2933.

فاستجاب الله دعاء النبيﷺ بعد معاناة الطائف، فآمن به رجل نصراني اسمه عداس في الحال، وأسلم على يديه جن نصيبين، وبعد أن دخل مكة في هذا الخضم من المعاناة والابتلاءات والمحن، جاءت الإسراء والمعراج، فكانت إيذانا باليسر والفرج، فمسحت عن قلب النبي ﷺوقلوب أصحابه متاعب الاضطهاد، ومعاناة التنكيل والتعذيب، وتعلن فيها العناية الربانية، أن الله تعالى في قدرته أن ينصر الإسلام على الكفر في لمح البصر، وكيف لا وهو سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم قطع به السماوات الطباق حتى كان قاب قوسين أو أدنى، دون أن يمنعه قصر الزمان ولا طول المكان، ففرض الله عليه الصلوات الخمس، وبعد الإسراء مباشرة بدأ إسلام الأنصار في المدينة، وبدأ الإسلام ينتشر خارج مكة، فكانت الإسراء بذلك بمثابة العبور من المحنة إلى المنحة، وبمثابة نقطة البداية في انتشار دين الإسلام.

فلما انتشر الإسلام في المدينة هاجر إليهاﷺ عندما كان عمره ثلاثا وخمسين سنة، متحملا وعثاء السفر، ومعاناة مغادرة الوطن، بعد أن قضى ثلاث عشرة سنة في الدعوة إلى الله، هاجر بعد أن صادق برلمان قريش في دار الندوة على الحكم بإعدامه، هاجر بعد أن طوق أعداءه بيته بسيوف مشرعة، فهنا تحركت العصمة الإلهية، والعناية الربانية، فتولى الله حمايته فخرج متخفيا دون أن يراه أحد، فبقي في الغار ثلاثة أيام، ومعه صاحبه أبو بكر، ثم رصدت قريش جوائز مغرية مائة ناقة لمن يأتي برأسهﷺ أو يدل عليه، ولكن الله تعالى تولى حمايتهﷺ حتى وصل المدينة، حيث بنى هناك الدولة الأولى في الإسلام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

إن سيرة الرسولﷺ في مكة هي عبارة عن دعوة وعمل، ثم ابتلاء وامتحان، ثم فوز ونجاح، ثم جائزة ونتيجة.

أما الدعوة والعمل فهو عرض الإسلام على الناس قولا وعملا، فقد التزم بهﷺ في حياته العملية، كما دعا إليه بلسانه، والمسلم حين يريد نشر دينه لا بد أن يلتزم به أولا، ثم يدعو إليه ثانيا. فالدعوة إلى الإسلام دون الالتزام به نفاق مرفوض، يقول الله تعالى: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعلقون﴾[2].

أما الابتلاء والامتحان فهو ما تعرض له الرسولﷺ في سبيل دعوته؛ من تكذيب وتشويه وتنكيل وتعذيب وحصار، فواجهﷺ كل ذلك بالصبر والتحدي؛ فلم يتوان ولم يتنازل؛ بل واجه عنف المشركين بعنفوان الإسلام، واجه شركهم العنيف بدينه الحنيف، والمسلم اليوم لن ينشر دينه إلا بالصبر على المعاناة، متحديا أعداء دينه بالالتزام الكامل.

أما الفوز والنجاح فهو استمرار الإسلام، وانتشاره في المدينة، ثم اكتساحه الجزيرة العربية، ثم امتداده عبر الزمان والمكان، حتى وصل إلينا، كل هذا عبارة عن نجاح النبي الأميﷺ في دعوته، والمسلم عليه أن يخلص العمل لله تعالى في خطى ثابتة محسوبة، أما الكمال فهو على الله سبحانه، وهو الذي يكتب له الفوز في عمله، والنجاح في كسبه.

أما الجائزة الكبرى فهي الإسراء والمعراج، وهي لقاء رب العزة سبحانه وتعالى، حيث كان فيهﷺ قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبد ما أوحى، والمسلم إذا كان صادقا في عمله لن يضيع الله أجره في الدنيا والآخرة، ولكن لا بد من امتحان وابتلاء وصبر والتزام.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) الصف: 3.

(2) البقرة: 44.

49) الخطبة [3] سيرة النبيﷺ من الهجرة إلى غزوة الأحزاب[1]

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابا كالشمس وضحاها، وأرسل إلينا رسولا كالقمر إذا تلاها، فمن اقتدى بهما عاش في ضوء النهار إذا جلاها، ومن أعرض عنهما تخبط في ظلمة الليل إذا يغشاها، وأشهد أن لا إله إلا الله رفع السماء وبَنَاهَا، وَبسط الأَرْض وطَحَاهَا، وخلق النَفْس وسَوَّاهَا، فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، فأَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وخَابَ مَن دَسَّاهَا، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أخبره ربه أنه أهلك ثمودا بطغواها، وأنه سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه من أمته أولاها وأخراها.

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون، أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قدمنا لكم في الجمعة الماضية سيرة الرسولﷺ من البعثة إلى الهجرة، وقدمنا أنها مرت عبر مرحلتين: الدعوة سرا وبدون قتال، ثم الدعوة جهرا وبدون قتال أيضا، وهي عبارة عن دعوة وعمل، ثم ابتلاء وامتحان، ثم فوز ونجاح، ثم جائزة وتكريم، ومن أعظم مكونات هذه الجائزة إسلام الأنصار في المدينة، وهجرتهﷺ إليها. وفي خطبة اليوم نستكشف أسرار هذه الجائزة ونستطلع أحداثها.

أيها الاخوة المؤمنون؛ بعد أن هاجر الرسولﷺ إلى المدينة كون أول دولة في الإسلام، والأسس الذي بنى عليهاﷺ هذه الدولة هي أربعة:

الأساس الأول: بناء المسجد لتثبيت الدين، فأول شيء فعلهﷺ بعد الهجرة هو بناء المسجد، وفي هذا إشارة إلى أن دين الدولة الرسمي والعملي هو الإسلام، ولكن ليس في ديباجة الدستور فقط كما يحدث اليوم في كثير من دول الإسلام؛ بل في المعاملات بالأساس.

الأساس الثاني: الأخوة بين المسلمين، فقد آخى النبيﷺ بين المهاجرين والأنصار، تلك الأخوة التي تجسد الوحدة بكل عناصرها؛ وحدة المنطلق، ووحدة العمل، ووحدة الهدف؛ فالمسجد بدون الأخوة مجرد حيطان وجدران.

الأساس الثالث: عقد الاتفاقيات مع غير المسلمين في المدينة، فالرسولﷺ عند ما هاجر وجد في المدينة ثلاث مستوطنات يهودية؛ هم بنو قينقاع، وبنو النضير،

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 8 ربيع الأخير 1425 هـ 28 / 5 / 2004م، ثم أعيدت في: 29 ربيع الأول 1427 هـ 30/ 4/ 2006م.

وبنو قريظة، وأقول مستوطنات لأن المدينة ليست وطنهم أصلا؛ بل ولا حتى الجزيرة العربية؛ بل لا وطن لهم أصلا يعيشون دائما في مستوطنات ظالمة، حتى ينتقم الله منهم، فهم نبتة دخيلة في المجتمعات قديما وحديثا، وإنما جاءوا إلى الجزيرة العربية لأنهم قرءوا في التوراة أن آخر الأنبياء سيبعث فيها، وسيهاجر إلى بلدة ذات نخل وماء، ولهذا نجدهم قد استوطنوا بلدتي خيبر والمدينة؛ ولكن لما جاءهم النبيﷺ وعرفوه كفروا به، والاتفاقيات التي وقعه النبيﷺ معهم هو عبارة عن معاهدة الدفاع المشترك بين المسلمين وبين هؤلاء اليهود.

الأساس الرابع: تحرير السوق من سيطرة غير المسلمين؛ فالرسولﷺ عند ما هاجر وجد أهل المدينة لا سوق لهم إلا سوق اليهود، الشيء الذي جعلهم عالة في الاقتصاد على اليهود، يعانون من التبعية المذلة، فجمعهمﷺ في مكان بالمدينة فقال: هذا سوقنا، ومن المعلوم أن أية دوله لا تستقر إلا بتحرير الاقتصاد، ولن يستتب الأمر لأية حكومة تكون عالة في الاقتصاد على غيرها، إذ كيف تستقر أمة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تصنع، وهذه أول نقطة عملية أغاضت اليهود في المدينة، فبدءوا عداوة النبيﷺ سرا وعلانية.

وعلى هذه الأسس الأربعة قاد الرسولﷺ هذه الدولة الفتية على مدى عشر سنوات، فلم يسمح قط لأي أحد مهما كان أن ينال من أي أساس من هذه الأسس الأربعة؛ فالمسجد هو رمز الوحدة، والأخوة هي تطبيق عملي للوحدة، وعقد الاتفاق مع اليهود هو حماية للوحدة، وتحرير السوق هو مقوم الوحدة.

وبعد ذلك أذن الله تعالى له بالجهاد دفاعا عن النفس ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[1]، فمرت دعوتهﷺ في المدينة عبر مرحلتين:

المرحلة الأولى: الدعوة جهرا مع قتال المعتدين والظالمين واستمرت من الهجرة إلى غزوة الأحزاب في السنة الخامسة.

المرحلة الثانية: وهي الدعوة جهرا مع قتال كل من يقف في سبيل الإسلام، بدأت بعد غزوة الأحزاب واستمرت إلى وفاة الرسولﷺ.

والمرحلة الأولى شهدت الأحداث البارزة التالية:

ففي السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة وقعت غزوة بدر، فسجلت للتاريخ أول انتصار للمسلمين في ميدان القتال، تلك الغزوة التي علمتنا

---

(1) الحج: 39.

أن الانتصار في الميدان العسكري لا يتحقق إلا بعد الانتصار في الميدان الاجتماعي. فقد أسس الرسولﷺ عن طريق غزوة بدر المبادئ التالية: مبدأ اتخاذ الحيطة والحذر، ومبدأ الشورى، ومبدأ المساواة، ومبدأ القبول بالمعارضة والرأي الآخر، ومبدأ الإذعان للحق وإن كان مرا، ومبدأ المشاركة الميدانية من طرف القادة.

وبعد غزوة بدر وما حقق الله تعالى فيها للمسلمين من الانتصار الباهر، كشر يهود مستوطنة بني قينقاع عن أنيابهم، وبدت البغضاء من أفواههم، فنقضوا العهد الذي أبرموه مع النبيﷺ، وأعلنوا الحرب ضده، فقالوا: «لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش لا يعرفون القتال»[1]، ولم يكتفوا بذلك؛ بل اعتدوا على شرف امرأة مسلمة فكشفوا عورتها، واعتدوا على مسلم فقتلوه، فتوجه إليهم النبيﷺ بجيش فاستأصلهم وأجلاهم عن المدينة، وبذلك أزالﷺ بؤرة استيطانية كان المسلمون يعانون منها، واليوم يا ما اعتدى الصهاينة على شرف المسلمات، ويا ما قتلوا من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ. ولكن الأمة يراد لها أن تنام في هذا السبات الذليل المذل.

وفي شوال من السنة الثالثة من الهجرة وقعت غزوة أحد تلك الغزوة التي كانت امتحانا شاقا وعسيرا للصحابة، حيث استشهد منهم سبعون، من بينهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وجرح فيها النبيﷺ كل ذلك بسبب مخالفة خمسين من الصحابة أوامر رسول اللهﷺ حين حدد لهم مكانا اسمه جبل الرماة وأمرهم ألا ينزلوا إلا بعد أن يأمرهم بذلك؛ ولكنهم نزلوا قبل ذلك، فكان ذلك سببا في انهزام جيش المسلمين في أحد. هذه الغزوة هي مدرسة تعلمنا أن ما يصيب المسلمين من الحروب الظالمة، إلى الفتن المظلمة، إلى المصائب المجحفة، سببه الأساس هو مخالفة أوامر الرسولﷺ، وتعلمنا أن المسلم عندما يرتكب مخالفة لا يضر بنفسه فقط؛ بل يضر بمجتمعه وبمن حوله، والله عز وجل يقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[2]، وتعلمنا أن المصيبة علامة على محبة الله للعبد، ترفع من درجاته وتمحو خطاياه، يقول الرسولﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم

(1) ضعيف، رواه أبو داود في السنن: 3/ 154، ح: 3001، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود: 2/ 430-431، ح: 524، ردا على تحسين ابن حجر له في فتح الباري: 7/ 332.
(2) الأنفال: 25.

البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط»[1].

وبعد غزوة أحد وما أصاب المسلمين تجرأ يهود مستوطنة بني النضير فواجهوا المسلمين بالخيانة والغدر، وقاموا بمؤامرة حاولوا فيها اغتيال النبيﷺ وهو قائد المسلمين، ولا شك أن ذلك هو أكبر خيانة للعهد الذي بينهم وبين النبيﷺ وأكبر خرق للاتفاق الذي بينهما، فذهب إليهمﷺ بجيش من الصحابة فأجلاهم عن المدينة، وبذلك استأصلﷺ بؤرة استيطانية ثانية. فالصحابة -رضوان الله عليهم- لم يسمحوا لليهود حين حاولوا اغتيال النبيﷺ، ونحن اليوم نرى الصهاينة يغتالون الإسلام كل يوم عسكريا في فلسطين وفي العراق، وإعلاميا عبر محطات الفضاء ومواقع الانترنيت، واقتصاديا عبر استنزاف ثروات الأمة، وكنا نكتفي عادة ببيانات الشجب والإدانة، واليوم فلا شجب ولا إدانة؛ ولا دعم ولا إعانة، لقد رضينا بالذل والإهانة، واستسلمنا للغش والخيانة؟ فيا للعار من هذه المهانة!

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

(1) حسن، رواه الترمذي في السنن: 4/ 601، ح: 2396، وابن ماجه في السنن: 2/ 1338، ح: 4031، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/ 276، ح: 146.

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

ففي شوال من السنة الرابعة من الهجرة على الراجح وقعت غزوة الأحزاب، تلك الغزوة التي تجمع فيها لإبادة المسلمين عشرة آلاف مقاتل، أوباش تشمل اليهود والمشركين، وجيش المسلمين لا يتجاوز آنذاك ألفا وخمسمائة مقاتل، فاقترح سلمان الفارسي على النبيﷺ حفر الخندق فحفر على جناح السرعة، فبقي النبيﷺ وأصحابه شهرا كاملا، يحمون المدينة تحت ضغط هجمات المشركين حتى كانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[1].

وفي هذا الظرف الصعب خانت مستوطنة بني قريظة من اليهود العهد الذي بينهم وبين النبيﷺ فساعدوا الغزاة من المشركين ظنا منهم أن الإسلام قد انتهى، ويمكرون ويمكر الله، فقد أرسل الله تعالى على أحزاب المشركين صواعق من الريح والمطر الشديد فانسحبوا إلى بلدانهم تاركين وراءهم تلك المستوطنة الخائنة، فانتقم الله منهم على يد الرسولﷺ في غزوة بني قريظة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، فقتل فيهم من قتل وأسر من أسر، وبذلك استراحت المدينة من كيد اليهود ومستوطناتهم.

وبانتهاء غزوة الأحزاب انتهت المرحلة الثانية من مراحل الدعوة، فجاءت المرحلة الثالثة وهي الدعوة جهرا وبقتال كل من يقف في سبيل انتشار الإسلام وكل من يعرقل إيصال الإسلام إلى الناس كافة، أو ما يسمى اليوم بـ"الحرب الإستباقية"، وقد أشار النبيﷺ لذلك حين قال بعد انتهاء غزوة الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن الآن نسير إليهم»[2].

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

---

(1) الأحزاب: 10-11.

(2) صحيح البخاري: 4/ 1508، كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

50) الخطبة [4] سيرة النبيﷺ من إلى غزوة الأحزاب إلى وفاتهﷺ(1)

الحمد لله الذي من على هذه الأمة ببعثة خير البرايا، وجعل التمسك بسنته عصمة من الفتن والبلايا، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على النعم والهدايا، وأسأله الثبات على السنة والسلامةَ من المحن والرزايا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والخفايا، والمطلع على مكنون الضمائر والنوايا، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله كريم الخصال وشريف السجايا، والمجبول على الفضائل والمكارم والمعصوم من الرذائل والدنايا، عليه من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وأشرف التحايا، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم تكشف فيه النفوس عما فيها من الأسرار والخبايا...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛ أوصيكم ونفسي أولا بتقوى الله وطاعته.

قدمنا لكم في سلسة خطب السيرة أن دعوة الرسولﷺ مرت عبر أربع مراحل: الدعوة سرا وبدون قتال واستمرت ثلاث سنوات، الدعوة جهرا وبدون قتال واستمرت إلى الهجرة، الدعوة جهرا مع قتال الدفاع واستمرت أربع سنوات، الدعوة جهرا مع قتال الهجوم، أو ما يسمى اليوم بـ"الحرب الإستباقية"؛ إلا أن حرب الإستباقية من الرسولﷺ كلها عدل ورحمة كما سنرى، وحرب الإستباقية اليوم كلها ظلم ونقمة كما رأينا.

وفي خطبة اليوم نتناول المرحلة الرابعة مرحلة الحرب الإستباقية.

ففي شعبان من السنة الخامسة على الراجح جاءت غزوة بني المصطلق حين علم النبيﷺ أن قبيلة بني المصطلق تجمع الجموع لمهاجمة المدينة، فأخذﷺ بالمبادرة فهاجم قبل أن يهاجم، فحقق الله له انتصارا باهرا، والنبيﷺ لم يكن هدفه الاستيلاء على الأرض، أو هتك العرض، كما هو حال حروب الصليبين والصهاينة اليوم، ولم يصادر الأراضي ولم يطوق القبيلة بالاستيطان، ولم يجعل من رؤسائها مجرمي حرب، ولم يهدم المنازل ولم يحرق الأشجار، ولم يخلف وراءه مشردين ولاجئين، كما فعل الصليبيون والصهاينة ولا زالوا في العراق وفلسطين، لأنهﷺ في الحرب رسول السلام، وفي السلم منبع الحب والوئام، وهدفهﷺ هو فتح القلوب للتحلي

(1) ألقيت في مسجد الإمام البخاري بأكادير في: 19 ربيع الأخير 1424 هـ 20 / 6 / 2003م، ثم أعيدت أخيرا في: 07 ربيع الأخير 1427 هـ 05/ 05/ 2006م.

بالإسلام، لا فتح الجيوب لاستيلاب الأموال، ولا يمكن للقلب أن ينفتح قهرا وقسرا.

وأبرز ما تميزت به هذه الغزوة أمران:

الأمر الأول: بعد انتهاء الغزوة تزوج بجويرية بنت قائد القبيلة بعد إسلامها، فأصبحت من أمهات المؤمنين، فتبوأت بذلك منصبا ما من امرأة من المسلمات إلا وكان هذا المنصب أمنيتها. كانت أسيرة فحولها هذا الزواج المبارك إلى أميرة، فكان ذلك فاتحة خير ويمن وبركة لهذه القبيلة تتمثل في مسألتين:

الأولى: حين أطلق الصحابة ما بأيدهم من الأسرى قائلين لأنهم أصهارهﷺ.

الثانية: حين أسلمت القبيلة على بَكرة أبيها؛ لأن الإسلام دين صهرهم، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية»[1]

الأمر الثاني: مشاركة عدد كبير من المنافقين الذين يدعون الإسلام في هذه الغزوة فكان ذلك سبب فتنة كادت أن تنال من الرسولﷺ ومن أصحابه لولا لطف الله تعالى وعنايته! وهذه الفتنة تتمثل في مسألتين:

الأولى: زرع دواعي البلبلة ومحاولة إذكاء النزاع بين المهاجرين والأنصار، حتى تنادوا فيما بينهم بدعوات الجاهلية التي تفرق ولا تجمع، فقال المهاجرون: ياللمهاجرين! وقال الأنصار: ياللنصار! فكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا مبادرة النبيﷺ لإطفاء نار الفتنة، فقال لهم: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة». «ما بال دعوى الجاهلية؟ وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة»[2]

الثانية: اتهام عائشة -رضي الله عنها- بالإفك وهي بريئة، فبرأها الله تعالى في القرآن، فكانت تبرئتها قرآنا يتلى على مر الأزمان والعصور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3] إلى أن قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[4].

وفي شهر ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة رأى النبيﷺ في منامه أنه هو وأصحابه دخلوا المسجد الحرام محرمين، وفيها يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ

---

(1) حسن، رواه أحمد في المسند:6/ 277، وأبو داود في السنن:4/ 22، ح:3931 وابن حبان في الصحيح: 9/ 361،ح: 4054، والحاكم في المستدرك: 4/ 28، ح: 6781، وحسَّنه الألباني في الإرواء: 5/ 37-38.

(2) صحيح مسلم: 4/ 1998، كتاب البر والصلة والآداب/ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما

(3) النور: 11.

(4) النور: 26.

الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾[1]، ورؤيا الأنبياء حق؛ بل نوع من أنواع الوحي، فنادى رسول الله ﷺ بالعمرة، فاستجاب الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ ولكن قريشا منعوهم من الدخول إلى مكة، في مكان اسمه الحديبية، وبعد حوار ومفاوضات توصل النبي ﷺ معهم إلى صلح يسمى في السيرة بصلح الحديبية، فوضعت الحرب أوزارها، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة، وبهذا الصلح أصبحت الطرق في الجزيرة العربية سالكة أمام دعوة النبي ﷺ فأرسل ﷺ الرسائل إلى ملوك العرب والعجم آنذاك، ودخل عدد كبير من قبائل العرب إلى الإسلام.

ولنا في هذا الصلح النبوي وقفة نتعلم منها أن الإسلام ميال إلى السلم؛ بل هو يدعو إلى الصلح والسلام بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض، لكن السلام العزيز لا السلام الذليل، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]. أما السلام مع عدو احتل أرضنا وهتك عرضنا، ودنس مقدساتنا في فلسطين والعراق إنما هو استسلام، والصلح مع إسرائيل الكبرى التي احتلت العراق، وإسرائيل الصغرى التي احتلت فلسطين إنما هو صلح إذلال.

وفي محرم من السنة السابعة من الهجرة فتح ﷺ خيبر وأزال ما بها من مستوطنات اليهود، تلك المستوطنات المدنسة، التي تدنس بكيدها ومكرها أرض الجزيرة المقدسة.

وفي رمضان من السنة الثامنة من الهجرة نقضت قريش الاتفاق المبرم بينهم وبين النبي ﷺ فاستحقوا من أجل ذلك التأديب، فتوجه إليهم النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل. انظروا رعاكم الله إلى هذا النبي ﷺ الذي هاجر من مكة وحيدا، ليس معه إلا أبو بكر الصديق، يعود إليها بعد ثماني سنوات، بعشرة آلاف من أتباعه. وهكذا فتح ﷺ مكة المكرمة ودخل أهلها الإسلام بعد أن أصدر عليهم النبي ﷺ العفو الجماعي العام إذ قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[3].

هل سجل تاريخ القرن العشرين اليوم قرن التشدق بالديمقراطية وحقوق الإنسان، عفوا جماعيا عاما كهذا العفو النبوي؟ فاسألوا الحروب التي أدرها اليوم الإنسان في جميع أنحاء الأرض، هل قال قائد يوما لأعدائه: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فإذا كان الرسول ﷺ قد سجل للتاريخ العفو الجماعي العام فدعاة حقوق الإنسان

---

(1) الفتح: 27.

(2) الأنفال: 61.

(3) السيرة النبوية لابن هشام: 5/ 74.

اليوم سجلوا للتاريخ الإبادة الجماعية العامة، التي لا حدود لإبادتها، تبيد الإنسان والحيوان والأجنة والمنازل والثروات.

وبين عشية وضحاها ارتفع عدد المسلمين من عشرة آلاف جندي إلى اثني عشر ألف جندي، وبهم انتصر النبيﷺ في غزوة حنين ففتح الطائف تلك المدينة التي كان النبيﷺ قد هاجر إليها قبل المدينة فطرده أهلها، وبعد عشر سنوات عاد إليها قائدا فاتحا فأذعن إليه أهلها.

وفي صفر من السنة التاسعة من الهجرة توجه النبيﷺ لغزوة تبوك حينما علم بأن الروم تجمعوا لغزو المدينة، هذه الغزوة التي سماها القرآن الكريم ساعة العسرة؛ لأنها جاءت في سنة الجفاف، وفي فصل الصيف، مع بعد المسافة بين المدينة وتبوك، وعلاوة على ذلك فهي أول مواجهة بين الصليبين والإسلام؛ بل هي مواجهة أكبر قوة في العالم قوة الروم التي هزمت يومئذ الفرس وسيطرت على الشام ومصر وتركيا، وكانت عاصمتها قسطنطينية التي تسمى الآن باستنبول. ورغم ذلك لم يتردد النبيﷺ في هذه المواجهة فقاد إليها ثلاثين ألف مقاتل من الصحابة، ولم يلقﷺ فيها حربا لأن الروم انسحبوا من الموقع قبل وصولهﷺ.

وفي السنة العاشرة وهي السنة الأخيرة من حياة النبيﷺ حجﷺ حجة الوداع، فحج معه مائة ألف من المسلمين! وخطبهم في عرفات تلك الخطبة التي تشمل أعلى سمة من سمات حقوق الإنسان حيث حرمﷺ الظلم والاعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، وحرم الربا، ودافع عن حقوق المرأة.

فعاشﷺ بعد حجة الوداع ثمانين يوما، ثم ماتﷺ والتحق بالرفيق الأعلى، وذلك في شهر ربيع الأول يوم الاثنين، في منتصف النهار.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين...

الحمد لله رب العالمين...

أما بعد فيا أيها الاخوة المؤمنون؛

ذلكم هو ملخص من سيرة النبيﷺ فتأملوا -رعاكم الله- نجاح هذه الدعوة النبوية الشريفة في عشر سنوات، فماذا فعلنا نحن في عشرات السنين؟ لقد واجه النبيﷺ ثلاث قوى شريرة: المشركون واليهود والمنافقون فانتصر على الجميع، مع ما تتطلبه تنشئة الدولة من العزم والحزم والعمل المتواصل.

ومن هذا الملخص نتعلم أن الحرب في الإسلام ليست للتدمير وقتل البشر؛ بل إنها تنساب عطفا ورحمة، إنها تتألق في سماء الإنسانية، وترتفع عن حضيض الغرور والأنانية، إنها لمواجهة من يحمل السلاح ضد الأمة، لقد حرم الإسلام قتل من لا يحمل السلاح من الرجال والنساء، روى أبو دود أن النبيﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»[1]، وفي رواية: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا»[2].

انظروا -رعاكم الله- كيف كان الإسلام رحمة حتى في حربه، وقارنوا بين الحرب في الإسلام، والحروب التي أدارها اليوم دعاة الحضارة وحقوق الإنسان، الذين ينعتون اليوم المسلمين بالإرهاب، إنهم لم يحسبوا في حروبهم أي حساب للأطفال ولا للنساء ولا للشيوخ ولا لرجال الدين عندهم، إنهم هدموا المستشفيات على مرضاها، وأحرقوا المحاصل الفلاحية وحيواناتها.

فاسألوا القدس وفلسطين، واسألوا البلقان والشيشان، واسألوا قبل ذلك هروشما ونكزكي، واسألوا بيروت وبرلين، واسألوا العراق وفلسطين لتتراء لكم عظمة الإسلام في أفق الإنسانية، وانتكاس الكفر في حضيض الغرور والأنانية؛ لقد أسفرت الحرب العالمية الأولى عن ضحايا تقدر بتسعة عشر مليون قتيلا أكثر من نصفهم مدنيون. وأسفرت الحرب العالمية الثانية عن ضحايا تقدر بخمسة وستين مليون قتيل، وأسفرت محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة في العصور الوسطى في أوربا عن اثني عشر مليون قتيلا، وأسفرت الشيوعية في العالم عن ضحايا تقدر بثلاثين مليون قتيلا.

---

(1) سبق تخريجه في غزوة الأبواء رقم 16.

(2) سبق تخريجه في غزوة الأبواء رقم 16.

بينما تتبع العلماء غزوات الرسولﷺ كلَّها على مدى عشر سنوات، فوجدوا أنها لم تسفر إلا عن 1018 قتيلا من كلا الفريقين، من الكفار والمسلمين معا، كلهم عسكريون ليس فيهم مدنيون ولا نساء ولا أطفال، ورغم ذلك أقامﷺ دولة، وأحيا أمة، وأثبت العقيدة، وأصلح المجتمع.

قارنوا يا عباد الله بين هذا وذاك؛ لتدركوا كيف كان النبيﷺ رحمة مهداة في حربه وسلمه، ولتدركوا معنى قول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1].

واسألوا في هذه الأيام العراق وبيت المقدس وأكناف بيت المقدس، حيث قوافل الشهداء إلى الله تترى، وفي مقدمتها الأطفال الرضع، والشيوخ الركع، والبهائم الرتع؟.

ألا فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من الصلاة والسلام على رسول اللهﷺ...

(1) الأنبياء: 107.

الخاتمة إطلالة على فصول الكتاب

إن خاتمة أي كتاب هي بمثابة شرفة مطلة على مباحثه، وعلى مختلف معارفه، وهي مسح علمي لأهم ما اشتمل عليه الكتاب. ففيها تتضح ثمرة أفكاره في مادته، وأهميتها في محتواه العام. وفيها تتجلى النتائج التي أسفرت عنها الرحلة العلمية عبر محطات الموضوع التي هي مواده ومباحثه. وفيها أيضا يتجلى الجديد الذي أفرزه البحث من خلال نسج مادته، وهذا الجديد هو الذي يعطي الكتاب قيمته العلمية، لا سيما إذا كان موضوعه بكرا لم يشبعه العلماء بعدُ بحثا. ومن خلال الإطلالة من شرفة هذه الخاتمة على مواد هذا الكتاب ومسائله يتبين لنا أنه يتميز بأمور منها:

1) محاولة تقديم السيرة من خلال منبر الجمعة، وبذلك نحارب هذا الجهل المتجذر في المجتمع بهذه السيرة العطرة، وكلنا يدعي محبة النبيﷺ ولكن حينما تسأل من هم أولاد النبيﷺ؟ ومتى هاجرﷺ؟ ومتى وقعت غزوة كذا وكذا؟ لن تجد الجواب إلا عند القليل، وغير سليم أن يدعي الإنسان حب شخص لا يعرف عنه إلا اسمه، ولا يعرف من سيرته رسمها ولا اسمها.

2) محاولة استخراج ما في مضامن أحداث السيرة من أحكام فقهية، وهي –على أهميتها– قد نالت أيضا حظا أوفى وأوفر من الجهل الذي أطبق على تلك الأحداث.

3) محاولة المعالجة بفقه السيرة ما انتشر واستعصى في المجتمع من المشكلات، التي سادت في شتى المجالات، وضربت في جميع الاتجهات، والتي تجذرت وأثمرت بخرافاتها في عقائدنا، وببدعها في عباداتنا، وبفسقها في معاملاتنا.

4) محاولة ربط أحداث السيرة بالشهور التي وقعت فيها؛ حتى يرتبط الناس بالشهور الهجرية الإسلامية التي جهلها الكثير منا، وقد ربط الله تعالى بها عباداتنا من حج، وزكاة، وعدة، وصيام؛ ونهيب بالخطباء أن لا يخلو شهر من هذه الشهور من خطبة تعالج مواضيع السيرة النبوية.

والله نسأل أن يرفع عنا في أمورنا كل حرج، وأن يجعل لنا في همومنا كل مخرج، وأن ييسر لنا في كروبنا كل فرج، وأن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه النفع العميم، وأن يختم لي ولوالدي وأشياخي بحسن الختام، ولسائر أحبابي الكرام، وسائر المسلمين بين الأنام، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين...

بحمد الله تعالى

يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة

25 ربيع الأول 1431 هـ 13 / 2 / 2010 م

مسجد الإمام البخاري

أكادير - المغرب


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

باقة من الخطب منتقاة ومختارة من حوالي ألف خطبة ألقيتها في مسجد الإمام البخاري على مدى عشرين سنة، تحمل في طياتها شيئا من الإبداع، كما تحارب الكثير من البدع، فبالإبداع ومحاربة البدع تحيى هذه الأمة وتنتعش.

أما الإبداع فيكمن في كونها - أول كتاب حسب علمي- يعالج فقه السيرة النبوية من خلال المنبر، فمؤلفات الخطب المنبرية كثيرة، وموسوعاتها وفيرة، ولكن الإبداع فيها قليل، والاجترار فيها كثير، والتأليف الخالي من الإبداع هو ابتداع، والخالي من الابتكار هو منكر، فالابتكار والإبداع هو روح البقاء، فما مات من أبدع، ولا انتهى من ابتكر.

أما محاربة البدع فتتجلى في جعل السيرة النبوية أداة إصلاح لما في المجتمع من بدع الغواية والضلالة، سواء التي تتعلق منها بالعقيدة، والتي تتعلق بالسلوك، وسواء تلك البدع التي غُلِّفت بها عن جهل- عباداتنا، أو التي أغرقت فيها عن قصد- معاملاتنا.

من منشورات مدرسة الإمام البخاري
للتعليم العتيق أكادير المغرب